تفسير سورة البقرة

بحول الله وكرمه، لا رَبّ سواه

وأوّلُ مبدوءٍ به الكلامُ في نزولها وفضلِها، وما جاء فيها، وهكذا كلُّ سورةٍ إنْ وجدنا لها ذلك، فنقولُ:

سورةُ البقرة مَدَنِيَّةٌ، نزلَتْ في مُدَدٍ شَتَّى. وقيل: هي أوَّلُ سورةٍ نَزَلَتْ بالمدينة، إلا قولَهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [٢٨١]، فإنَّهُ[١] آخِرُ آيةٍ نزلَتْ من السماء، ونزلَتْ يومَ النَّحْرِ في حِجَّةِ الوَداع بِمِنًى؛ وآياتُ الرِّبا أيضاً من أواخِرِ ما نزَلَ من القرآنِ[٢].

وهذه السورةُ فضلُها عظيم وثوابُها جَسِيم. ويقال لها: فُسْطاط القرآن، قاله خالد بن مَعْدَان[٣]. وذلك لِعِظَمِها وبَهائها، وكثرةِ أحكامِها ومواعِظها. وتعلَّمها عمرُ رضي الله عنه بفقهها وما تحتوي عليه في اثنتي عَشْرَةَ سَنَةً، وابنُه عبدُ الله في ثماني سنين كما تقدَّم[٤].

قال ابنُ العربيّ: سمعتُ بعضَ أشياخي يقولُ: فيها ألفُ أمْرٍ، وألْفُ نَهْيٍ، وألفُ حُكْم، وألفُ خَبَرٍ[٥].

وبَعَثَ رسولُ الله ﷺ بَعْثاً وهم ذَوُو عَدَد، وقدَّم عليهم أحْدَثَهم سِنًّا، لِحِفْظِهِ سورةَ البقرة، وقال له: «اذْهَبْ، فأنتَ أميرُهم». أخرجه الترمذيُّ عن أبي هُريرة، وصحَّحَه[٦].

ورَوَى مسلمٌ عَنْ أبي أُمامةَ الباهليّ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «اقرؤوا

---

(١) في (د) و(ظ): فإنها.

(٢) أخرج البخاري (٤٥٤٤) عن ابن عباس قال: آخر آية نزلت على النبي ﷺ آيةُ الربا، وانظر ما سلف ص ٩٨.

(٣) أخرجه عنه الدارمي (٣٣٧٦). وخالد بن معدان: هو أبو عبد الله الكلاعي، الحمصي، من أئمة الفقه، توفي سنة (١٠٣هـ). السير ٤/ ٥٣٦.

(٤) في باب كيفية التعلم والفقه بكتاب الله تعالى ص ٦٨.

(٥) أحكام القرآن ١/ ٨.

(٦) سنن الترمذي (٢٨٧٦) وفي المطبوع منه قوله: هذا حديث حسن.

سورةَ البقرة، فإنَّ أخْذَها بَرَكَةٌ، وتَرْكَها حَسْرَةٌ، ولا يَسْتَطِيعُها البَطَلَة». قال معاوية: بلغني أنَّ البَطَلَةَ: السَّحَرَةُ[١].

ورَوَى أيضاً عن أبي هُريرة أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُم مَقَابِرَ، إنَّ الشَّيْطانَ يَنْفِرُ[٢] مِنَ البَيْتِ الذي تُقْرَأُ فيه سورةُ البَقَرَة»[٣].

ورَوَى الدارميُّ عن عبد الله[٤] قال: ما مِنْ بَيْتٍ يُقْرَأُ فيه سورةُ البقرة إلا خَرَجَ منه الشيطانُ وله ضُراط. وقال: إنَّ لكلِّ شيءٍ سَناماً، وإنَّ سَنامَ القُرْآنِ سُورةُ البقرة، وإنَّ لكلِّ شيء لُباباً، وإن لُبابَ القُرآنِ المُفَصَّلُ. قال أبو محمد الدارميّ: اللُّباب: الخالِصُ[٥].

وفي «صحيح» البُسْتِيّ: عن سهلِ بنِ سَعْدٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ لكلِّ شَيْءٍ سَناماً، وإنَّ سَنامَ القرآنِ سورةُ البقرةِ، ومَنْ قَرَأها في بيتِهِ ليلاً، لم يَدْخُلِ الشيطانُ بيتَهُ ثلاثَ ليالٍ، ومَنْ قَرَأها نهاراً، لم يَدْخُلِ الشيطانُ بيتَه ثلاثةَ أيَّامٍ». قال أبو حاتم البُسْتيّ: قوله ﷺ: «لم يدخلِ الشيطانُ بيتَه ثلاثةَ أيام» أراد: مَرَدَةَ الشياطينِ[٦].

وروى الدّارميُّ في «مسنده» عن الشَّعْبيِّ قال: قال عبد الله: مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آياتٍ من سورةِ البقرةِ في ليلةٍ، لم يَدْخُلْ ذلك البيتَ شيطانٌ تلك الليلةَ، حتَّى يُصْبِحَ: أرْبَعاً من أوَّلها، وآيةَ الكرسيِّ، وآيَتَيْن بعدَها، وثلاثاً خواتيمَها، أوّلُها: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الآية ٢٨٤]. وعن الشعبي عنه: لم يَقْرَبْه ولا أهلَه[٧] يومئذٍ شيطانٌ، ولا شيءٌ يكرهُهُ، ولا يُقْرَأنَ على مجنونٍ إلا أفاقَ[٨]. وقال المغيرة بنُ سُبَيْع ـ وكان من أصحاب

---

(١) صحيح مسلم (٨٠٤)، وهو في مسند أحمد (٢٢١٤٦)، معاوية: هو ابن سلَّام، أحد رواة الحديث عند مسلم.

(٢) في (د) و(ز) وهامش (ظ): يفرُّ.

(٣) صحيح مسلم (٧٨٠)، وهو في مسند أحمد (٧٨٢١).

(٤) هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٥) سنن الدارمي (٣٣٧٥) و(٣٣٧٧).

(٦) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان (٧٨٠)، وفي إسناده خالد بن سعيد المدني، ذكره العقيلي في الضعفاء الكبير ٢/ ٦، وقال: لا يتابع على حديثه، وأورد له هذا الحديث، ثم قال: وفي فضل سورة البقرة رواية أحسن من هذا الإسناد وأصلح، بخلاف هذا اللفظ. وأما في تمثيل القرآن، فليس فيه شيء يثبت.

(٧) في (ظ): وأهله.

(٨) سنن الدارمي (٣٣٨٢) و(٣٣٨٣). وإسناده منقطع، الشعبي ـ وهو عامر بن شَراحيل ـ لم يسمع من=

عبد الله ـ: لم يَنْسَ القرآن. وقال إسحاق بنُ عيسى: لم ينسَ ما قد حَفِظ. قال أبو محمد الدارميُّ: منهم مَنْ يقول: المغيرة بنُ سُمَيْع[١].

وفي كتاب «الاستيعاب» لابن عبدِ البر[٢]: وكان لَبِيدُ بنُ ربيعةَ بنِ مالك[٣] بنِ جعفرِ بنِ كلابِ بنِ ربيعةَ بنِ عامرِ بنِ صَعْصَعَةَ، من شعراءِ الجاهليةِ، أدركَ الإسلامَ، فحَسُنَ إسلامُه، وتركَ قولَ الشِّعر في الإسلام، وسألَه عمرُ في خلافتِهِ عن شِعرِهِ، واستنشدَه، فقرأ سورةَ البقرة، فقال: إنما سألتُك عن شِعرِك، فقال: ما كنتُ لأقولَ بيتاً من الشِّعر بعد إذْ علَّمني الله البقرةَ[٤] وآلَ عمرانَ، فأعجبَ عمرَ قولُه، وكان عطاؤُه ألفَيْنِ، فزادَهُ خمسَ مئة. وقد قالَ كثيرٌ من أهلِ الأخبارِ: إن لبيداً لم يَقُلْ شِعْراً منذُ أسْلَمَ. وقال بعضُهم: لم يقلْ في الإسلامِ إلَّا قولَه[٥].

الحمدُ لله إذْ لَمْ يَأْتِني أَجَلي ... حتَّى اكْتَسَيْتُ من الإسلامِ سِرْبالا

قال ابنُ عبدِ البَرّ: وقد قيل: إنَّ هذا البيتَ لقَرَدَة بنِ نُفاثَةَ السَّلُوليّ[٦]، وهو أصحُّ عندي. وقال غيرُه: بل البيتُ الذي قاله في الإسلام:

ما عاتبَ المرءَ الكريمَ كَنَفْسِه ... والمرءُ يُصْلِحُهُ القَرِينُ الصالح[٧]

وسيأتي ما ورد في آية الكرسيّ وخواتيم البقرة، ويأتي في أوّل سورة آل عمران زيادةُ بيانٍ لفضل هذه السورة، إن شاء الله تعالى.

= عبد الله بن مسعود، كما في المراسيل لابن أبي حاتم ص ١٣٢.

(١) سنن الدارمي (٣٣٨٥). إسحاق بن عيسى: هو شيخ الدارمي الذي روى عنه هذا الأثر.

(٢) ٩/ ٢٧٥ بهامش الإصابة.

(٣) زاد محققو (م): «بن عامر» قبل: «بن مالك» استناداً إلى ما وقع في الاستيعاب وأسد الغابة والإصابة، وهذه الزيادة في النسب في هذه المصادر خطأ؛ نبَّه عليه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في الشعر والشعراء ١/ ٢٧٤.

(٤) في (ظ): بعد أن علمني الله سورة البقرة.

(٥) قال ذلك أبو اليقظان فيما نقله عنه ابن قتيبة في الشعر والشعراء ١/ ٢٧٥.

(٦) ذكره المرزباني في معجم الشعراء ص ٢٢٣، وابن عبد البر في الاستيعاب ٩/ ٢٠٦ (بهامش الإصابة) وذكر أنه وفد على النبي ﷺ في جماعة من بني سلول، فأسلموا، وأمَّره عليهم، وأورد له هذا البيت مع بيتين آخرين.

(٧) ديوان لبيد ص ٣٤٩، وفيه: الجليس بدل: القرين. والقصة بتمامها في الشعر والشعراء ١/ ٢٧٥ في ترجمة لبيد.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ربِّ يسِّر وأعِنْ

قوله تعالى: الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾

اختلفَ أهلُ التأويلِ في الحروفِ التي في أوائلِ السُّورِ، فقال عامر الشَّعْبيُّ، وسفيانُ الثَّوْرِيُّ، وجماعةٌ من المحدِّثين: هي سِرُّ الله في القرآنِ، ولله في كلِّ كتابٍ من كُتُبِهِ سِرٌّ، فهي من المتشابهِ الذي انْفَرَدَ الله تعالى بعلمه، ولا يجبُ أنْ يُتَكَلَّمَ فيها، ولكنْ يُؤمَنُ بها، وتُمَرُّ[1] كما جاءت[2]. ورُوِيَ هذا القولُ عن أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ، وعليٍّ[3] بن أبي طالب، رضي الله عنهما[4].

وذكر أبو الليث السَّمَرْقَنْدِيُّ[5] عن عمرَ، وعثمانَ، وابنِ مسعود، أنهم قالوا: الحروفُ المقطَّعةُ من المكتومِ الذي لا يُفَسَّر.

وقالَ أبو حاتم: لم نجدِ الحروفَ المقطَّعةَ في القرآنِ إلا في أوائلِ السُّوَرِ، ولا ندري ما أرادَ الله جلَّ وعزَّ بها[6].

قلت: ومن هذا المعنى ما ذكره أبو بكر الأنباريُّ: حدثنا الحسن بنُ الحُباب، حدّثنا أبو بكر بنُ أبي طالب، حدّثنا أبو المنذر الواسطي، عن مالك بن مِغْوَل، عن سعيد بن مسروق، عن الرَّبيع بنِ خُثَيْم قال: إن الله تعالى أنزلَ هذا القرآنَ، فاستأثرَ منه بعلم ما شاء، وأطْلَعَكُم على ما شاء، فأمّا ما استأثرَ به لنفسه، فلستُم بنائليه، فلا

---

(١) في (د) و(م): وتقرأ.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٨١ـ ٨٢، دون قوله: ولله في كل كتاب من كتبه سرّ. ولم يرد في تأويل هذه الحروف نصٌّ صحيح، لذا قال كثير من المفسرين فيها: الله أعلم بمراده.

(٣) في (م): وعن علي.

(٤) ذكره البغوي في التفسير ١/ ٢٦.

(٥) في تفسيره ١/ لوحه ٦.

(٦) أورده النحاس في معاني القرآن ١/ ٧٨.

تسألُوا عنه، وأمَّا الذي أطْلَعَكُم عليه، فهو الذي تُسألُون عنه وتُخْبَرون به، وما بكلٍّ[١] القرآنِ تعلمون، ولا بكلٍّ ماتعلمون تعملون.

قال أبو بكر: فهذا يُوَضِّحُ أن حروفاً من القرآنِ سُتِرَتْ معانيها عن جميع العالَم، اختباراً من الله عزَّ وجلَّ وامْتِحاناً، فَمَنْ آمنَ بها، أُثيبَ وسَعِدَ، ومن كَفَرَ وشَكَّ، أثِمَ وبَعِدَ.

حدّثنا يوسف[٢] بنُ يعقوب القاضي، حدّثنا محمد بنُ أبي بكر، حدّثنا عبد الرحمن بنُ مَهْدي، عن سفيان، عن الأعمش، عن عُمارة، عن حُرَيْث بن ظُهَيْر[٣]، عن عبد الله قال: ما آمَنَ مؤمنٌ أفضلَ من إيمانٍ بِغَيْبٍ، ثم قرأ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣].

قلتُ: هذا القولُ في المتشابه وحُكمه، وهو الصحيحُ على ما يأتي بيانُهُ في «آل عمران» إن شاء الله تعالى[٤]. وقال جمعٌ من العلماء كبير: بل يجبُ أن يُتَكَلَّمَ فيها، وتُلْتَمَسَ الفوائدُ التي تحتَها، والمعاني التي تتخرَّجُ عليها، واختلفوا في ذلك على أقوال عديدة، فرُويَ عن ابنِ عباس وعلي أيضاً، أن الحروفَ المقطعة في القرآنِ اسمُ الله الأعظَمُ، إلا أنَّا لا نعرفُ تأليفَه منها[٥]. وقال قُطْرُب والفرّاء وغيرهما: هي إشارةٌ إلى حروف الهِجاء، أعلمَ الله بها العربَ حين تحدَّاهم بالقرآنِ أنهُ مُؤتلَفٌ من حروف هي التي منها بناءُ كلامِهم؛ ليكونَ عجزُهم عنه أبلغَ في الحجة عليهم، إذْ لم يخرجْ عن كلامهم. قال قُطْرُب: كانوا يَنْفِرون عند استماعِ القرآن، فلما سمعوا[٦]: «الم»

---

(١) في (ز) و(ظ) في الموضعين: كل.

(٢) في (د) و(ز) و(م): أبو يوسف، وهو خطأ. وهو يوسف بن يعقوب بن إسماعيل، أبو محمد القاضي، توفي سنة (٢٩٧هـ). السير ١٤/ ٨٥.

(٣) في (ظ): الحارث بن ظهير، ووقع عند السيوطي في الدر المنثور ١/ ٢٦ وقد نسبه لابن الأنباري في المصاحف: الحارث بن قيس، ووقع عند سعيد بن منصور (١٨٠) (التفسير)، والحاكم ٢/ ٢٦٠ (وقد أخرجاه من طريق أبي معاوية عن الأعمش): عبد الرحمن بن يزيد. والله أعلم.

(٤) عند قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ الآية (٧).

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٨٢، وأخرج قول ابن عباس الطبري في تفسيره ١/ ٢٠٦.

(٦) في (د): أنزلت، وفي (ز): أنزل.

و«المص»، استنكروا هذا اللفظَ، فلما أَنْصَتوا له ﷺ، أقبلَ عليهم بالقرآن المؤتَلَفِ لِيُثبتَه في أسماعهم وآذانِهِمْ، ويقيمَ الحجَّةَ عليهم.

وقال قوم: رُوِيَ أنَّ المشركينَ لمَّا أعْرَضُوا عن سماع القرآنِ بمكة وقالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ [فصلت: ٢٦]، نزلَتْ ليستغربوها، فيفتحون[١] لها أسماعهم، فيسمعون[٢] القرآنَ بعدها، فتجب عليهم الحُجَّة[٣]. وقال جماعة: هي حروفٌ دالَّةٌ على أسماءٍ أُخِذَتْ منها، وحُذِفَتْ بقيَّتُها، كقول ابن عباس وغيره: الألفُ من الله، واللامُ من جبريل، والميم من محمدٍ ﷺ. وقيل: الألفُ مفتاحُ اسمه الله، واللامُ مفتاح اسمه لطيف، والميم مفتاحُ اسمه مجيد.

ورَوَى أبو الضُّحَى[٤] عن ابن عباس في قوله: «الم» قال: أنا الله أعلمُ، «الر»: أنا الله أرى، «المص»: أنا الله أَفْصِلُ. فالألف تؤدّي عن معنى أنا، واللام تؤدِّي عن اسم الله، والميم تؤدّي عن معنى أعلم[٥]. واختار هذا القولَ الزَّجاجُ[٦]، وقال: أذهبُ إلى أنَّ كلَّ حرفٍ منها يؤدِّي عن معنًى؛ وقد تكلَّمتِ العربُ بالحروف المقطَّعة، نَظْماً لها ووَضْعاً، بدلَ الكلمات التي الحروف منها، كقوله[٧]:

فقلتُ لها قِفِي فقالت قاف[٨]

---

(١) في (ظ): ليفتحوا.

(٢) في (ز) و(ظ): فيسمعوا.

(٣) معاني القرآن للزجاج ١/ ٥٥-٥٦، ومعاني القرآن للنحاس ١/ ٧٦، والمحرر الوجيز ١/ ٨٢، والنكت والعيون ١/ ٦٥.

(٤) مسلم بن صبيح القرشي، الكوفي، مولى آل سعيد بن العاص، كان من أئمة الفقه والتفسير، مات سنة (١٠٠هـ). السير ٥/ ٧١.

(٥) تفسير أبي الليث السمرقندي ١/ ٨٥-٨٦، وتفسير الماوردي ١/ ٦٤. وهذه الروايات وأمثالها ضعيفة. قال العلامة ابن عاشور في التحرير والتنوير ١/ ٢٠٧: يحتاج في بيانها إلى توقيف، وأنَّى لهم به؟!

(٦) معاني القرآن ١/ ٥٦-٥٧.

(٧) قائله الوليد بنُ عقبة بن أبي مُعيط، له صحبة قليلة، وهو أخو أمير المؤمنين عثمانَ لأمه. قال الذهبي: في «السير» ٣/ ٤١٢: له أخبار طويلة في تاريخ دمشق.

(٨) معاني القرآن للزجاج ١/ ٦٢، والمحتسب ٢/ ٢٠٤، والخصائص ١/ ٣٠ و٨٠ و٢٤٦ و٢/ ٣٦١، وشرح شواهد الشافية ص ٢٦٤، ببعض اختلاف. وانظر تفسير الطبري ١/ ٢١٦، والمحرر الوجيز ١/ ٨٢.

أراد: قالت: وقفتُ. وقال زهيرٌ:

بالخير خيراتٍ وإن شرًّا فَا ولا أريد الشرَّ إلا أنْ تَا[١]

أرادَ: وإنْ شرًّا فَشَرٌّ. وأرادَ: إلا أنْ تشاء.

وقال آخر:

نادَوْهُمُ أَلَا الجِمُوا أَلَا تَا قالُوا جميعاً كلُّهم أَلَا فَا[٢]

أراد: ألا تركبون، ألا فارْكَبُوا[٣]. وفي الحديث: «مَنْ أعانَ على قتْلِ مسلمٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ[٤]» قال سفيان[٥]: هو أن يقولَ في «اقتُل»: اقْ، كما قال عليه الصلاة والسلامُ: «كَفَى بالسيف شا». معناه: شافياً[٦].

---

(١) البيت في الكتاب ٣/ ٣٢١، والكامل ٢/ ٥٣١، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٦٣، ونسبه لِلُقَيْم بن سعد بن مالك، وشرح شواهد الشافية ص ٢٦٢-٢٧٠، ونسبه لِلُقَيْم بن أوس، وانظر اللسان (معى) ولم نجد من نسبه لزهير، وليس هو في ديوانه. وانظر تفسير الطبري ١/ ٢١٧، وتفسير ابن عطية ١/ ٨٣. قال ابن عاشور في التحرير والتنوير ١/ ٢١١ في هذا التأويل: هو من نوادر كلام العرب، ومما أخرج مخرجَ الألغاز والتلميح، وذلك لا يناسب مقام الكتاب المجيد.

(٢) البيت في معاني القرآن للزجاج ١/ ٦٢، وضرائر الشعر لابن عصفور ص ١٨٥، وشرح شواهد الشافية ص ٢٦٤ و٢٦٦.

(٣) في (م): قالوا: ألا فاركبوا.

(٤) وتتمته: «لقي الله عز وجل مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله». أخرجه ابن ماجه (٢٦٢٠)، والبيهقي في السنن الكبرى ٨/ ٢٢ من حديث أبي هريرة. وفي إسناده يزيد بن أبي زياد (أو ابن زياد) الشامي، وهو متروك. قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في التلخيص الحبير ٤/ ١٤: بالغ ابن الجوزي فذكره في الموضوعات، لكنه تبع في ذلك أبا حاتم، فإنه قال في العلل: إنه باطل موضوع.

(٥) في النسخ الخطية و(م): شقيق، وهو خطأ، وهو ابنُ عيينة، ونقل قوله المذكور الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٤/ ١٥ عن الخطابي، والبوصيريُّ في مصباح الزجاجة ٢/ ٨٤ عن الأصبهاني.

(٦) كذا قال: شافياً، وفي المصنف والتمهيد: شاهداً، كما سنذكر. والحديث أخرجه عبد الرزاق (١٧٩١٨) ـ ونقله عنه ابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ٢٥٧ ـ عن الحسن في الرجل يجد مع امرأته رجلاً، قال: قال رسول الله ﷺ: «كفى بالسيف شا» يريد أن يقول: شاهداً، فلم يتم الكلام حتى قال: «إذاً تتابعَ فيه السكران والغَيْران». وهو مرسل. قال ابن عبد البر: فسّر أبو عبيد التتابع قال: التهافت، فعلُ الشيء بغير تثبّت. وقال الحافظ في التلخيص الحبير ٤/ ٨٥: لم أر قوله: «كفى بالسيف شا»، على الاكتفاء، إلا في مرسل الحسن.

وقال زيد بنُ أسلم: هي أسماءٌ للسُّوَر[١]. وقال الكلبي: هي أقسامٌ أقسمَ الله تعالى بها لِشَرَفِها وفَضْلِها، وهي من أسمائه، عن ابن عباس أيضاً[٢].

ورَدَّ بعضُ العلماء هذا القولَ، فقال: لا يصحُّ أن يكونَ قَسَماً؛ لأنَّ القَسَمَ معقودٌ على حروف، مثل: إنَّ، وقد، ولقد، وما، ولم يوجد هاهنا حرفٌ من هذه الحروف، فلا يجوزُ أن يكون يميناً[٣]. والجوابُ: أن يقال: موضعُ القَسَم قولُه تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. فلو أنَّ إنساناً حلفَ، فقال: والله، هذا الكتابُ لا رَيْبَ فيه، لَكانَ الكلامُ سَديداً، وتكون «لا» جوابَ القَسَم. فثَبتَ أنَّ قولَ الكلبيِّ، وما رُوِيَ عن ابنِ عباس، سديدٌ صحيح.

فإن قيل: ما الحكمةُ في القَسَم من الله تعالى، وكان القومُ في ذلك الزمان على صنفين: مصدِّق، ومكذِّب، فالمصدِّقُ يُصدِّقُ بغير قَسَمَ، والمكذِّبُ لا يصدِّقُ مع القَسَم[٤]؟ قيل[٥] له: القرآنُ نزلَ بلغةِ العرب، والعربُ إذا أرادَ بعضُهم أنْ يُؤكِّدَ كلامَه، أقْسَمَ على كلامه، والله تعالى أراد أن يُؤكِّدَ عليهم الحُجَّةَ، فأقْسَمَ أنَّ القرآنَ مِنْ عندِهِ.

وقال بعضهم: «الم» أي: أنزلتُ عليك هذا الكتابَ من اللوح المحفوظ، وقال قتادة في قوله: «الم» قال: اسم من أسماء القرآن[٦]. ورُوي عن محمد بن عليٍّ الترمذيِّ أنه قال: إن الله تعالى أوْدَعَ جميعَ ما في تلك السورة من الأحكام والقَصص في الحروف التي ذكرها في أوّل السورة، ولا يَعرفُ ذلك إلا نبيٌّ أو وَلِيٌّ، ثم بَيَّنَ ذلك في جميع السورةِ لِيُفَقِّهَ الناس[٧]. وقيل غير هذا من الأقوال. فالله أعلم.

والوقْفُ على هذه الحروف على السكون، لنقصانها، إلا إذا أخبرتَ عنها، أو

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٢٠٦، وينظر النكت والعيون ١/ ٦٣، والمحرر الوجيز ١/ ٨٢.

(٢) أخرجه الطبري ١/ ٢٠٧، وذكره الماوردي في تفسيره ١/ ٦٤.

(٣) في (د) و(ز): قسماً.

(٤) في (د): والمكذب يكذب مع القسم، وفي (ظ): والمكذب لا يصدق بالقسم.

(٥) في (د): قلنا.

(٦) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٩ ومن طريقه أخرجه الطبري ١/ ٢٠٤، وذكره أيضاً الماوردي في تفسيره ١/ ٦٣.

(٧) من قوله: قال الكلبي: هي أقسام... غالبُه في تفسير أبي الليث ١/ ٨٧.

عَطَفْتَها، فإنك تُعْرِبُها. واختلف: هل لها محلٌّ من الإعراب؟ فقيل: لا، لأنها ليست أسماءً متمكِّنة، ولا أفعالاً مضارِعة، وإنما هي بمنزلة حروفِ التَّهَجِّي، فهي مَحْكِيَّةٌ. هذا مذهبُ الخليلِ وسيبويه[١].

ومن قال: إنها أسماءُ السُّوَر، فموضِعُها عندَه الرفعُ على أنها عندَه خبرُ ابتداء مُضمر، أي: هذه «الم»، كما تقول: هذه سورةُ البقرة. أو تكون رفعاً على الابتداء، والخبرُ: «ذلك»، كما تقول: زيدٌ ذلك الرجل. وقال ابنُ كَيْسان النحوي[٢]: «الم» في موضع نصب، كما تقول: اقرأ «الم»، أو: عليك «الم»[٣]. وقيل: في موضع خفضٍ بالقسم، لقولِ ابنِ عباس: إنها أقسامٌ أقسمَ الله بها[٤].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ قيل: المعنى: هذا الكتاب. و«ذلك» قد تُستعمل في الإشارة إلى حاضر، وإن كان موضوعاً للإشارة إلى غائب، كما قال تعالى في الإخبار عن نفسه جلَّ وعزَّ: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [السجدة: ٦]، ومنه قولُ خُفَاف ابن نُدْبَة[٥].

أقولُ له والرُّمْحُ يَأْطِرُ مَتْنَهُ تأمَّلْ خُفافاً إنَّني أنا ذلِكا[٦]

أي: أنا هذا. فـ «ذلك» إشارةٌ إلى القرآن، موضوعٌ موضعَ هذا، تلخيصُه: الم هذا الكتابُ لا رَيْبَ فيه. وهذا قولُ أبي عُبيدة وعكرمة وغيرهما[٧]، ومنه قوله

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٧٧ ومشكل إعراب القرآن لمكي ١/ ٧٣.

(٢) محمد بن أحمد بن كيسان، أبو الحسن، النحوي، كان يحفظ مذهب البصريين والكوفيين، لأنه أخذ عن المبرد وثعلب، له المهذب في النحو، والمذكر والمؤنث، ومعاني القرآن وغيرها. إنباه الرواة ٣/ ٥٧، وبغية الوعاة ١/ ١٨.

(٣) ذكره أبو جعفر النحاس في إعراب القرآن ١/ ١٧٧.

(٤) سلف تخريج قول ابن عباس في الصفحة قبلها، وانظر المحرر الوجيز ١/ ٨٣.

(٥) خُفاف بن عمير بن عمرو بن الشريد السلمي، الصحابي، يكنى أبا خرشة، ونُدْبَة أمُّه، كان شاعراً مشهوراً، و شَهِدَ مع النبيِّ ﷺ فتحَ مكة، ومعه لواءُ بني سُلَيم. ثبتَ في الرِّدَّة، وبقيَ إلى أيام عمر. الاستيعاب ٣/ ٢٠٠ بهامش الإصابة. والإصابة ٣/ ١٤٨.

(٦) البيت في مجاز القرآن ١/ ٢٩ والشعر والشعراء ١/ ٣٤٢، والكامل ٣/ ١١٥٠، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٦٦، والأغاني ١٨/ ٧٤، والاستيعاب ٣/ ٢٠١ بهامش الإصابة. قال المبرّد: قوله: يأطر متنَه، أي: يثني.

(٧) كلام أبي عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٢٨، وأخرج قول عكرمة الطبري في تفسيره ١/ ٢٢٨.

تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنعام: ٨٣]، ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢٥٢]، أي: هذه، لكنها لما انقضتْ، صارَتْ كأنَّها بَعُدَتْ، فقيل: تلك. وفي «البخاريِّ»: وقال مَعْمَر: «ذلك الكتاب»: هذا القرآن. «هدًى للمتقين»: بيانٌ ودِلالة، كقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الممتحنة: ١٠]: هذا حُكْمُ الله[١].

قلت: وقد جاء «هذا» بمعنى «ذلك»، ومنه قولُه عليه السلام في حديث أُمِّ حَرَام: «يَرْكَبونَ ثَبَجَ هذا البَحْرِ»[٢] أي: ذلك البحر. والله أعلم.

وقيل: هو على بابه، إشارةٌ إلى غائب. واختُلف في ذلك الغائب على أقوال عشرة:

فقيل: «ذلك الكتاب» أي: الكتابُ الذي كتبتُ على الخلائق بالسعادة والشقاوة والأَجَل والرِّزق، لا رَيْب فيه، أي: لا مُبَدِّلَ له.

وقيل: ذلك الكتاب، أي الذي كتبتُ على نفسي في الأَزَل: «إنَّ رَحْمَتي سَبَقَتْ غَضَبي». وفي «صحيح» مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لَمَّا قَضَى الله الخَلْقَ كَتَبَ في كتابه على نَفْسِهِ، فهو موضوعٌ عندَه: إنَّ رحمتي تَغْلِبُ غَضَبي». في رواية: «سَبَقَتْ»[٣].

وقيل: إنَّ الله تعالى قد كانَ وَعَدَ نبيَّه عليه السلام أن يُنزلَ عليه كتاباً لا يَمْحُوه الماء، فأشار إلى ذلك الوعد، كما في «صحيح» مسلم من حديث عِياض بن حِمار المُجاشعي أن رسولَ الله ﷺ قال: «إن الله نَظَرَ إلى أهلِ الأرضِ، فَمَقَتَهم، عَرَبَهُم وعَجَمَهم إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتُك لأبْتَلِيَكَ، وأَبْتَلِيَ بك، وأنزلتُ عليك كتاباً لا يَغسِلُه الماءُ، تقرؤه نائماً ويقظانَ» الحديث[٤].

وقيل: الإشارة إلى ما قد نزل من القرآن بمكة.

---

(١) صحيح البخاري قبل الحديث (٧٥٣٠): كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾.

(٢) سلف تخريجه ص ٢١٩.

(٣) صحيح مسلم (٢٧٥١): (١٤) و(١٥). وهو في صحيح البخاري (٧٤٢٢). ومسند أحمد (٧٥٠٠).

(٤) صحيح مسلم (٢٨٦٥). وهو في مسند أحمد (١٧٤٨٤)، وسلف قطعة منه ص ٩١.

وقيل: إن الله تبارك وتعالى لما أنزل على نبيِّه ﷺ بمكة: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، لم يَزَلْ رسولُ الله ﷺ مُسْتَشْرِفاً لإنجازِ هذا الوَعْدِ من ربِّه عزَّ وجلَّ، فلما أنزلَ عليه بالمدينة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، كان فيه معنى: هذا القرآنُ الذي أنزلتُه عليك بالمدينة، ذلك الكتابُ الذي وعدتُكَ أنْ أُوحِيَه إليك بمكة.

وقيل: إنَّ «ذلك» إشارةٌ إلى ما في التوراة والإنجيل، و«الم» اسم للقرآن، والتقدير: هذا القرآنُ ذلك الكتاب المفسَّر في التوارة والإنجيل، يعني أنَّ التوراةَ والإنجيلَ يشهدانِ بِصحَّته، ويستغرقُ ما فيهما، ويزيدُ عليهما ما ليس فيهما.

وقيلَ: إنَّ «ذلك الكتاب»، إشارةٌ إلى التوراة والإنجيل كليهما، والمعنى: الم، ذانِكَ الكتابانِ، أو مثلُ ذَيْنِكَ الكتابَيْنِ، أي: هذا القرآنُ جامعٌ لِما في ذَيْنِكَ الكتابَيْنِ، فعبَّر بـ «ذلك» عن الاثنين بشاهدٍ من القرآن، قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٦٨]، أي: عَوانٌ بينَ تَيْنِكَ الفارِضِ والبِكْرِ، وسيأتي.

وقيل: إن «ذلك» إشارةٌ إلى اللَّوْحِ المحفوظ. وقال الكسائي: «ذلك» إشارةٌ إلى القرآن الذي في السماء لم ينزل بعدُ.

وقيل: إن الله تعالى قد كانَ وَعَدَ أهلَ الكتاب أن يُنزلَ على محمد ﷺ كتاباً، فالإشارةُ إلى ذلك الوعد. قال المبرّد: المعنى: هذا القرآنُ ذلك الكتابُ الذي كنتُم تستفتحونَ به على الذين كفروا.

وقيل: [إنَّ الإشارةَ] إلى حروف المعجم في قول مَن قال: «الم» الحروفُ التي تَحَدَّيْتُكُمْ بالنَّظْمِ منها[1].

و«الكتابُ» مصدر مِن: كَتَبَ يَكْتُبُ: إذا جمع، ومنه قيل: كَتِيبة، لاجتماعها. وتَكَتَّبَتِ الخيلُ: صارت كتائب[2]. وكَتَبْتُ البغلةَ: إذا جمعتَ بين شُفْرَيْ رَحِمِها بحلْقة أو سَيْر، قال:

---

(١) تفسير الماوردي ١/٤٤٨، وابن عطية ١/٨٣، ومعاني القرآن للنحاس ١/٧٨، وما بين حاصرتين من تفسير ابن عطية.

(٢) وفي الصحاح واللسان: تكتَّبت الخيل، أي: تجمعت.

لا تَـأْمَـنَـنَّ فَـزارِيًّـا خَـلَـلْـتَ بـه على قَـلُوصِكَ واكْـتُبْـها بأَسْـيار[١]

والكُتْبَةُ، بضم الكاف: الخُرْزَةُ، والجمع كُتَبٌ. والكَتْبُ: الخَرْز. قال ذو الرُّمَّة[٢]:

وَفْـراءَ غَـرْفِـيَّـةٍ أَثْـأَى خَـوارِزُهـا مُشَـلْشَلٌ ضَيَّعَتْهُ بينَها الكُتَبُ[٣]

والكتاب: هو خَطُّ الكاتبِ حروفَ المعجم، مجموعةً، أو متفرِّقةً، وسُمِّي كتاباً، وإنْ كان مكتوباً، كما قال الشاعر[٤]:

تُـومِّـلُ رَجْـعَـةً مِـنِّـي وفـيـهـا كـتـابٌ مـثـلَ مـا لَـصِـقَ الـغِـراءُ

والكتاب: الفَرْضُ، والحُكْمُ، والقَدَرُ. قال الجَعْدِي[٥]:

يـا ابـنـةَ عَـمِّـي كـتـابُ الله أخـرجَـنـي عـنـكُـمْ وهَـلْ أمْـنَـعَـنَّ الله مـا فَـعَـلا

قوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ﴾: نفيٌ عام، ولذلك نُصِبَ الرَّيْب به. وفي «الرَّيْب» ثلاثةُ معانٍ:

أحدُها: الشَّكّ، قال عبد الله بنُ الزِّبَعْرَى[٦]:

لـيـس فـي الـحـقِّ يـا أُمَـيْـمَـةُ رَيْـبٌ إنَّـمـا الـرَّيْـبُ مـا يـقـولُ الـجَـهُـولُ[٧]

---

(١) قائله سالم بن دارة، والبيت في الشعر والشعراء ١/ ٤٠١، والكامل ٢/ ٩٨٨، والخزانة ٦/ ٥٣١. ووقع في اللسان (كتب): على بعيرك، بدل: على قَلُوصك، والقَلُوص: الشابَّة من الإبل.

(٢) غَيْلان بنُ عُقبةَ بنِ بُهَيْس، والبيت في ديوانه ١/ ١١ (بشرح أبي نصر الباهلي).

(٣) قوله: وفراء: أي: واسعة، وغَرْفيَّة، أي: دُبغت بالغَرْف، وهو شجر، وأَثْأى خوارزُها؛ الثأْيُ: أن تلتقيَ الخُرْزَتان فتصيرا واحدة، والمشلشل: الذي يكاد يتصل قطره. قاله أبو نصر الباهلي صاحب الأصمعي، وقال البغْدادي في الخزانة ٢/ ٣٤٢: الخوارز: فاعل أثأى، وهو جمع خارزة، وهي التي تخيط المزادة.

(٤) هو مسلم بن معبد الوالبي، والبيت في تفسير الطبري ١/ ٩٣، وخزانة الأدب ٢/ ٣٠٩.

(٥) هو النابغة الجَعْدي، أبو ليلى، قيل: اسمُه حيَّان بنُ قيس، عاش إلى حدود سنة (٧٠هـ). سير أعلام النبلاء ٣/ ١٧٧. والبيت في «شعر النابغة الجعدي» ص ١٩٤، وفيه: كرهاً بدل: عنكم.

(٦) ابن قيس بن سعد، القرشي السهمي، كان من أشد الناس على رسول الله ﷺ وأصحابه، بلسانه ونفسه، ثم أسلم عام الفتح، وحسن إسلامه، واعتذر إلى رسول الله ﷺ، فقبل عذره. الاستيعاب ٦/ ١٨٠ (بهامش الإصابة).

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ١/ ٦٧.

وثانيها: التُّهَمَة، قالَ جَميل[١]:

بُثَيْنةُ قالَتْ يا جَميلُ أَرَبْتَني ... فقلتُ كِلانا يا بُثَيْنَ مُرِيبُ

وثالثها: الحاجة، قال:

قَضَيْنا من تِهامَةَ كُلَّ رَيْبٍ ... وخَيْبَرَ ثمَّ أجْمَمْنا[٢] السُّيُوفا[٣].

فكتابُ الله تعالى لا شكَّ فيه، ولا ارتيابَ، والمعنى: أنه في ذاته حقٌّ، وأنه مُنزلٌ من عند الله، وصفةٌ من صفاته، غيرُ مخلوق ولا مُحْدَثٍ، وإنْ وَقَعَ رَيْبٌ للكفَّار.

وقيل: هو خبرٌ، ومعناه النَّهْيُ، أي: لا تَرْتابُوا[٤]، وتمَّ الكلام، كأنَّه قال: ذلك الكتابُ حقًّا. وتقولُ: رابَني هذا الأمرُ إذا أدخلَ عليكَ شَكًّا وخَوْفاً. وأرابَ: صارَ ذا رِيبة، فهو مُرِيبٌ، ورَابَني أمرُه. ورَيْبُ الدهر: صُرُوفُه[٥].

قوله تعالى: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾: فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: «فيه» الهاء في «فيه» في موضع خفضٍ بـ«في»، وفيه خمسةُ أوجه:

أجودُها: فيهِ هُدًى. ويليه: فيهُ هُدًى، بضم الهاء بغير واو، وهي قراءةُ الزُّهْرِيِّ، وسلَّام أبي المنذر[٦]. ويليه: فيهِي هُدًى، بإثبات الياء، وهي قراءةُ ابنِ كثير[٧]. ويجوزُ: فيهُو هُدًى، بالواو[٨]. ويجوز: فيهْ هُدًى، مُدْغماً[٩].

---

(١) ابن عبد الله بن معمر، أبو عمرو العذري، صاحب بُثَيْنة، يقال: مات سنة (٨٢هـ)، وقيل: بل عاش حتى وفد على عمر بن عبد العزيز. سير أعلام النبلاء ٤/ ١٨١ والبيت المذكور في «ديوانه» ص ٢٩.

(٢) في (م): أجمعنا.

(٣) قائله كعب بنُ مالك، كما في اللسان والصحاح (ريب).

(٤) المحرر الوجيز ١/ ٨٣.

(٥) مجمل اللغة (ريب) ١/ ٤٠٨.

(٦) ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢ لمسلم بن جندب. وسلام أبو المنذر هو ابن سليمان المزني مولاهم، البصري، المقرئ، النحوي، ويعرف بالخراساني. توفي سنة (١٧١هـ) معرفة القراء الكبار ١/ ٢٧٧.

(٧) يعني حالة الوصل، أما عند الوقف فيقف بالهاء الساكنة. السبعة ص ١٣٠، والتيسير ص ٢٩.

(٨) قراءة شاذة، ولم نقف عليها إلا عند النحاس حيث نقل عنه المصنف.

(٩) قاله النحاس في إعراب القرآن ١/ ١٧٩. والإدغام المذكور أعلاه هو مذهب أبي عمرو بن العلاء من رواية السوسي. التيسير ص ٢٠.

وارتفع «هدًى» على الابتداء، والخبر: «فيه».

والهُدَى في كلام العرب معناه الرُّشْد والبيان، أي: فيه كشفٌ لأهل المعرفة، ورُشْدٌ، وزيادةُ بيانٍ وهُدًى.

الثانية: الهُدَى هُديان: هُدَى دَلالة، وهو الذي تقدرُ عليه الرُّسل وأتباعُهم، قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، فأثبتَ لهم الهدى الذي معناه الدَّلالةُ، والدعوةُ، والتنبيه، وتفرَّدَ هو سبحانه بالهدى الذي معناه التأييدُ والتوفيق، فقال لِنبيِّه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]. فالهُدى على هذا يجيء بمعنى خَلْق الإيمان في القلب، ومنه قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥]، وقوله: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [يونس: ٢٥]. والهُدَى: الاهتداء، ومعناها[١] راجعٌ إلى معنى الإرشاد كيفما تصرَّفت.

قال أبو المعالي: وقد تَرِدُ الهدايةُ، والمرادُ بها: إرشادُ المؤمنين إلى مسالك الجِنان، والطرقِ المُفْضِيةِ إليها، من ذلك قولُه تعالى في صفة المجاهدين: ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ، سَيَهْدِيهِمْ﴾ [محمد: ٤-٥]، ومنه قوله تعالى: ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٢٣] معناه: فاسلُكُوهم إليها[٢].

الثالثة: الهدى لفظ مؤنَّث. قال الفرَّاء: بعضُ بني أسد يُؤنِّثُ الهُدى، فيقول: هذه هُدًى حسنة[٣]. وقال اللحياني: هو مذكَّر، ولم يُعرب، لأنه مقصورٌ، والألِفُ لا تتحرَّك، ويتعدَّى بحرف، وبغير حرف، وقد مضى في «الفاتحة»[٤]، تقول: هدَيْتُه الطريقَ وإلى الطريق، والدارَ وإلى الدار، أي: عَرَّفْتُه. الأولى لغةُ أهلِ الحجاز، والثانيةُ حكاها الأخفش[٥]. وفي التنزيل: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣].

---

(١) في (م): ومعناه.

(٢) سيذكره المصنف أيضاً في سورة محمد عند تفسير الآية المذكورة.

(٣) نقله عنه النحاس في إعراب القرآن ١/ ١٨٠، ونقله ابن منظور في اللسان (هدى) عن الكسائي.

(٤) ص ٢٢٨.

(٥) في معاني القرآن ١/ ١٦٤.

وقيل: إن الهُدَى اسمٌ من أسماء النهار[١]؛ لأن الناسَ يهتدون فيه لمعايشهم وجميع مآربِهم، ومنه قولُ ابن مُقْبِل[٢]:

[حتى اسْتَبَنْتُ الهُدَى والبِيدُ هاجمةٌ يَخْشَعْنَ في الآلِ غُلْفاً أو يُصَلِّينا][٣]

الرابعة: قولُه تعالى: ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾: خَصَّ الله تعالى المتقين بهدايته وإن كان هدًى للخلق أجمعين تشريفاً لهم؛ لأنهم آمنُوا وصدَّقُوا بما فيه. ورُوِيَ عن أبي رَوْقٍ[٤] أنه قال: «هدًى للمتقين» أي: كرامةً لهم، يعني إنما أضافَ إليهم إجلالاً لهم، وكرامةً لهم، وبياناً لفضلهم.

وأصل «للمتقين»: للمُوتَقِيين، بياءَيْنِ مخفَّفتين، حُذفت الكسرةُ من الياء الأولى لِثقلها، ثم حُذفت الياءُ لالتقاء الساكنين، وأُبدلت الواوُ تاءً على أصلهم في اجتماعِ الواو والتاء، وأُدغمت التاء في التاء، فصار: للمتَّقين[٥].

الخامسة: التقوى، يقال: أصلُها في اللغة قِلَّةُ الكلام، حكاه ابنُ فارس[٦].

قلت[٧]: ومنه الحديث: «التقِيُّ[٨] مُلْجَم[٩]».

---

(١) في المخصص ١٧/١٧: فأما الهدى الذي هو النهار، فمذكر، كقول ابن مقبل: حتى استنبتُ الهدى.

(٢) هو تميمُ بنُ أُبَيّ بن مُقْبِل من بني العجلان، أدرك الإسلام فأسلم، وبلغ مئة وعشرين سنة، ذكره ابن سلَّام في الطبقة الخامسة من فحول الشعراء ١/ ١٤٣، وقد سقط من النسخ البيتُ المذكور له أعلاه بين حاصرتين، وأشير إلى ذلك في (د) و(ز) بلفظة: كذا، وهو في البحر ١/ ٣٣، واللسان (هجم) و(هدى) و(قمس) وفي الموضع الأخير: يقمسن، بدل: يخشعن.

(٣) قوله: البِيد، جمع بيداء، وهي المفازة، وقوله: هاجمة، أي: ساكنة. وقوله: الآل، أي: السراب، أو هو خاص بما في أول النهار وآخره.

(٤) عطية بن الحارث الهمداني، الكوفي، صاحب التفسير. تهذيب التهذيب ٣/ ١١٤.

(٥) تفسير أبي الليث ١/ ٩٠، والمحرر الوجيز ١/ ٨٤.

(٦) في مجمل اللغة ١/ ١٤٩. وابن فارس: هو أحمد بن فارس بن زكريا، أبو الحسين القزويني المالكي، اللغوي، المحدث، توفي سنة (٣٩٥هـ). السير ١٧/ ١٠٣.

(٧) في (ز) و(د): قال الشيخ المؤلف رحمه الله.

(٨) في (د): المتقي.

(٩) هو من كلام عمر بن عبد العزيز، رضي الله عنه، أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ٥/ ٣٧٤، وأبو نعيم في الحلية ٥/ ٣٣٩ بلفظ: إن المتقي ملجم. والبيهقي في شعب الإيمان (٥٧٨٨)، وفي=

والمتَّقي فوق المؤمن والطائع، وهو الذي يتَّقي بصالح عملِه وخالصِ دعائه عذابَ الله تعالى، مأخوذٌ من اتِّقاء المكروه بما تجعله حاجزاً بينَكَ وبينَه، كما قال النابغة:

سَقَطَ النَّصِيفُ ولم تُرِدْ إسقاطَه فتناولَتْه واتَّقَتْنا بالـيَدِ[1]

وقال آخرُ[2]:

فألقَتْ قِناعاً دونَه الشمسُ واتَّقَتْ بأحسنِ مَوْصُولَيْنِ كَفٌّ ومِعْصَمِ

وخرَّج أبو محمد عبدُ الغني الحافظ من حديث سعيد بن زَرْبِيّ أبي عُبَيْدة، عن عاصم بن بَهْدَلَة، عن زِرِّ بنِ حُبَيْش، عن ابن مسعود قال: قال يوماً لابن أخيه: يا ابنَ أخي ترى الناسَ ما أكثرهم! قال: نعم، قال: لا خيرَ فيهم إلا تائبٌ أو تقيٌّ. ثم قال: يا ابنَ أخي، تَرى الناسَ ما أكثرَهم! قلتُ: بلى، قال: لا خيرَ فيهم إلا عالمٌ أو متعلِّم.

وقال أبو يزيد البِسْطامي[3]: المُتَّقي مَن إذا قال، قال لله، ومَن إذا عَمِلَ، عملَ لله.

وقال أبو سليمان الدَّاراني[4]: المُتَّقون الذين نزعَ الله عن قلوبهم حُبَّ الشهوات[5].

وقيل: المتَّقي الذي اتَّقى الشِّركَ، وبَرِئَ من النِّفاق. قال ابنُ عطية: وهذا فاسدٌ؛ لأنه قد يكون كذلك وهو فاسقٌ[6].

= الزهد الكبير (٩٢٩) ولفظه في الزهد: التقى ملجمة.

وقال ابن عبد البر في التمهيد ٢١/ ٢٨٩: وفي المثل السائر: التقي مُلْجَم، وذكره القاسم بن سلَّام في الأمثال ص ٤٠، والبكري في فصل المقال ص ٢٢ والميداني في مجمع الأمثال ١/ ١٣٩.

(١) ديوانه ص ٤٠. قوله: النصيف؛ المراد به هنا الخمار، أو ثوب تتجلَّلُ به المرأة فوق ثيابها. ينظر «معجم متن اللغة».

(٢) هو أبو حية النميري، والبيت المذكور في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٣٦٩.

(٣) طَيْفور بنُ عيسى بن شَرْوَسَان، أحد الزهاد. توفي سنة (٢٦١هـ). السير ١٣/ ٨٦.

(٤) عبد الرحمن بن أحمد، الزاهد، توفي سنة (٢١٥هـ)، وقيل: (٢٠٥هـ). السير ١٠/ ١٨٢.

(٥) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (٩٢٢).

(٦) قاله الماوردي في تفسيره ١/ ٦٨.

وسألَ عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه أُبَيًّا عن التقوى، فقال: هل أخذتَ طريقاً ذا شَوْكٍ؟ قال: نعم، قال: فما عَمِلتَ فيه؟ قال: شمَّرتُ[١] وحَذِرْتُ، قال: فذاك التقوى[٢]. وأخذ هذا المعنى ابنُ المُعْتَزّ[٣] فنَظَمَه:

خَلِّ الذنوبَ صَغيرَها ... وكبيرَها ذاك التُّقَى
واصْنَعْ كماشٍ فوقَ أرْ ... ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ ما يَرَى[٤]
لا تَحْقِرَنَّ صغيرةً ... إنَّ الجبالَ من الحَصَى

السادسة: التقوى فيها جِماعُ الخيرِ كلِّه، وهي وصيةُ الله في الأوَّلينَ والآخِرينَ، وهي خيرُ ما يستفيدُه الإنسان، كما قال أبو الدرداء وقد قيل له: إن أصحابَك يقولون الشِّعْرَ وأنت ما حُفِظَ عنك شيءٌ، فقال:

يُريدُ المرء أن يُؤْتَى مُناهُ ... ويأبَى الله إلا ما أرَادا
يقولُ المرءُ فائدتي ومالي ... وتقوى الله أفضلُ ما اسْتَفادا[٥]

وروى ابنُ ماجه في «سننه» عن أبي أُمامةَ، عن النبيِّ ﷺ أنه كان يقول: «ما استفادَ المرءُ[٦] بعد تقوى الله خيراً[٧] له من زَوْجةٍ صالحةٍ، إنْ أمَرَها أطاعَتْه، وإنْ نَظَرَ إليها سَرَّتْه، وإنْ أقْسَمَ عليها أبَرَّتْه، وإنْ غابَ عنها نَصَحَتْهُ في نفسِها ومالِه»[٨].

والأصل في التقوى: وَقْوَى، على وزن فَعْلَى، فقُلبت الواو تاءً، من: وَقَيْتُه أقِيه،

---

(١) في (م): تشمَّرتُ.

(٢) أخرج نحوه ابن أبي الدنيا في كتاب التقوى كما في الدر المنثور ١/ ٢٤، والبيهقي في الزهد الكبير (٩٦٣) من قول أبي هريرة لرجل سأله عن التقوى.

(٣) عبد الله بن المعتزّ بن المتوكّل بن المعتصم بن هارون الرشيد، أبو العباس، الأديب الشاعر، أخذ الأدب عن المبرّد وثعلب وغيرهما، له من التصانيف: الزهر والرياض وطبقات الشعراء وغيرها، توفّي سنة (٢٩٦هـ). «وفيات الأعيان» ٣/ ٧٦ والأبيات المذكورة في ديوانه ص ٢٦.

(٤) في الديوان:

كن فوق ماشٍ فوق أرْ ... ضِ الشَّوْكِ يحذرُ ما يَرَى

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية ١/ ٢٢٥، وذكره ابن عبد البر في الاستيعاب ١١/ ٢٣١ (بهامش الإصابة).

(٦) في (م): المؤمن.

(٧) في النسخ: خيرٌ، و المثبت من (م).

(٨) سنن ابن ماجه (١٨٥٧)، وفي إسناده علي بن يزيد الألهاني، وهو ضعيف.

أي: منعتُه، ورجلٌ تقيٌّ، أي: خائف، أصله: وَقيّ، وكذلك: تُقاة، كانت في الأصل: وُقاة، كما قالوا: تُجاه وتُراث، والأصل: وُجاه ووُراث.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾

فيها ستٌّ وعشرون مسألة:

الأولى: قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في موضع خَفْض نَعْت ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾، ويجوز الرفعُ على القطع، أي: هم الذين، ويجوزُ النصبُ على المدح. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: يصدِّقون. والإيمانُ في اللغة: التصديق، وفي التنزيل: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] أي: بمصدِّق، ويتعدَّى بالباء واللام، كما قال: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ [آل عمران: ٧٣]، ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ﴾ [يونس: ٨٣].

ورَوَى حجَّاجُ بنُ حجَّاج الأحول[١] - ويلقّب بزِقِّ العَسَل - قال: سمعتُ قتادة يقول: يا ابْنَ آدم، إنْ كنتَ لا تريدُ أن تأتيَ الخيرَ إلا عن نشاطٍ، فإن نفسَك مائلةٌ إلى السَّآمةِ والفَتْرَةِ والمَلَّةِ، ولكنّ المؤمنَ هو المُتحامل، والمؤمن هو المُتقوّي، والمؤمنُ هو المُتشدِّد، وإن المؤمنين هم العجَّاجون[٢] إلى الله الليلَ والنهارَ، واللهِ، ما يزالُ المؤمنُ يقول: ربَّنا ربَّنا في السِّرِّ والعلانيةِ حتى استجابَ لهم في السرِّ والعلانية[٣].

الثانية: قولُه تعالى: ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾؛ الغيبُ في كلام العرب: كلُّ ما غابَ عنك، وهو من ذوات الياء، يقال منه: غابت الشمسُ تَغيب، والغِيبةُ معروفةٌ. وأغابت المرأةُ، فهي مُغِيبة إذا غاب عنها زوجُها: ووقَعنا في غَيْبة وغَيابة، أي: هَبْطة من الأرض، والغابةُ[٤]: الأَجَمة، وهي جِماعُ الشجر يُغابُ فيها، ويُسمَّى المطمئنُّ من الأرض: الغَيْبَ؛ لأنهُ غابَ عن البصر.

---

(١) الباهلي، البصري، الحافظ، وثقه أبو حاتم وغيره، توفي سنة (١٣١هـ). السير ٦/ ١٥١ و٧/ ٧٦.

(٢) في (ظ): العاجون.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٢/ ٣٣٥-٣٣٦. وقوله: المتحامل: من تحاملت الشيء، إذا تكلفتَه على مشقة. النهاية ١/ ٤٤٣. والعجَّاجون: من العجّ، وهو رفع الصوت بالتلبية. النهاية ٣/ ١٨٤.

(٤) في النسخ و(م): الغيابة، والمثبت من مجمل اللغة ٣/ ٦٨٨، والكلام منه.

الثالثة: واختلفَ المفسرون في تأويل الغَيْب هنا، فقالت فرقةٌ: الغَيْبُ في هذه الآية: الله سبحانه. وضَعَّفه ابنُ العربي[١]. وقال آخرون: القضاء والقَدَر. وقال آخرون: القرآنُ وما فيه من الغُيوب. وقال آخرون: الغَيْبُ كلُّ ما أخبَرَ به الرسولُ ﷺ مما لا تَهتدي إليه العقولُ؛ من أشراطِ الساعة، وعذابِ القبر، والحشر، والنَّشر، والصِّراط، والميزان، والجنة، والنار. قال ابنُ عطية[٢]: وهذه الأقوالُ لا تتعارضُ، بل يقعُ الغيبُ على جميعها.

قلت: وهذا هو الإيمانُ الشرعيُّ المشارُ إليه في حديث جبريلَ عليه السلام حين قال للنبيِّ ﷺ: فأخْبِرْني عن الإيمان. قال: «أنْ تُؤمنَ بالله وملائكتِه وكُتبِهِ ورُسُلِه واليومِ الآخِر، وتُؤمنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ». قال: صَدَقْتَ. وذكر الحديث[٣]. وقال عبدُ الله بنُ مسعود: ما آمنَ مؤمنٌ أفضلَ من إيمانٍ بغيب، ثم قرأ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾[٤].

قلت: وفي التنزيل: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [الأنبياء: ٤٩]، فهو سبحانه غائبٌ عن الأبصار، غيرُ مَرْئيٍّ في هذه الدار، غيرُ غائبٍ بالنظرِ والاستدلالِ، فهم يؤمنون أنَّ لهم ربًّا قادراً يُجازي على الأعمال، فهم يخشَوْنه في سرائرهم وخَلَواتهم التي يَغيبون فيها عن الناس، لِعلمهم باطِّلاعه عليهم، وعلى هذا تتَّفقُ الآي ولا تتعارض، والحمدُ لله.

وقيل: «بالغيب» أي: بضمائرهم وقلوبهم بخلافِ المنافقين، وهذا قولٌ حسَنٌ. وقال الشاعر[٥]:

وبالغيب آمنَّا[٦] وقد كان قَوْمُنا ... يُصَلُّون للأوثان قَبْلَ[٧] محمدِ

---

(١) في أحكام القرآن ١/ ٨.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٨٤.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٣٦٧)، ومسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب، وقد سلفت قطعة منه ص ١٩٣. وأخرج نحوه البخاري (٥٠) من حديث أبي هريرة.

(٤) سلف ص ٢٣٨.

(٥) هو العباس بن مرداس، والبيت المذكور في «ديوانه» ص ٥٦.

(٦) في الديوان: ومن قبل آمنا.

(٧) في (ظ): غير.

الرابعة: قولُه تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ معطوف جملة على جملة. وإقامةُ الصلاة: أداؤها بأركانها وسننِها وهيئاتِها في أوقاتها، على ما يأتي بيانُه.

يقال: قامَ الشيءُ، أي: دامَ وثبتَ، وليسَ من القيام على الرِّجْل، وإنما هو من قولك: قام الحقُّ، أي: ظهرَ وثَبَتَ، قال الشاعر:

وقامت الحربُ بنا على ساق[1]

وقال آخرُ:

وإذا يقالُ أتيتُمُ لم يَبْرَحُوا حتى تُقيمَ الخيلُ سُوقَ طِعانِ[2]

وقيل: «يُقيمون»: يُديمون، وأقامَهُ، أي: أدامَهُ[3]، وإلى هذا المعنى أشارَ عمرُ بقوله: مَنْ حَفِظَها وحافظَ عليها، حَفِظَ دِينَه، ومَنْ ضَيَّعَها، فهو لما سَواها أضْيعُ[4].

الخامسة: إقامةُ الصلاة معروفةٌ، وهي سُنَّةٌ عند الجمهور، وأنه لا إعادةَ على تاركها. وعند الأوزاعيِّ، وعطاء، ومجاهد، وابن أبي ليلى[5] هي واجبةٌ، وعلى مَنْ تَرَكَها الإعادةُ، وبه قال أهلُ الظاهر[6]، ورُوِيَ عن مالك، واختارَهُ ابنُ العربي[7] قال: لأنَّ في حديث الأعرابي: «وأقم» فأمرَه بالإقامةِ كما أمرَهُ بالتكبيرِ، والاستقبالِ، والوضوء.

قال: فأما أنتُم الآن وقد وقفتُم على الحديث، فقد تَعيَّن عليكم أن تقولوا بإحدى روايتي مالك الموافقةِ للحديث، وهي أنَّ الإقامةَ فرضٌ.

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٨٧، وابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٣٤١ وسيذكره المصنف أيضاً في تفسير الآية (٢٩) من سورة القيامة.

(٢) ذكره ابن عطية في تفسيره ١/ ٨٥.

(٣) في (ظ): وإقامة، أي: إدامة.

(٤) أخرجه مالك في الموطأ ١/ ٦، وعبد الرزاق في المصنف (٢٠٣٨)، والطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ١٩٣، والبيهقي في السنن الكبرى ١/ ٤٤٥، وذكره ابن عبد البر في التمهيد ٥/ ٦٨. وابن العربي في أحكام القرآن ١/ ١٠.

(٥) هو عبد الرحمن بن أبي ليلى، أبو عيسى الأنصاري، الكوفي، الفقيه، قتل بوقعة الجماجم سنة (٨٣هـ). السير ٤/ ٢٦٢.

(٦) ينظر التمهيد ١٨/ ٣١٨-٣١٩، والاستذكار ٤/ ٥٠.

(٧) عارضة الأحوذي ٢/ ٩٩ في شرح حديث الأعرابي عند الترمذي (٣٠٢) من حديث رفاعة بن رافع الزرقي، وسيشير إليه المصنف ص ٢٦٢.

قال ابنُ عبد البَرِّ: قوله ﷺ: «وتَحريمُها التَّكبيرُ[١]» دليلٌ على أنه لم يَدْخُلْ في الصلاة مَنْ لم يُحْرِمْ، فما كانَ قبلَ الإحرام فَحكمُه ألا تُعادَ منه الصلاةُ، إلا أنْ يُجمِعوا على شيء، فيسلَّم للإجماع، كالطهارة، والقِبْلَةِ، والوقت، ونحو ذلك[٢].

وقال بعضُ علمائنا: مَنْ تَرَكَها عَمْداً أعادَ الصلاةَ، وليسَ ذلكَ لِوجُوبها، إذْ لو كانَ ذلك، لاستوى سَهْوُها وعَمْدُها، وإنما ذلك للاستخفافِ بالسُّنن، والله أعلم.

السادسة: واختلفَ العلماءُ فيمن سَمِعَ الإقامةَ، هل يُسرِعُ أَوْ لا؟ فذهبَ الأكثرُ إلى أنه لا يُسْرِعُ، وإنْ خافَ فَوْتَ الركعة؛ لقوله عليه السلام: «إذا أُقيمَتِ الصَّلاةُ، فلا تَأْتُوها تَسْعَوْنَ، وأْتُوها تَمشُون، وعليكم السَّكِينةَ، فما أَدْرَكتُم فَصَلُّوا، وما فاتَكم فَأَتِمُّوا» رواه أبو هريرةَ، أخرجه مسلم[٣].

وعنه أيضاً قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا ثُوِّبَ بالصَّلاةِ، فلا يَسْعَ إليها أحدُكم، ولكنْ لِيَمْشِ وعليه السَّكِينةُ والوَقارُ، صَلِّ ما أَدْرَكْتَ، واقْضِ ما سَبَقَكَ»[٤]. وهذا نَصٌّ.

ومن جِهة المعنى: أنه إذا أسرعَ، انبهرَ[٥]، فشوَّشَ عليه دخولَه في الصلاة وقراءتَها وخشوعَها.

وذهب جماعةٌ من السَّلف منهم ابنُ عمر وابنُ مسعود ـ على اختلافٍ عنه ـ أنه إذا خافَ فواتَها، أَسْرعَ.

وقال إسحاقُ: يُسرِعُ إذا خاف فواتَ الركعة، ورُوِيَ عن مالكٍ نحوُه، وقال: لا بأسَ لمن كان على فَرَس أَنْ يُحَرِّكَ الفرسَ[٦]، وتأوَّله بعضُهم على الفرقِ بين الماشي والراكب؛ لأنَّ الراكبَ لا يكادُ أَنْ يَنْبهِرَ كما يَنْبَهِرُ الماشي.

---

(١) قطعة من حديث علي رضي الله عنه، سيذكره المصنف ص ٢٦٨.

(٢) التمهيد ١٨/ ٣١٨ ـ ٣١٩.

(٣) (٦٠٢)، وهو في مسند أحمد (٧٦٦٢).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٩٥١٤)، ومسلم (٦٠٢): (١٥٤).

(٥) أي: تتابع نَفَسُه. الصحاح (بهر).

(٦) ذكر هذه الأقوال ابن المنذر في الأوسط ٤/ ١٤٦ـ١٤٧، وابن عبد البر في التمهيد ٢٠/ ٢٣٢ـ٢٣٣، والاستذكار ٤/ ٣٦ـ٣٨. وقول إسحاق عندهما: إذا خاف فوات التكبيرة الأولى فلا بأس أن يسعى.

قلتُ: واستعمالُ سنةِ رسول الله ﷺ في كلِّ حال أَوْلى، فيمشي كما جاء في[١] الحديث: «وعليه السكينةُ والوَقارُ»، لأنه في صلاة، ومُحالٌ أنْ يكونَ خبرُه ﷺ على خِلافِ ما أَخبر، فكما أنَّ الداخلَ في الصلاة يَلْزَمُ[٢] الوَقارَ والسُّكونَ، كذلك الماشي، حتى يحصُلَ له التَّشَبُّهُ به، فيحصُلَ له ثوابُه.

ومما يَدُلُّ على صحة هذا ما ذكرناه من السنَّة، وما خرَّجه الدَّارِميُّ في «مسنده» قال: حدثنا محمدُ بنُ يوسفَ قال: حدثنا سفيانُ، عن محمدِ بن عَجْلانَ، عن المَقْبُرِيِّ، عن كعب بنِ عُجْرَةَ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا تَوضَّأْتَ، فَعَمَدْتَ إلى المسجدِ، فلا تُشَبِّكَنَّ بين أصابِعكَ، فإنَّكَ في صلاةٍ[٣]». فمنعَ ﷺ في هذا الحديث ـ وهو صحيحٌ ـ مما هو أَقلُّ من الإسْراع، وجَعَلَهُ كالمصلِّي. وهذه السُّنَنُ تبيِّنُ معنى قولِهِ تعالى: ﴿فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩]، وأنه ليس المرادُ به الاشتدادَ على الأقْدام، وإنما عَنَى العملَ والفِعْلَ، هكذا فسَّره مالكٌ. وهو الصوابُ في ذلك، والله أعلم.

السابعة: واختلفَ العلماءُ في تأويل قوله عليه السلام: «وما فاتَكُم فأَتِمُّوا» وقولِه: «واقْضِ ما سَبَقَكَ»، هل هما بمعنًى واحدٍ، أوْ لا؟ فقيل: هما بمعنًى واحدٍ، وأنَّ القضاءَ قد يُطلَقُ، ويُرادُ به التَّمامُ، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ [الجمعة: ١٠]، وقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وقيل: معناهما مُختلِفٌ، وهو الصحيح.

ويَترتَّبُ على هذا الخلافِ خِلافٌ فيما يُدرِكُه الداخلُ: هل هو أوَّلُ صلاتِه، أو آخِرُها؟ فذهبَ إلى الأوَّلِ جماعةٌ من أصحابِ مالك ـ منهم ابنُ القاسم ـ ولكنَّه يَقْضي ما فاتَه بالحمد وسورة، فيكون بانياً في الأفعال، قاضِياً في الأقوال. قال ابنُ عبد البر[٤]:

---

(١) لفظ: في، من (ظ).

(٢) في النسخ الخطية: لزم، والمثبت من (م).

(٣) سنن الدارمي (١٤٠٥)، وهو في مسند أحمد (١٨١١٥) من طريق قُرَّان بن تمَّام الأسدي، عن محمد بن عجلان، به.

(٤) في التمهيد ٢٠/ ٢٣٤ ـ ٢٣٦، والاستذكار ٤/ ٤٠ ـ ٤٣، والكلام منهما حتى آخر المسألة، دون قول القاضي عبد الوهاب.

وهو المشهورُ من المذهب. وقال ابنُ خُوَيزْمَنْداد[١]: وهو الذي عليه أصحابُنا، وهو قولُ الأوزاعيِّ، والشافعيِّ، ومحمدِ بنِ الحسن، وأحمدَ بنِ حنبل، والطبريِّ، وداودَ بنِ عليٍّ. وروى أشهَبُ ـ وهو الذي ذكره ابنُ عبد الحكم عن مالكٍ، ورواه عيسى[٢]، عن ابن القاسم ـ عن مالك: أنَّ ما أدركَ فهو آخِرُ صلاته، وأنه يكونُ قاضياً في الأفعال والأقوال، وهو قولُ الكوفيين.

قال القاضي أبو محمد عبدُ الوهَّاب[٣]: وهو مشهورُ مذهبِ مالك.

قال ابنُ عبد البَرِّ: مَنْ جعلَ ما أدركَ أوَّلَ صلاتِه، فأظنُّهم راعَوُا الإحرامَ؛ لأنه لا يكونُ إلا في أوَّلِ الصلاة، و التشهدُ والتسليمُ لا يكونُ إلا في آخرِها، فَمِنْ هاهنا قالوا: إنَّ ما أدركَ فهو أوَّلُ صلاتِه، مع ما وردَ في ذلك من السنَّة من قوله: «فأتِمُّوا» والتَّمامُ هو الآخِرُ.

واحتجَّ الآخَرون بقوله: «فَاقْضُوا» والذي يَقضيه هو الفائتُ، إلا أنَّ روايةَ مَنْ روى «فَأَتِمُّوا» أكثرُ، وليس يستقيمُ على قولِ مَنْ قال: إنَّ ما أدركَ أوَّلُ صلاته، ويَطَّرِدُ، إلا ما قاله عبدُ العزيز بن أبي سَلَمَةَ الماجِشُون[٤]، والمُزَنيّ[٥]، وإسحاقُ، وداودُ، مِنْ أنه يقرأُ مع الإمامِ بالحمد وسورةٍ، إنْ أدركَ ذلك معه، وإذا قام للقضاء، قرأَ بالحمد وحدَها، فهؤلاء اطَّرَدَ على أصلِهم قولُهم وفِعْلُهم، رضي الله عنهم.

الثامنة: الإقامةُ تَمنَعُ من ابتداءِ صلاةٍ نافلة، قال رسول الله ﷺ: «إذا أُقيمَتِ الصَّلاةُ، فلا صلاةَ إلا المكتوبةُ» خرَّجه مسلمٌ وغيره[٦]، فأما إذا شَرَعَ في نافلةٍ، فلا

---

(١) في (د) و(ز): خواز منداد، وفي (ظ): حوار بنداد، والمثبت من (م)، وسلف ذكره ص ١٨٠.

(٢) ابن دينار، أبو محمد الغافقي، القرطبي، فقيه الأندلس ومفتيها، لزم عبد الرحمن بن القاسم العتقي مدة، وعوَّل عليه، توفي سنة (٢١٢هـ). السير ١٠/ ٤٣٩.

(٣) ابن علي بن نصر التغلبي العراقي، شيخ المالكية، له كتاب التلقين والمعرفة وغير ذلك. توفي سنة (٤٢٢هـ). السير ١٧/ ٤٢٩.

(٤) عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة، أبو عبد الله، التيمي مولاهم، المدني. توفي سنة (١٦٤هـ). وقيل: (١٦٦هـ). السير ٧/ ٣٠٩.

(٥) إسماعيل بن يحيى، أبو إبراهيم، المصري، تلميذ الإمام الشافعي، صاحب المختصر، قال الشافعي: المزني ناصر مذهبي، توفي سنة (٢٦٤هـ). السير ١٢/ ٤٩٢.

(٦) صحيح مسلم (٧١٠)، من حديث أبي هريرة. وهو في مسند أحمد (٩٨٧٣).

يَقْطَعُها؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣]، وخاصَّةً إذا صَلَّى ركعةً منها. وقيل: يقطَعُها لعموم الحديث في ذلك. والله أعلم.

التاسعة: واختلف العلماءُ فيمن دخَلَ المسجدَ، ولم يكُنْ ركعَ ركعتَي الفجر، ثم أُقيمَتِ الصلاةُ. فقال مالكٌ: يدخُلُ مع الإمام ولا يركَعُهما، وإنْ كان لم يدخُلِ المسجدَ، فإنْ لم يَخَفْ فواتَ ركعة، فَلْيَرْكَعْ خارجَ المسجد، ولا يركَعُهما في شيء من أفنيةِ المسجد ـ التي يُصلَّى[1] فيها الجمعةُ ـ اللَّاصقةِ بالمسجد. وإن خاف أَنْ تفوتَه الركعةُ الأولى، فَلْيدخُلْ ولْيُصَلِّ معه، ثم يُصَلِّيهما[2] إذا طلعت الشمسُ إنْ أحبَّ، ولأَنْ يُصَلِّيهما إذا طلعتِ الشمسُ أحبُّ إليَّ وأفضلُ مِنْ تَرْكِهما[3].

وقال أبو حنيفةَ وأصحابُه: إنْ خَشِيَ أَنْ تفوتَه الركعتان، ولا يدرك الإمامَ قبلَ رَفْعِه من الركوع في الثانية، دخَلَ معه، وإن رجا أن يُدرِكَ ركعةً، صَلَّى ركعتي الفجر خارجَ المسجد، ثم يدخُلُ مع الإمام. وكذلك قال الأوزاعيُّ، إلا أنه يُجَوِّزُ ركوعَهما في المسجد ما لم يَخَفْ فَوْتَ الركعةِ الأخيرة. وقال الثوري: إنْ خَشِيَ فَوْتَ ركعة، دخَلَ معهم ولم يُصَلِّهما، وإلا صلَّاهما وإن كان قد دخلَ المسجدَ. وقال الحسنُ بن حَيٍّ ـ ويقال ابن حَيَّان[4] ـ: إذا أخذ المقيمُ في الإقامة، فلا تطوُّعَ إلا ركعتي الفجر. وقال الشافعيُّ: مَنْ دخلَ المسجدَ وقد أُقيمتِ الصَّلاةُ، دخلَ مع الإمام، ولم يَرْكَعْهما، لا خارجَ المسجد ولا في المسجد. وكذلك قال الطبريُّ، وبه قال أحمدُ بنُ حنبل، وحُكي عن مالك، وهو الصحيحُ في ذلك؛ لقوله عليه السلام: «إذا أُقيمَتِ الصَّلاةُ، فلا صلاةَ إلا المكتوبة».

وركعتا الفجر إمَّا سنةٌ، وإمَّا فضيلةٌ، وإمَّا رغيبة، والحُجَّةُ عند التنازع السُّنةُ[5].

---

(١) في (م): تُصلّى.

(٢) في (ظ) في الموضعين: يصليها.

(٣) في النسخ: تركها، والمثبت من (م).

(٤) هو الحسن بن صالح بن صالح بن حيّ، أبو عبد الله الهَمْداني، الثوري، الكوفي، الفقيه، قال الذهبي: هو من أئمة الإسلام لولا تلبّسه ببدعة، توفي سنة (١٦٩هـ). السير ٧/ ٣٦١.

(٥) في (م): حجة السنة.

ومن حُجَّةِ قولِ مالك المشهور وأبي حنيفةَ: ما رُوي عن ابن عمرَ، أنه جاء والإمامُ يُصلِّي صلاةَ الصبح، فصلَّاهما في حُجرةِ حفصةَ، ثم إنه صلَّى مع الإمام[١].

ومن حُجَّةِ الثَّوريِّ والأوزاعيِّ ما رُويَ عن عبد الله بنِ مسعود، أنه دخلَ المسجدَ وقد أُقيمَتِ الصَّلاةُ، فصلَّى إلى أُسْطُوانة في المسجد ركعتَي الفجر، ثم دخلَ الصَّلاةَ بمحضَرٍ من حذيفةَ وأبي موسى رضي الله عنهما[٢]. قالوا: وإذا جاز أن يشتغل بالنافلة عن المكتوبة خارجَ المسجد، جاز له ذلك في المسجد، روى مسلمٌ عن عبد الله بن مالك بن بُحَيْنَةَ قال: أُقيمَتْ صلاةُ الصبح، فرأى رسولُ الله ﷺ رجلاً يُصَلِّي والمؤذِّنُ يقيمُ، فقال: «أَتُصَلِّي الصُّبحَ أربعاً؟!»[٣]. وهذا إنكارٌ منه ﷺ على الرجل لصلاته ركعتَي الفجر في المسجدِ والإمامُ يُصلِّي، ويمكن أن يُسْتَدلَّ به أيضاً على أنَّ ركعتَي الفجر إن وقعَتْ في تلك الحال صَحَّتْ؛ لأنه عليه السلام لم يقطَعْ عليه صلاتَه مع تمكُّنِه من ذلك، والله أعلم[٤].

العاشرة: الصلاةُ أصلُها في اللغة: الدُّعاءُ، مأخوذةٌ مِن صَلَّى يُصلِّي: إذا دعا، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «إذا دُعيَ أَحَدُكم إلى طعامٍ، فَلْيُجِبْ، فإنْ كان مُفطِراً، فَلْيَطْعَمْ، وإن كان صائماً، فَلْيُصَلِّ»[٥] أي: فَلْيَدْعُ.

وقال بعضُ العلماء: إنَّ المرادَ الصلاةُ[٦] المعروفة، فيُصلِّي ركعتين، وينصرِفُ، والأَوَّلُ أشهرُ، وعليه من العلماء الأكثرُ[٧].

---

(١) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٣٧٥، وابن عبد البر في التمهيد ٢٢/ ٧٣.

(٢) أخرجه الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٣٧٤.

(٣) صحيح مسلم (٧١١)، وهو في صحيح البخاري أيضاً (٦٦٣). وأخرجه الإمام أحمد (٢١٣٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) تنظر الأقوال الواردة في هذه المسألة في التمهيد ٢٢/ ٦٨-٧٤، والاستذكار ٥/ ٣٠٤ - ٣٠٧.

(٥) أخرجه أحمد في المسند (١٠٥٨٥)، ومسلم (١٤٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) في (د): بالصلاة.

(٧) في (ظ): أكثر.

ولما وَلدَتْ أسماءُ عبدَ الله بنَ الزبير، أرسلته إلى النبيِّ ﷺ. قالت أسماءُ: ثم مَسَحه، وصلَّى عليه[١]، أي: دعا له.

وقال تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣] أي: ادْعُ لهم.

وقال الأعشى[٢]:

تقول بِنْتي وقد قَرَّبتُ مُرْتَحِلًا ... يا ربِّ جَنِّبْ أبي الأَوْصابَ والوَجَعا

عليكِ مثل[٣] الذي صَلَّيتِ فاغْتمِضِي ... يوماً[٤] فإنَّ لجَنْبِ المرء مُضطجَعا

وقال الأعشى أيضاً[٥]:

وقابلَها الرِّيحُ في دَنِّها ... وصَلَّى على دَنِّها[٦] وارْتَسَمْ

ارتسمَ الرجلُ: كبَّرَ ودعا، قاله في «الصحاح»[٧].

وقال قومٌ: هي مأخوذةٌ من الصَّلا، وهو عِرْقٌ في وَسَطِ الظَّهر، ويفترقُ عند العَجْب، فيكتنفُه، ومنه أُخِذَ المُصَلِّي في سَبْقِ الخيل؛ لأنه يأتي في الحَلْبة ورأسُه عند صَلَوي السابق، فاشتُقَّتِ الصَّلاةُ منه؛ إمَّا لأنها جاءَتْ ثانيةً للإيمان، فَشُبِّهَتْ بالمُصَلِّي من الخيل، وإما لأنَّ الراكعَ تُثْنى[٨] صَلَواهُ[٩]. والصَّلا: مَغْرِزُ الذَّنَب من الفَرَس. والاثنان صَلَوان. والمُصَلِّي: تالي السابق؛ لأنَّ رأسَه عند صَلاهُ. وقال عليٌّ رضي الله عنه: سَبَقَ رسولُ الله ﷺ، وصَلَّى أبو بكر، وثَلَّثَ عمرُ[١٠].

---

(١) قطعة من حديث أخرجه مسلم في صحيحه (٢١٤٦).

(٢) في ديوانه ص ١٥١.

(٣) بالرفع أو النصب؛ قال أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٦٢: فمن رفع «مثل» جعله: عليكِ مثلُ ذلك الذي قلتِ لي ودعوتِ لي به، ومن نصبه جعله أمراً يقول: عليكِ بالترحم والدعاء لي.

(٤) في (م): نوماً، وهي رواية للبيت.

(٥) في ديوانه ص ٨٥.

(٦) الدَّنّ: هو وعاء ضخم للخمر ونحوها.

(٧) الصحاح (رسم).

(٨) في (د): يثنى، وفي (ظ): ينثني.

(٩) من قوله: قال قوم... من المحرر الوجيز ١/ ٨٥.

(١٠) أخرجه أحمد في المسند (٨٩٥)، وسيذكره المصنف عند تفسير الآية (١١) من سورة يوسف، والآية (١٠) من سورة الحديد.

وقيل: هي مأخوذةٌ من اللُّزوم، ومنه صَلِيَ بالنار: إذا لَزِمَها، ومنه﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية: ٤]. قال الحارثُ بنُ عُبَاد[١]:

لم أكُنْ من جُناتِها عَلِمَ اللّـ ـهُ وإنِّي بحرِّها اليومَ صالِ[٢]

أي: مُلازِمٌ لحرِّها.

وكأنَّ المعنى على هذا: مُلازَمةُ العبادةِ على الحدِّ الذي أمرَ الله تعالى به.

وقيل: هي مأخوذةٌ من صَلَّيْتُ العودَ بالنار: إذا قوَّمتَه ولَيَّنْتَه بالصِّلاء. والصِّلاءُ: صِلاءُ النار، بكسر الصاد ممدود، فإنْ فتحتَ الصادَ قَصَرْتَ، فقلتَ: صَلا النار، فكأنَّ المُصَلِّي يُقَوِّم نفسَه بالمعاناة فيها، ويَلينُ ويخشَع، قال الخارْزَنجي[٣]:

فلا تَعْجَلْ بأمرِكَ واسْتَدِمْهُ فما صَلَّى عصاكَ كَمُستديمِ

والصلاةُ: الدعاء، والصلاةُ: الرحمة، ومنه: «اللهمَّ صَلِّ على محمد» الحديث[٤].

والصلاةُ: العبادة، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الأنفال: ٣٥] الآية، أي: عبادتُهم.

والصلاةُ: النافلة، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه: ١٣٢].

---

(١) في النسخ: هناد، وهو خطأ، وهو الحارث بن عباد البكري، كان أحلم أهل زمانه وأشدهم بأساً، اعتزل الحرب بين بكر وتغلب ـ وهي حرب البسوس ـ ثم دخلها بعد أن قتل المهلهلُ ابنَ أخيه بجير بن عمرو. خزانة الأدب ١/ ٤٧٢.

(٢) تفسير الطبري ٦/ ٤٥٥، والأغاني ٥/ ٤٧، وخزانة الأدب ١/ ٤٧٣.

(٣) كذا وقع في النسخ، والبيت لقيس بن زهير العبسي، كما في اللسان والصحاح (صلا)، وقد ذكره الخارزنجي، فيما ذكر ابنُ عادل الحنبلي في اللباب ١/ ٢٩٠، ثم قال: وهو مشكل، فإن الصلاة من ذوات الواو، وهذا من الياء. اهـ والخارزنجي هو: أحمد بن محمد، أبو حامد البشتي، إمام أهل الأدب بخراسان في عصره، له كتاب التكملة، كمّل به كتاب العين. توفي سنة (٣٤٨هـ). إنباه الرواة ١/ ١٠٧.

(٤) روي من أحاديث عدد من الصحابة، منهم طلحة بن عبيد الله، وأبو سعيد الخدري، وأبو مسعود الأنصاري وكعب بن عجرة، وأبو حُميد الساعدي. ينظر مسند أحمد (١٣٩٦) و(١١٤٣٣) و(١٧٠٧٢) و(١٨١٠٤) و(٢٣٦٠٠).

والصلاةُ: التسبيح، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات: ١٤٣] أي: من المُصَلِّين، ومنه سُبْحةُ الضُّحى. وقد قيل في تأويل ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠]: نصلِّي.

والصلاةُ: القراءة، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ [الإسراء: ١١٠]، فهي لفظٌ مُشتركٌ. والصلاةُ: بيتٌ يُصَلَّى فيه، قاله ابنُ فارس[١].

وقد قيل: إنَّ الصلاةَ اسمُ عَلَم وُضِعَ لهذه العبادة، فإنَّ الله تعالى لم يُخْلِ زماناً من شَرْع، ولم يَخْلُ شرعٌ من صلاة، حكاه أبو نصر القُشَيْريّ.

قلتُ: فعلى هذا القولِ لا اشتقاقَ لها، وعلى قولِ الجمهور، وهي:

الحادية عشرة: اختلف الأصوليُّون: هل هي مبقاةٌ على أصلها اللُّغويِّ الوضعيِّ الابتدائيِّ، وكذلكَ الإيمانُ والزكاةُ والصيامُ والحجُّ، والشرعُ إنما تصرَّفَ بالشروطِ والأحكام، أو هل تلك الزيادةُ من الشرع تُصَيِّرها[٢] موضوعةً كالوضع الابتدائيّ من قِبَلِ الشرع؟ هنا اخْتلافُهم، والأَوَّلُ أصحُّ؛ لأنَّ الشريعةَ نَبَتَتْ بالعربية، والقرآنُ نزلَ بها بلسان عربيٍّ مبين، ولكن للعرب تحكُّم في الأسماء، كالدَّابةِ وُضِعَتْ لكلِّ ما يَدِبُّ، ثم خَصَّصَها العُرْفُ بالبهائم، فكذلك لِعُرفِ الشرع تحكُّمٌ في الأسماء، والله أعلم.

الثانية عشرة: واختُلِفَ في المرادِ بالصلاةِ هنا، فقيل: الفرائضُ، وقيل: الفرائضُ والنوافلُ معاً، وهو الصحيحُ؛ لأنَّ اللفظَ عامٌّ، والمتَّقي يأتي بهما.

الثالثة عشرة: الصلاةُ سببٌ للرزق، قال الله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [طه: ١٣٢]، الآية، على ما يأتي بيانه في «طه» إن شاء الله تعالى. وشفاءٌ من وَجَعِ البطن وغيرِه، روى ابنُ ماجه، عن أبي هريرةَ قال: هَجَّرَ النبيُّ ﷺ، فهجَّرْتُ[٣]، فصلَّيتُ، ثم جلستُ، فالتفتَ إليَّ النبيُّ ﷺ، فقال: «اشكَمَتْ دَرْدَه» قلتُ: نعم يا رسولَ الله، قال: «قُمْ فَصَلِّ، فإنَّ في الصلاةِ شِفاءً». وفي[٤] رواية: «اشكَمَت دَرْد» يعني: تشتكي

(١) في مجمل اللغة (صلى) ٢/٥٣٨.

(٢) في النسخ: يصيرها، والمثبت من (م).

(٣) من هذا الموضع إلى قوله: لأنه مخالف للسواد ص ٢٨٣ سقط من (ز).

(٤) في (د) و(م): في رواية، والمثبت من (ظ).

بطنَك؟ بالفارسية[١]. وكان عليه الصلاة والسلام إذا حَزَبَهُ أمْرٌ، فَزِعَ إلى الصَّلاة[٢].

الرابعة عشرة: الصلاةُ لا تَصِحُّ إلا بشروطٍ وفروض، فمن شُروطها: الطهارةُ، وسيأتي بيانُ أحكامها في سورة النساء والمائدة[٣]. وسَتْرُ العورة، يأتي في الأعراف[٤] القولُ فيها إن شاء الله تعالى.

وأما فروضُها: فاستقبالُ القبلةِ[٥]، والنيةُ، وتكبيرةُ الإحرام، والقيامُ لها، وقراءةُ أمِّ القرآن، والقيامُ لها، والركوعُ، والطُّمأنينةُ فيه، ورفعُ الرأس من الركوع، والاعتدالُ فيه، والسجودُ، والطُّمأنينةُ فيه، ورفعُ الرأسِ من السجود، والجلوسُ بين السجدتين، والطُّمأنينةُ فيه، والسجودُ الثاني، والطُّمأنينةُ فيه. والأصلُ في هذه الجُملةِ حديثُ أبي هريرةَ في الرجل الذي علَّمه النبيُّ ﷺ الصلاةَ لمَّا أخَلَّ بها، فقال له: «إذا قمت إلى الصلاةِ، فأسْبِغِ الوضوءَ، ثم استقبلِ القبلةَ، ثم كَبِّرْ، ثم اقرَأْ ما تَيَسَّرَ معك من القرآن، ثم ارْكَعْ حتى تَطْمَئِنَّ راكعاً، ثم ارفَعْ حتى تَعْتَدِلَ قائماً، ثم اسْجُدْ حتى تطمئنَّ ساجداً، ثم ارفَعْ حتى تطمئنَّ جالساً، ثم افعَلْ ذلك في صلاتِكَ كلِّها» خرَّجه مسلم[٦].

ومثلُه حديثُ رِفاعةَ بن رافع[٧]، أخرجه الدارقطنيُّ وغيرُه[٨].

قال علماؤنا: فبيَّنَ[٩] ﷺ أركانَ الصلاة، وسكتَ عن الإقامةِ، ورَفْعِ اليَدَيْن،

---

(١) سنن ابن ماجة (٣٤٥٨). وفي إسناده ذوَّاد بن عُلْبة، ولَيْثُ بنُ أبي سُليم، وكلاهما ضعيف، وأخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية (٢٧١) (٢٧٢) (٢٧٣)، وأخرجه أيضاً (٢٧٤) عن أبي الدرداء، ثم قال: هذان حديثان لا يصحَّان.

(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢٣٢٩٩)، وأبو داود (١٣١٩)، والطبري في التفسير ١/٦١٨-٦١٩ (واللفظ له) من حديث حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

(٣) النساء الآية (٤٣)، والمائدة الآية (٦).

(٤) الآية (٢٦).

(٥) الأكثر على أن استقبال القبلة شرط في صحة الصلاة.

(٦) (٣٩٧): (٤٦)، وأخرجه أيضاً أحمد (٩٦٣٥)، والبخاري (٧٥٧).

(٧) الأنصاري، الخزرجي، شهد بدراً والعقبة وبقية المشاهد، مات سنة (٤١هـ)، الإصابة ٣/ ٢٨١.

(٨) سنن الدارقطني ١/ ٩٥-٩٦، وأخرجه أحمد في المسند (١٨٩٩٧).

(٩) في (م): فبين قوله.

وعن حَدِّ القراءة، وعن تكبيرِ الانتقالات، وعن التسبيحِ في الركوع والسجود، وعن الجَلْسةِ الوسطى، وعن التَّشهُّدِ، وعن الجَلْسةِ الأخيرةِ، وعن السَّلام.

أمَّا الإقامةُ وتعيينُ الفاتحة، فقد مضى الكلامُ فيهما[١].

وأما رَفْعُ اليَدَيْن، فليس بواجبٍ عند جماعةِ العلماء وعامَّةِ الفقهاء، لحديث أبي هريرةَ وحديثِ رِفاعةَ بن رافع. وقال داودُ وبعضُ أصحابه بوجوب ذلك عند تكبيرةِ الإحرام. وقال بعضُ أصحابه: الرفعُ عند الإحرامِ وعندَ الركوع وعند الرفع من الركوع واجبٌ، وإنَّ مَنْ لم يرفَعْ يديه، فصلاتُهُ باطلةٌ، وهو قولُ الحُميديِّ[٢]، وروايةٌ عن الأوزاعيّ.

واحتجُّوا بقوله عليه السلام: «صَلُّوا كما رَأَيْتُموني أُصَلِّي» أخرجه البخاري[٣]. قالوا: فوجبَ علينا أَنْ نفعلَ كما رأيناه يفعَلُ؛ لأنه المبلِّغُ عن الله مرادَه.

وأما التكبيرُ ما عدا تكبيرةَ الإحرام، فمسنونٌ عند الجمهور، للحديث المذكور. وكان ابنُ القاسم صاحبُ مالك يقول: مَنْ أسقطَ من التكبير في الصلاة ثلاثَ تكبيرات فما فوقَها، سَجَدَ للسهو قبلَ السلام، وإنْ لم يسجُدْ بطلَتْ صلاتُه، وإنْ نَسِيَ تكبيرةً واحدةً أو اثنتين، سجدَ أيضاً للسهو، فإن لم يفعَلْ، فلا شيءَ عليه، ورُوِيَ عنه أنَّ التكبيرةَ الواحدةَ لا سهوَ على مَنْ سها فيها. وهذا يَدُلُّ على أنَّ عُظْمَ التكبير وجُملتَه عنده فرضٌ، وأنَّ اليسيرَ منه مُتجاوَزٌ عنه. وقال أَصْبَغُ بنُ الفَرَج[٤] وعبدُ الله بن عبد الحَكَم[٥]: ليس على مَنْ لم يُكَبِّرْ في الصلاة من أوَّلها إلى آخرها شيءٌ إذا كَبَّرَ تكبيرةَ الإحرام، فإنْ تَرَكَه ساهياً، سجدَ للسهو، فإن لم يسجُدْ، فلا شيءَ عليه، ولا ينبغي

(١) مضى الكلام عن تعيين الفاتحة في ص ١٨٠ ـ ١٨٢، ومضى الكلام عن الإقامة ص ٢٥٣ عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

(٢) هو عبد الله بن الزبير بن عيسى، أبو بكر القرشي، الأسدي، المكي، شيخ الحرم، صاحب المسند، توفي سنة (٢١٩هـ). السير ١٠/٦١٦.

(٣) صحيح البخاري (٦٣١)، وقد سلف ص ٦٧، وينظر الاستذكار ٤٠/١٠٣ و ١٠٧ والتمهيد ٩/٢١٣.

(٤) أبو عبد الله، الأموي مولاهم، مفتي الديار المصرية. توفي سنة (٢٢٥هـ). السير ١٠/٦٥٦.

(٥) أبو محمد، صاحب مالك، مفتي الديار المصرية، توفي سنة (٢١٤هـ) السير ١٠/٢٢٠.

لأحد أن يترُكَ التكبيرَ عامِداً؛ لأنه سنةٌ من سُنن الصلاة، فإن فعلَ، فقد أساء، ولا شيءَ عليه، وصلاتُه ماضِيةٌ[١].

قلت: هذا هو الصحيحُ، وهو الذي عليه جماعةُ فقهاءِ الأمصار من الشافعيين والكوفيين، وجماعةِ أهلِ الحديث، والمالكيين غيرَ من ذهب مَذْهَبَ ابنِ القاسم.

وقد تَرْجَمَ البخاريُّ رحمه الله: باب إتمام التكبير في الركوع والسجود. وساقَ حديثَ مُطَرِّف بن عبد الله[٢] قال: صلَّيتُ خلفَ عليٍّ بن أبي طالب أنا وعِمرانُ بنُ حُصين، فكان إذا سجدَ كبَّر، وإذا رفعَ رأسَه كبَّر، وإذا نهضَ من الركعتين كبَّر، فلما قضى الصلاةَ، أخذ بيدي عِمرانُ بنُ حُصين فقال: لقد ذكَّرني هذا صلاةَ محمدٍ ﷺ، أو قال: لقد صلَّى بنا صلاةَ محمدٍ ﷺ[٣]. وحديثَ عكرمةَ قال: رأيتُ رجلاً عند المقام يُكبِّرُ في كلِّ خَفْضٍ ورَفْع، وإذا قامَ، وإذا وَضَعَ، فأخبرتُ ابنَ عباس، فقال: أو ليس تلكَ صلاةَ النبيِّ ﷺ، لا أُمَّ لك[٤].

فدَلَّكَ البخاريُّ رحمه الله بهذا البابِ على أنَّ التكبيرَ لم يكن معمولاً به عندهم.

وروى[٥] أبو إسحاقَ السَّبِيعيُّ عن بُرَيْدِ[٦] بنِ أبي مريم، عن أبي موسى الأشعري قال: صلَّى بنا عليٌّ يومَ الجَمَلِ صلاةً أذْكَرَنا بها صلاةَ رسولِ الله ﷺ؛ كان يُكَبِّرُ في كلِّ خَفْضٍ ورَفْع، وقيامٍ وقُعود. قال أبو موسى: فإمّا نسيناها، وإما تَرَكْناها عَمْداً[٧].

قلتُ: أتراهم أعادوا الصلاة! فكيف يُقال: مَنْ ترك التكبيرَ بَطَلَتْ صلاتُهُ؟! ولو

---

(١) التمهيد ٩/ ١٨٤.

(٢) هو مطرف بن عبد الله بن الشخير، أبو عبد الله الحَرشي، العامري، البصري، توفي سنة (٩٥هـ) وقيل غير ذلك. السير ٤/ ١٨٧.

(٣) صحيح البخاري (٧٨٦). وهو في مسند أحمد (١٩٩٥٢).

(٤) صحيح البخاري (٧٨٧). وهو في مسند أحمد (٣٠١٤).

(٥) في (م): روى.

(٦) في (م): يزيد، وهو خطأ.

(٧) أخرجه أحمد (١٩٤٩٨)، والطحاوي في شرح معاني الآثار» ١/ ٢٦٧، وابن عبد البر في «التمهيد» ٩/ ١٧٥ من الطريق الذي ذكرها المصنف، وأخرجه أيضاً أحمد (١٩٧٢٢) بزيادة رجل من بني تميم في إسناده بين أبي إسحاق السَّبِيعي وبُريد، وهو الصواب فيما ذكر الدارقطني في العلل ٧/ ٢٢٤.

كان ذلك، لم يكن فرقٌ بين السُّنةِ والفَرْض، والشيءُ إذا لم يَجِبْ أفرادُه، لم يَجِبْ جميعُه، وبالله التوفيق.

الخامسة عشرة: وأما التسبيحُ في الركوع والسجود، فغيرُ واجب عند الجمهور، للحديث المذكور، وأوجبه إسحاقُ بنُ راهَوَيه، وأنَّ من تَركَه، أعاد الصلاةَ، لقوله عليه السلام: «أمَّا الركوعُ، فَعَظِّمُوا فيه الربَّ، وأمَّا السجودُ، فاجتهدوا في الدعاء، فَقَمِنٌ أنْ يُسْتَجابَ لكم[1]».

السادسة عشرة: وأما الجلوسُ والتشهدُ، فاختلفَ العلماءُ في ذلك، فقال مالكٌ وأصحابُه: الجلوسُ الأوَّلُ والتشهُّدُ له سُنَّتان. وأوجبَ جماعةٌ من العلماء الجلوسَ الأوَّل، وقالوا: هو مخصوصٌ من بين سائرِ الفروضِ بأن ينوبَ عنه السجودُ، كالعَرايا من المُزَابنة، والقِراضِ من الإجارات، وكالوقوفِ بعد الإحرام لمن وجدَ الإمامَ راكعاً. واحتجُّوا بأنه لو كان سُنَّةً، ما كان العامِدُ لتركِه تبطُلُ صلاتُه كما لا تبطُلُ بتركِ سنن الصلاة.

واحتجَّ من لم يُوجِبْه بأنْ قال: لو كان من فرائض الصلاةِ، لَرَجَعَ السَّاهي عنه إليه حتى يأتيَ به، كما لو ترك سجدةً أو ركعةً، ويُراعي فيه ما يُراعي في الركوع والسجودِ من الوِلاءِ والرُّتبة، ثم يسجدُ لسهوِه كما يصنَعُ مَن تركَ ركعةً أو سجدةً وأتى بهما[2].

وفي حديث عبد الله بن بُحَيْنةَ[3]: أنَّ رسولَ الله ﷺ قام من ركعتين، ونَسِيَ أن يتشهَّدَ، فسبَّحَ الناسُ خلفَه كَيْما يَجلِسُ، فثبتَ قائماً، فقاموا، فلما فَرَغَ من صلاته، سَجَدَ سجدتي السهو قبلَ التسليم[4]. فلو كان الجلوسُ فرضاً، لم يُسقِطْهُ النِّسْيانُ

---

(١) قطعة من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، أخرجه أحمد في المسند (١٩٠٠)، ومسلم (٤٧٩) وسيذكره المصنف في تفسير الآية الأخيرة من سورة العَلَق.

(٢) التمهيد ١٠/ ١٨٨ ـ ١٩١، والاستذكار ٤/ ٣٧٣ ـ ٣٧٥.

(٣) هو عبد الله بن مالك بن القِشْب، أبو محمد الأزدي، وبُحينة أمه، كان حليف بني المطلب بن عبد مناف، له صحبة، توفي سنة (٥٦هـ). الإصابة ٦/ ٢٠٤.

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٢٢٩١٩)، والبخاري (٨٢٩)، ومسلم (٥٧٠). وليس فيه لفظ: «فسبح الناس خلفه» وإنما ورد هذا اللفظ في حديث المغيرة بن شعبة كما في مصادر الحديث، ينظر مسند أحمد (١٨١٦٣).

والسَّهْو؛ لأنَّ الفرائضَ في الصلاة يستوي في تَرْكها السهوُ والعَمْدُ، إلا في المأثم[١].

واختلفوا في حُكْم الجلوسِ الأخير في الصلاة، وما الفرضُ[٢] من ذلك، وهي:

السابعة عشرة: على خمسة أقوال:

أحدها: أنَّ الجلوسَ فرضٌ، والتشهُّدَ فرضٌ، والسلامَ فرضٌ. وممن قال ذلك الشافعيُّ وأحمدُ بنُ حنبل في رواية، وحكاه أبو مصعب[٣] في «مختصره» عن مالك وأهلِ المدينة، وبه قال داود. قال الشافعي: مَنْ ترك التشهدَ الأوَّلَ، والصلاةَ على النبيِّ ﷺ، فلا إعادةَ عليه، وعليه سجدتا السهو لِتركِهِ. وإذا تَرَكَ التشهدَ الأخيرَ ساهياً أو عامداً، أعاد.

واحتجُّوا بأنَّ بيانَ النبيِّ ﷺ في الصلاة فرضٌ؛ لأنَّ أصلَ فَرْضِها مجملٌ يفتقرُ[٤] إلى البيان، إلا ما خرج بدليل. وقد قال ﷺ: «صَلُّوا كما رَأيتموني أُصلِّي»[٥].

القول الثاني: إنَّ الجلوسَ والتشهُّدَ والسلامَ ليس بواجب، وإنما ذلك كلُّه سنةٌ مسنونةٌ. هذا قولُ بعضِ البصريين، وإليه ذهبَ إبراهيمُ ابنُ عُليَّة[٦]، وصرَّح بقياس الجَلْسةِ الآخرة[٧] على الأُولى، فخالَفَ الجمهورَ وشَذَّ، إلا أنه يَرى الإعادةَ على من تركَ شيئاً من ذلك كلِّه.

ومن حُجَّتهم حديثُ عبد الله بنِ عَمرو بن العاص عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا رَفَعَ الإمامُ رأسَه من آخِرِ سجدةٍ في صلاته، ثم أَحْدَثَ، فقد تَمَّتْ صلاتُه». وهو حديثٌ

---

(١) في (د) و(م): المؤتم، وهو خطأ. وينظر التمهيد ١٠/ ١٩٦، والاستذكار ٤/ ٣٧٤.

(٢) في (م): الغرض.

(٣) هو أحمد بن أبي بكر القاسم بن الحارث، الزهري، الفقيه، قاضي المدينة، لازم مالكاً وتَفَقَّه به. توفي سنة (٢٤١هـ) وقيل: (٢٤٢هـ). «السير» ١١/ ٤٣٦.

(٤) في (ظ): مفتقر.

(٥) سلف الحديث ص ٦٧ و٢٦٣، وتنظر الأقوال التي ذكرها المصنف في التمهيد ١٠/ ٢١١، والاستذكار ٤/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣، والأوسط ٣/ ٢١٨.

(٦) إبراهيم بن إسماعيل ابن علية، جَهْميٌّ هالك، كان يقول بخلق القرآن، له مصنَّفاتٌ في الفقه تُشبه الجدل، قال الشافعي: ابنُ عُلَيَّة ضالٌّ. وقال أحمد بنُ حنبل: ضالٌّ مُضلّ. توفّي سنة (٢١٨هـ). تاريخ بغداد ٦/ ٢٠، وميزان الاعتدال ١/ ٢٠.

(٧) في (م): الأخيرة.

لا يَصِحُّ على ما قاله أبو عمر[١]، وقد بيَّناه في كتاب «المقتبس»[٢]. وهذا اللفظُ إنما يُسقِطُ السلامَ، لا الجلوسَ.

القول الثالث: إنَّ الجلوسَ مقدارَ التشهدِ فرضٌ، وليس التشهدُ ولا السلامُ بواجب فرضاً. قاله أبو حنيفةَ وأصحابُه وجماعةٌ من الكوفيين. واحتجُّوا بحديث ابنِ المبارك، عن الإفريقيِّ عبدِ الرحمن بن زياد، وهو ضعيفٌ، وفيه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إذا جلسَ أحدُكم في آخِرِ صلاته، فأحدَثَ قبلَ أن يُسَلِّمَ، فقد تَمَّتْ صلاتُه»[٣].

قال ابنُ العربي: وكان شيخُنا فخرُ الإسلام يُنشِدُنا في الدرس:

ويَرى الخروجَ من الصلاةِ بِضَرْطَةٍ أينَ الضُّراطُ مِنَ السلامُ عليكُم!

قال ابنُ العربي: وسلكَ بعضُ علمائنا من هذه المسألةِ فرعين ضعيفين، أما أحدُهما: فروى عبدُ الملك[٤] عن عبدِ الملك، أنَّ من سلَّمَ من ركعتين متلاعباً، فخرج البيانُ أنه إن كان على أربع أنه يُجزِئه، وهذا مذهبُ أهل العراق بعينه. وأما الثاني: فوقع في الكتب المنبوذة، أنَّ الإمامَ إذا أحدثَ بعد التشهُّدِ مُتعمِّداً وقبلَ السلام، أنه يُجزِئُ مَنْ خَلْفَه، وهذا ممَّا لا ينبغي أن يُلتفَتَ إليه في الفتوى، وإن عَمَرَتْ به المجالسُ للذِّكرى[٥].

القول الرابع: إنَّ الجلوسَ فرضٌ، والسلامَ فرضٌ، وليس التشهُّدُ بواجب، وممّن قال هذا: مالكُ بنُ أنس، وأصحابُه، وأحمدُ بنُ حنبل في رواية. واحتجُّوا بأنْ قالوا: ليس شيءٌ من الذِّكْر يجبُ إلا تكبيرةَ الإحرام، وقراءةَ أمِّ القرآن [والتسليم][٦].

---

(١) في التمهيد ١٠/ ٢١٤، والاستذكار ٤/ ٣٨٤. والحديث المذكور أخرجه بنحوه الطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ ٢٧٤-٢٧٥، والبيهقي في السنن الكبرى ٢/ ١٣٩.

(٢) هو المقتبس في شرح موطأ مالك بن أنس، كما سيصرح به المصنف في أكثر من موضع.

(٣) هو نفسه الحديث الذي ذكره المصنف في القول الثاني، وهذا أحد ألفاظه، وقال فيه ابن عبد البر في التمهيد ١٠/ ٢١٤: لا يصح لضعف سنده واختلافهم في لفظه.

(٤) ابنُ حبيب، وسلف ذكره ص ١٨٣، وأما عبد الملك (الذي بعده، وهو شيخه) فهو ابن عبد العزيز بن الماجشون، تلميذ الإمام مالك توفي سنة (٢١٣هـ). السير ١٢/ ١٠٢ و١٠/ ٣٥٩.

(٥) لم نجد قول ابن العربي فيما بين أيدينا من مصادر.

(٦) ما بين حاصرتين من التمهيد ١٠/ ٢١٢، والاستذكار ٤/ ٣٨٣.

القول الخامس: إنَّ التشهُّدَ والجلوسَ واجبان، وليس السلامُ بواجب، قاله جماعةٌ، منهم إسحاقُ بن راهويه، واحتجَّ إسحاقُ بحديث ابن مسعود حين علَّمه رسولُ الله ﷺ التشهُّدَ، وقال له: «إذا فَرَغْتَ مِن هذا، فقد تَمَّتْ صلاتُك، وقضيتَ ما عليكَ»[١].

قال الدارقطني: قوله: «إذا فَرَغْتَ مِن هذا، فقد تَمَّتْ صلاتُك» أدرجَه بعضُهم عن زهير في الحديث، ووصلَه بكلام النبيِّ ﷺ، وفَصَلَه شَبَابَةُ عن زهير، وجعلَه من كلام ابن مسعود، وقولُه أشبهُ بالصواب مِن قول مَنْ أدرجَه في حديث النبيِّ ﷺ. وشَبَابةُ ثقةٌ. وقد تابعه غسانُ بنُ الربيع على ذلك، جَعَلَ آخِرَ الحديثِ من كلام ابنِ مسعود، ولم يرفَعْه إلى النبيِّ ﷺ[٢].

الثامنة عشرة: واختلفَ العلماءُ في السلام، فقيل: واجبٌ، وقيل: ليس بواجب. والصحيحُ وجوبُه، لحديث عائشةَ[٣] وحديثِ عليٍّ الصحيحِ، خرَّجه أبو داود والترمذيُّ، رواه[٤] سفيانُ الثوريُّ عن عبد الله بن محمد بن عَقِيل، عن محمد ابنِ الحنفيَّة، عن عليٍّ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مِفْتاحُ الصَّلاةِ الطُّهورُ، وتَحرِيمُها التَّكبيرُ، وتَحلِيلُها التَّسليمُ»[٥].

وهذا الحديثُ أصلٌ في إيجاب التَّكبير والتَّسليم، وأنه لا يُجزِئُ عنهما غيرُهما، كما لا يُجزِئُ عن الطهارة غيرُها باتِّفاق.

قال عبدُ الرحمن بنُ مَهْدي[٦]: لو افتتحَ رجلٌ صلاتَه بسبعين اسماً من أسماء الله

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٤٠٠٦)، وأبو داود (٩٧٠)، وابن حبان (١٩٦٢)، والدارقطني في السنن ١/ ٣٥٣ و٣٥٤، والبيهقي في السنن الكبرى ٢/ ١٧٥. والقولان الرابع والخامس في التمهيد ١٠/ ٢١٢ و٢١٤، والاستذكار ٤/ ٣٨٣-٣٨٤.

(٢) سنن الدارقطني ١/ ٣٥٣، والعلل له ٥/ ١٢٨. وزهير: هو ابن معاوية، وشَبَابة: هو ابن سَوَّار.

(٣) قالت: كان رسول الله ﷺ يستفتح الصلاة بالتكبير... وكان يختم الصلاة بالتسليم. أخرجه أحمد (٢٤٠٣٠)، ومسلم (٤٩٨)، وسيذكره المصنف في الصفحة التالية.

(٤) في (م): ورواه.

(٥) سنن أبي داود (٦١) و(٦١٨)، وسنن الترمذي (٣). وهو في مسند أحمد (١٠٠٦). وسلف قطعة منه ص ٢٥٤. قال الترمذي: هذا الحديث أصحُّ شيء في هذا الباب وأحسن.

(٦) أبو سعيد العنبري، وقيل: الأزدي مولاهم، البصري، الناقد، توفي سنة (١٩٨هـ). السير ٩/ ١٩٢.

عزَّ وجلّ، ولم يُكبِّرْ تكبيرةَ الإحرام، لم يَجْزِهِ، وإن أحدثَ قبلَ أن يُسَلِّمَ لم يَجْزِهِ. وهذا تصحيحٌ من عبدِ الرحمن بنِ مهديٍّ لحديثِ عليٍّ، وهو إمامٌ في علم الحديث ومعرفةِ صحيحِه من سَقِيمِه، وحَسْبُك به[١].

وقد اختلف العلماءُ في وجوب التكبيرِ عند الافتتاح، وهي:

التاسعة عشرة: فقال ابنُ شِهاب الزهريُّ، وسعيدُ بنُ المسيِّب، والأوزاعيُّ، وعبدُ الرحمن، وطائفةٌ: تكبيرةُ الإحرام ليست بواجبة. وقد رُوِيَ عن مالك في المأموم ما يَدُلُّ على هذا القول، والصحيحُ مِن مذهبه إيجابُ تكبيرةِ الإحرام، وأنها فَرْضٌ وركنٌ من أركان الصلاة، وهوالصوابُ، وعليه الجمهورُ، وكلُّ مَنْ خالفَ ذلكَ فَمَحْجُوجٌ بالسنَّة[٢].

الموفية عشرين: واختلف العلماءُ في اللَّفظ الذي يدخلُ به في الصلاة. فقال مالكٌ وأصحابُه، وجمهورُ العلماء: لا يُجْزِئُ إلا التكبيرُ، لا يُجزِئُ منه تهليلٌ، ولا تسبيحٌ، ولا تَعظيمٌ، ولا تَحميدٌ. هذا قولُ الحجازيين وأكثر العراقيين. ولا يُجزئُ عند مالك إلا «الله أكبر» لا غيرُ ذلك. وكذلك قال الشافعيُّ، وزاد: ويُجزِئُ «الله الأكبر»، و«الله الكبير». والحُجَّةُ لمالك حديثُ عائشةَ قالت: كان رسولُ الله ﷺ يَسْتَفْتِحُ الصلاةَ بالتَّكبير، والقراءةَ بـ «الحمدُ لله رَبِّ العالمين»، وحديثُ عليٍّ: «وتَحرِيمُها التَّكبيرُ»[٣]، وحديثُ الأعرابي: «فَكَبِّرْ»[٤]. وفي «سنن» ابن ماجه: حدَّثنا أبو بكر بنُ أبي شيبةَ وعليُّ بنُ محمد الطَّنافِسِيُّ قالا: حدثنا أبو أُسامةَ قال: حدثني عبدُ الحميد بنُ جعفر قال: حدثنا محمدُ بنُ عمرو بنِ عطاء قال: سمعتُ أبا حُمَيْدٍ الساعِديَّ يقول: كان رسول الله ﷺ إذا قامَ إلى الصلاةِ، استقبلَ القِبلةَ، ورَفَعَ يَدَيْه، وقال: «الله أكبرُ»[٥].

---

(١) الاستذكار ٤/١٢٦، والتمهيد ٩/١٨٦.

(٢) الاستذكار ٤/١٢٧، والتمهيد ٩/١٨٦.

(٣) سلف الحديثان في الصفحة السابقة.

(٤) سلف في ص ٢٦٢ من حديث أبي هريرة ورفاعة.

(٥) سنن ابن ماجه (٨٠٣)، ولم نجد في المطبوع منه طريق ابن أبي شيبة، وقد أشار إليه المِزِّي في تحفة الأشراف ٩/١٥١، وأخرجه أحمد (٢٣٥٩٩) عن يحيى بن سعيد القطان، عن عبد الحميد بن جعفر، به، مطولاً.

وهذا نصٌّ صريحٌ، وحديثٌ صحيحٌ في تعيين لَفْظِ التَّكبير. وقال[١] الشاعرُ:

رأيتُ الله أكبرَ كلِّ شيءٍ محاولةً وأعظمَه جنودا[٢]

ثم إنه يَتَضَمَّنُ القَدْر[٣]، وليس يَتضمَّنُه كبيرٌ، ولا عَظيمٌ، فكان أبلغَ في المعنى، والله أعلم.

وقال أبو حنيفة: إنِ افتتَحَ بلا إله إلا الله، يَجْزِيه، وإن قال: اللهمَّ اغفِرْ لي، لم يَجْزِه، وبه قال محمدُ بنُ الحسن.

وقال أبو يوسف: لا يُجزِئه إذا كان يُحسِنُ التَّكبيرَ. وكانَ الحَكَمُ بنُ عُتَيْبة[٤] يقول: إذا ذَكَر الله مكانَ التَّكبير، أَجْزَأه.

قال ابنُ المنذر: ولا أعلمُهم يختلفون أنَّ مَنْ أحسَنَ القراءةَ، فهلَّلَ وكبَّرَ، ولم يقرأْ، أنَّ صلاتَه فاسدةٌ، فمن كان هذا مذهبَه، فاللَّازِمُ له أن يقولَ: لا يَجْزِيه مكانَ التكبير غيرُه. كما لا يَجزِي مكانَ القراءة غيرُها. وقال أبو حنيفة: يَجْزِيه التكبيرُ بالفارسية وإن كان يُحسِنُ العربية.

قال ابنُ المنذر: لا يَجزِيه؛ لأنه خِلافُ ما عليه جماعاتُ المسلمين، وخِلافُ ما علَّمَ النبيُّ ﷺ أُمَّتَهُ، ولا نعلَمُ أحداً وافقَه على ما قال. والله أعلم[٥].

الحادية والعشرون: واتفقتِ الأُمَّةُ على وجوبِ النيةِ عندَ تكبيرةِ الإحرام إلا شيئاً رُوِيَ عن بعض أصحابنا يأتي الكلامُ عليه في آية الطهارة.

وحقيقتُها: قَصْدُ التقرُّبِ إلى الآمر بفعل ما أَمَرَ به على الوجهِ المطلوب منه.

قال ابنُ العربي: والأصلُ في كلِّ نيةٍ أن يكونَ عَقْدُها مع التَّلَبُّسِ بالفعلِ المَنْويِّ

---

(١) في (م): قال.

(٢) قائله خِداش بن زهير، والبيت في ديوانه ص ٤١، وفيه: أكثر، وذكره المبرد في المقتضب ٤/ ٩٧، وعنده: محافظة وأكثرهم، بدل: محاولة وأعظمه. وذكره العيني في شرح الشواهد ٢/ ٣٧١، ضمن قصيدة.

(٣) في (د) و(م): القدم.

(٤) في (د): الحسن بن عتيبة، وفي (ظ): الحسن وابن عتيبة، وكلاهما خطأ، والمثبت من مصادر التخريج.

(٥) الأوسط ٣/ ٧٦ ـ ٧٨، والاستذكار ٤/ ١٣١ ـ ١٣٤.

بها، أو قبلَ ذلك بشرط استصحابِها، فإنْ تقَدَّمَتِ النِّيَّةُ، وطرأَتْ غَفْلَةٌ، فوقَعَ التَّلَبُّسُ بالعبادة في تلك الحالةِ لم يُعتَدَّ بها، كما لا يُعتَدُّ بالنيةِ إذا وقعَتْ بعد التَّلَبُّسِ بالفعل، وقد رُخِّصَ في تقديمها في الصوم لِعِظَمِ الحَرَجِ في اقترانها بأوَّله.

قال ابنُ العربي: وقال لنا أبو الحسن القروي بثَغْر عَسْقَلان: سمعتُ إمامَ الحرمين يقول: يُحضِرُ الإنسانُ عند التَّلَبُّس بالصلاة النِّيةَ، ويُجَرِّدُ النَّظَرَ في الصانع، وحدوث العالَم، والنبوَّات حتى ينتهيَ نظرُه إلى نِيَّةِ الصلاة، قال: ولا يَحتاجُ ذلك إلى زمان طويل، وإنما يكونُ ذلك في أوحى لحظةٍ؛ لأنَّ تعليمَ الجُمَلِ يفتقرُ إلى الزمان الطويل، وتَذْكارُها يكونُ في لحظة. ومِن تمامِ النِّيةِ أن تكونَ مُستصحَبةً على الصلاة كلِّها، إلا أنَّ ذلك لمَّا كان أمراً يُتعذَّرُ[1]، سمحَ الشرعُ في عُزوب النِّيةِ في أثنائها.

سمعتُ شيخَنا أبا بكر الفِهري[2] بالمسجد الأقصى يقولُ: قال محمدُ بن سُحنون: رأيتُ أبي سُحنوناً[3] ربَّما يُكْمِلُ الصلاةَ، فَيُعِيدُها، فقلتُ له: ما هذا؟ فقال: عَزَبَتْ نِيَّتي في أثنائها، فلأجل ذلك أَعَدْتُها.

قلتُ: فهذه جُملةٌ من أحكام الصلاة، وسائرُ أحكامِها يأتي بيانُها في مواضِعها من هذا الكتاب بحول الله تعالى، فيأتي ذِكْرُ الركوع، وصلاةِ الجماعة، والقِبلةِ، والمبادرةِ إلى الأوقات، وبعضِ صلاة الخوف في هذه السورة، ويأتي ذِكْرُ قَصْرِ الصَّلاة، وصلاةِ الخوف في «النساء»[4]، والأوقاتِ في «هود»، و«سبحان» و«الروم»[5] وصلاةِ الليل في «المزمل»[6]، وسجودِ التلاوة في «الأعراف»[7]، وسجودِ الشُّكر في «ص»[8]، كلٌّ في مَوْضعِه إن شاء الله تعالى.

---

(١) في (م): يتعذر عليه.

(٢) محمد بن الوليد الأندلسي، الطُّرْطُوشي، شيخ المالكية. توفي سنة (٥٢٠هـ) انظر السير ١٩/ ٤٩٠.

(٣) عبد السلام بن حبيب، التنوخي، الحمصي الأصل، المالكي، قاضي القيروان، وصاحب المدونة. توفي سنة (٢٤٠هـ). السير ١٢/ ٦٣.

(٤) الآية (١٠١).

(٥) هود الآية (١١٤)، والإسراء الآية (٧٨)، والروم الآيتان (١٧) و(١٨).

(٦) الآيات (١ ـ ٤) و(٢٠).

(٧) الآية (٢٠٦).

(٨) الآية (٢٤).

الثانية والعشرون: قولُه تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾: رزقناهم: أعطيناهم. والرِّزق عند أهل السُّنة: ما صَحَّ الانتفاعُ به، حلالاً كان أو حراماً، خلافاً للمعتزلة في قولهم: إنَّ الحرامَ ليس برزق؛ لأنه لا يَصِحُّ تَمَلُّكُهُ، وإنَّ الله لا يرزُقُ الحرامَ، وإنما يرزُقُ الحلالَ، والرِّزْقُ لا يكونُ إلا بمعنى المِلْك[١].

قالوا: فلو نشأ صَبيٌّ مع اللُّصوص، ولم يأكُلْ شيئاً إلا ما أطعموه[٢] اللصوص، إلى أن بلغ، وقَوِيَ وصار لِصًّا، ثم لم يَزَلْ يَتَلَصَّصُ، ويأكُلُ ما تَلَصَّصَهُ إلى أن ماتَ، فإنَّ الله لم يَرْزُقْه شيئاً، إذ لم يُمَلِّكه، وإنه يموتُ ولم يأكُلْ من رِزْقِ الله شيئاً!.

وهذا قولٌ فاسدٌ[٣]، والدليلُ عليه: أنَّ الرزقَ لو كان بمعنى التَّمليك، لوجب ألا يكونَ الطِّفلُ مرزوقاً، ولا البهائمُ التي تَرْتَعُ في الصحراء، ولا السِّخالُ من البهائم؛ لأنَّ لبنَ أُمَّهاتها مِلْكٌ لصاحبها دون السِّخال.

ولما اجتمعتِ الأُمَّةُ على أنَّ الطفلَ والسِّخالَ والبهائمَ مرزوقون، وأنَّ الله تعالى يَرزُقُهم مع كونهم غيرَ مالِكين، عُلِمَ أنَّ الرِّزْقَ هو الغذاءُ، ولأنَّ الأُمَّةَ مُجمِعةٌ على أنَّ العبيدَ والإماءَ مرزوقون، وأنَّ الله تعالى يَرزُقُهم مع كونهم غيرَ مالِكين، فَعُلِمَ أنَّ الرِّزقَ ما قلناه، لا ما قالوه. والذي يَدُلُّ على أنه لا رازقَ سواه قولُه الحقُّ: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، وهذا قاطعٌ، فالله تعالى رازقٌ حقيقةً، وابنُ آدمَ رازقٌ تَجوُّزاً، لأنه يَملِكُ مِلْكاً منتَزَعاً كما بيَّناه في الفاتحة[٤]، مرزوقٌ حقيقةً، كالبهائم التي لا مِلْكَ لها، إلا أنَّ الشيءَ إذا كان مَأْذوناً له في تناوله، فهو حلالٌ حُكماً، وما كان منه غيرَ مأذونٍ له في تناوله، فهو حرامٌ حُكْماً، وجميعُ ذلك رِزْقٌ.

وقد خَرَّجَ بعضُ النبلاء من قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٨٥.

(٢) كذا في النسخ الخطية، وهي لغة، وفي (م): أطعمه.

(٣) في (م): وهذا فاسد.

(٤) ص ٢١٦.

﴿وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ١٥]، فقال: ذِكْرُ المغفرة يُشير إلى أنَّ الرِّزقَ قد يكونُ فيه حرامٌ.

الثالثة والعشرون: قولُه تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾، الرِّزقُ مصدرُ رَزَقَ يَرْزُقُ رَزْقاً ورِزْقاً، فالرَّزْقُ، بالفَتْح: المصدرُ، وبالكسر: الاسمُ، وجمعُه أرزاقٌ، والرَّزقُ: العطاء. والرَّازِقِيَّةُ: ثيابُ كَتانٍ. وارتزقَ الجندُ: أخذُوا أرزاقَهم. والرَّزْقةُ: المرَّةُ الواحدةُ. كذا[1] قال أهلُ اللغة. وقال ابنُ السِّكِّيت: الرِّزقُ بلغةِ أَزْدشَنُوءَة: الشُّكْر، وهو قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢]، أي: شُكركم التَّكذيب. ويقول: رزقني، أي: شَكَرني[2].

الرابعة والعشرون: قولُه تعالى: ﴿يُنفِقُونَ﴾، يُنفقون: يُخرِجون. والإنفاقُ: إخراجُ المالِ من اليد، ومنه: نَفَقَ البيعُ، أي: خرجَ من يدِ البائع إلى المُشتَري. ونَفَقتِ الدَّابةُ: خَرَجَتْ رُوحُها، ومنه النافِقاءُ، لِجُحْرِ اليَرْبُوع الذي يَخرجُ منه إذا أُخِذَ من جهةٍ أُخرى. ومنه المنافق؛ لأنه يخرجُ من الإيمان، أو يخرجُ الإيمانُ من قلبه.

ونَيْفَقُ السَّراويل معروفةٌ، وهو مَخرجُ الرِّجْل منها[3]. ونَفَقَ الزادُ: فَنِيَ، وأنفقَه صاحبُه. وأنفقَ القومُ: فَنِيَ زادُهم، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾ [الإسراء: ١٠٠].

الخامسة والعشرون: واختلف العلماءُ في المراد بالنفقة هاهنا، فقيل: الزكاةُ المفروضةُ ـ رُوِيَ عن ابن عباس ـ لمقارنتها الصلاةَ. وقيل: نفقةُ الرجل على أهله ـ رُوِيَ عن ابن مسعود[4] ـ لأنَّ ذلك أفضلُ النفقة.

روى مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «دِينارٌ أَنفقتَهُ في سبيلِ اللهِ، ودينارٌ أنفقتَه في رَقَبَة، ودينارٌ تَصدَّقْتَ به على مسكين، ودينارٌ أنفقتَه على أهلك، أَعْظمُها أجراً الذي أَنْفقتَه على أَهْلِكَ»[5].

---

(١) في (م): هكذا.

(٢) مجمل اللغة (رزق) ٢/ ٣٧٣.

(٣) في معاجم اللغة: نَيْفَقُ السراويل: الموضعُ المتَّسعُ منها.

(٤) أخرج هذين الخبرين الطبري في تفسيره ١/ ٢٤٩ـ٢٥٠.

(٥) صحيح مسلم (٩٩٥). وهو في مسند أحمد (١٠١٧٤).

ورَوَى عن ثوبان[١] قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أفضَلُ دينارٍ يُنفِقُهُ الرجلُ دينارٌ يُنفِقُه على عِياله، ودينارٌ يُنفِقُه الرجلُ على دابَّتِه في سبيل الله عزَّ وجلَّ، ودينارٌ يُنفِقُه على أصحابِهِ في سبيلِ الله». قال أبو قِلابةَ[٢]: وبدأ بالعِيال [ثم] قال أبو قِلابةَ: وأيُّ رجلٍ أعظمُ أجراً من رجلٍ يُنفِقُ على عِيالٍ صِغارٍ يُعِفُّهم، أو يَنْفعُهم الله به، ويُغْنِيهم[٣].

وقيل: المرادُ صدقةُ التطوُّع ـ رُوي عن الضحَّاك ـ نظراً إلى أنَّ الزكاةَ لا تأتي إلا بلفظِها المُختَصِّ بها، وهو الزكاة، فإذا جاءَتْ بلفظِ غيرِ الزكاة، احتَملَتِ الفرضَ والتطوُّعَ، فإذا جاءَتْ بلفظِ الإنفاق، لم تكن إلا التطوُّعَ. قال الضحَّاكُ: كانت النفقةُ قُرباناً يتقرَّبون بها إلى الله جل وعز على قَدْرِ جُهْدِهم[٤] حتى نزلت فرائضُ الصَّدقات، والناسخاتُ في «براءة».

وقيل: إنه الحقوقُ الواجبةُ العارضةُ في الأموال ما عدا الزكاةَ؛ لأنَّ الله تعالى لما قَرَنَه بالصلاة، كان فرضاً، ولمَّا عَدَلَ عن لفظها، كان فرْضاً سِواها.

وقيل: هو عامٌّ، وهو الصحيحُ؛ لأنه خَرَجَ مَخْرَجَ المَدْحِ في الإنفاق مما رُزِقوا، وذلك لا يكونُ إلا من الحلال، أي: يُؤتون ما ألزمَهم الشرعُ من زكاة وغيرِها مما نصَّ[٥] في بعض الأحوال، مع ما ندَبَهم إليه.

وقيل: الإيمانُ بالغيب: حظُّ القلب، وإقامُ الصلاة: حظُّ البَدَن، ومما رزقناهم يُنفقون: حظُّ المال، وهذا ظاهرٌ.

وقال بعضُ المتقدِّمين في تأويل قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، أي: ممَّا علَّمناهم يُعلِّمون. حكاه أبو نصر عبدُ الرحيم بنُ عبد الكريم القُشيري.

---

(١) مولى رسول الله ﷺ، صحبه ولازمه، وحفظ عنه كثيراً من العلم، مات بحمص سنة (٥٤هـ). السير ٣/ ١٥.

(٢) أحد رواة الحديث عند مسلم، وهو عبد الله بن زيد الجرمي، البصري، هرب إلى الشام حين أراد الحجاج أن يوليه القضاء، وتوفي فيها سنة (١٠٤هـ) وقيل بعدها. السير ٤/ ٤٦٨.

(٣) صحيح مسلم (٩٩٤) وما بين حاصرتين منه، وهو في مسند أحمد (٢٢٤٥٣).

(٤) في (ظ) و(م): جدتهم، والمثبت من (د) وهو الموافق لخبر الطبري ١/ ٢٤٩.

(٥) في (م): مما يعنّ.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾

قيل: المرادُ مؤمنو أهلِ الكتابِ، كعبدِ الله بنِ سَلام[١]، وفيه نزلت، ونزلت الأُولى في مُؤمني العرب. وقيل: الآيتان جميعاً في المؤمنين. وعليه فإعرابُ «الذين» خفضٌ على العطف، ويصحُّ أن يكونَ رفعاً على الاستئناف، أي: وهم الذين. ومن جعَلها في صِنفين، فإعرابُ «الذين» رفعٌ بالابتداء، وخبُره «أولئك على هُدًى»، ويَحتَمِلُ الخفضَ عطفاً[٢].

قوله تعالى: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني: القرآنَ: ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ يعني: الكُتُبَ السالفةَ، بخلاف ما فعله اليهودُ والنصارى حسب ما أخبرَ الله عنهم في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ الآية [البقرة: ٩١].

ويقال: لما نزلت هذه الآيةُ: «الذين يؤمنون بالغيب» قالت اليهودُ والنصارى: نحن آمنَّا بالغيب، فلما قال: «ويقيمُونَ الصلاةَ» قالوا: نحن نقيمُ الصلاةَ، فلما قال: «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُم يُنفِقُونَ» قالوا: نحن نُنفِقُ ونتصدَّقُ، فلما قال: «والذين يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ» نَفَرُوا من ذلك[٣].

وفي حديث أبي ذرٍّ قال: قلتُ: يارسولَ الله، كم كتاباً أنزلَ الله؟ قال: «مئةُ كتابٍ وأربعةُ كُتُبٍ، أنزلَ الله على شيثَ خمسين صحيفةً، وعلى أخْنُوخَ ثلاثين صحيفةً، وعلى إبراهيمَ عشرَ صحائفَ، وأنزل على موسى قبل التوراة عشْرَ صحائف، وأنزل التوراةَ والإنجيلَ والزَّبورَ والفرقانَ». الحديث أخرجه [محمد بن] الحسين الآجُرِّي[٤]، وأبو حاتم البُسْتيّ[٥].

---

(١) حليف الأنصار، من خواص أصحاب النبي ﷺ، كان من أحبار اليهود، وأسلم وقت الهجرة، توفي في المدينة سنة (٤٣هـ). السير ٢/ ٤١٣.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٨٦.

(٣) ذكره أبو الليث في تفسيره ١/ ٩١.

(٤) سقط لفظ «محمد بن» من (ظ) و(م)، ووقع في (د): أبو حسين، وهو خطأ، وهو محمد بن الحسين الآجري أبو بكر، صاحب التآليف، توفي سنة (٣٦٠هـ). السير ١٦/ ١٣٣ ونقل ابن كثير الحديث عن الآجري في تفسير الآية (١٦٤) من سورة النساء.

(٥) صحيح ابن حبان (٣٦١)؛ قوله: أخنوخ هو إدريس عليه السلام.

وهنا مسألة: إن قال قائلٌ: كيف يُمكن الإيمانُ بجميعها مع تنافي أحكامِها؟ قيل له: فيه جوابان:

أحدهما: أنَّ الإيمانَ بأنَّ جميعَها نزلَ من عند الله، وهو قولُ من أسقطَ التعبُّدَ بما تقدَّم من الشرائع.

الثاني: أنَّ الإيمانَ بما لم يُنسَخْ منها، وهذا قولُ من أوجب التزامَ الشرائع المتقدِّمة، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى[١].

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ أي: وبالبعث والنَّشْر هم عالِمون.

واليقينُ: العِلْمُ دون الشَّكِّ، يقال منه: يَقِنْتُ الأمرَ، بالكسر، يَقْناً، وأَيْقَنْتُ، واسْتَيْقَنْتُ، وتَيَقَّنْتُ، كلُّه بمعنًى، وأنا على يقينٍ منه. وإنما صارت الياءُ واواً في قولك: مُوقِن، للضمة قبلَها، وإذا صَغَّرتَه، رَدَدْتَه إلى الأصل، فقلت: مُيَيْقِن ـ والتصغير يردُّ الأشياءَ إلى أصولها، وكذلك الجمع ـ وربما عبَّرُوا باليقين عن الظنِّ[٢]. ومنه قول علمائنا في اليمين اللَّغْو: هو أن يحلفَ بالله على أمرٍ يُوقِنُه، ثم يَتَبَيَّنُ له أنه خلافُ ذلك، فلا شيءَ عليه، قال الشاعر[٣]:

تَحسَّبَ هَوَّاسٌ وأيْقَنَ أنَّني ... بها مُفْتَدٍ مِن واحِدٍ لا أُغامِرُهْ[٤]

يقول: تَشَمَّم الأسَدُ ناقتي، يظنُّ أنني مُفْتَدٍ بها منه، وأستَحْمِي نفسي، فأتركُها له، ولا أقتحمُ المَهالِكَ بمقاتلته.

فأما الظنُّ بمعنى اليقين، فوردَ في التنزيل، وهو في الشعر كثيرٌ، وسيأتي[٥].

والآخرةُ: مُشتقَّةٌ من التأخُّر، لتأخُّرها عنَّا، وتأخُّرِنا عنها، كما أنَّ الدُّنيا مشتقَّةٌ من الدُّنُوِّ، على ما يأتي.

---

(١) في تفسير الآية (٩٠) من سورة الأنعام، وهي قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾.

(٢) الصحاح (يقن).

(٣) هو أبو سِدْرَة الأسدي، ويقال: الهُجَيْمي، كما في اللسان (يقن).

(٤) أورده سيبويه في الكتاب ١/ ٣١٥ (وفيه: وأقبل، بدل: وأيقن)، والجوهري في الصحاح (يقن)، والبكري في سمط اللآلي ١/ ٥٣٩، والبغدادي في خزانة الأدب ٢/ ١١٨.

(٥) في تفسير الآية (٤٦) من هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾

قال النحاس[١] : أهلُ نَجْد يقولون: أُلَاك، وبعضُهم يقول: أُلالِكَ. والكاف للخطاب.

قال الكسائيُّ: من قال: أولئك، فواحِدُه: ذلك، ومن قال: أُلَاك، فواحِدُه: ذاك. وأُلَالِك[٢] مثل أولئك، وأنشد ابنُ السِّكِّيت[٣]:

أُلَالِكَ قومي لم يكونوا أُشابةً وهل يَعِظُ الضِّلِّيلَ إلا أُلالِكَا

وربَّما قالوا: أولئك في غير العقلاء، قال الشاعر:

ذُمَّ المنازلَ بعد مَنْزِلَةِ اللِّوَى والعيشَ بعد أُولئكَ الأيام[٤]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[٥] [الإسراء: ٣٦].

وقال علماؤنا: إنَّ في قوله تعالى: «مِنْ رَبِّهِمْ» ردًّا على القَدَرِيَّة في قولهم: يخلُقون إيمانَهم وهُداهم، تعالى الله عن قولهم. ولو كان كما قالوا، لقال: «مِنْ أنفسِهم»، وقد تقدَّمَ الكلامُ فيه وفي الهُدى[٦]، فلا معنى لإعادةِ ذلك.

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾: «هم» يجوزُ أن يكونَ مبتدأً ثانياً، وخبرُه «المفلحون»، والثاني وخبرُه خبرُ الأوَّل، ويجوزُ أن تكون «هم» زائدةً، يُسمِّيها البصريون فاصلةً، والكوفيون عِماداً، و«المفلحون» خبرُ «أولئك»[٧].

---

(١) في إعراب القرآن ١/ ١٨٣.

(٢) وقع رسم لفظَيْ: «أُلَاك»، و«أُلالِك» في النسخ الخطية والمصادر بزيادة واو تارةً، وبدونها تارة، وآثرنا رسمها بدونها، إذ لا التباس في قراءتها كما هو الحال في «أولئك». قال السمين الحلبي في الدر المصون ١/ ١٠٣: كتبوا «أولئك» بزيادة واو قبل اللام، قيل: للفرق بينها وبين «إليك».

(٣) في إصلاح المنطق ص٤٢٣. ونسبه ابن يعيش في شرح المفصل ٦/ ١٠ للأعشى. قوله: أُشابة، يعني أخلاطاً.

(٤) قائله جرير، والبيت في ديوانه ٢/ ٩٩٠، وفيه: «الأقوام» بدل «الأيام»، وعليه فلا شاهد فيه.

(٥) ينظر الكلام السالف في الصحاح (ألا).

(٦) ص ٢٣٠.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٨٤.

والفَلْح[١]، أصله في اللُّغة: الشَّقُّ والقَطْعُ، قال الشاعر:

إن الحديدَ بالحديد يُفْلَحُ[٢]

أي: يُشَقُّ، ومنه فِلاحَةُ الأَرَضين، إنما هو شَقُّها للحرث، قاله أبو عبيد[٣]. ولذلك سُمِّيَ الأَكَّارُ فَلَّاحاً. ويقال للذي شُقَّت شَفَتُه السُّفْلى: أفلحُ، وهو بَيِّن الفَلَحة، فكأنَّ المُفْلِحَ قد قطَع المصاعبَ حتى نالَ مطلوبَه.

وقد يُستعمل في الفوزِ والبقاءِ، وهو أصلُه أيضاً في اللغة، ومنه قولُ الرجل لامرأته: استفْلِحِي بأمْرِك، معناه: فُوزِي بأمرك، وقال الشاعر[٤]:

لو كان حَيٌّ[٥] مدركَ الفَلَاحِ أَدْرَكَهُ مُلاعِبُ الرِّماحِ

وقال الأضْبطُ بنُ قُرَيْع السَّعْدِي في الجاهلية الجَهْلاء:

لكلِّ هَمٍّ من الهموم سَعَهْ والمُسْيُ والصُّبْحُ لا فَلاحَ مَعَهْ[٦]

يقول: ليس مع كَرِّ الليلِ والنهارِ بقاءٌ.

وقال آخر:

نحلُّ بلاداً كُلُّها حُلَّ قَبْلَنا ونرجو الفَلَاحَ بَعْدَ عادٍ وحِمْيَرِ[٧]

أي: البقاءَ. وقال عَبِيد[٨]:

أَفْلِحْ بما شئتَ فقد يُدرَك بالضَّعْفِ وقد يُخْدَعُ الأريبُ

---

(١) في (د) و(ظ): الفلاح، والمثبت من (م).

(٢) عجز بيت من الرجز، صدره: قد عَلِمَتْ خيلُك أني الصَّحْصَحُ، أوردَه الزَّجَّاج في معاني القرآن ١/ ٧٦. وينظر اللسان (فلح).

(٣) في كتاب الأمثال ص٩٦.

(٤) هو لَبِيدُ بنُ ربيعة، والبيت في ديوانه ص٣٣٣.

(٥) في الديوان: لو أنَّ حيًّا.

(٦) البيت في غريب الحديث لأبي عُبيد ٤/ ٣٨، والأغاني ١٨/ ١٢٧، والمحرر الوجيز ١/ ٨٦، واللسان (فلح). والأضبط بن قريع من بني عوف بن كعب بن سعد، رهط الزبرقان بن بدر. الشعر والشعراء ١/ ٣٨٢.

(٧) قائله لَبِيد بن ربيعة، والبيت في ديوانه ص٥٧.

(٨) هو عَبِيد بن الأبرص، والبيت في ديوانه ص٢٦.

أي: ابقَ بما شئتَ[١] من كَيْس وحُمْق، فقد يُرزق الأحمقُ، ويُحرم العاقلُ[٢].

فمعنى «وأولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُون»، أي: الفائزون بالجنة والباقون فيها.

وقال ابنُ أبي إسحاق[٣]: المفلحون هم الذين أدركوا ما طلبوا، ونَجَوْا من شرِّ ما منه هَرَبُوا، والمعنى واحدٌ.

وقد استُعمِلَ الفَلاحُ في السَّحور، ومنه الحديث: حتى كادَ يَفُوتُنا الفلاحُ مع رسول الله ﷺ. قلتُ: وما الفلاح؟ قال: السَّحور. أخرجه أبو داود[٤]. فكأنَّ معنى الحديث: أنَّ السَّحورَ به بقاءُ الصوم، فلهذا سمَّاه فَلاحاً.

والفلَّاح، بتشديد اللام: المُكارِي في قول القائل[٥]:

لها رِطلٌ تَكِيلُ الزيتَ فيه ... وفَلَّاحٌ يَسوقُ لها حِماراً

ثم الفَلاحُ في العُرْف: الظَّفَرُ بالمطلوب، والنجاةُ من المَرْهوب.

مسألة: إن قال قائلٌ: كيف قرأ حمزةُ: عليهُم، وإليهُم، ولديهُم، ولم يقرأ: من ربِّهُم، ولا: فيهُم، ولا: جَنَّتَيْهُم[٦]؟ فالجواب: أنَّ عليهم، وإليهم، ولديهم، الياء فيه منقلبةٌ من ألف، والأصل: علاهم ولداهم وإلاهم، فأُقرَّت الهاء على ضمتها، وليس ذلك في: فيهم، ولا: من ربِّهم، ولا: جَنَّتَيْهِمْ. ووافقَه الكِسائي في: ﴿عَلَيْهُمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ [البقرة: ٦١] و﴿إِلَيْهُمُ ٱثْنَيْنِ﴾[٧] [يس: ١٤]. على ما هو معروف من القراءة عنهما.

---

(١) في (د): اتقِ وعش.

(٢) غريب الحديث لأبي عبيد ٤/ ٣٨.

(٣) كذا في النسخ الخطية و(م): ابن أبي إسحاق، وفي معاني القرآن للنحاس ١/ ٨٦: ابن إسحاق، وقد أخرج هذا القولَ الطبريُّ في تفسيره ١/ ٢٥٦ من طريق محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد مولى زيد بن ثابت، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس قوله. وأورده أبو الليث في تفسيره ١/ ٩١ ولم ينسبه.

(٤) في السنن (١٣٧٥) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، وهو في مسند أحمد (٢١٤٤٧).

(٥) هو عمرو بن أحمر الباهلي، والبيت في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٠، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ٧٦، واللسان (فلح).

(٦) وافق يعقوبُ حمزةَ في قراءة: عليهُم وإليهُم ولديهُم، بضم الهاء، لكن يعقوب يضم الهاء أيضاً في: فيهم، وجنتيهم، على أصله في ضم الهاء من ضمير التثنية والجمع إذا وقعت بعد ياء ساكنة. انظر السبعة ص ١٠٨، والتيسير ص ١٩، والنشر ١/ ٢٧٢.

(٧) أي حالة الوصل. أما في الوقف فيكسر الهاء، وحمزة يضم الهاء في الحالين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

لما ذَكَرَ المؤمنين وأحوالَهم، ذكَر الكافرين ومآلَهم. والكُفْرُ ضدُّ الإيمان، وهو المراد في الآية. وقد يكون بمعنى جُحود النعمةِ والإحسانِ، ومنه قولُه عليه السلام في النساء، في حديث الكسوف: «ورأيتُ النَّارَ، فَلم أَرَ منظراً كاليوم قطُّ أفْظَعَ، ورأيتُ أكثرَ أَهْلِها النِّساء». قيل: بمَ يارسول الله؟ قال: «بكُفْرِهنَّ»، قيل: أَيَكْفُرْنَ بالله؟ قال: «يَكْفُرْنَ العَشِيرَ، ويَكْفُرْنَ الإحسانَ، لو أَحْسَنْتَ إلى إحداهُنَّ الدهرَ كُلَّه، ثم رَأَتْ منك شيئاً، قالت: ما رأيتُ منك خيراً قطُّ». أخرجه البخاري وغيره[1].

وأصلُ الكُفر في كلام العرب: السَّتْرُ والتغطيةُ، ومنه قولُ الشاعر[2]:

في ليلةٍ كَفَرَ النُّجُومَ غَمامُها

أي: سَتَرَها. ومنه سُمِّيَ الليلُ كافراً؛ لأنه يُغَطِّي كلَّ شيءٍ بسواده، قال الشاعر:

فَتَذَكَّرا ثَقَلاً رَثِيداً بعدَما ألْقَتْ ذُكاءُ يَمينَها في كافرِ[3]

ذُكاء، بضم الذال والمدّ: اسمٌ للشمس. ومنه قول الآخر:

فَوَرَدَتْ قبلَ انْبِلاجِ الفَجْرِ وابنُ ذُكاءَ كامنٌ في كَفْرِ[4]

أي: في ليلٍ.

والكافرُ أيضاً: البحر، والنهرُ العظيم[5]. والكافر: الزَّارعُ، والجمع كُفَّار، قال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ [الفتح: ٢٩]. يعني: الزُّرَّاع؛ لأنهم يُغَطُّون الحَبَّ. ورمادٌ مَكْفُورٌ: سَفَتِ الريحُ عليه الترابَ. والكافرُ من الأرض: ما بَعُدَ

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧١١)، والبخاري (١٠٥٢)، ومسلم (٩٠٧) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) هو لبيد بن ربيعة، والبيت في ديوانه ص٣٠٩، وشطره الأول: يعلو طريقةَ مَتْنِها متواترٌ.

(٣) البيت لثعلبة بن صُعَيْر، يصف النعامة والظَّليمَ، وأنهما تذكَّرا بيضَهما، فأسرعا إليه عند غروب الشمس. وهو في المفضّليات ص ١٣٠، وفيها: فتذكّرت، وإصلاح المنطق ص٥٧ و٣٧٤، والمحتسب ٢/ ٢٣٤، وتفسير الطبري ١/ ٢٦٢.

قوله: رثيداً، أي: منضوداً. وذكر صاحب الصحاح (كفر) أن الكافر في هذا البيت بمعنى البحر أيضاً، كما سيذكر المصنف.

(٤) إصلاح المنطق ص١٤٣ و٣٧٤، ونسبه لحميد الأرقط. قوله: «ابن ذكاء»: يعني الصبح.

(٥) في (ظ): العظيمين.

عن الناس، لا يكادُ يَنْزِلُه ولا يمرُّ به أحدٌ، ومَنْ حَلَّ بتلك المواضع فهم أهلُ الكُفُور. ويقال: الكُفُور: القُرَى.

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ معناه: مُعتدِلٌ عندهم الإنذارُ وتركُهُ، أي: سواءٌ عليهم هذا. وجيء بالاستفهام من أجل التسوية، ومثلُه قوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦]. وقال الشاعر:

ولـيـلٍ يـقـولُ الـنـاسُ مـن ظُـلُـمـاتِـه سَواءٌ صحيحاتُ العيونِ وعُوْرُها[١]

قوله تعالى: ﴿ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ الإنذار: الإبلاغُ والإعلامُ، ولا يكادُ يكون إلا في تخويف يَتَّسِعُ زمانُه للاحتراز، فإنْ لم يَتَّسِعْ زَمانُه للاحتراز، كان إشعاراً، ولم يكن إنذاراً، قال الشاعر:

أنـذرتُ عَـمْـراً وهـو فـي مَـهَـلٍ قبلَ الصَّباحِ فقد عصى عَمْرُو[٢]

وتَناذَرَ بنو فلانٍ هذا الأمرَ: إذا خَوَّفَه بعضُهم بعضاً.

واختلفَ العلماءُ في تأويل هذه الآية، فقيل: هي عامَّة، ومعناها الخصوصُ فيمن حَقَّتْ عليه كلمةُ العذاب، وسَبَقَ في علم الله أنه يموت على كُفره[٣]. أرادَ الله تعالى أن يُعلِمَ أنَّ في الناس مَنْ هذه حالُه دون أن يُعَيِّنَ أحداً.

وقال ابنُ عباسٍ والكلبيُّ: نَزَلَتْ في رؤساء اليهود، منهم حُيَيُّ بنُ أَخْطَب، وكعبُ بنُ الأشْرَف ونظراؤهما[٤]. وقال الربيعُ بنُ أنس[٥]: نزلَتْ فيمن قُتلَ يومَ بدرٍ من قادةِ الأحزاب[٦].

---

(١) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص٤٢٣، وفيه: «القوم» بدل «الناس»، و«بصيرات» بدل «صحيحات». وأورده ابن الشجري في الحماسة ٢/ ٧١٠ و٧٢٨، والبغدادي في الخزانة ٥/ ١٨ ونسباه لمضرس بن رِبْعي.

(٢) لم نقف له على مصدر، وأورده السمين الحلبي في الدر المصون ١/ ١٠٨.

(٣) في (ظ): يموت كافراً.

(٤) أخرج قول ابن عباس الطبريُّ في تفسيره ١/ ٢٥٨ بنحوه، وذكر قولَ الكلبيِّ أبو الليث في تفسيره ١/ ٩١-٩٢.

(٥) ابن زياد البكري، الخراساني، بصري، كان عالم مرو في زمانه، سجنه أبو مسلم، وتحيَّل ابن المبارك حتى دخل إليه فسمع منه، توفي سنة (١٣٩هـ). السير ٦/ ١٦٩.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٢٥٩.

والأوَّل أصحُّ، فإنَّ مَنْ عيَّن أحداً، فإنما مَثَّلَ بمن كُشف الغيبُ عنه بموته على الكُفر، وذلك داخلٌ في ضمن الآية[١].

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ موضعُه رفعٌ، خبرُ «إنَّ»، أي: إنَّ الذين كفروا لا يؤمنون.

وقيل: خبر «إنَّ» «سواءٌ»، وما بعده يقومُ مَقام الصِّلة، قاله ابنُ كَيْسان.

وقال محمدُ بن يزيد: «سواءٌ» رفع بالابتداء، «أأنذرتَهم أم لم تنذرهم» الخبر، والجملةُ خبرُ «إنَّ».

قال النحاس: أي إنهم تبالَهُوا، فلم تُغْنِ فيهم النِّذارةُ شيئاً[٢].

واختلف القرَّاءُ في قراءة «أأنذرتهم»، فقرأ أهلُ المدينة، وأبو عمرو، والأعمشُ، وعبدُ الله بنُ أبي إسحاق[٣]: «أانذرتهم» بتَحقيق الأُولى وتَسهيل الثانية[٤]، واختارها الخليلُ وسيبويه، وهي لغةُ قريش وسعدِ بن بكر[٥]، وعليها قولُ الشاعر[٦]:

أيَا ظَبْيَةَ الوَعْساءِ بين جُلاجِلٍ ... وبَيْنَ النَّقا آنتِ أَمْ أُمُّ سالِمِ

هجاء «آنت» ألفٌ واحدة[٧].

وقال آخر[٨]:

تطالَلْتُ فاستَشْرَفْتُه فعرفتُهُ ... فقلت له آنتَ زَيْدُ الأرانِبِ

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٨٧.

(٢) إعراب القرآن ١/ ١٨٤. محمد بن يزيد: هو المبرّد.

(٣) زِبِر بنِ الحارث الحضرمي، النحوي، البصري، جدُّ يعقوب بن إسحاق، أحدِ القراء العشرة، مات سنة (١١٧هـ) وقيل غير ذلك. طبقات القراء ١/ ٤١٠.

(٤) وهي أيضاً قراءة ابن كثير، وابن عامر الشامي في رواية هشام، لكن قرأ قالون وأبو عمرو بتسهيل الثانية مع إدخال ألف بين الهمزتين، وكذلك قرأ هشام بخلف عنه. انظر التيسير ص ٣٢.

(٥) كذا في إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٨٤، غير أنه لم يذكر لعبد الله بن أبي إسحاق هذا القراءة، إنما نقل عنه أنه حقَّقَ الهمزتين وأدخلَ بينهما ألفاً لئلا يجمع بينهما، وسيذكرها عنه المصنف قريباً.

(٦) هو ذو الرُّمَّة، والبيت في ديوانه ص ٧٦٧.

(٧) أورده سيبويه في الكتاب ٣/ ٥٥١، والمبّرد في المقتضب ١/ ١٦٣، والهروي في الأزهيّة ص٣٦، وابن جني في سر صناعة الإعراب ٢/ ٧٢٣، وابن يعيش في شرح المفصل ٩/ ١٩١، والمالقي في رصف المباني ص ٢٦، والبغدادي في شرح شواهد الشافية ٤/ ٣٤٧، لكن ذكروا أن الشاهد فيه إدخالُ ألف بين الهمزتين، وذكر البغدادي أنه يجوزُ فيه أيضاً أن تُحقَّقَ الهمزتان بلا زيادة ألف.

(٨) هو ذو الرُّمَّة أيضاً، والبيت في ملحق ديوانه ٣/ ١٨٤٩.

ورُوِيَ عن ابن مُحَيْصِن[١] أنه قرأ: «أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ» بهمزة لا ألفَ بعدَها، فحذف لالتقاء الهمزتين، أو لأن «أم» تدلُّ على الاستفهام[٢]، كما قال الشاعر[٣]:

تَـرُوحُ مِـن الـحَـيِّ أَمْ تَـبْـتَـكِـرْ وماذا يَـضـيـرُكَ لـو تَـنْـتَـظِـرْ

أراد: أتروحُ، فاكتفَى بأَمْ من الألف. ورُوي عن ابن أبي إسحاق أنه قرأ: «أاأنذرتهم» فحقَّقَ الهمزتين، وأدخلَ بينهما ألفاً، لئلا يجمع بينهما[٤].

قال أبو حاتم: ويجوز أن تُدخِلَ بينهما ألفاً، وتُخَفِّفَ الثانية، وأبو عمرو ونافع[٥] يفعلانِ ذلك كثيراً.

وقرأ حمزةُ، وعاصمٌ، والكِسائيُّ بتحقيق الهمزتين: «أأنذرتهم»[٦]، وهو اختيار أبي عُبيد، وذلك بعيدٌ عند الخليل. وقال سيبويه: يُشبه في الثقل: ضَنِنُوا.

قال الأخفشُ: ويجوزُ تخفيفُ الأُولى من الهمزتين، وذلك رديء؛ لأنهم إنما يُخفِّفون بعد الاستثقال، وبعد حصول الواحدة.

قال أبو حاتم: ويجوزُ تخفيفُ الهمزتين جميعاً.

فهذه سبعةُ أوجهٍ من القراءات، ووجهٌ ثامنٌ يجوزُ في غير القرآن؛ لأنه مخالفٌ للسَّواد[٧]؛ قال الأخفشُ سعيدٌ: تُبدِلُ من الهمزة هاءً، تقول: هأنذرتهم، كما يقال: هيَّاك وإيَّاك[٨]، وقال الأخفشُ في قول الله تعالى: «ها أَنْتُمْ» إنما هو: أاأنتم.

---

(١) هو محمد بن عبد الرحمن بن مُحَيْصِن السهمي مولاهم، المكي، المقرئ، وقيل: اسمه عمرو، توفي سنة (١٢٣هـ). طبقات القراء ٢/ ١٦٧.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٨٤ ـ ١٨٥. وذكر القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢، وابن جني في المحتسب ١/ ٥٠.

(٣) هو امرؤ القيس، والبيت في ديوانه ص١٥٤.

(٤) وهي رواية هشام بخلف عنه. انظر التيسير ص ٣٢.

(٥) هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي، مولاهم، المدني، أحد القراء السبعة والأعلام، أصله من أصبهان، توفي سنة (١٩٩هـ). طبقات القراء ٢/ ٣٣٠.

(٦) وهي أيضاً رواية ابن ذكوان. التيسير ص ٣٢.

(٧) في (ظ): للشواذ. وهنا ينتهي السقط في (ز).

(٨) معاني القرآن للأخفش، ونقله المصنف عنه بواسطة إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٨٤ ـ ١٨٥.

قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾

فيها عشر مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ﴾ بيَّنَ سبحانه في هذه الآية المانعَ لهم من الإيمان بقوله: «ختم الله». والخَتْم: مصدر خَتَمتُ الشيءَ خَتْماً؟ فهو مختومٌ، ومُخَتَّمٌ، شُدِّد للمبالغة، ومعناه: التغطيةُ على الشيء والاستيثاقُ منه حتى لا يَدْخُلَه شيءٌ، ومنه: خَتَم الكتابَ والبابَ، وما يُشبهُ ذلك، حتى لا يُوصَلَ إلى ما فيه، ولا يُوضَعَ فيه غيرُ ما فيه.

وقال أهلُ المعاني: وصف الله تعالى قلوبَ الكفار بعشرة أوصاف: بالخَتْم، والطَّبع، والضِّيق، والمرض، والرَّيْن، والموت، والقساوة، والانصراف، والحَمِيَّة، والإنكار.

فقال في الإنكار: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢].

وقال في الحَمِيَّة: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ [الفتح: ٢٦].

وقال في الانصراف: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].

وقال في القساوة: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزمر: ٢٢]. وقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٧٤].

وقال في الموت: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢]. وقال: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦].

وقال في الرَّيْن: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

وقال في المَرَض: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠].

وقال في الضيق: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقال في الطَّبْع: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]، وقال: ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

وقال في الختم: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]. وسيأتي بيانُها كلِّها في مواضعها إن شاء الله تعالى.

الثانية: الخَتْمُ يكون محسوساً ـ كما بيَّنَّا ـ ومعنًى، كما في هذه الآية، فالخَتْم على القلوب: عَدَمُ الوَعْي عن الحقِّ سبحانه مفهومَ مخاطباتِه والفِكْرِ في آياته. وعلى السَّمْع: عدمُ فَهْمِهِم للقرآن إذا تُلِيَ عليهم، أو دُعُوا إلى وحدانيَّته. وعلى الأبصار: عدمُ هِدايتِها للنظر في مخلوقاته وعجائبِ مصنوعاته. هذا معنى قولِ ابن عباس وابن مسعود وقتادةَ، وغيرِهم.

الثالثة: في هذه الآيةِ أدَلُّ دليل وأوضحُ سبيل على أنَّ الله سبحانه خالقُ الهُدى والضَّلالِ، والكُفرِ والإيمانِ، فاعتَبِروا أيها السامعون، وتَعَجَّبوا أيها المفكِّرون من عُقولِ القَدَريَّةِ القائلينِ بِخَلْق إيمانهم وهُداهم، فإنَّ الخَتْمَ هو الطبعُ، فمن أين لهم الإيمانُ ولو جَهَدوا، وقد طبع على قلوبهم وعلى سمْعِهم، وجعلَ على أبصارهم غِشاوةً، فمتى يهتدون، أو مَنْ يهديهم من بعد الله إذا أضلَّهم وأصمَّهم، وأعمى أبصارهم؟ ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الرعد: ٣٣]، وكان فِعْلُ الله ذلك عَدْلاً فيمن أضلَّه وخَذَلَه، إذ لم يمنَعْه حقًّا وجبَ له، فتزولَ صِفةُ العَدْل، وإنما منعَهم ما كان له أن يتفضَّلَ به عليهم، لا ما وجبَ لهم.

فإن قالوا: إنَّ معنى الخَتْمِ والطَّبعِ والغِشاوةِ التسميةُ والحكمُ، والإخبارُ بأنهم لا يؤمنون، لا الفعلُ.

قلنا: هذا فاسدٌ؛ لأنَّ حقيقةَ الخَتْم والطَّبعِ إنما هو فِعْلُ ما يَصيرُ به القلبُ مطبوعاً مختوماً، لا يجوزُ أن تكونَ حقيقتُه التسميةَ والحُكم، ألا ترى أنه إذا قيل: فلانٌ طَبَعَ الكتابَ وخَتَمَه، كان حقيقةً أنه فَعَلَ ما صارَ به الكتابُ مطبوعاً ومختوماً، لا التسمية والحكم. هذا ما لا خِلافَ فيه بين أهل اللغة، ولأنَّ الأمةَ مجمعةٌ على أنَّ الله تعالى قد وصفَ نفسَه بالخَتْم والطَّبْع على قلوبِ الكافرين مُجازاةً لكُفرهم، كما قال تعالى: ﴿بَل طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

وأجمعتِ الأمةُ على أنَّ الطَّبْعَ والخَتْمَ على قلوبهم من جهةِ النبيِّ ﷺ والملائكة والمؤمنين ممتنعٌ، فلو كان الخَتْمُ والطَّبعُ هو التسميةَ والحُكْمَ، لَمَا امتنعَ من ذلك

الأنبياءُ والمؤمنون؛ لأنهم كلَّهم يُسمُّون الكفارَ بأنهم مطبوعٌ على قلوبهم، وأنهم مختومٌ عليها، وأنهم في ضلال لا يؤمنون، ويَحْكُمون عليهم بذلك. فثبتَ أنَّ الخَتْمَ والطَّبع هو معنًى غيرُ التسمية والحكم، وإنما هو معنًى يخلُقه الله في القلب يمنعُ من الإيمان به، دليلُه قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٢ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ [الحجر: ١٢-١٣]. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥]. أي: لئلا يفقهوه، وما كان مثله.

الرابعة: قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ فيه دليلٌ على فضلِ القلبِ على جميع الجوارح. والقلبُ للإنسان وغيره. وخالصُ كلِّ شيء وأشرفُه قلبُه، فالقلبُ موضعُ الفِكر. وهو في الأصل مصدر: قَلَبْتُ الشيء، أقْلِبُه قلباً: إذا رددتَه على بَداءته. وقَلَبْتُ الإناءَ: رَدَدْتُه على وجهه. ثم نُقِلَ هذا اللفظُ، فسُمِّيَ به هذا العضوُ الذي هو أشرفُ الحيوان؛ لسرعةِ الخواطرِ إليه، ولتردُّدِها عليه، كما قيل:

ما سُمِّيَ القلبُ إلَّا مِنْ تَقَلُّبِهِ ... فاحذَرْ على القلبِ من قَلْبٍ وتحويلِ[1]

ثم لمّا نَقَلَتِ العربُ هذا المصدَر لهذا العضوِ الشريف، التزمَتْ فيه تفخيمَ قافِه، تفريقاً بينَه وبينَ أصلِه. روى ابنُ ماجه، عن أبي موسى الأشعريّ، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «مَثَلُ القلبِ مَثَلُ رِيشةٍ تُقَلِّبها الرياحُ بفَلاةٍ»[2]. ولهذا المعنى كان عليه الصلاة والسلام يقول: «اللهمَّ يا مُثَبِّتَ القلوب، ثَبِّتْ قلوبَنا على طاعتِك»[3]. فإذا كان

---

(١) البيت في ديوان الأحوص ص ١٢٠، وشطره الثاني بلفظ: والرأيُ يُصرف والأهواء أطوار. وذكره الماوردي في النكت والعيون ١/ ٧٣، وعنده: والإنسان أطوار. وابنُ منظور في اللسان (قلب) ولفظ شطره الثاني عنده: والرأي يصرفُ بالإنسان أطوارا.

(٢) سنن ابن ماجه (٨٨)، وفي إسناده يزيد بن أبان الرقاشي، وهو ضعيف، وأخرجه الإمام أحمد (١٩٧٥٧) عن يزيد بن هارون، عن سعيد بن إياس الجريري، عن غنيم بن قيس، عن أبي موسى الأشعري، به. ويزيد سمع من الجريري بعد اختلاطه، ورواه شعبة عن الجريري ـ وقد سمع منه قبل الاختلاط ـ فوقفه ولم يرفعه، كما في الجعديات (١٤٧٢) وقال الإمام أحمد عقب الحديث المذكور: لم يرفعه إسماعيل (يعني ابنَ عُلَيّة) عن الجريري.

(٣) أخرجه أحمد (٦٥٦٩)، ومسلم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، بلفظ: «اللهم مصرفَ القلوب، صرِّف قلوبنا على طاعتك». وأخرجه أحمد أيضاً في المسند (١٢١٠٧) من حديث أنس رضي الله عنه بلفظ: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، و(١٧٦٣٠) من حديث=

النبيُّ ﷺ يقولهُ مع عظيم قَدْرِه، وجلالِ مَنْصِبهِ، فنحن أَولى بذلك اقتداءً به، قال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وسيأتي.

الخامسة: الجوارحُ وإن كانت تابعةً للقلب، فقد يتأثرُ القلبُ ـ وإن كان رئيسَها ومَلِكَها ـ بأعمالها، للارتباطِ الذي بين الظاهر والباطن، قال ﷺ: «إن الرجل لَيصدُقُ، فتُنْكتُ في قلبه نكتةٌ بيضاء، وإن الرجل ليكذب الكَذْبة فيسودُّ قلبُه[1]، وروى الترمذي وصحَّحه عن أبي هريرة: أنَّ الرجلَ لَيصِيبُ الذنبَ فيسودُّ قلبُه، فإن هو تاب، صُقِلَ قلبُه. قال: وهو الران[2] الذي ذكره الله في قوله[3]: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»[4].

وقال مجاهد: القلبُ كالكفِّ يُقبَضُ منه بكلِّ ذنب إصبعٌ، ثم يُطبع[5].

قلت: وفي قول مجاهد هذا وقولهِ عليه السلام: «إنَّ في الجسد مُضْغةً إذا صَلَحَتْ، صَلَحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فَسَدَت فَسَدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلبُ»[6] دليلٌ على أنَّ الخَتْمَ يكون حقيقيًّا، والله أعلم. وقد قيل: إنَّ القلبَ يُشبه الصَّنَوْبرةَ، وهو يَعْضُد قولَ مجاهد، والله أعلم.

وقد روى مسلمٌ، عن حذيفةَ قال: حدَّثنا رسولُ الله ﷺ حديثين، قد رأيتُ أحدَهما، وأنا أنتظرُ الآخرَ، حدَّثنا: «أنَّ الأمانةَ نزلَتْ في جَذْرِ قلوبِ الرِّجالِ، ثم

= النواس بن سمعان الكلابي رضي الله عنه، بلفظ: «يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك»، و(٢٦١٣٣) من حديث عائشة رضي الله عنها، بلفظ: «يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك وطاعتك».

(١) لم نجده بهذا اللفظ.

(٢) في (م): الرَّيْن، وكلاهما بمعنى.

(٣) في (م): ذكره الله في القرآن في قوله.

(٤) سنن الترمذي (٣٣٣٤)، ولفظه: «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب، سُقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه، وهو الران الذي ذكر الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.» وهو في مسند أحمد (٧٩٥٢).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٢٦٦.

(٦) أخرجه أحمد في المسند (١٨٣٧٤)، والبخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

نزلَ القرآنُ، فَعَلِموا من القرآن، وَعلموا من السُّنةِ». ثم حدَّثنا عن رَفْعِ الأمانة قال: «ينامُ الرجلُ النَّوْمةَ، فتُقْبَضُ الأمانةُ من قلبِهِ، فيَظَلُّ أثرُها مِثْلَ الوكْتِ، ثم ينامُ النَّوْمةَ، فَتُقبَضُ الأمانةُ من قلبِهِ، فيظلُّ أثرُها مثلَ المَجْلِ، كَجمرٍ دَحْرجتَه على رِجْلكَ، فَنَفِطَ، فَتراهُ مُنتبراً وليس فيه شيء ـ ثم أخذَ حصاةً فدحرجها[1] على رِجْله ـ فيُصبِحُ الناسُ يتبايعون، لا يكادُ أحدٌ يؤدِّي الأمانةَ حتى يقالَ: إنَّ في بَني فلانٍ رجلاً أميناً. حتى يُقالَ للرجل: ما أَجْلَدَهُ! ما أَظْرفَهُ! ما أَعْقلَهُ! وما في قَلْبه مِثْقالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدلٍ من إيمان». ولقد أتى عَلَيَّ زمانٌ وما أُبالي أيَّكم بايعتُ، لئن كان مسلماً، لَيَرُدَّنَّه عليَّ دِيْنُه، ولئن كان نصرانيًّا، أو يهوديًّا، لَيَرُدَّنَّه عليَّ ساعِيهِ، وأما اليومَ، فما كنتُ أبايعُ[2] منكم إلا فلاناً وفلاناً[3].

ففي قوله: « الوَكْت» وهو الأثرُ اليسيرُ، ويقال للبُسْر إذا وقعَتْ فيه نُكتةٌ من الإرطاب: قد وَكَّتَ، فهو مُوَكِّتٌ. وقولِهِ: «المَجْل»، وهو أن يكونَ بين الجلدِ واللَّحم ماءٌ، وقد فسَّره النبيُّ ﷺ بقوله: «كجمرٍ دَحْرجتَه» أي: دوَّرْتَه «على رِجْلكَ، فَنَفِطَ. فتراه مُنتبراً»، أي: مرتفعاً، ما يَدُلُّ على أنَّ ذلك كلَّه محسوسٌ في القلب يفعل فيه، وكذلك الخَتْمُ والطَّبعُ، والله أعلم.

وفي حديث حذيفةَ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «تُعْرضُ الفِتَنُ على القلوب كالحصير عُوداً عُوداً، فأيُّ قلب أشْرِبَها، نُكِتَ فيه نُكتةٌ سوداءُ، وأيُّ قلب أنكرها، نُكِتَ فيه نُكتةٌ بيضاءُ، حتى تصيرَ على قَلْبين، على أبيضَ مثلِ الصَّفا، فلا تضرُّه فتنةٌ ما دامَتِ السماواتُ والأرضُ، والآخر أسودُ مُرْبادّ، كالكوزِ مُجخِّياً، لا يَعرِفُ معروفاً، ولا يُنْكِرُ منكراً، إلا ما أشرِبَ من هواه». وذكر الحديث[4]. «مُجَخِّياً»: يعني مائلاً.

---

(١) في (م): حصّى فدحرجه.

(٢) في (م): لأبايع.

(٣) صحيح مسلم (١٤٣). وهو في مسند أحمد (٢٣٢٥٥).

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٢٣٤٤٠)، ومسلم (١٤٤). قوله: مربادّ، هو شبه البياض في سواد. ينظر شرح مسلم للنووي ٢/ ١٧٣

السادسة: القلبُ قد يُعبَّرُ عنه بالفؤاد والصَّدْر، قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢]. وقال: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ يعني في الموضعين: قلبك.

وقد يُعبَّرُ به عن العقل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧]، أي: عقل؛ لأنَّ القلبَ مَحَلُّ العقلِ في قول الأكثرين. والفؤادَ محلُّ القلب، والصَّدْرَ مَحَلُّ الفؤاد، والله أعلم.

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ استَدَلَّ بها مَنْ فَضَّلَ السَّمْعَ على البصر، لِتقدُّمِهِ عليه، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ﴾ [الأنعام: ٤٦]، وقال: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [النحل: ٧٨]. قال: والسَّمْعُ يدْرَكُ به من الجِهات السِّت، وفي النور والظُّلمة، ولا يُدْرَكُ بالبصر إلا من جهةٍ[1] المُقابلة، وبواسطةٍ من ضياءٍ وشُعاع. وقال أكثرُ المُتكلِّمين بتفضيل البصرِ على السَّمْع؛ لأنَّ السَّمْعَ لا يُدرَكُ به إلا الأصواتُ والكلامُ، والبصر يُدرَكُ به الأجسامُ والألوانُ والهيئاتُ كلُّها. قالوا: فلما كانت تعلُّقاتُه أكثرَ، كان أفضلَ، وأجازوا الإدراكَ بالبصر من الجِهات السِّت.

الثامنة: إنْ قال قائلٌ: لِمَ جمعَ الأبصارَ، ووَحَّدَ السَّمْعَ؟ قيل له: إنما وحَّده؛ لأنه مصدرٌ يقعُ للقليل[2] والكثير، يقال: سَمِعْتُ الشيءَ أَسمعُه سَمْعاً وسَماعاً، فالسَّمْعُ مصدرُ سَمِعْتُ. والسَّمعُ أيضاً اسمٌ للجارِحةِ المسموعِ بها، سُمِّيَتْ بالمصدر. وقيل: إنه لما أضاف السَّمْعَ إلى الجماعة، دَلَّ على أنه يرادُ به أسماعُ الجماعة، كما قال الشاعر[3]:

بها جِيَفُ الحَسْرَى فأمَّا عِظامُها ... فبِيضٌ وأما جِلدُها فصَلِيبُ

إنما يريدُ جُلودها، فوحَّد؛ لأنه قد علم أنه لا يكونُ للجماعة جلدٌ واحد.

وقال آخرُ في مثله:

---

(١) في (م): الجهة.

(٢) في (د) و(ظ): على القليل.

(٣) هو علقمة الفحل، والبيت في ديوانه ص٤٠.

لا تُـنـكِـرِ الـقـتـلَ وقـد سُـبِـيـنـا في حَـلْـقِـكـم عَـظْـمٌ وقـد شَـجِـيـنَـا[١]

يريد في حُلوقكم.

ومثلُه قولُ الآخر:

كـأنـه وَجْـهُ تُـرْكِـيَّـيْـنِ قـد غَـضِـبـا مُـسْـتَـهْـدَفٌ لـطِـعـانٍ غـيـر تـذبـيـب[٢]

وإنما يريدُ وجهين، فقال: وجهُ تُركيَّيْنِ؛ لأنه قد علم أنه لا يكون للاثنين وجهٌ واحد، ومثله كثير جدًّا.

وقُرِئ: «وعلى أسماعهم»[٣].

ويَحتمِلُ أن يكونَ المعنى: وعلى مواضعِ سَمْعِهم؛ لأنَّ السمعَ لا يُختم، وإنما يُختم موضعُ السَّمع، فَحذِفَ المضافُ، وأُقيم المضافُ إليه مَقامَهُ.

وقد يكون السَّمْعُ بمعنى الاستماع، يقال: سَمْعُك حديثي يُعجبني[٤] أي: استماعُكَ إلى حديثي يُعجبني، ومنه قولُ ذي الرُّمَّةِ يصفُ ثوراً تَسمَّعَ إلى صوتِ صائد وكلاب:

وقـد تَـوَجَّـسَ رِكْـزاً مُـقْـفِـرٌ نَـدُسٌ بِـنَـبْـأةِ الـصوتِ ما في سَـمْـعِـهِ كَـذِبُ[٥]

أي: ما في استماعه كَذِبٌ، أي: هو صادقُ الاستماع. والنَّدُس: الحاذِق. والنَّبْأَة: الصوتُ الخَفِيّ، وكذلك الرِّكْز.

والسِّمْع، بكسر السين وإسكانِ الميم: ذِكْرُ الإنسان بالجميل، يقال: ذهبَ سِمْعُه في الناس، أي: ذِكْره. والسِّمْع أيضاً: وَلَدُ الذئب من الضَّبُع.

والوقف هنا: «وعلى سمعهم».

و«غِشَاوَةٌ» رفعٌ على الابتداء، وما قبلَه خبرٌ. والضمائرُ في «قلوبهم» وما عُطِف

---

(١) البيت في الكتاب ١/ ٢٠٩، وشرح المفصل ٦/ ٢٢، واللسان (شجا) ونسبه للمسيب بن زيد مناة. وعندهم: «لاتنكروا».

(٢) البيت للفرزدق، وأورده ابن الشجري في أماليه ١/ ١٧، والبغدادي في الخزانة ٧/ ٥٣٢ و٥٤٠، والقافية في الموضع الثاني: غير منحجر.

(٣) أوردها ابنُ خالويه في القراءات الشاذة ص٢، وأبو حيان في البحر ١/ ٤٩، ونسباها لابن أبي عبلة.

(٤) قوله: يعجبني، ليس في (م).

(٥) ديوان ذي الرُّمَّة ١/ ٨٩.

عليه لمن سَبَقَ في عِلْم الله أنه لا يُؤمنُ من كفَّار قريش، وقيل: من المنافقين، وقيل: من اليهود، وقيل: من الجميع، وهو أصوبُ؛ لأنه يَعُمُّ. فالخَتْمُ على القلوب والأسماع، والغِشاوةُ على الأبصار.

والغِشاءُ: الغِطَاء. وهي:

التاسعة: ومنه غاشيةُ السَّرْج، وغَشَّيْتُ الشيءَ أُغَشِّيهِ. قال النابغة[١]:

هلَّا سألْتِ بَني ذُبْيانَ ما حَسَبِي إذا الدُّخَانُ تَغشَّى الأَشْمَط البَرَما

وقال آخرُ[٢]:

صحبتُكَ إذْ عيني عليها غِشاوةٌ فلما انْجَلَتْ قَطَّعْتُ نفسي أَلُومُها

قال ابنُ كَيْسان: فإنْ جمعتَ غِشاوةً، قلتَ: غِشاء، بحذف الهاء[٣]. وحَكى الفرَّاءُ: غَشاوَى مثل أَداوَى[٤]. وقُرِئ: «غِشاوةً» بالنصب[٥] على معنى: وجعل، فيكون من باب قوله:

عَلَفْتُها تِبْناً وماءً بارداً[٦]

وقولِ الآخر:

يالَيْتَ زوجَكِ قد غَدا مُتَقَلِّداً سَيْفاً ورُمْحَا[٧]

المعنى: وأَسْقَيْتُها ماءً، وحاملاً رمحاً؛ لأنَّ الرمحَ لا يُتَقَلَّد.

---

(١) في ديوانه ص١٠٢.

(٢) هو الحارث بن خالد بن العاص المخزومي، والبيت في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣١، وتفسير الطبري ١/ ٢٧١.

(٣) قال السمين الحلبي في الدر المصون ١/ ١١٥: لما حُذفت الهاء قُلبت الواو همزةً.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٨٦ ـ ١٨٧.

(٥) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢، والنحاس في إعراب القرآن ١/ ١٨٦.

(٦) هو في معاني القرآن للفراء ١/ ١٤، والخصائص ٢/ ٤٣١، والإنصاف ٢/ ٦١٣، والخزانة ٣/ ١٤٠، وشطره الثاني: حتى شتت همَّالةً عيناها. ونسبه الفراء لبعض بني أسد.

(٧) البيت لعبد الله بن الزِّبَعْرَى، وهو في ديوانه ص٣٢، وفي مجاز القرآن ٢/ ٦٨، والكامل ١/ ٤٣٢ و٤٧٧ و٢/ ٨٣٦، والخصائص ٢/ ٤٣١، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١١٤٧، والإنصاف ٢/ ٦١٢، وشرح المفصل ٢/ ٥٠، وجاء الشطر الأول منه في النسخ: قد غدا زوجك في الوغى، والمثبت من (م) والمصادر.

قال الفارسي: ولا تكادُ تجد هذا الاستعمالَ في حال سَعةٍ واختيار، فقراءةُ الرفع أحسنُ. وتكون الواو عاطفةً جملةً على جملة. قال: ولم أسمَعْ من الغِشاوة فعلاً مُتَصرِّفاً بالواو.

وقال بعضُ المفسرين: الغِشاوةُ على الأسماع والأبصار، والوقفُ على «قلوبهم».

وقال آخرون: الخَتْمُ في الجميع، والغِشاوةُ هي الخَتْم، فالوقفُ على هذا على «غِشاوة» [(١)]. وقرأ الحسن: «غُشاوة» بضم الغين، وقرأ أبو حَيْوَةَ[(٢)] بفتحها[(٣)]. ورُوِيَ عن أبي عمرو: «غَشْوة» [(٤)] ردَّه إلى أصل المصدر.

قال ابنُ كَيْسان: ويجوز: غَشْوة، وغُشْوة[(٥)]، وأجودُها غِشاوةٌ، كذلك تستعملُ العربُ في كل ما كان مشتملاً على الشيء، نحو عِمامة، وكنانة، وقِلادة، وعِصابة، وغير ذلك.

العاشرة: قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ﴾ أي: للكافرين المُكَذِّبين ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ نعتُه. والعذابُ: مثلُ الضَّرب بالسَّوط، والحرقِ بالنار، والقطعِ بالحديد، إلى غير ذلك مما يُؤلم الإنسان. وفي التنزيل: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]، وهو مشتقٌّ من الحَبْس والمَنْع، يقال في اللغة: أعْذِبْهُ عن كذا، أي: اِحْبِسْه وامنَعْه، ومنه سُمِّي: عُذوبة الماء؛ لأنها قد أُعذبت، واستُعذب بالحبس في الوعاء، لِيصفوَ ويُفارقَه ما خالطَهُ. ومنه قولُ عليٍّ رضي الله عنه: أَعْذِبُوا نساءَكم عن الخروج، أي: احبِسُوهنَّ. وعنه رضي الله عنه وقد شَيَّعَ سَرِيَّةً، فقال: أعْذِبُوا عن ذكر النساء فإنَّ ذلك يَكْسِرُكم عن الغَزْو.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٨٩، وقد نقل المصنف قول الفارسي بواسطة ابن عطية، وينظر الحجة للقراء السبعة ١/ ٣٠٠ و٣١٢.

(٢) هو شريح بن يزيد الحضرمي، الحمصي، صاحب القراءة الشاذة، ومقرئ الشام. توفي سنة (٢٠٣هـ). طبقات القراء ١/ ٣٢٥.

(٣) إعراب القرآن»للنحاس ١/ ١٨٦، والقراءات الشاذة لابن خالويه ص٢.

(٤) قراءة شاذة، وذكرها النحاس في إعراب القرآن ١/ ١٨٦، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢. والقراءة المتواترة عن أبي عمرو هي قراءة الجماعة: غِشاوةٌ.

(٥) المصدر السالف، والكلام بعده لأبي جعفر النحاس.

وكلٌّ من منعتَه شيئاً، فقد أعذَبْتَه[١]، وفي المثل: لأُلْجمنَّكَ لِجاماً مُعْذِباً[٢]، أي: مانعاً عن ركوب الناس.

ويقال: أَعْذَبَ، أي: امتنع، وأعْذَبَ غيرَه، فهو لازمٌ ومتعدٍّ. فسُمِّيَ العذابُ عذاباً؛ لأنَّ صاحبَه يُحبَسُ ويُمنَعُ عنه جميعُ ما يلائم الجسدَ من الخير، ويُهالُ عليه أضدادُها.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾﴾

فيه سبع مسائل:

الأولى: رَوى ابنُ جُريج عن مجاهد قال: نزلَتْ أربعُ آيات من سورة البقرة في المؤمنين، واثنتانِ في نعتِ الكافرين، وثلاثَ عشرة آيةً في المنافقين[٣].

وروى أسباطٌ عن السُّدِّي في قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ قال: هم المنافقون[٤]. وقال علماءُ الصوفية: الناس اسم جِنْس، واسمُ الجِنْس لا يُخاطَب به الأولياء.

الثانية: واختلف النُّحاةُ في لفظ «الناس»، فقيل: هو اسمٌ من أسماء الجُموع، جمع إنسان وإنسانة[٥]، على غير اللفظ، وتصغيره نُوَيْس، فالناسُ من النَّوْس، وهو الحركة، يقال: ناس ينُوس، أي: تحرَّك، ومنه حديثُ أُمِّ زَرْع: «أَنَاسَ من حُلِيٍّ أُذُنَيَّ»[٦].

وقيل: أصلُه من نَسِيَ، فأصلُ ناس: نَسِيَ، قُلب فصار: نَيَسَ، تحركَتِ الياء، فانفتَحَ ما قبلَها، فانقلبَتْ ألفاً، ثم دخلت الألفُ واللام، فقيل: الناس.

قال ابنُ عباس: نَسِيَ آدمُ عهدَ الله، فسُمِّيَ إنساناً[٧]. وقال عليه الصلاة والسلام:

---

(١) غريب الحديث لأبي عبيد ٣/ ٤٦٧.

(٢) مجمع الأمثال للميداني ٢/ ٢٠٠.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٢٤٥ـ٢٤٦ من طريق ابن أبي نجيح، عن مجاهد.

(٤) تفسير الطبري ١/ ٢٧٦.

(٥) إعراب القرآن ١/ ١٨٧، وذكر الجوهري والفيروزأبادي أن «إنسانة» عامِّية.

(٦) أخرجه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٧) ذكره الفخر الرازي في تفسيره ٢/ ٦٠ ـ ٦١.

«نَسِيَ آدمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ»[١] . وفي التنزيل: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ﴾ [طه: ١١٥]. وسيأتي. فعلى هذا، فالهمزةُ زائدة، قال الشاعر[٢] :

لا تَنْسَيَنْ تلك العُهودَ فإنَّما سُمِّيتَ إنساناً لأنك ناسي

وقال آخر:

فإنْ نَسِيتُ عهوداً منك سالفةً فاغفِرْ فأوَّلُ ناسٍ أوَّلُ الناس[٣]

وقيل: سُمِّي إنساناً لأُنْسه بحواء. وقيل: لأُنْسه بربِّه، فالهمزُة أصلية، قال الشاعر:

وما سُمِّيَ الإنسانُ إلا لأُنْسِهِ ولا القلبُ إلا أنَّه يَتَقَلَّبُ[٤]

الثالثة: لما ذكَر الله جلَّ وتعالى المؤمنين أولاً، وبدأ بهم لِشَرَفهم وفَضْلِهم، ذكَرَ الكافرين في مقابلتهم، إذ الكفرُ والإيمانُ طرفان. ثم ذكَرَ المنافقين بعدَهم، وألحقَهم بالكافرين قبلَهم، لنفي الإيمان عنهم بقوله الحقّ: ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

ففي هذا ردٌّ على الكرَّاميَّة حيث قالوا: إنَّ الإيمانَ قولٌ باللسان، وإن لم يعتقدْ بالقلب، واحتجُّوا بقوله تعالى: ﴿فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟﴾ [المائدة: ٨٥]. ولم يقل: بما قالوا وأضمروا، وبقوله عليه الصلاة والسلام: «أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ الناسَ حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عَصَمُوا منِّي دماءَهم وأموالَهم»[٥] . وهذا منهم قُصورٌ وجُمودٌ، وترْكُ نَظَرٍ لما نَطَقَ به القرآنُ والسنة من العمل مع القولِ والاعتقاد، وقد قال

---

(١) قطعة من حديث أبي هريرة، أخرجه الترمذي (٣٠٧٦) و(٣٣٦٨)، وابن حبان (٦١٦٧)، والحاكم ١/ ٦٤ وصححه. وسيأتي عند تفسير الآية (٤٤) من سورة البقرة، والآية (٦٨) من سورة الأنعام، والآية (١٧٢) من سورة الأعراف، والآية (٤٢) من سورة يوسف.

(٢) هو أبو تمَّام، والبيت المذكور في ديوانه ٢/ ٢٤٥.

(٣) ذكره الرازي في تفسيره ٢/ ٦١، ونسبه لأبي الفتح البُسْتي، والشطر الأول عنده: نسيت عهدك والنسيان مغتفر. وأورده السمين الحلبي في الدر المصون ١/ ١٢٠، وابن عادل الحنبلي في اللباب ١/ ٣٢٩.

(٤) لم نهتد إلى قائله، وأورده السمين الحلبي في الدر المصون ١/ ١١٩، وابن عادل الحنبلي في اللباب ١/ ٣٢٨.

(٥) رُوي من حديث عدد من الصحابة: فأخرجه أحمد في المسند (٦٧)، والبخاري (٦٩٢٤) ومسلم (٢٠) من حديث أبي بكر وعمر وأبي هريرة، وأخرجه مسلم (٢٢) من حديث ابن عمر. وأخرجه أحمد (٨٩٠٤)، ومسلم (٢١) من حديث أبي هريرة. وأخرجه أحمد (١٣٠٥٦)، والبخاري (٣٩٢) من حديث أنس، وأخرجه أحمد (١٤٢٠٩)، ومسلم (٢١): (٣٥) من حديث جابر، وأخرجه أحمد (١٦١٦٠) من حديث أوس بن أبي أوس الثقفي رضي الله عنهم أجمعين.

رسولُ الله ﷺ: «الإيمانُ معرفة بالقلب، وقولٌ باللسان، وعملٌ بالأركان». أخرجه ابنُ ماجه في «سننه» [١].

فما ذهب إليه محمدُ بن كَرَّام السِّجِسْتاني[٢] وأصحابُه هو النِّفاقُ وعَيْنُ الشِّقاق، نعوذُ بالله من الخِذلان وسوءِ الاعتقاد.

الرابعة: قال علماؤنا رحمة الله عليهم: المؤمنُ ضربان: مؤمنٌ يُحبُّه الله ويُواليه، ومؤمنٌ لا يُحبُّه الله ولا يُواليه، بل يُبْغِضُه ويُعادِيه، فكلُّ مَنْ عَلِمَ الله أنه يُوافي بالإيمان، فالله مُحِبٌّ له، مُوالٍ له، راضٍ عنه. وكلُّ مَن عَلِمَ الله أنه يُوافي بالكفر، فالله مُبغِضٌ له، ساخطٌ عليه، معادٍ له، لا لأجل إيمانه، ولكن لِكُفرِه وضلالِه الذي يُوافي به.

والكافر ضربان: كافرٌ يُعاقَب لا محالة، وكافرٌ لا يُعاقَب. فالذي يُعاقَب هو الذي يُوافي بالكفر، فالله ساخطٌ عليه معاد له. والذي لا يُعاقَب هو الموافي بالإيمان، فالله غيرُ ساخطٍ على هذا ولا باغض[٣] له، بل مُحِبٌّ له مُوالٍ، لا لِكُفْرِه، لكن لإيمانه المُوافي به، فلا يجوزُ أنْ يُطْلَقَ القول، وهي:

الخامسة: بأنَّ المؤمنَ يستحِقُّ الثوابَ، والكافرَ يستحِقُّ العقابَ، بل يجبُ تقييدُه بالموافاة. ولأجل هذا قلنا: إنَّ الله راضٍ عن عمرَ في الوقت الذي كان يعبُدُ الأصنامَ، ومُريدٌ لثوابِه ودخولِه الجنةَ، لا لعبادتِه الصَّنمَ، لكن لإيمانه الموافي به[٤]. وإنَّ الله تعالى ساخطٌ على إبليسَ في حال عبادتِه، لِكفره الموافي به.

وخالفَتِ القَدَريَّةُ في هذا، فقالت[٥]: إنَّ الله لم يكن ساخطاً على إبليسَ وقتَ عبادتِه، ولا راضياً عن عمرَ وقتَ عبادتِه للصنم. وهذا فاسدٌ، لما ثبتَ أنَّ الله سبحانه عالمٌ بما يُوافي به إبليسُ لعنه الله، وبما يُوافي به عمرُ رضي الله عنه فيما لم يزل،

---

(١) برقم (٦٥) من حديث علي رضي الله عنه. وفي إسناده عبد السلام بن صالح بن سليمان، أبو الصلت الهروي. قال البوصيري في الزوائد ١/ ٥١: متفق على ضعفه.

(٢) المبتدع، شيخ الكرَّامية، كان زاهداً عابداً، ولكنه يروي الواهيات. توفي سنة (٢٥٥هـ) بأرض بيت المقدس. السير ١١/ ٥٢٣.

(٣) في (م): مبغض.

(٤) وذلك باعتبار المآلِ، وأنه سيوافي ربه بقلبٍ مؤمن صادق.

(٥) في (د): فقالوا، وفي (م): وقالت.

فثبتَ أنه كان ساخطاً على إبليسَ، مُحبًّا لعمر.

ويدلُّ عليه إجماعُ الأمة على أنَّ الله سبحانه وتعالى غيرُ مُحِبٍّ لمن عَلِمَ أنه من أهل النار، بل هو ساخطٌ عليه، وأنه مُحِبٌّ لمن عَلِمَ أنه من أهل الجنة، وقد قال رسولُ الله ﷺ: «وإنما الأعمالُ بالخواتيم» (١)، ولهذا قال علماءُ الصوفية: ليس الإيمانُ ما يتزينُ به العبدُ قولاً وفعلاً، لكن الإيمان جَرْيُ السعادةِ في سوابقِ الأزل، وأما ظُهورُه على الهياكلِ، فربما يكونُ عارياً، وربما يكون حقيقةً.

قلت: هذا كما ثبت في «صحيح» مسلم وغيره عن عبد الله بن مسعود قال: حدثنا رسولُ الله ﷺ، وهو الصادقُ المصدوقُ: «إنَّ أحدَكم يُجمَعُ خَلْقُه في بَطْنِ أُمِّه أربعين يوماً، ثم يكونُ في ذلك عَلَقَةً مِثْلَ ذلك، ثم يكونُ في ذلك مُضْغَةً مِثْلَ ذلك، ثم يُرسِلُ الله المَلَكَ، فينْفُخُ فيه الرُّوحَ، ويُؤْمَر بأربعِ كلماتٍ: بكَتْب(٢) رِزْقِهِ، وأجَلِهِ، وعَمَلِهِ، وشقي أو سعيد، فوالذي لا إلهَ غيره، إنَّ أحدَكم لَيَعْمَلُ بعملِ أهل الجنةِ حتى ما يكونَ بينَهُ وبينَها إلا ذِراعٌ(٣)، فَيَسْبِقُ عليه الكتابُ، فَيعمَلُ بعمل أهلِ النار، فَيَدْخُلُها. وإنَّ أحدَكم لَيَعملُ بعملِ أهل النارِ حتى ما يكونَ بينَه وبينَها إلا ذراعٌ، فَيَسْبِقُ عليه الكتابُ، فَيعمَلُ بعملِ أهلِ الجنةِ، فَيَدْخُلُها»(٤). فإن قيل، وهي:

السادسة: فقد خرَّجَ الإمامُ الحافظُ أبو محمد عبدُ الغنيّ بنُ سعيد المصريّ من حديث محمد بن سعيدٍ الشامي المصلوب في الزندقة ـ وهو محمدُ بن أبي قيس ـ عن سليمانَ بن موسى ـ وهو الأشدق ـ عن مجاهد بن جبر، عن ابن عباس، أخبرنا أبو رَزِين العُقَيلي قال: قال لي النبي ﷺ: «لأَشربنَّ أنا وأنتَ يا أبا رَزِين من لبن لم يَتغيَّرْ طعمُه» قال: قلتُ: كيف يُحيى الله الموتى؟ قال: «أما مَرَرْتَ بأرضٍ لك مُجْدِبةٍ، ثم مَرَرْتَ بها مُخْصِبةً، ثم مَرَرْتَ بها مُجدِبةً، ثم مَرَرْتَ بها مُخصِبةً» قلتُ: بلى. قال: «كذلك النُّشُورُ» قال: قلتُ: كيف لي أنْ أعلمَ أني مؤمنٌ؟ قال: «ليس أحدٌ مِن هذه الأمةِ ـ قال ابنُ أبي

---

(١) قطعة من حديث، أخرجه أحمد في المسند (٢٢٨٣٥)، والبخاري (٦٤٩٣) من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه.

(٢) في النسخ: فيكتب، والمثبت من (م)، وهو الموافق لصحيح مسلم.

(٣) في (د) و(ز) في الموضعين: بينه وبينها إلا مقدار شبر أو ذراع.

(٤) صحيح مسلم (٢٦٤٣)، وهو أيضاً في صحيح البخاري (٣٢٠٨)، ومسند أحمد (٣٦٢٤).

قيس: أو قال: من أمتي ـ عَمِلَ حسنةً، وعَلِمَ أنها حسنةٌ، وأنَّ الله جازِيه بها خيراً، أو عَمِلَ سيِّئةً، وعَلِمَ أنها سيِّئةٌ، وأنَّ الله جازِيه بها شَرًّا أو يَغفِرُها، إلا مؤمنٌ»[١].

قلت: وهذا الحديثُ وإن كان سندُه ليس بالقوي، فإنَّ معناه صحيحٌ، وليس بمعارِض لحديث ابن مسعود، فإنَّ ذلك موقوفٌ على الخاتمة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «وإنما الأعمالُ بالخواتيم»[٢]. وهذا إنما يَدُلُّ على أنه مؤمنٌ في الحال، والله أعلم.

السابعة: قال علماءُ اللغة: إنما سُمِّيَ المنافقُ منافقاً، لإظهارِه غيرَ ما يُضْمِرُ، تشبيهاً باليَربوع، له جُحر يقال له: النَّافِقاء، وآخرُ يقال له: القاصِعاء، وذلك أنه يَخرِقُ الأرضَ حتى إذا كاد يبلغُ ظاهرَ الأرض، أَرَقَّ الترابَ، فإذا رابَه رَيْبٌ، دفَع ذلك الترابَ برأسه فخرج، فظاهرُ جُحره ترابٌ، وباطنُه حفر. وكذلك المنافقُ ظاهرُه إيمانٌ، وباطِنُه كفرٌ، وقد تقدَّم هذا المعنى[٣].

قوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾

قال علماؤنا: معنى «يخادعون الله» أي: يُخادعونه عند أنفسِهم وعلى ظنِّهم[٤]. وقيل: قال ذلك لِعَمَلِهم عملَ المُخادِع. وقيل: في الكلام حَذْفٌ، تقديرُه: يُخادِعون رسولَ الله ﷺ، عن الحسن وغيره. وجعل خِداعَهم لرسوله خداعاً له؛ لأنه دعاهم برسالته، وكذلك إذا خادعوا المؤمنين، فقد خادعوا الله. ومُخادَعتُهم: ما أظهروه من الإيمان خِلافُ ما أبطنوه من الكفر، لِيَحْقِنوا دماءَهم وأموالَهم، ويظنُّون أنهم قد نَجَوْا وخَدَعوا، قاله جماعةٌ من المتأوِّلين[٥].

---

(١) ذكره ابن حجر في المطالب العالية (٢٨٨١) ونسبه لأبي يعلى (ولعله في الكبير). وأخرجه الإمام أحمد في المسند (١٦١٩٤) من طريق عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن سليمان بن موسى، عن أبي رزين العقيلي، بنحوه، دون قوله: «لأشربنَّ أنا وأنت يا أبا رزين من لبن لم يتغير طعمه».

(٢) سلف في المسألة الخامسة.

(٣) ص ٢٧٣.

(٤) في (ظ): خلقهم.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٩٠.

وقال أهلُ اللغة[١]: أصلُ الخَدْع في كلام العرب الفساد، حكاه ثعلب عن ابن الأعرابي[٢]. وأنشد:

أَبْيَضُ اللَّونِ لَذِيذٌ طَعْمُهُ طَيِّبُ الرِّيقِ إذا الرِّيقُ خَدَعْ[٣]

قلت: فـ «يُخادعون الله» على هذا، أي: يُفسِدون إيمانَهم وأعمالَهم فيما بينهم وبين الله تعالى بالرِّياء. وكذا جاء مفسَّراً عن النبيِّ ﷺ على ما يأتي[٤]. وفي التنزيل: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢].

وقيل: أصلُه الإخفاء، ومنه مُخْدَعُ البيت الذي يُحرَزُ فيه الشيء. حكاه ابنُ فارس[٥] وغيرُه. وتقول العرب: انْخدَعَ الضَّبُّ في جُحْره.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ نفيٌ وإيجاب، أي: ما تَحُلُّ عاقبةُ الخَدْع إلا بهم. ومن كلامهم: مَنْ خَدَعَ مَن لايُخْدَع، فإنما يَخْدَعُ نفسَه. وهذا صحيح؛ لأنَّ الخِداعَ إنما يكون مع مَن لا يَعرِفُ البواطنَ، وأما مَنْ عَرَفَ البواطنَ، فمن دخلَ معه في الخِداع، فإنما يَخْدَعُ نفسَه. ودَلَّ هذا على أنَّ المنافقين لم يعرِفوا الله، إذ لو عَرَفُوه، لَعَرَفوا أنه لا يُخْدَعُ، وقد تقدَّمَ من قوله عليه الصلاة والسلام أنه قال: «لا تُخادِعِ الله، فإنه مَنْ يُخادِع الله، يَخدَعْهُ الله، ونفسَه يَخْدَعُ لو يَشْعر». قالوا: يا رسولَ الله، وكيف يُخادَعُ الله؟ قال: «تعملُ بما أمركَ الله به، وتَطْلُبُ به غيرَه»[٦]. وسيأتي بيانُ الخَدْعِ من الله تعالى كيف هو عند قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥].

وقرأ نافعٌ وابن كثير وأبو عمرو: «يُخادعون» في الموضعين، ليَتَجانس اللفظان.

---

(١) الحجة للقراء السبعة ١/ ٣١٣.

(٢) هو محمد بن زياد، أبو عبد الله الهاشمي مولاهم، إمام اللغة، النسابة، توفي سنة (٢٣١هـ). السير ١٠/ ٦٨٧.

(٣) البيت لسويد بن أبي كاهل اليشكري، وهو في المفضليات ص١٩١.

(٤) عند تفسير الآية (٢٦٤) من سورة البقرة، والآية (١٤٢) من سورة النساء.

(٥) في مجمل اللغة»١/ ٢٧٩.

(٦) تقدم ص ٣٥، باب تحذير أهل القرآن والعلم من الرياء.

وقرأ عاصم وحمزة والكسائي وابن عامر: «يخدعون» الثاني. والمصدر: خِدْع، بكسر الخاء، وخديعة. حكى ذلك أبو زيد[١].

وقرأ مُوَرِّق العِجْليُّ[٢]: «يُخَدِّعون الله» بضم الياء وفتح الخاء وتشديد الدال على التكثير[٣]. وقرأ أبو طالوت عبدُ السَّلام بنُ شدَّاد[٤] والجارود[٥]: بضم الياء وإسكانِ الخاء وفتحِ الدال، على معنى: وما يُخْدَعون إلا عن أنفسِهم، فحذف حرف الجر، كما قال تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: من قومه[٦].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: يفطُنون أنَّ وبالَ خَدْعِهم راجعٌ عليهم، فيظنُّون أنهم قد نَجَوْا بخَدْعِهم وفازُوا، وإنما ذلك في الدُّنيا، وفي الآخرةِ يقال لهم: ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ [الحديد: ١٣] على ما يأتي.

قال أهلُ اللغة: شَعَرْتُ بالشيء: فَطِنْتُ له[٧]، ومنه الشاعر لِفِطْنتِهِ، لأنه يَفطُنُ لما لا يَفْطُن له غيرُه من غريب المعاني. ومنه قولهم[٨]: ليت شِعْري، أي: ليتني عَلِمتُ[٩].

قوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ابتداء وخبر. والمرضُ عبارةٌ مستعارةٌ للفساد

---

(١) الحجة للقراء السبعة ١/ ٣١٢-٣١٣، والسبعة لابن مجاهد ص ١٣٩، والتيسير للداني ص ٧٢.

(٢) أبو المعتمر البصري، الإمام، توفي في ولاية ابن هبيرة على العراق. السير ٤/ ٣٥٣. وقال الحافظ في التقريب: مات بعد المئة.

(٣) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢، وأبو حيان في البحر ١/ ٥٧ وهي عندهما في قوله: «يخادعون» الثاني.

(٤) العبدي، القيسي، البصري، روى القراءة عن أبيه، وقد ولد أبوه يوم قبض النبي ﷺ. تهذيب التهذيب ٢/ ٥٧٥، وطبقات القراء ١/ ٣٨٥.

(٥) ابن أبي سَبْرة الهذلي، أبو نوفل البصري، توفي سنة (١٢٠هـ)، وهو من رجال التهذيب.

(٦) القراءات الشاذة ص ٢، والمحتسب ١/ ٥١، والبحر المحيط ١/ ٥٧، والمحرر الوجيز ١/ ٩٠ ـ ٩١.

(٧) في (م): أي: فطنت له.

(٨) لفظ: ومنه قولهم، من (م).

(٩) الصحاح (شعر)، ومجمل اللغة ٢/ ٥٠٥.

الذي في عقائدهم. وذلك إما أن يكونَ شكًّا ونِفاقاً، وإما جَحْداً وتكذيباً[١].

والمعنى: قلوبُهم مرضى، لخلوِّها عن العِصْمةِ والتوفيق، والرعاية والتأييد.

قال ابنُ فارس اللُّغوي[٢]: المرضُ كلُّ ما خرجَ به الإنسانُ عن حدِّ الصحة من عِلَّةٍ، أو نفاقٍ، أو تقصيرٍ في أمر.

والقُرَّاءُ مُجمعون على فتحِ الراء من «مَرَض» إلا ما رَوَى الأصمعيُّ عن أبي عَمرو أنه سكَّنَ الراء[٣].

قوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ قيل: هو دعاءٌ عليهم. ويكون معنى الكلامِ: زادهم الله شكًّا ونِفاقاً جزاءً على كُفرهم، وضعفاً عن الانتصار، وعَجْزاً عن القُدْرة، كما قال الشاعر[٤]:

يـامُـرْسِـلَ الـرِّيـحِ جَـنـوبـاً وصَـبَـا إذْ غَـضِـبَـتْ زيـدٌ فـزِدْهـا غَـضَـبـا

أي: لا تَهْدِها على الانتصار فيما غَضِبَتْ منه.

وعلى هذا يكون في الآيةِ دليلٌ على جواز الدعاء على المنافقين والطَّرْد لهم؛ لأنهم شَرُّ خلقِ الله[٥].

وقيل: هو إخبارٌ من الله تعالى عن زيادةِ مَرَضِهم، أي: فزادَهم الله مَرَضاً إلى مَرَضِهم، كما قال في آية أخرَى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥].

وقال أربابُ المعاني: «في قُلُوبهِمْ مَرَضٌ» أي: بِسُكونهم إلى الدنيا، وحُبِّهم[٦] لها، وغَفْلتِهم عن الآخرة، وإعراضِهم عنها. وقوله: «فَزَادَهُمُ الله مَرَضاً» أي: وَكَلَهم إلى أنفسِهم، وجَمَعَ عليهم هموم الدنيا، فلم يتفرَّغوا من ذلك إلى اهتمامٍ بالدين. «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» بما يفنى عما يبقى.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٩٢.

(٢) مجمل اللغة ٣/ ٨٢٧.

(٣) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢، وابن جني في المحتسب ١/ ٥٣.

(٤) هو الأخطل، والرجز في ديوانه ص٣١٩.

(٥) تفسير أبي الليث ١/ ٩٥.

(٦) في (د) و(ز): وجهلهم، بدل: وحبهم.

وقال الجُنَيد: عِلَلُ القلوبِ من اتِّباع الهَوَى، كما أنَّ عِلَلَ[١] الجوارح من مرضِ البَدَن.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: «أليم» في كلام العرب معناه: مؤلم، أي: مُوْجِع، مثل السَّميع بمعنى المُسْمِع، قال ذو الرُّمَّة يَصِفُ إبلاً:

ونـرفـعُ مـن صُـدورِ شَـمَـرْدَلَاتٍ يَـصُـكُّ وجـوهَـهـا وهَـجٌ أَلِـيـمُ[٢]

وآلَمَ إذا أَوْجَعَ. والإيلام: الإيجاع. والأَلَم: الوَجَع، وقد أَلِمَ يَأْلَمُ ألماً. والتألُّم: التوجُّع. ويُجمع أليمٌ على ألَمَاء، مثل: كَريم وكُرَماء، وآلام، مثل: أَشْراف.

قوله تعالى: ﴿بِمَا كانوا يُكَذِّبُون﴾[٣] ما مصدرية، أي: بتكذيبهم الرسلَ، وردهم على الله جل وعز، وتكذيبهم بآياته، قاله أبو حاتم. وقرأ عاصمٌ وحمزةُ والكسائي بالتخفيف[٤]، ومعناه: بِكَذِبهم وقولهم: آمنَّا، وليسوا[٥] بمؤمنين.

مسألة: واختلف العلماءُ في إمساكِ النبيِّ ﷺ عن قَتْل المنافقين مع عِلْمه بنفاقِهم على أربعةِ أقوال:

القول الأول: قال بعضُ العلماء: إنما لم يَقتُلْهم؛ لأنه لم يعلمْ حالَهم أحدٌ سواه. وقد اتفَّق العلماءُ على بَكرة أبيهم على أنَّ القاضيَ لا يَقتُلُ بعلمه، وإن[٦] اختلفوا في سائر الأحكام.

قال ابن العربي[٧]: وهذا مُنتقِضٌ، فقد قُتِل بالمُجَذَّر بن زياد الحارثُ بن سُوَيد بن الصَّامت؛ لأنَّ المُجَذَّر قتلَ أباه سُوَيداً يومَ بُعاث[٨]، فأسلمَ الحارث، وأغْفلَهُ يومَ

---

(١) في (ز) و(ظ): علة.

(٢) ديوانه ٢/ ٦٧٧، قال الباهلي في شرحه: شمردلات: هي نوق طِوال سِراع. ويصكّ يضرب. ووهج، أي: حرٌّ شديد.

(٣) بالتشديد، وهي قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وابن عامر. الحجة ١/ ٣٢٩. والسبعة ص ١٤١، والتيسير ص ٧٢.

(٤) الحجة ١/ ٣٢٩.

(٥) في (ظ): ولم يكونوا.

(٦) في (ظ): وقد، وفي (م): وإنما.

(٧) في أحكام القرآن ١/ ١٢.

(٨) من مشاهير أيام العرب في الجاهلية، كان فيه حرب بين الأوس والخزرج. الأغاني ١٧/ ١١٨.

أُحُد، فقَتَلَه، فأخبر به جبريلُ النبيَّ ﷺ، فقتَلَه به[١] ؛ لأنَّ قَتْلَه كان غِيلةً، وقَتْلُ الغِيلةِ حَدٌّ من حدودِ الله.

قلت: وهذه غفلةٌ من هذا الإمام؛ لأنه إنْ ثبتَ الإجماعُ المذكورُ، فليس بِمُنتَقِضٍ بما ذكر؛ لأنَّ الإجماعَ لا ينعقدُ، ولا يثبُتُ إلا بعد موت النبي ﷺ وانقطاعِ الوحي، وعلى هذا، فتكون تلك قَضيَّةً في عَيْنٍ بَوحْي، فلا يُحتَجُّ بها، أو منسوخةً بالإجماع. والله أعلم.

القول الثاني: قال أصحابُ الشافعي: إنما لم يَقتلْهم النبي ﷺ[٢]؛ لأنَّ الزِّنديقَ ـ وهو الذي يُسرُّ الكفرَ ويُظهِرُ الإيمانَ ـ يُستتابُ، ولا يقتل.

قال ابنُ العربي[٣]: وهذا وهمٌ، فإنَّ النبيَّ ﷺ لم يَسْتَتِبْهم، ولا نَقَلَ ذلك أحدٌ، ولا يقولُ أحدٌ: إنَّ استتابةَ الزنديق واجبةٌ[٤]. وقد كان النبيُّ ﷺ مُعْرضاً عنهم مع علمه بهم. فهذا المتأخِّرُ من أصحاب الشافعيِّ الذي قال: إنَّ استتابةَ الزِّنديقِ جائزةٌ، قال قولاً لم يَصِحَّ لأحد.

القول الثالث: إنما لم يَقتلْهم مصلحةً، لتأليف القلوب عليه لئلا تَنْفِرَ عنه، وقد أشار ﷺ إلى هذا المعنى بقوله لعمر: «معاذَ الله أَنْ يتحدَّثَ الناسُ أَنِّي أقتلُ أصحابي». أخرجه البخاري ومسلم[٥]. وقد كان يُعطي للمؤلَّفةِ قلوبُهم مع علمه بسوء اعتقادِهم تألُّفاً، وهذا هو قولُ علمائنا وغيرهم.

قال ابنُ عطية[٦]: وهي طريقةُ أصحاب مالك رحمه الله في كفِّ رسول الله ﷺ

---

(١) ذكر هذه القصة ابن سعد في الطبقات ٣/ ٥٥٢، وابن عبد البر في الاستيعاب (بهامش الإصابة) ١٠/ ٢١٩.

(٢) قوله: النبي ﷺ، من (ظ).

(٣) في أحكام القرآن ١/ ١٢.

(٤) في (د) و(ز): إن الزنديق واجبة استتابته، وفي أحكام القرآن: غير واجبة.

(٥) صحيح البخاري (٣٥١٨)، وصحيح مسلم (٢٥٨٤) وهو من حديث جابر رضي الله عنه، ولفظ البخاري: «لا يتحدث الناس أنه كان يقتل أصحابه». وهو في مسند أحمد (١٥٢٢٣).

(٦) في المحرر الوجيز ١/ ٩٤ ـ ٩٦.

عن المنافقين. نَصَّ على هذا محمدُ بنُ الجَهْم[١]، والقاضي إسماعيلُ[٢] والأبهري[٣]، وابنُ الماجشون، واحتجَّ بقوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ إلى قوله: ﴿وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٠-٦١]. قال قتادة: معناه: إذا هم أعلنوا النِّفاقَ.

قال مالكٌ رحمه الله: النفاقُ في عهدِ رسول الله ﷺ هو الزَّندقةُ فينا اليوم، فيقتلُ الزنديقُ إذا شُهِد عليه بها دون استتابة. وهو أحدُ قولَي الشافعي.

قال مالكٌ: وإنما كفَّ رسولُ الله ﷺ عن المنافقين، لِيُبيِّنَ[٤] لأُمَّته أنَّ الحاكمَ لا يحكُمُ بعلمه، إذ لم يُشْهَدْ على المنافقين.

قال القاضي إسماعيلُ: لم يَشهَدْ على عبدِ الله بن أبي إلا زيدُ بن أرقم وحدَه، ولا على الجُلاس بن سُويد إلا عُمَيرُ بنُ سعد رَبِيبُه[٥]، ولو شَهِدَ على أحد منهم رجلان بكُفره ونفاقه لَقُتِل[٦].

وقال الشافعيُّ رحمه الله مُحتَجًّا للقول الآخر: السنَّةُ فيمن شُهِدَ عليه بالزندقة، فَجحَدَ، وأعلن بالإيمان، وتبرَّأ من كلِّ دين سوى الإسلامِ، أنَّ ذلك يَمنعُ من إراقةِ دمه. وبه قال أصحابُ الرأي، وأحمدُ، والطبريُّ، وغيرُهم.

قال الشافعي وأصحابُه: وإنما منعَ رسولَ الله ﷺ من قتل المنافقين ما كانوا يُظهِرونه من الإسلامِ مع العلم بنفاقهم؛ لأنَّ ما يُظهِرونه يَجُبُّ ما قبلَه.

---

(١) أبو بكر، المالكي، له من الكتب: شرح مختصر ابن عبد الحكم الصغير والرد على محمد بن الحسن. الفهرست ص٢٥٣.

(٢) ابن إسحاق بن إسماعيل ابن محدّث البصرة حماد بن زيد، الأزدي، مولاهم، البصري، المالكي، صاحب التصانيف. توفي سنة (٢٨٢هـ). السير ١٣/ ٣٣٩.

(٣) محمد بن عبد الله بن محمد بن صالح، التميمي، المالكي، أبو بكر، نزيل بغداد. توفي سنة (٣٧٥هـ). السير ١٦/ ٣٣٢.

(٤) في (ز) و(ظ): ليسنّ.

(٥) ذكر ابنُ عبد البر قصةَ عبد الله بن أبي في الاستيعاب (بهامش الإصابة) ٤/ ٣٨ ـ ٣٩، وقصةَ الجلاس بن سويد ٢/ ١٩١ و٩/ ٣٢، وستأتي عند المصنف في تفسير الآية (٧٤) من سورة براءة: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟﴾. وانظر تفسير الآية (١) من سورة «المنافقون».

(٦) في (ظ): لقتله.

وقال الطبريُّ: جعل الله تعالى الأحكامَ بين عباده على الظاهر، وتَولَّى الحكمَ في سرائرهم دون أحدٍ من خَلْقه، فليس لأحدٍ أن يَحكُمَ بخلاف ما ظهرَ؛ لأنه حكمٌ بالظُّنون، ولو كان ذلك لأحدٍ، كان أولى الناسِ به رسولُ الله ﷺ، وقد حكَمَ للمنافقين بحكم المسلمين بما أظهروا، ووَكَلَ سرائرَهم إلى الله. وقد كذَّبَ الله ظاهرَهم في قوله[1]: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

قال ابن عطية[2]: يَنفصِلُ المالكيُّون عما لزموه من هذه الآية، بأنها لم تُعَيِّنْ أشخاصَهم فيها، وإنما جاء فيها توبيخٌ لكلِّ مَغْموصٍ عليه بالنِّفاق، وبقيَ لكلِّ واحدٍ منهم أن يقولَ: لم أُرَدْ بها، وما أنا إلا مؤمنٌ، ولو عُيِّنَ أحدٌ، لما جَبَّ كَذِبُه شيئاً.

قلت: هذا الانفصالُ فيه نظرٌ، فإنَّ النبيَّ ﷺ كان يَعْلَمُهم أو كثيراً منهم بأسمائهم وأعيانهم بإعلامِ الله تعالى إيَّاه. وكان حُذيفةُ يعلمُ ذلك بإخبارِ النبيِّ ﷺ إيَّاه، حتى كان عمرُ رضي الله عنه يقول له: ياحذيفةُ، هل أنا منهم؟ فيقول له: لا[3].

القول الرابع: وهو أنَّ الله تعالى كان قد حَفِظَ أصحابَ نبيِّه عليه الصلاة والسلام بكونه ثَبَّتَهم أن يُفْسِدَهم المنافقون، أو يُفسِدوا دينَهم، فلم يكن في تَبْقِيَتهم ضَرَرٌ، وليس كذلك اليوم؛ لأنَّا لا نأمَنُ من الزنادقةِ أن يُفسِدوا عامَّتنا وجُهَّالَنا.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾

«إذا» في موضعِ نصب على الظرف، والعاملُ فيها «قالوا»، وهي تُؤْذِنُ بوقوع الفعل المنتظر. قال الجوهريّ: «إذا» اسم يدلُّ على زمانٍ مستقبل، ولم تُستعمَلْ إلا مضافةً إلى جملة، تقول: أَجِيئُك إذا احمرَّ البُسْرُ، وإذا قَدِمَ فلانٌ، والذي يَدُلُّ على أنها اسْمٌ وقوعُها موقعَ قولِك: آتيكَ يومَ يَقْدَمُ فلانٌ، فهي ظرفٌ، وفيها معنى المجازاةِ.

وجزاءُ الشرط ثلاثة: الفعل، والفاء، و«إذا»:

فالفعلُ: قولك: إنْ تأتني آتِكَ، والفاء: إنْ تأتني فأنا أُحْسِنُ إليك، و«إذا»:

---

(١) في (د) و(ز): بقوله.

(٢) في المحرر الوجيز ١/ ٩٥ ـ ٩٦.

(٣) ذكره الذهبي في السير ٢/ ٣٦٤، والهندي في كنز العمال ١٣/ ٣٤٤، ونسبه إلى رستة.

كقوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾[١] [الروم: ٣٦].

ومما جاء من المجازاة بـ «إذا» في الشعر قولُ قيس بنِ الخطيم[٢]:

إذا قَصُرَتْ أسيَافُنا كان وَصْلُها خُطانا إلى أعدائنا فنُضارِبِ

فعطفَ «فنضارب» بالجزم على موضع «كان»[٣] لأنه مجزومٌ، ولو لم يكن مجزوماً، لقال: فنضاربَ، بالنصب.

وقد تزادُ على «إذا» «ما» تأكيداً، فيُجزمُ بها أيضاً، ومنه قولُ الفرزدق[٤]:

فقام أبو ليلى إليه ابنُ ظالمٍ وكان إذا مايَسْلُلِ السيفَ يضربِ

قال سيبويه[٥]: والجيِّدُ ما قال كعبُ بن زهير[٦]:

وإذا ما تشاءُ تبعثُ منها مغربَ الشمسِ ناشِطاً مَذْعُورا

يعني أنَّ الجيِّدَ ألا يُجزم بـ «إذا» كما لم يَجزم في هذا البيت.

وحُكي عن المبرِّد أنها في قولك في المفاجأة: خرجتُ فإذا زيدٌ، ظرفُ مكان، لأنها تضمَّنتْ جُثَّة. وهذا مردودٌ، لأنَّ المعنى: خرجتُ فإذا حضورُ زيد، فإنما تضمَّنتِ المصدرَ كما يَقتضيه سائرُ ظروفِ الزمان، ومنه قولهم: اليومَ خَمْرٌ وغداً أمرٌ[٧]، فمعناه: وجودُ خمرٍ ووقوعُ أمر[٨].

---

(١) الصحاح (إذا).

(٢) هو قيس بن الخطيم بن عدي، شاعر فارس من الأوس مات كافراً، قال ابن حجر في الإصابة: ذكره علي بن سعد العسكري في الصحابة، وهو وهم. الإصابة ٧/ ٢٥٩، وخزانة الأدب ٧/ ٣٤. والبيت في ديوانه ص٨٨، والكتاب ٣/ ٦٠.

(٣) في (م): بالجزم على كان.

(٤) هو همام بن غالب بن صعصعة، أبو فراس، التميمي، البصري، شاعر عصره، توفي سنة (١١٠هـ). السير ٤/ ٥٩٠. والبيت في ديوانه ١/ ٢١.

(٥) الكتاب ٣/ ٦٢.

(٦) ابن أبي سلمى صحابي معروف، ذكره ابن سلام في طبقاته ١/ ٩٧ في الطبقة الثانية من شعراء الجاهلية، وهو صاحب قصيدة البردة المشهورة. والبيت المذكور في ديوانه ص ٣٣.

(٧) قاله امرؤ القيس حين بلغه قتلُ أبيه وهو يشرب، ذكره أبو عُبيد في الأمثال ص٣٣٤ وأبو الفرج في الأغاني ٩/ ٨٨، والعسكري في جمهرة الأمثال ٢/ ٤٣١، والزمخشري في المستقصى ١/ ٣٥٨، وذكر صاحب الجمهرة أنه لهمام بن مرة أيضاً.

(٨) المحرر الوجيز ١/ ٩٣.

قوله: ﴿قِيلَ﴾: من القَوْل، وأصلُه قُوِل، نُقِلتْ كسرةُ الواو إلى القاف، فانقلبَت الواو ياءً.

ويجوز: «قيلْ لَهم» بإدغام اللام في اللام[١]. وجاز الجمعُ بين ساكنين؛ لأنَّ الياء حرفُ مدٍّ ولِيْن.

قال الأخفشُ: ويجوزُ «قُيل» بضم القاف والياء[٢]. وقال الكسائي: ويجوزُ إشمامُ القاف الضمَّ، لِيَدُلَّ على أنه لِمَا لم يُسَمَّ فاعلُه، وهي لغةُ قَيْس. وكذلك: «جيءَ» و«غيضَ» و«حيل» و«سِيق» و«سيء» و«سيئت».

وكذلك روى هشامٌ[٣] عن ابن عامر[٤]، ورُوَيْسٌ[٥] عن يعقوبَ[٦]. وأَشَمَّ منها نافعٌ «سيء» و«سيئت» خاصَّة. وزاد ابنُ ذَكوان: «حِيلَ» و«سيق»، وكَسَرَ الباقون في الجميع[٧]. فأما هُذَيْلٌ وبنو دُبَيْر من أسد وبنو[٨] قَعْس فيقولون: «قُوْل» بواو ساكنة[٩].

قوله: ﴿لَا تُفْسِدُوا﴾: «لا» نهي. والفسادُ ضدُّ الصَّلاح، وحقيقتُه: العُدولُ عن الاستقامةِ إلى ضِدِّها. فَسَدَ الشيءُ يَفْسُدُ فَساداً، وفُسُوداً، وهو فاسدٌ، وفَسِيدٌ. والمعنى في الآية: لا تُفسِدوا في الأرض بالكفرِ ومُوالاةِ أهله، وتفريقِ الناس عن الإيمان بمحمدٍ ﷺ والقرآنِ.

وقيل: كانت الأرضُ قبلَ أن يُبعثَ النبيُّ ﷺ [يعملون] فيها الفساد، ويُفعَلُ[١٠]

---

(١) وهي رواية السوسي عن أبي عمرو البصري، السبعة ص ١١٧، والتيسير ص ٢٠.

(٢) في إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٨٨: وبالياء.

(٣) ابن عمار، أبو الوليد السلمي، ويقال: الظَّفري، الحافظ المقرئ، عالم أهل الشام، وخطيب دمشق، توفي سنة (٢٤٥هـ). السير ١١/ ٤٢٠.

(٤) في (م) و(ظ): ابن عباس وهو خطأ.

(٥) محمد بن المتوكل، أبو عبد الله اللؤلؤي البصري، مقرئ حاذق ضابط، توفي سنة (٢٣٨هـ). طبقات القراء ٢/ ٢٣٤.

(٦) هو يعقوب بن إسحاق، أبو محمد الحضرمي مولاهم، مقرئ البصرة، أحد العشرة، ورجَّحه بعض الأئمة على الكسائي، توفي سنة (٢٠٥هـ). السير ١٠/ ١٦٩.

(٧) السبعة ص ١٤١-١٤٢، والتيسير ص ٧٢، والنشر ٢/ ٢٠٨.

(٨) في (م) و(ز) و(ظ): بني، والمثبت من (د).

(٩) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٨٨، والمحرر الوجيز ١/ ٩٣.

(١٠) في (ز): ويعمل.

فيها بالمعاصي[١] ، فلما بُعثَ النبيُّ ﷺ، ارتفعَ الفسادُ، وصَلَحت الأرضُ. فإذا عَملوا بالمعاصي، فقد أفسدوا في الأرض بعد إصلاحِها، كما قال في آية أخرى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾[٢] [الأعراف: ٥٦].

قوله: ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: الأرضُ مؤنثة، وهي اسمُ جنس، وكان حقُّ الواحدةِ منها أن يقالَ: أَرْضة، ولكنهم لم يقولوا. والجمعُ أَرْضاتٌ؛ لأنهم قد يجمعون المؤنَّثَ الذي ليست فيه هاءُ التأنيث بالتاء، كقولهم: عُرُسات. ثم قالوا: أَرَضون، فجمعوا بالواو والنون، والمؤنثُ لا يُجمع بالواو والنون، إلا أن يكونَ منقوصاً، كثُبَة وظُبَة، ولكنهم جعلوا الواو والنون عوضاً من حَذْفهم الألفَ والتاءَ، وتركوا فتحةَ الراء على حالها، وربما سُكِّنَتْ، وقد تُجمع على أُرُوض.

وزعم أبو الخطاب[٣] أنهم يقولون: أَرْضٌ، وآراضٌ، كما قالوا: أهل وآهالٌ[٤] . والأراضي أيضاً على غير قياس، كأنهم جَمعوا آرُضاً[٥] . وكل ما سَفَلَ فهو أَرْضٌ. وأَرْضٌ أَرِيضةٌ، أي: زَكيَّةٌ بيِّنةُ الأَرَاضةِ. وقد أَرُضَتْ، بالضم، أي: زَكَتْ. قال أبو عمرو: نزلنا أرضاً أَرِيضةً، أي: مُعجِبةً للعين، ويقال: لا أرضَ لك، كما يقال: لا أُمَّ لك. والأرضُ: أسفلُ قوائمِ الدابَّةِ، قال حُمَيدٌ[٦] يصفُ فَرَساً :

ولم يُقَلِّبْ أَرْضَها البَيْطارُ ولا لِحَبْلَيهِ بها حَبَارُ[٧]

---

(١) في (ظ): المعاصي.

(٢) تفسير أبي الليث ١/ ٩٦، وما بين معكوفتين منه.

(٣) عبد الحميد بن عبد المجيد البصري، وهو الأخفش الكبير، تخرج به سيبويه وحمل عنه النحو، قال الذهبي: ولم أقع له على وفاة. السير ٧/ ٣٢٣.

(٤) كذا في الصحاح (أرض)، والكلام كله منه. ونقل ابن منظور في اللسان (أرض) عن ابن بري قوله: الصحيح عند المحققين فيما حكي عن أبي الخطَّاب: أرض وأراضٍ، وأهل وأهالٍ.

(٥) ونقل ابن منظور أيضاً في اللسان عن ابن بُري قوله: صوابه أن يقول: جمعوا أَرْضَى، مثل أَرْطَى، وأما آرُض، فقياسه جمع أَوَارِض.

(٦) ابن مالك، الأرقط، من شعراء الدولة الأموية، وسمي الأرقط لآثار كانت بوجهه. خزانة الأدب ٥/ ٣٩٥.

(٧) ذكره ابن منظور في اللسان (أرض)، وذكر الجوهريُّ شطره الأول، ومعناه (كما في اللسان): أي لم يقلِّب قوائمها لعلمه بها.

أي: أثر. والأَرْضُ: النَّفْضَة، والرِّعْدَة. رَوى حمَّادُ بنُ سَلَمةَ، عن قتادةَ، عن عبد الله بن الحارث قال: زُلْزِلَتِ الأرضُ بالبصرة، فقال ابنُ عباس: والله ما أدري، أزُلْزِلَت الأرضُ، أَمْ بي أَرْضٌ[١] ؟ أي: أَمْ بي رِعْدَةٌ.

وقال ذو الرُّمَّةِ يصفُ صائداً:

إذا تَـوَجَّـسَ رِكْـزاً مـن سَـنـابِـكِـهـا أو كـان صاحـبَ أرْضٍ أو بـه المُـومُ[٢]

والأَرْضُ: الزُّكام. وقد آرضَهُ الله إيراضاً، أي: أَزْكمه، فهو مأْرُوضٌ. وفَسِيلٌ مُسْتأرِضٌ، وَودِيَّةٌ[٣] مُستأرِضة، بكسر الراء: وهو أن يكونَ له عِرْقٌ في الأرض، فأما إذا نبتَ على جذْع النخل، فهو الراكب. والإراضُ، بالكسر: بِساطٌ ضخمٌ من صوف أو وَبَر. ورجلٌ أَرِيضٌ، أي: متواضعٌ خَليقٌ للخير. قال الأصمعيُّ: يقال: هو آرَضُهم أن يفعلَ ذلك، أي: أَخْلَقُهم. وشيءٌ عريضٌ أرِيضٌ، إتباعٌ له، وبعضُهم يُفرِدُه، ويقول: جَدْيٌ أَرِيضٌ، أي: سمين[٤].

قوله: ﴿نَحْنُ﴾ أصل «نحن»: نَحُنْ، قُلِبَتْ حركةُ الحاء على النون، وأُسكنت[٥] الحاء، قاله هشامُ بن معاويةَ النَّحْوي[٦]. وقال الزَّجَّاج[٧]: «نحن» لجماعة، ومن علامةِ الجماعة الواو، والضمةُ من جنس الواو، فلما اضطُرُّوا إلى حركةِ «نحن» لالتقاءِ الساكنين، حرَّكوها بما يكونُ للجماعة. قال: ولهذا[٨] ضَمُّوا واوَ الجمعِ في قوله عز وجل: ﴿أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ﴾ [البقرة: ١٦]. وقال محمدُ بن يزيد: «نحن» مثلُ: قَبْلُ، وبعدُ؛ لأنها مُتعلِّقةٌ بالإخبارِ عن اثنين وأكثرَ[٩]، فـ «أنا» للواحد،

---

(١) إصلاح المنطق لابن السكيت ص٨٤، والتمهيد ٣/ ٣١٨، والفائق للزمخشري ١/ ٣٧.

(٢) ديوانه ١/ ٤٤٩، وقال شارحه: السنبك: طرف الحافر، والموم: البِرْسام. وفي القاموس: البرسام: علة يُهذَى فيها.

(٣) في (د): واودية. وفي الصحاح (ودى): الوَدِيُّ: صغار الفسيل، واحدها: وَدِيَّة.

(٤) الصحاح: (أرض).

(٥) في (د) و(ز): وسكنت.

(٦) أبو عبد الله، الضرير، الكوفي، صاحب الكسائي، توفي سنة (٢٠٩هـ). إنباه الرواة ٣/ ٣٦٤.

(٧) معاني القرآن ١/ ٨٩.

(٨) في (م): لهذا.

(٩) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٨٩.

و«نحن» للتثنية والجمع، وقد يُخبِرُ به المُتكلِّمُ عن نفسه في قوله: نحن قُمنا، قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ [الزخرف: ٣٢]. والمؤنَّثُ في هذا إذا كانت مُتكلِّمةً بمنزلة المذكَّر، تقول المرأةُ: قُمْتُ، وذهبتُ، وقُمنا، وذهبنا، وأنا فعلتُ ذاك، ونحن فعلنا. هذا كلامُ العرب فاعلم.

قوله تعالى: ﴿مُصْلِحُونَ﴾: اسمُ فاعل من «أصْلَح»، والصَّلاح: ضدُّ الفَساد. وصَلَح الشيء، بضم اللام وفتحها، لغتان، قاله ابنُ السِّكِّيت. والصُّلُوح، بضم الصاد: مصدر صَلُحَ، بضم اللام. قال الشاعر:

وكيف بأطرافي[١] إذا ما شَتَمْتَني ... وما بعدَ شَتْمِ الوالِدَيْنِ صُلُوحُ[٢]

وصَلاحِ من أسماء مكةَ. والصِّلْح، بكسر الصاد: نهر[٣].

وإنما قالوا ذلك على ظَنِّهم، لأنَّ إفسادَهم عندهم إصلاحٌ، أي إنَّ مما لأتنا للكفار إنما نُريدُ بها الإصلاحَ بينهم وبين المؤمنين. قاله ابنُ عباس وغيرُه[٤].

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾: ردًّا عليهم وتكذيباً لقولهم.

قال أربابُ المعاني: مَنْ أظهرَ الدعوى كَذَبَ، ألا ترى أنَّ[٥] اللهَ عزَّ وجلَّ يقول: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ وهذا صحيحٌ.

وكُسِرَتْ «إنَّ»، لأنها مبتدأةٌ، قاله النحاسُ[٦]. وقال عليُّ بن سليمان[٧]: يجوزُ

---

(١) في (ظ) و(م): بإطراقي، وفي (م): فكيف.

(٢) جمهرة اللغة ٢/ ١٦٤، وإصلاح المنطق ص١٢٤، ومجمل اللغة ٢/ ٥٣٩، ونسبه ابن دريد لعون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود. قال ابن السكيت: أطرافه: أبواه، وإخوته، وأعمامُه، وكل قريب له محرم.

(٣) مجمل اللغة ٢/ ٥٣٩.

(٤) النكت والعيون للماوردي ١/ ٧٥، وأخرجه الطبري ١/ ٣٠٠.

(٥) لفظ (أن) ليس في (ز) و(ظ).

(٦) إعراب القرآن ١/ ١٨٩، والكلام الذي بعده منه.

(٧) أبو الحسن، الأخفش الصغير، العلامة، النحوي، لازم ثعلباً والمبرِّد. توفي سنة (٣١٥هـ). السير ١٤/ ٤٨٠.

فَتْحُها، كما أجاز سيبويهِ[١] : حقًّا أنك منطلِقٌ، بمعنى: ألا. و«هم» يجوزُ أن يكونَ مبتدأً، و«المُفْسِدُونَ» خبرُه، والمبتدأ وخبرُه خبرُ «إنَّ». ويجوزُ أن تكونَ «هم» توكيداً للهاء والميم في «إنهم»، ويجوزُ أن تكونَ فاصلةً، والكوفيون يقولون: عماداً. و«المفسدون»: خبرُ «إنَّ»، والتقديرُ: ألا إنهم المفسدون، كما تقدَّمَ في قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[٢] [البقرة: ٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾: قال ابنُ كَيْسان: يقال: ما على مَن لم يعلم أنه مفسِدٌ من الذَّمِّ، إنما يُذَمُّ إذا عَلم أنه مفسد، ثم أَفْسدَ على عِلْم. قال: ففيه جوابان: أحدُهما: أنهم كانوا يَعملون الفسادَ سِرًّا، ويُظهِرون الصلاحَ، وهم لا يشعرون أنَّ أمرَهم يَظهرُ عند النبيِّ ﷺ. والوجه الآخرُ: أن يكونَ فسادُهم عندَهم صلاحاً، وهم لا يشعرون أنَّ ذلك فسادٌ، وقد عَصَوا اللهَ ورسولَه في تَرْكِهم تبيينَ الحقِّ واتِّباعِهِ[٣].

«ولكنْ»: حرفُ تأكيدٍ واستدراك، ولا بدَّ فيه من نَفْي وإثبات: إن كان قبلَه نفيٌ كان بعدَه إيجابٌ، وإن كان قبلَه إيجابٌ كان بعدَه نفيٌ. ولا يجوزُ الاقتصارُ بعدَه على اسمٍ واحدٍ إذا تقدَّمَ الإيجابُ، ولكنك تذكر جملةً مُضادَّةً لما قبلَها، كما في هذه الآيةِ، وقولِك: جاءني زيدٌ لكن عمرو لم يجئ، ولا يجوزُ جاءني زيدٌ لكن عمرو، ثم تَسكُت؛ لأنهم قد استغنَوْا بـ «بل» في مثل هذا الموضعِ عن «لكن»، وإنما يجوزُ ذلك إذا تقدَّمَ النفيُ، كقولك: ما جاءني زيدٌ لكن عمرٌو[٤].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ يعني المنافقين في قولِ مُقاتل[٥] وغيرِه. ﴿ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ أي: صَدِّقوا بمحمدٍ ﷺ وشرعِهِ، كما صدَّقَ المهاجرون والمحقِّقُون من

(١) الكتاب ٣/ ١٢٢.
(٢) ص ٢٧٧.
(٣) معاني القرآن للنحاس ١/ ٩٣.
(٤) المقتضب للمبرد ١/ ١٢ و٤/ ١٠٨، والكتاب ١/ ٤٣٥.
(٥) تفسير أبي الليث ١/ ٩٦.

أهل يَثْرب[١] .

وألِفُ «آمنُوا» ألفُ قَطْع؛ لأنك تقول: يُؤمن، والكافُ في موضع نصب؛ لأنها نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ، أي: إيماناً كإيمان الناس[٢] .

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ﴾ يعني: أصحاب محمد ﷺ، عن ابن عباس[٣] . وعنه أيضاً: مُؤمِنو أهل الكتاب.

وهذا القولُ من المنافقين إنما كانوا يقولونه في خَفاءٍ واستهزاء، فَأَطْلعَ اللهُ نَبيَّه والمؤمنين على ذلك، وقرَّرَ أنَّ السَّفَهَ ورِقَّةَ الحُلُوم وفَسادَ البصائر، إنما هي في حَيِّزهم[٤] وصِفةٌ لهم، وأخبر أنهم هم السفهاءُ ولكن لا يعلمون، للرَّين الذي على قلوبهم[٥] .

وروى الكلبيُّ، عن أبي صالح، عن ابن عباس: أنها نزلَتْ في شأن اليهود، أي: إذا[٦] قيل لهم ـ يعني اليهود ـ : آمنوا كما آمَنَ الناسُ: عبدُ الله بنُ سَلَام وأصحابُه، قالوا: أنؤمن كما آمَنَ السفهاءُ؟ يعني الجُهَّال والخُرَقاء[٧] .

وأصلُ السَّفَهِ في كلام العرب: الخفَّةُ والرِّقَّةُ، يقال: ثوبٌ سَفِيهٌ: إذا كان رديءَ النَّسْجِ خفيفَه، أو كان بالياً رقيقاً. وتَسفَّهَتِ[٨] الريحُ الشجرَ: مالَتْ به، قال ذو الرُّمَّة:

مَشَيْنَ كما اهتزَّتْ رماحٌ تسفَّهَتْ أعالِيَها مَرُّ الرياحِ النَّواسِمِ[٩]

وتسفَّهت الشيء: استحقَرْتُه، والسَّفَهُ: ضِدُّ الحِلْم، ويقال: إنَّ السَّفَهَ أنْ يُكثِرَ

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ٩٤.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٩٠.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٣٠٣.

(٤) في (ظ): خبرهم.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٩٤.

(٦) في (م): وإذا.

(٧) تفسير أبي الليث ١/ ٩٦، وقد ردَّ ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٩٤ هذا التفسير، وقال: هذا تخصيص لا دليل عليه. اهـ وقول المصنف: الخُرَقاء ـ ووقع عند أبي الليث: الخَرْقى ـ يعني جمع أخرق. والذي في القاموس أن الجمع: خُرْق.

(٨) في النسخ: سفهت، والمثبت من (م) وصحاح الجوهري.

(٩) ديوانه ٢/ ٧٥٤، وفيه: رويداً، بدل: مَشَيْن. وقال شارحه: النواسم: تنسمت الريح أي: تنفستُ، وهو أول هبوبها.

الرجلُ شُربَ الماء، فلا يَرْوَى[١] .

ويجوزُ في همزتَي «السفهاء»[٢] أربعةُ أوجه:

أجودُها أن تُحقِّقَ الأُولى، وتقلبَ الثانيةَ واواً خالصة، وهي قراءةُ أهل المدينة، والمعروفُ من قراءةِ أبي عمرو[٣].

وإن شئتَ خفَّفْتَهما جميعاً، فجعلتَ الأُولى بين الهمزة والواو، وجعلتَ الثانيةَ واواً خالصةً[٤].

وإن شئتَ خفَّفْتَ الأُولى وحقَّقْتَ الثانيةَ[٤].

وإن شئتَ حقَّقْتَهما جميعاً[٥] .

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ مثل: «ولِكنْ لا يَشْعُرُونَ»، وقد تَقَدَّمَ. والعلمُ معرفةُ المعلوم على ما هو به، تقول: عَلِمتُ الشيءَ أَعْلَمُه عِلْماً: عَرَفْتُه، وعالَمْتُ الرجلَ، فَعَلَمْتُهُ أَعْلُمُهُ، بالضم في المستقبل: غَلَبْتُهُ بالعلم[٦] .

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾ نزلَتْ هذه الآيةُ في ذكر المنافقين.

أصل لَقُوا: لَقِيُوا، نُقلت الضمةُ إلى القاف، وحُذِفَتِ الياءُ لالتقاء الساكنين.

وقرأ محمد بنُ السَّمَيْفَع اليمانيُّ: «لاقَوُا الذين آمنوا»[٧] . والأصلُ: لاقَيُوا، تحرَّكَتِ الياءُ وقبلَها فتحةٌ، انقلبَتْ الياءُ ألفاً[٨]، اجتمع ساكنان: الألفُ والواو،

---

(١) مجمل اللغة ٢/ ٤٦٣.

(٢) يعني في قوله: «السفهاءُ ألا» .

(٣) وهي أيضاً قراءة ابن كثير. التيسير ص ٣٤.

(٤) وهي قراءة شاذة.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٩٠. وقرأ بتحقيق الهمزتين ابن عامر الشامي وعاصم وحمزة والكسائي. التيسير ص ٣٤.

(٦) الصحاح : (علم).

(٧) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢، والعكبري في الإملاء في موضعها في سورة البقرة.

(٨) في (م): انقلبت ألفاً.

فَحُذِفتِ الألفُ لالتقاء الساكنَين، ثم حُرِّكت الواو بالضم.

فإن[١] قيل: لم ضُمَّت الواوُ في «لاقَوا» في الإدراج، وحُذفت من «لَقُوا»؟ فالجواب: أنَّ قبل الواو التي في «لَقُوا» ضَمَّةً، فلو حُرِّكتِ الواو بالضم، لَثقُلَ على اللسان النُّطقُ بها، فحذفت لثقلها، وحُرِّكتْ في «لاقَوا»؛ لأنَّ قبلَها فتحةً[٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ﴾: إن قيل: لم وُصِلَتْ «خَلَوْا» بـ«إلى»، وعُرْفُها أن تُوصَلَ بالباء؟ قيل له: «خَلَوْا» هنا بمعنى: ذَهَبوا وانصرفوا، ومنه قولُ الفرزدق[٣]:

كيف تَرانِي قالباً[٤] مجنِّي ... قد قتلَ الله زياداً عَنِّي[٥]

لما أنزلَه منزلة: صرف[٦].

وقال قومٌ: «إلى» بمعنى «مع»، وفيه ضعفٌ. وقال قومٌ: «إلى» بمعنى الباء، وهذا يأباهُ الخليلُ وسيبويهِ.

وقيل: المعنى: وإذا خَلَوْا من المؤمنين إلى شياطينهم، فـ«إلى» على بابها.

والشياطين جمعُ شيطان، على التكسير، وقد تقدَّم القولُ في اشتقاقه ومعناهُ في الاستعاذة[٧].

واختلف المفسِّرون في المراد بالشياطين هنا، فقال ابنُ عباس والسُّدِّي: هم رؤساءُ الكفر[٨]. وقال الكَلْبي: هم شياطينُ الجِنِّ[٩]. وقال جمعٌ من المفسرين: هم الكُهَّان.

---

(١) في (م): وإن.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٩٠.

(٣) ديوانه ٢/ ٨٨١.

(٤) في (د) و(ز): قالياً. اهـ. أي: هاجراً، كناية عن عدم الحاجة إليه، فيما ذكر محققو المحتسب ١/ ٥٢.

(٥) قوله: المِجنّ: هوالتُّرس، وقال البغدادي في شرح شواهد المغني ٨/ ٨٦: قلبُ المِجَنِّ عبارةٌ عن رميه من يده لعدم الاحتياج إليه.

(٦) قال ابن جني في المحتسب ١/ ٥٢: استعمال «عن» هاهنا لما دخله من معنى: قد صرفه الله عني، لأنه إذا قتله، فقد صُرف عنه.

(٧) ص ١٣٩ ـ ١٤٠.

(٨) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٣٠٧.

(٩) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ٩٦: وهذا في هذا الموضع بعيد.

ولفظُ الشَّيْطَنةِ الذي معناه: البعدُ عن الإيمان والخيرِ يَعُمُّ جميعَ مَنْ[١] ذُكِر[٢]، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾ أي: مُكَذِّبون بما نُدْعَى إليه، وقيل: ساخرون، والهُزء: السخريةُ واللعب، يقال: هَزِئ به، واستهزأ، قال الراجز:

قد هَزِئَتْ مني أمُّ طَيْسَلَهْ قالت أُراه مُعْدِماً لا مالَ لَهْ[٣]

وقيل: أصلُ الاستهزاء: الانتقامُ، كما قال الآخرُ:

قد استهزؤوا منهم بألفيْ مُدجَّجٍ سَرَاتُهمُ وسْطَ الصَّحاصِحِ جُثَّمُ[٤]

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾، أي: ينتقمُ منهم ويُعاقِبُهم، ويَسخَرُ بهم، ويُجازِيهم على استهزائهم، فسمَّى العقوبةَ باسمِ الذنب. هذا قولُ الجمهور من العلماء، والعربُ تستعملُ ذلك كثيراً في كلامهم[٥]، من ذلك قولُ عَمرو بنِ كُلثوم:

ألا لا يَجْهَلَنْ أحدٌ علينا فنَجْهَلَ فوقَ جَهْلِ الجاهِلِينا[٦]

فسمَّى انتصارَه جَهْلاً، والجهلُ لا يَفْتَخِرُ به ذو عقل، وإنما قاله لِيَزْدَوِجَ الكلامُ، فيكونَ ذلك أخفَّ[٧] على اللسان من المخالفة بينهما[٨]. وكانت العربُ إذا وضعوا

---

(١) في (د) و(ز): ما.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٩٦.

(٣) قائله صخر بن عمير الهذلي، كما في أمالي أبي علي القالي ٢/ ٢٨٤، ولفظه عنده:

تهزأ مني أختُ آلِ طَيْسَلَهْ قالت أُراه مُبْلَطاً لا شيءَ لَهُ

وهو في اللسان (طسل)، وفيه: قالت أُراه في الوقار والعَلَهْ. وانظر تفسير الطبري ٢/ ٧٥.

(٤) لم نهتد إلى قائله، وأورده السمين الحلبي في الدر المصون ١/ ١٥٠.

والصحاصح: جمع صحصح، وهي الأرض الجرداء المستوية، ذات حصى صغار. اللسان (صحح).

(٥) المحرر الوجيز ١/ ٩٧.

(٦) هو في معلقته ص١١٧ بشرح ابن كَيْسان، وفي شرح القصائد السبع لابن الأنباري ص٤٢٦، وشرح القصائد التسع للنحاس ص٢/ ٨٣٤.

(٧) في (م): فيكون أخف.

(٨) الأسماء والصفات للبيهقي ٢/ ٤٣٩.

لفظاً بإزاء لفظٍ جواباً له وجزاءً، ذكَروه بمثل لَفْظِهِ، وإن كان مخالفاً له في معناه، وعلى ذلك جاء القرآنُ والسنَّة. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠]، وقال: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٤]. والجزاءُ لا يكون سيئةً. والقِصاصُ لا يكون اعتداءً؛ لأنه حقٌّ وَجَبَ. ومثله: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾ [آل عمران: ٥٤]، و﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾ [الطارق: ١٥ ـ ١٦]، و﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ، ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ [البقرة: ١٤ ـ ١٥]، وليس منه سبحانه مَكْرٌ، ولا هُزْءٌ، ولا كَيْدٌ، إنما هو جزاءٌ لمكرهم واستهزائهم، وجزاءُ كيدِهم. وكذلك ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢]، ﴿فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ﴾ [التوبة: ٧٩].

وقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ اللهَ لايَمَلُّ حتى تَمَلُّوا، ولا يَسأمُ حتى تَسأموا»[(١)]. قيل: «حتى» بمعنى الواو، أي: وتَمَلُّوا. وقيل: المعنى: وأنتم تَمَلُّون. وقيل: المعنى: لا يَقْطَعُ عنكم ثوابَ أعمالِكم حتى تَقْطَعوا العملَ. وقال قومٌ: إنَّ اللهَ تعالى يفعلُ بهم أفعالاً هي في تأمُّلِ البشر هُزْءٌ وخَدْعٌ ومَكْرٌ، حسب ما رُوي: إنَّ النارَ تَجمُدُ كما تَجمُدُ الإهالةُ، فيمشون عليها ويَظنونها مَنْجاةً، فتَخسِفُ بهم[(٢)].

وروى الكلبيُّ عن أبي صالح، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾: هم منافقُو أهلِ الكتاب، فذكَرهم، وذكَر استهزاءَهم، وأنهم إذا خَلَوْا إلى شياطينهم ـ يعني رؤساءَهم في الكفر، على ما تقدَّم ـ قالوا: إنا معكم على دينكم ﴿إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ﴾ بأصحاب محمد ﷺ. ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ في الآخرة، يُفتَحُ لهم بابُ جهنم من الجنة، ثم يقال لهم: تعالَوا، فيُقبلون يَسْبَحون[(٣)] في النار، والمؤمنون على الأرائك ـ وهي السُّرُر في الحجَال ـ ينظرون إليهم، فإذا انتَهَوْا إلى الباب، سُدَّ عنهم، فَيضحَكُ المؤمنون منهم، فذلك قولُ الله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ أي: في الآخرة، ويَضحَكُ المؤمنون منهم حين غُلِّقَتْ دونهم الأبوابُ، فذلك

(١) قوله منه: «إن الله لا يمل حتى تملوا» قطعة من حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه أحمد (٢٤١٢٤)، والبخاري (٥٨٦١)، ومسلم (٧٨٢)، وقوله منه: «ولا يسأم حتى تسأموا» أخرجه أحمد في «المسند» (٢٦٠٩٦)، ومسلم (٧٨٥) من حديثها أيضاً.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ٩٧. والإهالة: هو ما أُذيب من الألية والشحم. النهاية في غريب الحديث (أهل).

(٣) في (ز): يسيحون، وفي تفسير أبي الليث والأسماء والصفات: يُسحبون.

قولُه تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ إلى أهل النار ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾[1] [المطففين: ٣٤ ـ ٣٦].

وقال قومٌ: الخِداعُ من الله والاستهزاءُ: هو استدارجُهم بِدُرُورِ النِّعم الدنيويَّةِ عليهم، فاللهُ سبحانه وتعالى يُظهِرُ لهم من الإحسان في الدنيا خِلافَ ما يَغيبُ عنهم ويَسْتُرُ عنهم من عذابِ الآخرة[2]، فيظنُّون أنه راضٍ عنهم، وهو تعالى قد حَتَمَ عذابَهم، فهذا على تأمُّل البشر كأنه استهزاءٌ ومَكرٌ وخداعٌ[3].

ودلَّ على هذا التأويل قولُه ﷺ: «إذا رأيتم الله عزَّ وجلَّ يُعطي العبدَ ما يُحِبُّ وهو مُقِيمٌ على معاصيه، فإنما[4] ذلك منه استدارجٌ»، ثم نزعَ بهذه الآيةِ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[5] [الأنعام: ٤٤ ـ ٤٥].

وقال بعضُ العلماء في قوله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤]: كلَّما أحدثوا ذنباً، أُحدِثَتْ[6] لهم نعمة[7].

قوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ﴾ أي: يُطِيلُ لهم المدَّة، ويُمْهِلُهم، ويُمْلي لهم، كما قال: ﴿إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] وأصلُه: الزيادة.

---

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (١٠١٨). وأورده مختصراً أبو الليث في تفسيره ١/ ٩٧.

(٢) في (ظ)، والأسماء والصفات: ويستتر من عذاب الآخرة.

(٣) الأسماء والصفات ٢/ ٤٤٠، والمحرر الوجيز ١/ ٩٧.

(٤) في (د): فإنَّ.

(٥) أخرجه أحمد في المسند (١٧٣١١)، والطبري في تفسيره ٩/ ٢٤٨، والطبراني في الكبير ١٧/ (٩١٣)، والأوسط (٩٢٦٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٥٤٠)، والأسماء والصفات (١٠٢١) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه. وسيأتي عند المصنف في تفسير الآية (٤٤) من سورة الأنعام باختلاف في بعض ألفاظه.

(٦) في (م): أحدث.

(٧) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر (١١٤)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١٠٢٤).

قال يونسُ بنُ حَبِيب[١] : يقال: مدَّ لهم في الشرِّ، وأمدَّ في الخير[٢] ، قال اللهُ تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [الإسراء: ٦]، وقال: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الطور: ٢٢].

وحُكي عن الأخفش: مددتُ له إذا تركتَه، وأمدَدْتُه إذا أعطيتَه[٣] . وعن الفرّاء واللِّحياني: مددت، فيما كانت زيادتُه من مِثْلِهِ، يقال: مدَّ النَّهر[٤]، وفي التنزيل: ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ [لقمان: ٢٧]، وأمددتُ، فيما كانت زيادتُه من غيرِهِ، كقولك: أمددتُ الجيشَ بمَدَدٍ، ومنه: ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [آل عمران: ١٢٥]. وأمدَّ الجُرْحُ، لأن المِدَّة[٥] من غيره، أي: صارت فيه مِدَّة.

قوله تعالى: ﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾: كفرهم وضلالهم. وأصلُ الطغيان مجاوزةُ الحدِّ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقة: ١١] أي: ارتفع، وعلا، وتجاوزَ المقدارَ الذي قدَّرَتْه الخُزَّان. وقوله في فرعون: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤] أي: أسرفَ في الدعوى حيث قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]. والمعنى في الآية: يمدُّهم[٦] بطولِ العمر حتى يزيدوا في الطغيان، فيزيدَهم في عذابهم.

قوله تعالى: ﴿يَعْمَهُونَ﴾: يَعْمَون[٧]. وقال مجاهد: أي: يتردَّدُون متحيِّرين في الكفر[٨].

وحكى أهلُ اللغة: عَمِهَ الرجلُ يَعْمَهُ عُمُوهاً وعَمَهاناً[٩]، فهو عَمِهٌ وعامِهٌ: إذا

---

(١) أبو عبد الرحمن، الضبي مولاهم، البصري، إمام النحو، أخذ عن أبي عمرو بن العلاء، وحماد بن سلمة، وعنه: الكسائي وسيبويه والفراء، توفي سنة (١٨٣هـ). السير ٨/ ١٩١.

(٢) معاني القرآن للأخفش ١/ ٢٠٦، والنكت والعيون ١/ ٧٨، والمحرر الوجيز ١/ ٩٧.

(٣) معاني القرآن ١/ ٢٠٦.

(٤) في اللسان (مدد): مدَّ النهرُ النهرَ: إذا جَرَى فيه. قال اللحياني: يقال لكل شيء دخل فيه مثله فكثّره: مدَّه يمدُّه مدًّا.

(٥) أي: القيح.

(٦) في (د): يمددهم.

(٧) لم ترد لفظة: «يعمون» في (د)، ووقع في (ز) بدلاً منها: يعمهون.

(٨) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٣٢٤.

(٩) في (م): عَمَهاً، بدل: وعمهاناً، وكلاهما صحيح.

حارَ، ويقال: رجل عامِهٌ وعَمِهٌ: حائرٌ متردِّد، وجمعه عُمَّهٌ. وذهبَتْ إبِلُه العُمَّهَى: إذا لم يدرِ أين ذهبت. والعَمَى في العين، والعَمَهُ في القلب، وفي التنزيل: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ﴾، قال سيبويه: ضُمَّت الواو في «اشتَروا» فَرْقاً بينها وبين الواو الأصلية[١]، نحو: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ [الجن: ١٦]. وقال ابنُ كَيْسان: الضمةُ في الواو أخفُّ من غيرها، لأنها من جنسها. وقال الزجَّاجُ[٢]: حُرِّكت بالضم، كما فُعل في «نحن».

وقرأ ابنُ أبي إسحاق ويحيى بنُ يَعْمَر بكسر الواو على أصل التقاء الساكنَيْن[٣]. وروى أبو زيد الأنصاريُّ، عن قَعْنَب أبي السَّمَّال العَدَويِّ، أنه قرأ بفتح الواو[٤]، لخفَّة الفتحة، وأن قبلَها مفتوحاً[٥]. وأجازَ الكِسائيُّ همزَ الواو وضَمَّها كأدؤر[٦].

و«اشتروا»: من الشراء. والشراءُ هنا مُستعارٌ، والمعنى: استحبُّوا الكُفرَ على الإيمان، كما قال: ﴿فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧]، فعبر عنه بالشراء؛ لأنَّ الشراءَ إنما يكون فيما يُحبُّه مُشتريه. فأمَّا أن يكونَ معنى الشراءِ المعاوضة، فلا؛ لأنَّ المنافقين لم يكونوا مؤمنين، فيبيعوا[٧] إيمانهم[٨].

---

(١) الكتاب ٤/ ١٥٥.

(٢) في معاني القرآن ١/ ٨٩. وقد سلف ص ٣٠٨.

(٣) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢، وابن جني في المحتسب ١/ ٥٤.

(٤) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢، وابن جني في المحتسب ١/ ٥٤، قال الزجاج في معاني القرآن ١/ ٨٩: وهو شاذ جداً.

(٥) في النسخ الخطية: وأن ما قبلها مفتوحاً، وفي(م): وإن كان ما قبلها مفتوحاً، والمثبت من إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٩٢ (والكلام منه).

(٦) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٢. قال النحاس: وهذا غلط، لأن همزة الواو إذا انضمت؛ إنما يجوز فيها إذا انضمت لغير علة. وبنحوه قال الزجاج في معاني القرآن ١/ ٩١، وابن جني في المحتسب ١/ ٥٥.

(٧) في (ظ): فيضيعوا.

(٨) النكت والعيون ١/ ٧٩.

وقال ابن عباس: أخذوا الضلالة وتركوا الهدى[١]. ومعناه: استبدلوا واختاروا الكفرَ على الإيمان. وإنما أخرجه بلفظ الشراء توسعاً؛ لأنَّ الشراءَ والتجارةَ راجعانِ إلى الاستبدال، والعربُ تستعمل ذلك في كلٍّ من استبدلَ شيئاً بشيء. قال أبو ذُؤيب[٢]:

فإنْ تَزْعُمِيني كنتُ أجهَلُ فيكمُ فإني شَرَيتُ الحِلْمَ بعدكِ بالجهل[٣]

وأصلُ الضلالة: الحَيْرة. ويُسمَّى النسيانُ ضلالةً، لِما فيه من الحَيْرة، قال جلَّ وعزَّ: ﴿فَعَلَنْهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠] أي: الناسين.

ويُسمَّى الهلاكُ ضلالةً، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[٤] [السجدة: ١٠].

قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾: أسندَ تعالى الربحَ إلى التجارة على عادة العرب في قولهم: رَبحَ بَيْعُك، وخَسِرَتْ صَفْقتُك، وقولهم: ليلٌ قائمٌ، ونهارٌ صائم[٥]، والمعنى: رَبِحتَ وخَسِرْتَ في بيعك، وقُمتَ في ليلك، وصُمتَ في نهارك، أي: فما رَبِحوا في تجارتهم. وقال الشاعر:

نهارُك هائمٌ وليلُكَ نائمُ كذلك في الدنيا تَعيشُ البهائمُ[٦]

ابن كَيْسان: ويجوزُ: تجارة وتجائر، وضلالة وضلائل[٧].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ في اشترائهم[٨] الضلالةَ. وقيل: في سابق

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٣٢٥.

(٢) خويلد بن خالد بن محرِّث، الهذلي، شاعر جاهلي إسلامي، لم ير النبي ﷺ، توفي في خلافة عثمان رضي الله عنه، وقيل: مات في غزوة إفريقية بمصر منصرفاً بالفتح مع ابن الزبير. الاستيعاب (بهامش الإصابة) ١١/ ٢٣٢.

(٣) البيت في شرح أشعار الهذليين للسكري ١/ ٩٠.

(٤) معاني القرآن للنحاس ١/ ١٠٠.

(٥) في (د): ليله قائم، ونهاره صائم.

(٦) لم نجده بهذا اللفظ، وقد أخرج أبو نعيم في الحلية ٥/ ٣١٩-٣٢٠، والبيهقي في شعب الإيمان (١٠٧٩٥) عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله في هذا المعنى أبياتاً كان ينشدها، وسيذكر المصنف منها أربعة عند تفسير الآية (٢٠٧) من سورة الشعراء.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٩٣.

(٨) في (د) و(ز): شرائهم.

علمِ الله. والاهتداءُ ضدُّ الضلال[١] ، وقد تقدَّم[٢].

قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ فـ «مَثَلُهم» رُفع بالابتداء، والخبرُ في الكاف، فهي اسم، كما هي في قول الأعشى:

أتنتهونَ ولن ينهى ذَوِي شَطَطٍ كالطَّعْنِ يذهبُ فيه الزيتُ والفُتُلُ[٣]

وقولِ امرئ القيس[٤]:

ورُحْنَا بِكَابْنِ الماءِ يُجنَبُ وَسْطَنا تَصَوَّبُ فيه العَيْنُ طَوْراً وتَرْتَقِي[٥]

أراد: مثل الطَّعن، وبمثل ابنِ الماء.

ويجوزُ أن يكونَ الخَبَرُ محذوفاً، تقديرهُ: مَثَلُهم مستقرٌّ كَمَثَل، فالكافُ على هذا حرفٌ.

والمَثَلُ والمِثْل والمَثِيلُ واحدٌ، ومعناه: الشِّبْهُ[٦]. والمتماثلان: المتشابهان. هكذا قال أهلُ اللغة[٧].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى﴾ يقع للواحد والجمع، قال ابنُ الشَّجَرِي هبةُ الله بنُ عليٍّ[٨]: ومن العرب من يأتي بالجمع بلفظِ الواحد، كما قال[٩]:

وإنَّ الذي حانَتْ بفَلْجٍ دماؤهم هُمُ القومُ كلُّ القومِ يا أمَّ خالدِ

(١) في النسخ: الرشاد، وهو خطأ.

(٢) ص ٢٤٧.

(٣) ديوانه ص١١٣ وفيه: هل تنتهون ولا ينهى ذوي شطط. وينظر المحرر الوجيز ١/ ٩٩.

(٤) هو امرؤ القيس بن حجر الكندي، من فحول شعراء الجاهلية، ومن الطبقة الأولى، ويقال له: الملك الضِّلِّيل. الشعر والشعراء ١/ ١٠٥.

(٥) ديوانه ص١٧٦ ، وقد سلف شطره الأول ص ١٥٤.

(٦) في (م): الشبيه.

(٧) المحرر الوجيز ١/ ٩٨ ـ ٩٩.

(٨) في أماليه ٣/ ٥٧، وهبة الله بن علي الشجري هو أبو السعادات الهاشمي العلوي الحسني البغدادي، شيخ النحاة، توفي سنة (٥٤٢هـ). السير ٢٠/ ١٩٤.

(٩) هو الأشهب بن رُمَيْلة، والبيت في الكتاب ١/ ١٨٧، والمنصف ١/ ٦٧ وشرح المفصل ٣/ ١٥٥.

وقيل في قول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣]: إنه بهذه اللغة، وكذلك قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى﴾ قيل: المعنى كمثل الذين استوقدوا، ولذلك قال: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، فحمَل أوَّلَ الكلام على الواحد، وآخرَه على الجمع. فأما قولُه تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ [التوبة: ٦٩]، فإنَّ «الذي» هاهنا وصفٌ لمصدر محذوف، تقديره: وخُضتُم كالخوض[١] الذي خاضوا.

وقيل: إنما وَحَّدَ «الذي» و«استوقد»؛ لأنَّ المستوقِدَ كان واحداً من جماعة تولَّى الإيقادَ لهم، فلما ذهبَ الضوءُ، رَجَعَ عليهم جميعاً، فقال: «بنورهم».

واستوقد بمعنى: أَوْقَدَ، مثل: استجابَ، بمعنى: أجاب، فالسين والتاء زائدتان. قاله الأخفش[٢]، ومنه قولُ الشاعر[٣]:

وداعٍ دَعَا يا مَنْ يُجِيبُ إلى النَّدَى فلم يَسْتَجِبْهُ عند ذاك مُجِيبُ

أي: يُجِبْهُ.

واختلف النُّحاة في جواب «لمَّا»، وفي عَوْدِ الضمير من «نورهم»، فقيل: جوابُ «لمَّا» محذوفٌ، وهو: طَفِئَتْ، والضميرُ في «نورهم» على هذا للمنافقين، والإخبارُ بهذا عن حالٍ تكونُ[٤] في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌ﴾[٥] [الحديد: ١٣].

وقيل: جوابُه «ذهب»، والضمير في «نورهم» عائدٌ على «الذي». وعلى هذا القول يتمُّ تمثيلُ المنافق بالمُستوقِد؛ لأنَّ بقاءَ المُستوقِدِ في ظُلماتٍ لايُبْصِرُ كبقاء المنافقِ في حَيْرَتِه وتَرَدُّدِه.

والمعنى المرادُ بالآية: ضَرْبُ مَثَلٍ للمنافقين، وذلك أنَّ ما[٦] يُظْهِرُونه من

(١) في (د): كخوض.

(٢) معاني القرآن ١/ ٢٠٨.

(٣) هو كعب بن سعد الغَنَوي، والبيت في مجاز القرآن ١/ ٦٧، ومعاني القرآن للأخفش ١/ ٢٠٨، والأصمعيات ص٩٦.

(٤) في (د): والإخبار في هذا عن حال يكون.

(٥) قال ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ١٠٠: وهذا القول غير قوي.

(٦) في (د): بما.

الإيمان الذي تَثبُتُ لهم به أحكامُ المسلمين من المناكح والتوارُثِ والغنائمِ والأَمْنِ على أنفسهم وأولادهم وأموالهم بمثابةِ مَنْ أَوْقَدَ ناراً في ليلةٍ مظلمةٍ، فاستضاءَ بها، ورأى ما ينبغي أن يتقِيَه، وأَمِنَ منه، فإذا طَفِئَتْ عنه أو ذَهَبَتْ، وصلَ إليه الأَذى، وبَقِيَ متحيِّراً، فكذلك المنافقون؛ لمَّا آمنوا اغترُّوا بكلمة الإسلام، ثم يصيرون بعد الموتِ إلى العذابِ الأليم ـ كما أخبر التنزيل: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥] ـ ويذهبُ نورُهم، ولهذا يقولون: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣].

وقيل: إنَّ إقبالَ المنافقين إلى المسلمين وكلامَهم معهم كالنار، وانصرافَهم عن[١] مَودَّتهم وارتِكاسَهم عندهم كذهابها. وقيل غيرُ هذا[٢].

وقوله تعالى: ﴿نَارًا﴾: النارُ مؤنثةٌ، وهي من النُّور، وهو الضياء[٣] والإشراق. وهي من الواو؛ لأنك تقولُ في التصغير: نُوَيْرة، وفي الجمع: نُورٌ وأَنْوُرٌ[٤] ونِيران، انقلبتِ الواوُ ياءً لكسرة ما قَبْلَها[٥].

وضاءَتْ وأَضاءَتْ لغتان، يقال: ضاء القمرُ يَضُوء ضَوْءاً، وأضاء يُضيء، ويكون لازماً ومتعدِّياً. وقرأ محمدُ بنُ السَّمَيْفَع: ضاءَتْ، بغير ألف[٦]، والعامَّةُ بالألف، قال الشاعر[٧]:

أضاءَتْ لهم أحسابُهم ووجوهُهم ... دُجَى الليلِ حتى نَظَّمَ الجَزْعَ ثاقِبُهْ

﴿مَا حَوْلَهُۥ﴾: «ما» زائدةٌ مؤكِّدة. وقيل: مفعولة بأضاءت. و«حَوْلَه» ظرفُ مكان،

---

(١) في النسخ: إلى.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ١٠٠.

(٣) في (م): أيضاً.

(٤) في (م): أنوار.

(٥) الصحاح: (نور).

(٦) وذكرها أبو حيان في البحر ١/ ٧٩.

(٧) أبو الطَّمَحان القَيْني، والبيت في الكامل ١/ ٦٨ و٢/ ١٠٣٤، وشرح الحماسة للمرزوقي ٤/ ١٥٩٨، وأمالي المرتضى ١/ ٢٥٧، وخزانة الأدب ٨/ ٩٥ ـ ٩٦. ونسبه ابن قتيبة في الشعر والشعراء ٢/ ٧١١ للقيط بن زرارة.

والهاء في موضع خفض بإضافته إليها. و﴿ذَهَبَ﴾ وأذهب لغتان من الذهاب، وهو زوالُ الشيء، ﴿وَتَرَكَهُمْ﴾ أي: أبقاهم.

﴿فِي ظُلُمَٰتٍ﴾ جمع ظُلْمة، وقرأ الأعمشُ: «ظُلْمات» بإسكان اللام على الأصل[١]. ومَن قرأها بالضم، فللفرق بين الاسم والنعت. وقرأ أشْهَبُ العُقَيلي: «ظُلَمات» بفتح اللام[٢]. قال البصريون: أبدلَ من الضمةِ فتحةً لأنها أخفُّ، وقال الكسائي: «ظُلَمات» جمعُ الجمع، جمع ظُلَم. ﴿لَّا يُبْصِرُونَ﴾ فعل مستقبل في موضع الحال[٣]، كأنه قال: غير مبصرين، فلا يجوز الوقفُ على هذا على «ظلمات».

قوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾: «صُمٌّ»، أي: هم صُمٌّ، فهو خبرُ ابتداء مُضمرٍ. وفي قراءة عبد الله بن مسعود وحفصة: صُمًّا بُكماً عُمياً[٤]، فيجوز النصبُ على الذَّمِّ، كما قال تعالى: ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟﴾ [الأحزاب: ٦١]، وكما قال: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [المسد: ٤]، وكما قال الشاعر:

سَقَوْنِي الخمرَ ثم تَكَنَّفُوني عُدَاةَ اللهِ من كَذِبٍ وزُورِ[٥]

فنصبَ «عُداةَ الله» على الذَّم.

فالوقْفُ على «يُبصرون» على هذا المذهبِ صوابٌ حَسَن.

ويجوزُ أن ينصبَ صُمًّا بـ «تَرَكَهُمْ»، كأنه قال: وتركَهم صُمًّا بُكْماً عُمْياً، فعلى هذا المذهبِ لا يَحسُنُ الوَقْفُ على «يبصرون».

والصَّمَمُ في كلام العرب: الانْسِدادُ، يقال: قناةٌ صمَّاءُ: إذا لم تكن مُجوَّفةً،

---

(١) ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٢، وابن جني في المحتسب ١/ ٥٦، وأبو حيان في البحر ١/ ٨٠، ونسبوها للحسن وأبي السمال.

(٢) ذكرها ابن جني في المحتسب ١/ ٥٦ دون نسبة.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٩٣.

(٤) القراءات الشاذة لابن خالويه ص٢ ـ ٣، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ١٩٣ ـ ١٩٤، والمحرر الوجيز ١/ ١٠١.

(٥) البيت لعروة بن الورد، وهو في ديوانه ص٥٨، وفيه: «النَّسْء»، بدل: «الخمر»، وهو شراب بمعنى الخمر في إزالته للعقل.

وصَمَمْتُ القارورةَ: إذا سَدَدْتَها، فالأَصَمُّ: مَنِ انْسَدَّتْ خُروقُ مَسامِعِهِ[١].

والأبْكَمُ: الذي لا يَنْطِقُ ولا يَفهمُ، فإذا فَهِمَ، فهو الأخْرَس. وقيل: الأخْرَسُ والأبْكَمُ واحدٌ. ويقال: رجلٌ أبكمُ وبَكِيم، أي: أخْرَسُ بَيِّنُ الخَرَس والبَكَم، قال:

فَلَيْتَ لِساني كان نِصْفَينِ منهما بَكيمٌ ونصفٌ عند مَجْرَى الكواكِبِ[٢]

والعَمَى: ذهابُ البصر، وقد عَمِيَ، فهو أعْمَى، وقومٌ عُمْيٌ، وأعْمَاه اللهُ. وتَعامَى الرجلُ: أرى ذلك من نفسه. وعَمِيَ عليه الأمرُ إذا التبسَ، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾[٣] [القصص: ٦٦].

وليس الغرضُ مما ذكَرنا[٤] نفيَ الإدراكاتِ عن حواسِّهم جملةً، وإنما الغرضُ نفيُها من جهةٍ ما، كما[٥] تقول: فلانٌ أصمُّ عن الخَنا. ولقد أحسنَ الشاعرُ حيث قال:

أَصَمُّ عَمَّا سَاءَهُ سَمِيعُ[٦]

وقال آخرُ:

وعوراء الكلامِ صَمَمْتُ عنها ولو أني أشاءُ بها سميعُ[٧]

وقال الدارمي:

أعْمى إذا ما جارتي خَرجَتْ حتى يُواري جارتي الجَدْرُ[٨]

وقال بعضُهم في وَصَاتِهِ[٩] لرجلٍ يُكْثِرُ الدخولَ على الملوك:

---

(١) النكت والعيون ١/ ٨١.

(٢) الصحاح (بكم).

(٣) الصحاح (عمي).

(٤) في (م): ذكرناه.

(٥) ليست في (م).

(٦) جمهرة الأمثال ١/ ١٤٠، ومجمع الأمثال ١/ ٤٠٢.

(٧) لم نقف له على مصدر.

(٨) الشعر والشعراء ١/ ٥٤٥، وأمالي المرتضى ١/ ٤٤، ومعجم الأدباء ١١/ ١٣٢، وفيها: حتى يواري جارتي الخِدر، وفي معجم الأدباء: أغضي بدل أعمى. والدارمي: هو ربيعة بن عامر، ويلقب بالمسكين، ودارم بطن من تميم، كان شاعراً مجيداً سيداً شريفاً، وكانت بينه وبين الفرزدق مهاجاة ثم تكافَّا، توفي سنة (٨٩هـ). معجم الأدباء ١١/ ١٢٦.

(٩) في (د) و(ظ): وصاية.

ادخُـلْ إذا مـا دَخـلْـتَ أعْـمَـى واخـرُجْ إذا مـا خَـرَجْـتَ أخـرَسْ[١]

وقال قتادةُ: «صمٌّ» عن استماع الحقِّ، «بكمٌ» عن التكلُّم به، «عُمْيٌ» عن الإبصارِ له[٢].

قلت: وهذا المعنى هو المرادُ في وصف النبيِّ ﷺ وُلاةَ آخرِ الزمان في حديث جبريلَ: «وإذا رأيتَ الحُفاةَ العُراةَ الصُّمَّ البُكمَ ملوكَ الأرض، فذاك من أشْراطها»[٣]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، أي: إلى الحقِّ، لسابق علم الله تعالى فيهم. يقال: رَجَعَ بنفسه رُجوعاً، ورَجَعَه غيرُه، وهُذَيْل تقول: أَرْجَعَه غيرُه. وقولُه تعالى: ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ [سبأ: ٣١]، أي: يتلاومون فيما بينهم[٤]، حسب ما بيَّنه التنزيلُ في سورة «سبأ».

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ قال الطبري[٥]: «أو» بمعنى الواو، وقاله الفرَّاء، وأنشد:

وقـد زَعَـمـتْ لـيـلـى بـأنِّـيَ فـاجـرٌ لنفسي تُقَاها أو عليها فُجورُها[٦]

وقال آخرُ[٧]:

نـالَ الـخـلافـةَ أو كـانـت لـه قَـدَراً كـمـا أتـى ربَّـه مـوسـى عـلـى قَـدَرِ

أي: وكانت.

---

(١) لم نهتد إلى قائله.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١/٣٤٨.

(٣) قطعة من حديث أخرجه مسلم (١٠) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) الصحاح (رجع).

(٥) في تفسيره ١/٣٥٤-٣٥٥.

(٦) البيت لتوبة بن الحُمَيِّر الخفاجي، وهو في أمالي أبي علي القالي ١/١٣١، وأمالي المرتضى ٢/٥٧، وأمالي ابن الشجري ٣/ ٧٤.

(٧) هو جرير، والبيت في ديوانه ١/٤١٦، والخزانة ١١/٦٩.

وقيل: «أو» للتخيير، أي: مثِّلوهم بهذا أو بهذا، لا على الاقتصار على أحدِ الأمرين، والمعنى: أو كأصحابِ صَيِّب. والصَّيِّبُ: المطر، واشتقاقُه من: صابَ يَصُوبُ: إذا نزلَ، قال عَلْقَمةُ[١]:

فلا تَعْدِلي بيني وبين مُغَمَّرٍ سَقَتْكِ روايا المُزْنِ حيثُ تَصُوبُ[٢]

وأصله: صَيْوِب، اجتمعت الياء والواو، وسُبقَتْ إحداهما بالسكون، فَقُلبتِ الواو ياءً، وأُدغمتْ، كما فعلوا في ميِّت وسيِّد، وهيِّن وليِّن. وقال بعضُ الكوفيين: أصلُه: صَوِيب، على مثال فَعِيل[٣].

قال النحاس[٤]: لو كان كما قالوا لمَا جاز إدغامُه، كما لا يجوز إدغامُ «طويل». وجمعُ صيِّب: صَيَايِب.

والتقديرُ في العربية: مَثَلُهم كَمَثل الذي اسْتَوْقَدَ ناراً، أوْ كصيِّب[٥].

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: السماءُ تُذكَّر وتُؤنَّث، وتُجمعُ على أسْمِيَةٍ وسماوات وسُمِيّ على فُعُول، قال العجاج:

تَلُفُّهُ الرِّياحُ والسُّمِيُّ[٦]

والسماءُ: كلُّ ما عَلاكَ فأظَلَّكَ، ومنه قيل لسقف البيت: سماء.

والسماء: المطر، سُمِّيَ به لنزولِهِ من السماء. قال حسانُ بنُ ثابت:

دِيارٌ من بني الحَسْحاسِ قَفْرٌ تُعَفِّيها الرَّوامِسُ والسماءُ[٧]

---

(١) ابن عَبَدة الملقب بالفحل، ذكره ابن سلّام ١/ ١٣٩ في الطبقة الرابعة من طبقات فحول الجاهلية.

(٢) ديوانه ص٣٤، قوله: مغمَّر، قال في اللسان (غمر): صبي مغَمَّر: لم يجرب الأمور والمغمَّر من الرجال إذا استجهله الناس.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ١٠١.

(٤) إعراب القرآن ١/ ١٩٤.

(٥) في (م): أو كمثل صيب.

(٦) كذا نسبه الجوهري في الصحاح (سما)، وتعقَّبه ابن منظور في اللسان، ونسبه لرؤبة وروايته:

تَلُفُّه الأرواحُ والسُّمِيُّ في دِفْءِ أرطاةٍ لها حَنِيُّ

(٧) ديوانه ص ٧. والروامس: الرياح التي تثير التراب وتدفن الآثار. الصحاح (رمس).

وقال آخرُ[١] :

إذا سَقَطَ السماءُ بأرضِ قومٍ رَعَيْناهُ وإنْ كانوا غِضابا

ويُسمَّى الطينُ والكلأُ أيضاً سماءً، يقال: مازِلْنا نطأُ السماءَ حتى أتيناكم. يريدون: الكلأَ والطين.

ويقال لظهر الفرس أيضاً سماء، لعلوِّه، قال:

وأحمرَ كالدِّيباجِ أمَّا سماؤُه فَرَيَّا وأمَّا أرضُهُ فمُحُولُ[٢]

والسماءُ: ماعلا، والأرض: ما سَفَلَ، على ما تقدَّم[٣].

قولُه تعالى: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ ﴿وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ معطوفٌ عليه. وقال: «ظُلُماتٌ» بالجمع إشارة إلى ظُلْمة الليل وظُلْمةِ الدَّجْن، وهو الغيم، ومن حيث تتراكبُ[٤]، وتتزايدُ جُمعت[٥]. وقد مضَى ما فيه من اللغات[٦]، فلا معنى للإعادة، وكذا كلُّ ما تقدَّم، إن شاء الله تعالى.

واختلفَ العلماءُ في الرَّعْد، ففي الترمذي: عن ابن عباس قال: سألَتِ اليهودُ النبيَّ ﷺ عن الرَّعْدِ ما هو؟ قال: «مَلَكٌ من الملائكةِ بيده[٧] مخاريقُ من نارٍ، يسوقُ بها السَّحَابَ حيثُ شاءَ اللهُ». فقالوا: فما هذا الصوتُ الذي نَسمَعُ؟ قال: «زَجْرُهُ بالسَّحَابِ إذا زَجَرهُ حتى ينتهيَ إلى حيثُ أُمِرَ[٨]». قالوا: صَدَقْتَ. الحديث بطوله[٩].

---

(١) هو معاوية بن مالك، والبيت في الصحاح واللسان (سما)، وخزانة الأدب ٤/ ١٥٦.

(٢) هو في أدب الكاتب ص١١٨، والصحاح (سما)، وجمهرة الأمثال ١/ ٢١٤، ونسبه ابن منظور في «اللسان» لطفيل الغنوي.

(٣) ص ٣٠٧.

(٤) في (د) تتراكم.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ١٠١.

(٦) ص ٣٢٣.

(٧) في (م): معه.

(٨) في (د) و(م): أمره الله.

(٩) سنن الترمذي (٣١١٧)، وفي إسناده بُكير بن شهاب الكوفي، وهو مقبول (كما قال الحافظ في التقريب) يعني حيث يُتابع، وقد تفرَّدَ في هذا الحديث بذكر الرَّعد بأنه ملك، وكأنه أخذه من أخبار بني إسرائيل.

وعلى هذا التفسيرِ أكثرُ العلماء. فالرعدُ: اسمُ الصوتِ المسموعِ، وقاله عليٌّ رضي اللهُ عنه[١] ، وهو المعلومُ في لغةِ العرب، وقد قال لَبِيدٌ في جاهليته:

فَجَّعَنِي الرعدُ والصواعقُ بالـ ـفارسِ يومَ الكريهة النَّجُدِ[٢]

ورُوي عن ابن عباس أنه قال: الرعدُ ريحٌ تختنقُ بين السحابِ، فتُصوِّتُ ذلك الصوتَ[٣] .

واختلفوا في البرق، فَرُوِيَ عن عليٍّ وابن مسعود وابن عباس رضوان الله عليهم: البرقُ مِخْراقُ حديدٍ بيد المَلَك يَسوقُ به السحابَ[٤] .

قلت: وهو الظاهرُ من حديثِ الترمذي.

وعن ابن عباس أيضاً: هو سوطٌ من نُورٍ بيدِ الملك يزجُرُ به السحابَ[٥] . وعنه أيضاً: البرقُ مَلَكٌ يتراءى[٦] .

وقالت الفلاسفةُ: الرعدُ: صوتُ اصطكاكِ أجرام السَّحابِ، والبرقُ: ما يَنقدِحُ من اصطكاكِها، وهذا مردودٌ لا يصِحُّ به نقلٌ[٧] ، والله أعلم.

ويقال: أصلُ الرَّعدِ من الحركة. ومنه الرِّعْدِيدُ للجبان. وارْتَعَدَ: اضطربَ، ومنه الحديث: «فجِيءَ بهما تُرْعَدُ فَرَائِصُهما». الحديث. أخرجه أبو داود[٨] .

والبرقُ: أصلُه من البريق والضوء، ومنه البُرَاقُ: دابَّةٌ رَكِبَها رسولُ الله ﷺ ليلةَ

---

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ١٠٢.

(٢) ديوانه ص١٥٨.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٣٦١.

(٤) أخرج خبر علي وابن عباس رضي الله عنهم الطبري في تفسيره ١/ ٣٦٣.

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٣٦٢-٣٦٣، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ١٠٢، وعندهما: يُزجي، بدل: يزجر.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ١٠٢.

(٧) وكذلك ما ذكره المصنِّف من آثار عن الرعد والبرق (وأوردها أكثر المفسرين) لم تصحّ، وإن الرعد والبرق من آيات الله التي ندبَ الشارع إلى النظر فيها، وقد ثبتَ علمياً أن الرعد هو الصوت الناتج عن تفريغ الشحنات الكهربائية المختلفة التي يحملها السحاب لدى تصادمها، وأن البرق هو الضوء الناتج عن هذا التفريغ.

(٨) برقم (٥٧٥) من حديث يزيد بن الأسود رضي الله عنه، وهو في مسند أحمد (١٧٤٧٥).

أُسْرِيَ به، ورَكِبَها الأنبياءُ عليهم السلام قبلَه.

ورَعَدتِ السماءُ من الرعد، وبَرَقتْ من البرق. ورَعَدتِ المرأةُ وبَرَقتْ: تَحسَّنَتْ وتزيّنتْ. ورَعَدَ الرجلُ وبَرَقَ: تَهَدَّدَ وأوْعَدَ. قال ابنُ أحمر[١]:

ياجَلَّ ما بَعُدَتْ عليكَ بِلادُنا وطِلابُنا فابْرُقْ بأرضك وارعُدِ[٢]

وأَرْعَدَ القومُ وأبْرَقُوا: أصابَهم رعدٌ وبرقٌ. وحكى أبو عُبيدةَ وأبو عمرو: أرعدتِ السماءُ وأبرقَتْ، وأَرْعدَ الرجلُ وأَبْرقَ: إذا تهدَّدَ وأوْعدَ، وأنكره الأصمعيُّ. واحتجَّ عليه بقول الكُمَيْت[٣]:

أَبرِقْ وأرعِد يايزيـ ـدُ فما وعيدُكَ لي بِضائرْ

فقال: ليس الكُمَيت بحجة[٤].

فائدة: روى ابنُ عباس[٥] قال: كُنَّا مع عمرَ بنِ الخطاب في سَفْرةٍ بين المدينةِ والشامِ، ومعنا كَعْبُ الأحبار، قال: فأصابتنا ريحٌ، وأصابَنا رعدٌ ومطرٌ شديدٌ وبردٌ، وفَرِقَ الناس. قال: فقال لي كعب: إنه مَنْ قالَ حين يسمعُ الرَّعد: سبحان مَن يُسبِّحُ الرعدُ بحمده والملائكةُ من خيفته، عُوفي مما يكون في ذلك السحابِ والبردِ والصواعقِ. قال: فقلتها أنا وكعب، فلما أصبحنا واجتمع الناس قلت لعمرَ: يا أمير المؤمنين، كأنا كنا في غير ما كان فيه الناسُ، قال: وما ذاك؟ قال: فحدَّثتُه حديثَ كعب. قال: سبحان الله! أفلا قلتم لنا فنقولَ كما قلتم؟! في رواية: فإذا بَرَدَةٌ قد أصابَتْ أنفَ عمرَ، فأثَّرَتْ به[٦]. وستأتي هذه الروايةُ في سورة الرعد[٧] إن شاء الله.

---

(١) عمرو بن أحمر بن العمرَّد، أبو الخطاب، الباهلي، أدرك الجاهلية والإسلام، الإصابة ٧/ ٢٧٥.

(٢) البيت في إصلاح المنطق ص٢١٦، وأدب الكاتب ص٣٧٤، وشرح القصائد السبع لأبي بكر الأنباري ص٥٢٣، والشطر الثاني عندهم: فابرق بأرضك ما بدا لك وارعد.
قوله: ياجَلَّ، يعني ما أجلَّ، قاله في اللسان (جلل).

(٣) ابن زيد، الأسدي، الكوفي، توفي سنة (٢١٦هـ). السير ٥/ ٣٨٨، والبيت في ديوانه ١/ ١٩٠.

(٤) الصحاح (رعد) و(برق).

(٥) في (د): روي عن ابن عباس.

(٦) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (٧٨٨).

(٧) عند تفسير الآية (١٣) منها.

ذكر الروايتَيْن أبو بكر أحمد بنُ عليّ بن ثابت الخطيب في «روايات[١] الصحابة عن التابعين»[٢] رحمة الله عليهم أجمعين.

وعن ابن عمر أن النبيَّ ﷺ كان إذا سمعَ الرعدَ والصواعقَ قال: «اللهُم لا تقتلْنا بغضبك، ولا تُهلكْنا بعذابك، وعافنا قبلَ ذلك»[٣].

قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ جعلُهم أصابعَهم في آذانهم لئلا يسمعوا القرآنَ فيؤمنوا به وبمحمد عليه السلام، وذلك عندهم كفر والكفرُ موتٌ.

وفي واحد الأصابع خمسُ لغات: إصْبَع: بكسر الهمزة وفتح الباء، وأَصْبَع: بفتح الهمزة وكسر الباء، ويقال بفتحهما جميعاً، وضمِّهما جميعاً، وبكسرِهما جميعاً، وهي مؤنثة[٤]. وكذلك الأذنُ، وتُخفَّف وتُثقَّل وتُصغَّر، فيقال: أُذَيْنَة. ولو سمَّيتَ بها رجلاً ثم صغَّرتَه قلت: أذيْن، فلم تؤنث؛ لزوال التأنيث عنه بالنقل إلى المذكر. فأما قولهم: «أُذَيْنة» في الاسم العَلم، فإنما سُمِّي به مصغَّراً، والجمع آذان. وتقول: أَذَنْتُه: إذا ضربتَ أُذُنَه. ورجل أُذُنٌ: إذا كان يسمعُ مقال[٥] كلِّ أحد، يستوي فيه الواحد والجمع. وأُذانِيٌّ: عظيمُ الأُذُنَيْن. ونَعْجَةٌ أَذْناء، وكَبْشٌ آذَن. وأَذَّنْتُ النَّعلَ وغيرَها تأذيناً: إذا جعلْتَ لها أُذُناً. وأذَّنْتُ الصَّبيَّ: عَرَكْتُ أُذُنَه[٦].

قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ﴾ أي: من أجلِ الصَّواعق. والصَّواعق: جمعُ صاعِقة. قال ابنُ عباس ومجاهد وغيرُهما: إذا اشتدَّ غضبُ الرَّعد ـ الذي هو المَلَك ـ طار النارُ من فيه، وهي الصَّواعق. وكذا قال الخليل؛ قال: هي الواقِعةُ الشَّديدةُ من صوتِ الرَّعدِ، يكون معها أحياناً قطعةُ نارٍ تُحرقُ ما أتَتْ عليه.

---

(١) في (د): رواية.

(٢) ذكره الذهبي في السير ١٨/ ٢٩٢، وسماه: رواية الصحابة عن تابعي.

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٥٧٦٣)، والترمذي (٣٤٥٠)، والنسائي في الكبرى (١٠٦٩٨). قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٩٤.

(٥) في (م): كلام.

(٦) الصحاح (أذن).

وقال أبو زيد: الصَّاعقةُ: نارٌ تسقطُ من السَّماء في رعدٍ شديد. وحكى الخليل عن قوم: السَّاعقة، بالسين. وقال أبو بكر النقَّاش: يُقال: صاعِقة، وصَعِقَة، وصاقِعَة، بمعنًى واحد. وقرأ الحسن: من الصَّواقع، بتقديم القاف[١]. ومنه قولُ أبي النَّجْم:

يَحْكُون بالمَصْقُولَةِ القواطِعِ تَشَقُّقَ البَرْقِ عن الصّواقِعِ[٢]

قال النَّحاس[٣]: وهي لغة تميم وبعضِ بني ربيعة.

ويقال: صَعَقَتْهُم السماء: إذا ألْقَتْ عليهم الصَّاعِقةَ. والصَّاعقةُ أيضاً: صيحةُ العذاب، قال الله عز وجل: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ [فصلت: ١٧]. ويقال: صَعِقَ الرجلُ صَعْقةً وتَصْعاقاً، أي: غُشِيَ عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣] فأصْعَقَهُ غيره. قال ابنُ مُقْبِل:

تَرى النُّعَراتِ الزُّرْقَ تحتَ لَبانِه أُحادَ ومَثْنَى أَصْعَقَتْها صَواهِلُه[٤]

وقوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨] أي: مات[٥].

وشبَّه الله تعالى في هذه الآية أحوالَ المنافقين بما في الصَّيِّب من الظُّلمات والرَّعدِ والبرقِ والصواعق. فالظُّلُماتُ مَثَلٌ لما يعتقدونَه من الكُفر، والرعدُ والبرقُ مَثَلٌ لما يُخَوَّفون به.

وقيل: مَثَّلَ الله تعالى القرآنَ بالصَّيِّب لمَا فيه من الإشكال عليهم، والعَمَى هو

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ١٠٢ بتقديم وتأخير، وأثر ابن عباس ومجاهد وغيرهما أخرجه الطبري ١/ ٣٥٧ـ٣٦٠، وقول الخليل هو في العين ١/ ١٢٩، وقول أبي زيد في الصحاح (صعق)، وقراءة الحسن ذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٣، والنحاس في إعراب القرآن ١/ ١٩٤.

(٢) الزاهر ٢/ ٣١٩، واللسان (صقع)، وأبو النجم: هو الفضل بن قدامة العِجْلي، من الفحول وأحد رجّاز الإسلام المتقدمين من الطبقة الأولى، وعاصر هشام بن عبد الملك. الخزانة ١/ ١٠٣.

(٣) إعراب القرآن ١/ ١٩٤.

(٤) ديوانه ص ٢٥٢، وفيه: الخضر، بدل: الزُّرْق، وفرادى، بدل: أُحاد. قوله: النُّعَرَات: جمع النُّعَرَة؛ قال في الصحاح (نعر): هو ذباب ضخم أزرق العين أخضر، وله إبرة في طرف ذنبه يلسع بها ذوات الحافر خاصة، وذكر البيت. واللَّبان: الموضع الذي يُشدُّ في صدر الدابة، وصواهل: جمع صاهلة، مصدر على فاعلة، كالصهيل. معجم متن اللغة (صهل).

(٥) الصحاح (صعق).

الظُّلُماتُ، وما فيه من الوعيد والزَّجْرِ هو الرعدُ، وما فيه من النُّور والحُجَجِ الباهرةِ التي تكادُ أحياناً أن تَبْهرَهم هو البرقُ. والصَّواعقُ مَثَلٌ لما في القرآن من الدُّعاء إلى القتال في العاجل، والوعيد في الآجل.

وقيل: الصواعقُ تكاليفُ الشَّرع التي يكرهونها من الجهاد والزكاة وغيرِهما[١].

قوله: ﴿حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ حَذَرَ وحِذَارَ بمعنًى؛ وقُرئ بهما[٢]. قال سيبويه[٣]: هو منصوب؛ لأنَّه موقوعٌ له، أي مفعولٌ من أجله، وحقيقتُه أنَّه مصدر؛ وأنشد سيبويه:

وأغْفِرُ عَوْراءَ الكريم ادِّخارَه ... وأُعْرِض عن شَتمِ اللئيم تكَرُّما[٤]

وقال الفرَّاء[٥]: هو منصوبٌ على التَّمييز.

والموتُ: ضدُّ الحياة. وقد مات يموت، ويَماتُ أيضاً، قال الراجز:

بُنَيَّتي[٦] سَيِّدَةَ البَنَاتِ ... عِيشي ولا يُؤْمَنُ أن تَماتِي[٧]

فهو ميِّت ومَيْت، وقومٌ مَوْتَى وأموات، وميِّتون ومَيْتون. والمُوات، بالضم: المَوت. والمَوات؛ بالفتح: ما لا رُوح فيه. والمَوات أيضاً: الأرضُ التي لا مالك لها من الآدميِّين، ولا ينتفعُ بها أحد. والمَوَتان؛ بالتحريك: خلافُ الحَيَوان، يقال: اشْترِ المَوَتانَ، ولا تشترِ الحيوان، أي: اشْتَرِ الأرَضين والدُّور، ولا تَشْتَرِ الرَّقيقَ والدَّوابَّ. والمُوْتان؛ بالضم: مَوْتٌ يقعُ في الماشية، يقال: وَقَع في المال مُوتان. وأماتَه اللهُ ومَوَّته، شُدِّد للمبالغة. وقال:

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ١٠٢، والنكت والعيون ١/ ٨٢.

(٢) قرأ الجمهور: حَذَرَ، وقرأ: حِذَارَ ـ بكسر الحاء ـ الضحاكُ بن مزاحم، فيما ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ١٠٢، وابن أبي ليلى كما في تفسير الزمخشري ١/ ٢١٨، واللؤلؤي عن أبيه كما في القراءات الشاذة ص ٣.

(٣) الكتاب ١/ ٣٦٧، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في إعراب القرآن ١/ ١٩٤ ـ ١٩٥.

(٤) البيت لحاتم الطائي، وهو في ديوانه ص ٨١، وفيه: وأصفح، بدل: وأُعرض.

(٥) معاني القرآن ١/ ١٧.

(٦) في (د): بنيّ.

(٧) الرجز دون نسبة في جمهرة اللغة ٣/ ٤٨٥ برواية:

بنيَّ يا سيدة البنات ... عيشي ولا يومى بأن تَماتي

وفي صحاح الجوهري واللسان (موت).

فَعُرْوةُ مات مَوتاً مُستَرِيحاً فها أنا ذا أُمَوَّتُ كلَّ يومِ[١]

وأماتتِ الناقةُ: إذا ماتَ ولدُها، فهي مُمِيت ومُمِيتَة. قال أبو عُبيد: وكذلك المرأة، وجمعُها مَماوِيت. قال ابنُ السِّكيت: أماتَ فلانٌ: إذا ماتَ له ابنٌ أو بَنُونَ. والمُتَماوِتُ من صفةِ النَّاسكِ المُرائي. ومَوْتٌ مائتٌ، كقولك: ليلٌ لائِلٌ، يُوخَذ من لفظه ما يُؤكَّد به. والمُسْتَمِيتُ للأمر: المُسْتَرسِلُ له، قال رُؤبة:

وزَبَدُ البحرِ له كَتِيتُ والَّليلُ فوقَ الماءِ مُسْتَمِيتُ[٢]

الكَتِيتُ: صوت البَكْر، وهو فوق الكَشِيش. يقال: كَتَّ البعيرُ يَكِتُّ، بالكسر: إذا صاح صياحاً ليِّناً. وكتَّ الرجلُ من الغضب، وكَتَّتِ القِدرُ: غَلَت، وكذلك الجرَّة جديدة[٣] إذا صُبَّ فيها الماء، ومثله زَبدُ البحر، ويقال: أتانا بجيش ما يُكَتُّ، أي: ما يُحصى عددُه. والكتكتةُ في الضحك: دون القهقهة. قال الجوهري[٤]: والمستميتُ أيضاً: المُسْتَقْتِلُ الذي لا يُبالِي في الحرب من المَوْت، وفي الحديث: «أرى القومَ مُسْتَمِيتِين»[٥]، وهم الذين يقاتلون على الموت.

والمُوْتةُ؛ بالضمِّ: جنسٌ من الجُنون والصَّرَعِ يعتري الإنسان، فإذا أفاقَ عاد إليه كمالُ عقلِه، كالنَّائم والسَّكران.

ومُؤْتة[٦] بضمِّ الميم وهَمْزِ الواو: اسمُ أرضٍ قُتلَ بها جعفرُ بنُ أبي طالب عليه السلام[٧].

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ابتداء وخبر، أي: لا يُفوتُونه. يقال: أحاط

(١) البيت في صحاح الجوهري، ولسان العرب (موت).

(٢) الصحاح ولسان العرب (موت).

(٣) في الصحاح (كت) (والكلام منه): الجديد، وفي اللسان: الحديد (بالحاء). وانظر جمهرة اللغة ١/ ٤٢.

(٤) من قوله: الكتيت صوت... إلى هذا الموضع ليس في (م).

(٥) من كلام عتبة بن ربيعة ينهى المشركين عن القتال يوم بدر، أخرجه أحمد (٩٤٨) ضمن قصة غزوة بدر من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٦) موضع في الأردن جنوب شرق البحر الميت، وقعت فيه المعركة المشهورة في السنة الثامنة للهجرة.

(٧) الصحاح (موت).

السُّلطانُ بفلانٍ: إذا أخذَه أخْذاً حاصِراً من كلِّ جهة[١]. قال الشاعر[٢]:

أحَطْنا بهم حتَّى إذا ما تَيَقَّنُوا بما قد رَأَوْا مالُوا جميعاً إلى السِّلْمِ

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ [الكهف: ٤٢].

وأصلُه مُحْيِط، نُقِلت حركةُ الياء إلى الحاء، فسكنت، فالله سبحانه مُحيط بجميع مخلوقاته[٣]، أي: هي في قبضته وتحت قهره، كما قال: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: ٦٧].

وقيل: مُحِيطٌ بالكافرين، أي: عالم بهم. دليلُه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]. وقيل: مُهْلِكُهم وجامعُهُم. دليلُه قولُه تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦] أي: إلّا أن تَهلِكُوا جميعاً. وخصَّ الكافرين بالذِّكر لتقدُّم ذكرهم في الآية. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾«يكاد» معناه يُقارب، يقال: كاد يفعلُ كذا: إذا قاربَ ولم يفعل. ويجوزُ في غير القرآن: يكاد أن يفعل، كما قال رُؤبة:

قد كاد من طُول البِلَى أن يَمْصَحا[٤]

مشتقٌّ من المَصْحِ، وهو الدَّرْسُ. والأجودُ أن تكون بغير «أنْ»، لأنها لمُقاربة الحال، و«أنْ» تَصرفُ الكلامَ إلى الاستقبال، وهذا[٥] مُتنافٍ. قال الله عز وجل:

---

(١) المحرر الوجيز ١/١٠٣.

(٢) لم نقف عليه.

(٣) في (م): المخلوقات.

(٤) هو في الكتاب ٣/ ١٦٠، والمقتضب ٣/ ٧٥، والكامل ص ٢٥٣، والجمل للزجاجي ص ٢٠٢، وضرائر الشعر لابن عصفور ص ٦١، وما يجوز للشاعر في الضرورة للقزاز القيرواني (٩٧). وينظر خزانة الأدب ٩/ ٣٤٧.

(٥) في (ز) و (ظ): وهو.

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [النور: ٤٣]. ومن كلام العرب: كاد النَّعامُ يطير[١]، وكاد العروسُ يكون أميراً[٢]، لقُرْبِهما من تلك الحال. وكاد فعلٌ متصرِّف على فَعَل يَفْعَل. وقد جاء خبره بالاسم وهو قليل، قال: وما كِدْتُ آيِباً[٣]. ويجري مجرى «كاد»: كَرَبَ، وجَعَلَ، وقارَبَ، وطَفِقَ، في كون خبرِها بغير «أنْ». قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢١]؛ لأنَّها كلَّها بمعنى الحالِ والمقاربة، والحالُ لا يكونُ معها «أنْ»، فاعلمْ.

قولُه تعالى: ﴿يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ الخَطْفُ: الأَخْذُ بسرعة، ومنه سُمِّيَ الطيرُ خُطَّافاً لسُرْعتِهِ. فمَن جعلَ القرآنَ مَثَلاً للتَّخويف فالمعنى: أنَّ خَوْفَهم مما ينزلُ بهم يكادُ يُذْهِبُ أبصارَهم. ومن جعلَه مَثَلاً للبيان الذي في القرآن فالمعنى: أنَّهم جاءهم من البيان ما بَهرَهم.

ويَخْطَفُ ويَخْطِف لُغتان، قُرِئ بهما. وقد خَطِفَه بالكسر يَخْطَفُه خَطْفاً، وهي اللغة الجيدة، واللغة الأخرى حكاها الأخفش[٤]: خَطَف يَخْطِف. الجوهري: وهي قليلة رديئةٌ لا تكاد تُعرَف. وقد قرأ بها يونُس في قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِف أبصارَهم﴾[٥].

وقال النحاس[٦]: في «يَخْطَفُ» سبعةُ أوجه: القراءةُ الفصيحة: يَخْطَف. وقرأ

---

(١) يضرب لقرب الشيء مما يتوقع منه، لظهور بعض أماراته. مجمع الأمثال ٢/ ١٦٢، والمقتضب ٣/ ٧٤، والكامل ص ٢٥٣.

(٢) المقتضب، والكامل، وفي مجمع الأمثال ٢/ ١٥٨: كاد العروس يكون ملكاً، العرب تقول للرجل عروس وللمرأة أيضاً، ويراد ههنا الرجل، أي: كاد يكون ملكاً لعزته في نفسه وأهله.

(٣) قطعة من بيت لتأبط شرّاً، وتمامه:

فأُبْتُ إلى فَهْمٍ وما كِدْتُ آئِباً وكم مثلُها فارقتُها وهي تَصْفِرُ

وهو في ديوانه ص ٩١، والخصائص ١/ ٣٩١، وشرح المرزوقي على حماسة أبي تمام ١/ ٨٣، وخزانة الأدب ٨/ ٣٧٤.

(٤) معاني القرآن ١/ ٢٠٩.

(٥) كذا نسبها إلى يونس: الجوهري في صحاحه (خطف)، وأما الأخفش فقد نسب في معاني القرآن ١/ ٢٠٩ - ٢١٠ إلى يونس: يَخِطِّفُ، بكسر الخاء لاجتماع الساكنين، وانظر القراءات الشاذة ص ٣، والمحتسب ١/ ٦٢.

(٦) إعراب القرآن ١/ ١٩٥ - ١٩٦.

عليُّ بن الحسين ويحيى بنُ وَثّاب: يَخْطِفُ بكسر الطاء[١]، قال سعيد الأخفش[٢]: هي لغة. وقرأ الحسن وقتادة وعاصم الجَحْدَرِيُّ[٣] وأبو رجاء العُطاردي[٤]: بفتح الياء وكسر الخاء والطاء[٥]. وُروي عن الحسن أيضاً أنّه قرأ بفتح الخاء[٦]. قال الفراء[٧]: وقرأ بعضُ أهل المدينة بإسكان الخاء وتشديد الطّاء. قال الكسائي والأخفش والفرّاء[٨]: يجوز: يِخِطِّفُ، بكسر الياء والخاء والطاء. فهذه ستَّةُ أوجه[٩] موافقة للخط[١٠].

والسابعةُ حكاها عبد الوارث[١١] قال: رأيتُ في مصحف أُبيٍّ بن كعب: يَتَخَطَّفُ[١٢]، وزعم سيبويه والكسائي أنَّ مَن قرأ: يَخِطِّفُ، بكسر الخاء والطاء، فالأصلُ عنده يَخْتَطِفُ، ثمَّ أدغم التَّاء في الطاء؛ فالتقى ساكنان، فكُسِرت الخاء لالتقاء الساكنين. قال سيبويه: ومَن فتح الخاء ألقى حركة التَّاء عليها. وقال الكسائيُّ: ومَن كسر الياء فلأنَّ الألفَ في اختطفَ مكسورة. فأمَّا ما حكاه الفرَّاء عن أهل المدينة من إسكان الخاء والإدغام؛ فلا يُعرَف ولا يجوز، لأنه جمع بين ساكنين. قاله النَّحاس[١٣] وغيرُه.

---

(١) وكذا نسبها إليهما ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ١٠٣، ونسبها ابن جني في المحتسب ١/ ٦٢، وابن خالويه في القراءات الشاذة ص٣، والزمخشري ١/ ٢١٩ إلى الحسن ومجاهد.

(٢) معاني القرآن ١/ ٢٠٩، وحكاه عنه النحاس في إعراب القرآن ١/ ١٩٥.

(٣) ابن العجاج، أبو المجَشِّر البصري، قرأ القرآن على نصر بن عاصم، ويحيى بن يعمر، والحسن البصري وغيرهم، توفي سنة (١٢٨هـ). معرفة القراء الكبار ١/ ٢١٠.

(٤) عمران بن ملحان التميمي البصري، من كبار المخضرمين، أدرك الجاهلية، وأسلم بعد الفتح، ولم ير النبي ﷺ، توفي سنة (١٠٥هـ). السير ٤/ ٢٥٣.

(٥) يعني مع تشديد الطاء، كما في المحرر الوجيز ١/ ١٠٣.

(٦) الكشاف ١/ ٢١٩، والمحرر الوجيز ١/ ١٠٣.

(٧) معاني القرآن ١/ ١٨، وقد نقله المصنف عنه بواسطة النحاس، كما ذكر.

(٨) معاني القرآن للفراء ١/ ١٨، ومعاني القرآن للأخفش ١/ ٢١٠.

(٩) وهي أوجه شاذة، انظر القراءات الشاذة ص ٣، والمحتسب ١/ ٥٩.

(١٠) في إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٩٥ ـ ١٩٦: موافقة للسواد.

(١١) ابن سعيد، أبو عبيدة العنبري مولاهم، البصري، المقرئ، توفي سنة (١٨٠هـ). السير ٨/ ٣٠٠.

(١٢) المحرر الوجيز ١/ ١٠٣، والكشاف ١/ ٢١٩.

(١٣) إعراب القرآن ١/ ١٩٦.

قلتُ: وقد رويَ[١] عن الحسن أيضاً وأبي رجاء: «يَخْطِفُ». قال ابن مجاهد: وأظنُّه غلطاً، واستدلَّ على ذلك بأنَّ ﴿خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ [الصافات: ١٠] لم يقرأهُ أحدٌ بالفتح[٢].

﴿أَبْصَٰرَهُمْ﴾ جمع بَصَر، وهي حاسَّةُ الرؤية. والمعنى: تكاد حُجَجُ القرآنِ وبراهينُه الساطعةُ تَبْهَرُهم[٣]. ومن جعل البَرْقَ مَثَلاً للتَّخويف؛ فالمعنى: أنَّ خوفَهم مما ينزلُ بهم يكاد يُذهِبُ أبصارَهم.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ «كلَّما» منصوبٌ لأنَّه ظرف. وإذا كانت[٤] «كلما» بمعنى «إذا» فهي موصولة[٥]، والعامل فيه: «مَشَوا» وهو جوابُه، ولا يعملُ فيه «أضاء» لأنَّه في صلة «ما». والمفعول في قول المبِّرد محذوف، التقدير عنده: كلَّما أضاء لهم البرقُ الطريقَ. وقيل: يجوز أن يكون فَعَل وأفْعَل بمعنًى، كَسَكت وأسْكَت، فيكون أضاء وضاء سواءً، فلا يحتاج إلى تقدير حذف مفعول. قال الفرَّاء[٦]: يُقال: ضاءَ وأضاءَ، وقد تقدَّم[٧].

والمعنى: أنَّهم كلما سمعوا القرآنَ وظَهَرَتْ لهم الحُججُ، أَنِسُوا، ومَشَوْا معه، فإذا نزلَ من القرآن ما يَعْمَوْنَ فيه، ويَضِلُّون به، أو يُكَلَّفونه، قاموا، أي: ثبتوا على نفاقهم، عن ابن عباس[٨].

وقيل: المعنى: كلما صَلحت أحوالُهم في زروعهم ومواشيهم، وتوالت عليهم النِّعم[٩] قالوا: دِين محمد دينٌ مبارك، وإذا نزلت بهم مصيبة، وأصابتهم شِدَّة

---

(١) في (م): وروي.

(٢) المحتسب ١/ ٦٢، وقال ابن عطية ١/ ١٠٣: ونسب المهدوي هذه القراءة ـ يَخْطِفُ ـ إلى الحسن وأبي رجاء، وذلك وهم.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ١٠٤.

(٤) في (م): كان.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٩٦.

(٦) معاني القرآن ١/ ١٨.

(٧) ص ٣٢٢.

(٨) المحرر الوجيز ١/ ١٠٤.

(٩) في (م): وتوالت النعم.

سَخطوا، وثبَتوا في نفاقهم، عن ابن مسعود وقتادة[١]. قال النحاس: وهذا قولٌ حسن، ويدلُّ على صِحَّته: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج: ١١].

وقال عُلماء الصوفية[٢]: هذا مَثَلٌ ضرَبه الله تعالى لمَنْ لم تَصِحَّ له أحوالُ الإرادة بدءاً، فارتَقَى من تلك الأحوال بالدَّعاوَى إلى أحوال الأكابر، كأَنْ تضيءَ عليه أحوالُ الإرادة لو صحَّحَها بُملازمةِ آدابِها، فلمَّا مزَجَها بالدَّعاوَى، أذهبَ الله عنه تلك الأنوار، وبقي في ظُلُماتِ دَعاوِيه، لا يُبصِرُ طريقَ الخروج منها.

ورُويَ عن ابن عبَّاس أنَّ المرادَ اليهودُ؛ لمَّا نُصِرَ النبيُّ ﷺ ببَدْر، طَمِعُوا وقالوا: هذا والله النبيُّ الذي بَشَّرَنا به موسى لا تُرَدُّ له راية، فلمَّا نُكِبَ بأُحُد ارتدُّوا وشَكُّوا. وهذا ضعيف. والآيةُ في المنافقين، وهو[٣] أصحُّ عن ابن عباس، والمعنى يتناولُ الجميع.

قولُه تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ﴾ «لو» حرفُ تَمَنٍّ، وفيه معنى الجزاءِ، وجوابُه اللام. والمعنى: ولو شاء الله لأَطلع المؤمنين عليهم، فذهبَ منهم عِزُّ الإسلام بالاستيلاء عليهم وقتلِهم وإخراجِهم من بينهم. وخصَّ السمعَ والبصرَ لتقدُّمِ ذكرِهما في الآية أوَّلاً، أو لأنهما أشرفُ ما في الإنسان. وقرئ: بأسماعِهم، على الجمع، وقد تقدَّم الكلامُ في هذا[٤].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ عموم، ومعناه عند المتكلِّمين: فيما يجوزُ وصفُه تعالى بالقُدرةِ عليه[٥]. وأجمعت الأمَّةُ على تسميةِ الله تعالى بالقدير، فهو سبحانه قديرٌ قادرٌ مقتدِرٌ.

والقديرُ أبلغُ في الوصفِ من القادر. قاله الزَّجَّاجيُّ[٦]. وقال الهرويُّ: والقديرُ

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ١٠٤، وأخرجه الطبري ١/ ٣٦٨ و٣٧١.

(٢) بنحوه في لطائف الإشارات ١/ ٣٦٨ و٣٧١.

(٣) في (م): وهذا.

(٤) ص ٢٩٠، وتقدم تخريج القراءة ثَمَّ.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ١٠٤.

(٦) اشتقاق أسماء الله ص ٤٨.

والقادرُ بمعنًى واحد. يقال: قَدَرْتُ على الشيء أقدِر قَدْراً وقَدَراً ومَقْدِرةً ومَقْدُرةً وقَدَراناً، أي: قُدْرَةً.

والاقتدارُ على الشيء: القُدْرةُ عليه، فالله جلَّ وعَزّ قادِرٌ مقتَدرٌ قديرٌ على كلِّ ممكن يقبلُ الوجودَ والعدَمَ. فيجبُ على كلِّ مُكَلَّفٍ أنْ يعلمَ أنَّ الله تعالى قادِرٌ، له قدرةٌ بها فَعَل ويَفْعَل ما يشاء وَفْقَ[1] عِلْمِه واختيارِه. ويجبُ عليه أيضاً أنْ يعلَم أنَّ للعبد قُدْرةً يكتسبُ بها ما أَقْدَرَه الله تعالى عليه على مجرى العادة، وأنَّه غيرُ مستبدٍّ بقدرته. وإنَّما خَصَّ هنا تعالى صفَتَه ـ التي هي القدرةُ ـ بالذِّكر دونَ غيرها لأنه تقدَّم ذِكرُ فِعْلٍ مُضَمَّنُه[2] الوعيدُ والإخافةُ، فكان ذِكرُ القُدرةِ مناسباً لذلك. والله أعلم.

فهذه عشرون آيةً على عدد الكوفيّين: أربعُ آيات في وصف المؤمنين، ثم تليها آيتان في ذكر الكافرين، وبقيَّتُها في المنافقين. وقد تقدَّمت الروايةُ فيها عن ابن جُرَيج، وقاله مجاهد أيضاً[3].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾

قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ قال عَلْقَمة ومجاهد: كلُّ آيةٍ أوَّلُها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فإنَّما نزلَتْ بمكة، وكلُّ آية أوَّلُها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فإنَّما نزلَتْ بالمدينة[4].

قلت: وهذا يردُّه[5] أنَّ هذه السُّورة والنِّساء مدنيَّتان، وفيهما: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، وأمَّا قولُهما في: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فصحيحٌ.

وقال عُروة بنُ الزُّبير: ما كان من حَدٍّ أو فريضةٍ، فإنَّه نزل بالمدينة، وما كان مِنْ

(١) في (م): على وفق.

(٢) في (د): تضمن.

(٣) في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ ص ٢٩٣.

(٤) أخرج أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٢٢٢ قول علقمة، وأورد ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ١٠٥ قول مجاهد.

(٥) في (د) و(ز): يرد على من يقول.

ذِكْر الأمم والعذابِ، فإنَّه نزل بمكَّةَ[١]. وهذا واضحٌ.

و«يا» في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ حرفُ نداء. «أيُّ» منادى مفردٌ مبنيٌّ على الضَّمِّ؛ لأنَّه مُنادَى في اللَّفظ، و«ها» للتَّنبيه. «الناسُ» مرفوعٌ صفةٌ لـ «أيّ» عند جماعةِ النَّحْويِّين، ما عدا المازنيَّ، فإنَّه أجازَ النَّصبَ قياساً على جَوازه في: يا هذا الرَّجُلَ[٢].

وقيل: ضُمَّتْ «أيُّ» كما ضُمَّ المقصودُ المفردُ، وجاؤوا بـ«ها» عِوضاً عن ياءٍ أخرى، وإنَّما لم يأتوا بياء؛ لئَّلا ينقطِعَ الكلامُ، فجاؤوا بـ «ها» حتى يَبْقَى الكلامُ متَّصلاً. قال سيبويه: كأنَّك كرَّرت «يا» مرَّتين، وصار الاسمُ بينهما، كما قالوا: ها هو ذا[٣].

وقيل: لمَّا تَعَذَّرَ عليهم الجمعُ بين حرفي تعريفٍ أَتَوْا في الصُّورة بمنادى مجرَّدٍ عن حرفِ تعريفٍ، وأَجْرَوْا عليه المعرَّف باللَّام المقصودَ بالنِّداء، والتزمُوا رَفْعَه؛ لأنَّه المقصودُ بالنِّداء، فجعلُوا إعرابَه بالحركةِ التي كان يستحقُّها لو باشَرَها النِّداءُ، تنبيهاً على أنَّه المنادى، فاعْلَمْه.

واختُلِفَ مَن المرادُ بالنَّاس هنا على قولين: أحدُهما: الكفَّار الذين لم يعبُدوه، يدُلُّ عليه قولُه: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾.

الثاني: أنَّه عامٌّ في جميع الناس، فيكون خطابُه للمؤمنين باستدامة العبادة، وللكافرين بابتدائها. وهذا حَسَنٌ.

قوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟﴾ أمرٌ بالعبادةِ له، والعبادةُ هنا عبارةٌ عن توحيدِه والتزامِ شرائعِ دينِه.

وأصلُ العبادة: الخضوعُ والتذلُّلُ. يقال: طريقٌ مُعَبَّدة: إذا كانت مَوْطُوءةً بالأقدام.

قال طَرَفة:

---

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٢٢٢، وابن أبي شيبة ١٠/ ٥٢٢، وفيه: حجّ، بدل: حد.

(٢) مشكل إعراب القرآن ١/ ٨٢.

(٣) الكتاب ٢/ ١٩٧، وفيه: وصار الاسم بينهما، كما صار «هو» بين «ها» و«ذا» إذا قلت: ها هو ذا.

وَظيفاً وَظِيفاً فوق مَوْرٍ مُعَبَّدِ[١]

والعبادةُ: الطَّاعة، والتعبُّد: التَّنَسُّك، وعبَّدتُ فلاناً: اتَّخذتُه عبداً.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ خَصَّ تعالى خَلْقَه لهم من بين سائر صفاته، إذ كانت العربُ مُقِرَّةً بأنَّ الله خلقَها، فذكر ذلك حجَّةً عليهم، وتقريعاً لهم. وقيل: ليُذَكِّرهم بذلك نعمتَه عليهم.

وفي أصل الخَلْق وجهان:

أحدُهما: التَّقدير، يقال: خَلَقْتُ الأديمَ للسِّقاء: إذا قَدَّرتَه قبل القَطْع. قال الشاعر:

ولأنتَ تَفْرِي ما خَلَقْتَ وبَعْـ ضُ القَوْمِ يَخْلُقُ ثمَّ لا يَفْرِي[٢]

وقال الحجَّاج: ما خَلَقْتُ إلَّا فَرَيْتُ، ولا وعدتُ إلَّا وَفَيْتُ[٣].

الثاني: الإنشاءُ والاختراع والإبداع. قال الله تعالى: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فيقال: إذا ثبتَ عندهم خَلْقُهم، ثبتَ عندهم خَلْقُ غيرهم؟ فالجواب: أنَّه إنَّما يجري الكلامُ على التَّنبيه والتَّذكير ليكون أبلغَ في العِظَة، فذكَّرهم مَنْ قبلَهم ليعلموا أنَّ الذي أماتَ مَنْ قبلَهم[٤]، وهو خَلَقَهم، يُميتُهم، وليفكِّروا فيمن مضى قبلَهم كيف كانوا، وعلى أيِّ الأمور مَضَوْا من إهلاكِ مَنْ أُهلِكَ، وليعلموا أنَّهم يُبْتَلَوْن كما ابتُلُوا. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ «لعلَّ» متَّصلةٌ بـ «اعبُدُوا» لا بـ «خَلَقَكم»، لأنَّ مَنْ ذَرَأه الله لجهنَّم لم يَخْلُقْه ليتَّقيَ.

---

(١) عجز بيت من معلقته، وصدرُه: تُباري عِتاقاً ناجياتٍ وأتبعَتْ.
وهو في ديوانه ص ٢٢. والوظيف لكل ذي أربع: ما فوق الرسغ إلى مفصل الساق. اللسان (وظف). والمَور: الطريق. اللسان (مور).

(٢) البيت لزهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص ١١٩، والصحاح: (خلق). وتَفْري، أي: تقطع. يعني: إنك إذا قدرت لأمر مضيت له وأنفذته ولم تعجز عنه.

(٣) الصحاح: (خلق).

(٤) في (ز) و(ظ): قبلكم.

وهذا وما كان مثلُه ممَّا[١] وَرَدَ في كلام الله تعالى من قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣] ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٢] ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٢] ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣] فيه ثلاث تأويلات[٢]:

الأول: أنَّ «لعلَّ» على بابِها من التَّرجِّي والتوقُّعِ، والتَّرجِّي والتوقُّعُ إنَّما هو في حيِّزِ البشر، فكأنَّه قيلَ لهم: افعلُوا ذلك على الرَّجاء منكم والطَّمَعِ أن تَعْقِلُوا، وأن تَذَكَّروا، وأن تَتَّقوا. هذا قولُ سيبويه ورؤساءِ اللِّسان. قال سيبويه[٣] في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿اذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٣ - ٤٤]. اذهبا إلى طَمَعِكُما ورجائكما أن يتذكَّر أو يخشى. واختار هذا القولَ أبو المَعالي.

الثاني: أنَّ العربَ استعملتْ «لعلَّ» مجَرَّدةً من الشكِّ بمعنى لامِ «كي». فالمعنى: لِتَعْقِلوا، ولِتذَكَّروا، ولِتتَّقوا، وعلى ذلك يدلُّ قول الشاعر:

وقلتُم لنا كُفُّوا الحروبَ لعلَّنا ... نَكُفُّ ووَثَّقْتُم لنا كلَّ مَوْثِقِ

فلمَّا كَفَفْنا الحَرْبَ كانت عهودُكُم ... كَلَمْعِ سَرَابٍ في المَلَا مُتَأَلِّقِ[٤]

المعنى: كُفُّوا الحروبَ لنكُفَّ، ولو كانت «لعلَّ» هنا شكًّا لم يُوَثِّقُوا لهم كلَّ مَوْثِق. وهذا القول عن قُطْرُبٍ والطَّبريِّ[٥].

الثالث: أن تكون «لعلَّ» بمعنى التعرُّض للشيء، كأنَّه قيل: افعلُوا ذلك متعرِّضين لأن تَعقِلوا، أو لأن تَذكَّروا، أو لأن تَتَّقُوا.

والمعنى في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي: لعلَّكم أنْ تجعلُوا بِقَبول ما أمَرَكُم الله به وِقايةً بينَكم وبينَ النار. وهذا من قول العرب: اتَّقاه بحقِّه: إذا

---

(١) في (م): فيما.

(٢) أمالي ابن الشجري ١/ ٧٦ - ٧٧.

(٣) الكتاب ١/ ٣٣١. وقد نقله القرطبي بواسطة ابن الشجري في أماليه ١/ ٧٦.

(٤) البيتان في تفسير الطبري ١/ ٣٨٧، وأمالي ابن الشجري ١/ ٧٧ (والكلام له)، والحماسة البصرية ١/ ٢٥ - ٢٦ غير منسوبين.

(٥) تفسير الطبري ١/ ٣٨٧.

استقبَلَه به، فكأنَّه جعلَ دَفْعَه حقَّه إليه وِقايةً له من المُطالبة، ومنه قولُ عليٍّ رضي الله عنه: كنَّا إذا احمرَّ البأسُ اتَّقَيْنا بالنبيِّ ﷺ[1]. أي: جعلناه وِقايةً لنا من العدوِّ.

وقال عنترة[2]:

ولقد كَرَرْتُ المُهْرَ يَدْمَى نَحْرُه حتى اتَّقَتْني الخيلُ بابنَيْ حِذْيَم[3]

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ فيه ستُّ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ معناه هنا: صيَّر؛ لِتَعَدِّيه إلى مفعولين.

ويأتي بمعنى خَلَق، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ﴾ [المائدة: ١٠٣]، وقولُه: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

ويأتي بمعنى: سَمَّى، ومنه قوله تعالى: ﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ١- ٣]، وقولُه: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥]، ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: ١٩] أي: سَمَّوْهم.

ويأتي بمعنى: أخَذَ، كما قال الشاعر:

وقد جَعَلَتْ نفسي تطِيبُ لِضَغْمَةٍ لِضَغْمِهِماها يَقْرَعُ العَظْمَ نابُها[4]

وقد تأتي زائدة، كما قال الآخر:

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣٤٧)، والنسائي في الكبرى (٨٥٨٥).

(٢) ابن عمرو بن شداد العبسي، الشاعر الفارس المشهور، شهد حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان. الشعر والشعراء ١/ ٢٥٠.

(٣) البيت من معلقته، وهو في أشعار الشعراء الستة الجاهليين للأعلم الشنتمري ٢/ ١٢٣، وانظر المعلّقات العشر وأخبار شعرائها للشنقيطي ص ١٣٤. ابنا حِذْيَم: قيل: هما هرم وحصين ابنا ضمضم المري، كان عنترة قد قتل أباهما ضمضماً، فكانا يتوعَّدانه.

(٤) البيت لمُغَلِّس بن لَقِيط الأسدي. قوله: ضغمة، أي: عضَّة، أراد بها الشدة، وقوله: لضغمهماها، أي: لضغمهما إياها، والبيت من شواهد سيبويه ٢/ ٣٦٥، وهو في معجم الشعراء ص ٣٠٨.

وقد جَعَلْتُ أرَى الإثنينِ أربعةً والواحد[١] اثْنَينِ لمَّا هَدَّني الكِبَرُ[٢]

وقد قيل في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾: إنَّها زائدةٌ.

وجَعَلَ واجتَعَلَ بمعنًى واحدٍ. قال الشاعر:

ناطَ أمرَ الضِّعافِ واجْتَعَلَ اللَّيـ ـلَ كَحَبْلِ العادِيَّةِ المَمْدُودِ[٣]

﴿فِرَٰشًا﴾ أي: وِطاءً يفترشونَها ويستقرُّون عليها، وما ليس بفراشٍ، كالجبال والأوْعارِ والبحار[٤]، فهي من مصالح ما يُفْتَرَشُ منها؛ لأنَّ الجبالَ كالأوتاد، كما قال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ۝٦ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٦-٧]. والبحارُ تُركَبُ إلى سائر منافعها[٥]، كما قال: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

الثانية: قال أصحابُ الشافِعيِّ: لو حلَفَ رجلٌ ألَّا يبيتَ على فراشٍ، أو لا يَسْتَسْرِجَ بِسِراجٍ، فباتَ على الأرض، وجَلَس في الشمس، لم يحنَثْ، لأنَّ اللفظَ لا يرجعُ إليهما عُرْفاً.

وأمَّا المالكيَّةُ؛ فَبَنَوْهُ على أصلِهم في الأَيْمان أنَّها محمولةٌ على النِّيَّة، أو السَّبَبِ، أو البِساطِ[٦] الذي جَرَتْ عليه اليمينُ، فإن عُدِمَ ذلك، فالعُرْفُ[٧].

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ السماء للأرض كالسقف للبيت، ولهذا قال ـ وقولُه الحقُّ ـ ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وكلُّ ما علا فأظَلَّ قيل

---

(١) في النسخ الخطية: والأربع، والمثبت من (م) والمصادر الآتية.

(٢) نسبه القالي في أماليه ٢/ ١٦٣ لعبدٍ من عبيد بَجيلة، ونسبه المرزباني كما في الخزانة ٩/ ٣٥٨ لعمرو بن أحمر الباهلي، وهو عندهما برواية:

فقد جعلت أرى الشخصين أربعةً والواحدَ اثنين مما بورك البصرُ

(٣) البيت لأبي زُبيد حرملة بن المنذر الطائي. وهو من قصيدة طويلة يرثي بها اللجلاجَ ابنَ أخته، وهو في ديوانه ص ٦٠٤ (شعراء إسلاميون)، وجمهرة أشعار العرب ٢/ ٧٤٢، والاختيارين ص ٥٣٤. قوله: ناط، أي: حمل وكفى، والعاديَّة: البئر القديمة، أي: يسير الليل كله لا ينثني.

(٤) في (ظ): والنجاد.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ١٠٥.

(٦) المقصود بالبساط هنا: السبب المثير لليمين لتعرف منه، قال ابن شاس في عقد الجواهر الثمينة في مذهب عالم أهل المدينة ١/ ٥٢٥: وذلك أن القاصد إلى اليمين لابدَّ أن تكون له نيَّةٌ، وإنما يذكرها في بعض الأوقات، وينساها في بعضها، فيكون المحرِّكُ على اليمين ـ وهو البساط ـ دليلاً عليها، لكن قد يظهر مقتضى المحرِّك ظهوراً لا إشكال فيه، وقد يخفى في بعض الحالات، وقد يكون ظهوره وخفاؤه بالإضافة.

(٧) أحكام القرآن لابن العربي ١/ ١٣.

له: سماءٌ، وقد تقدَّم القولُ فيه[١].

والوقفُ على ﴿بِنَآءً﴾ أحسنُ منه على ﴿تَتَّقُونَ﴾، لأنَّ قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ نعتٌ للرَّبِّ[٢].

ويقال: بَنَى فلانٌ بيتاً، وبَنَى على أهلِهِ ـ بناءً فيهما ـ أي: زَفَّها، والعامَّةُ تقول: بَنَى بأهله، وهو خطأٌ[٣]، وكان الأصلُ فيه أنَّ الداخلَ بأهله كان يضرِبُ عليها قُبَّةً ليلةَ دخولِه بها، فقيل لكلِّ داخلٍ بأهله: بانٍ.

وبَنَّى قُصوراً[٤]: شُدِّدَ للكثرة، وابْتَنَى داراً وبَنَى بمعنًى، ومنه بُنْيان الحائط، وأصلُه: وَضْعُ لَبِنَةٍ على أُخرى حتى تَثْبُتَ.

وأصل «الماء»: مَوَه، قُلِبت الواو ألفاً لتحرّكها وتحُرّك ما قبلَها، فقلتَ: ماه، فالتقى حرفان خفيَّان، فأبدلتَ من الهاء همزة، لأنَّها أجلَدُ، وهي بالألف أشبَهُ، فقلت: ماء، الألفُ الأُولى عينُ الفعل، وبعدها الهمزةُ التي هي بدلٌ من الهاء، وبعدَ الهمزة ألفٌ بدلٌ من التَّنوين. قال أبو الحسن[٥]: لا يجوز أن يُكتَبَ إلاَّ بألِفَين عند البصريِّين، وإن شئتَ بثلاثٍ، فإذا جمعُوا أو صغَّروا ردُّوا إلى الأصل، فقالوا: مُوَيْهٌ وأَمْواهٌ ومِياهٌ، مثلُ جِمال وأجْمال[٦].

الرابعة: قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ الثَّمراتُ: جمعُ ثمرة، ويقال: ثَمَر، مثل شَجَر، ويقال: ثُمُر، مثل خُشُب، ويقال: ثُمْر، مثل بُدْن. وثِمار

(١) ص ٣٢٦.

(٢) إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ١/ ٥٠٢.

(٣) كذا نقل المصنف عن الجوهري في الصحاح (بنى). وقد تعقّبه غير واحد كما ذكر الزبيدي في تاج العروس، قال ابن الأثير في النهاية: قد جاء في غير موضع من الحديث وغير الحديث، وعاد الجوهري فاستعمله في كتابه! وذكر الزبيدي أنه قد ورد «بنى بأهله» في شعر جِران العَوْد، قال:

بنيتُ بها قبل المِحاقِ بليلةٍ ... فكان مِحاقاً كلُّه ذلك الشهرُ

(٤) في (م): «مقصوراً».

(٥) لعله علي بن سليمان الأخفش الصغير.

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٩٩.

مثل إكام، جمع ثَمَر[١]، وسيأتي لهذا مزيدُ بيانٍ في «الأنعام» إن شاء الله[٢]. وثمارُ السِّياط: عُقَدُ أطرافها.

والمعنى في الآية: أخرجنا لكم ألواناً من الثَّمرات، وأنواعاً من النَّبات.

﴿رِزْقًا﴾: طعاماً لكم، وعَلَفاً لدوابِّكم، وقد بيَّنَ هذا قولُه تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٥ - ٣٢]. وقد مضى الكلامُ في الرِّزق مستوفىً، والحمدُ لله[٣].

فإن قيل: كيف أطلَقَ اسمَ الرِّزق على ما يخرُجُ من الثَّمرات قبل التملُّكِ؟

قيل له: لأنَّها مُعَدَّة لأنْ تُملَكَ، ويصحّ بها الانتفاعُ، فهي رزقٌ[٤].

الخامسة: قلتُ: ودلَّتِ هذه الآيةُ على أنَّ الله تعالى أغْنَى الإنسانَ عن كلِّ مخلوق، ولهذا قال عليه السلام مشيراً إلى هذا المعنى: «والله لأنْ يأخُذَ أحدُكم حَبْلَه، فيَحْتَطِبَ على ظهرِه، خيرٌ له من أن يسأل أحداً، أعطاه أو مَنَعَه». أخرجه مسلم[٥]. ويدخُلُ في معنى الاحتطاب جميعُ الأشغال من الصَّنائع وغيرها، فمن أحوَجَ نفسه إلى بشر مثلِه بسببِ الحِرْص والأمل والرَّغبة في زُخْرف الدنيا، فقد أخَذَ بطرفِ مَنْ جَعَلَ لله نِدّاً[٦].

وقال علماء الصُّوفية: أعلَمَ اللهُ عزَّ وجلَّ في هذه الآية سبيلَ الفقر، وهو أن تجعَلَ الأرضَ وِطاءً، والسماءَ غِطاءً، والماءَ طِيباً، والكلأَ طعاماً، ولا تعبُدَ أحداً في

---

(١) المصدر السابق.

(٢) عند قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

(٣) ص ٢٧٣.

(٤) المحرر الوجيز ١/١٠٦.

(٥) صحيح مسلم (١٠٤٢) من حديث أبي هريرة، ولفظه: «لأن يغدو أحدكم، فيحتطب على ظهره، فيتصدق به، ويستغني من الناس، خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه ذلك...». وكذلك أخرجه البخاري (١٤٧٠) بنحو ما ذكره المصنف. وهو في المسند (٧٣١٧).

(٦) المحرر الوجيز ١/١٠٦.

الدنيا من الخلق بسبب الدنيا، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ قد أتاحَ[١] لك ما لا بدَّ لك منه، من غير مِنَّةٍ فيه لأحدٍ عليك.

وقال نَوْف البِكَاليُّ[٢]: رأيتُ عليَّ بن أبي طالب خَرَج فنظَرَ إلى النُّجوم، فقال: يا نَوْفُ، أراقِدٌ أنتَ أم رامِقٌ؟ قلتُ: بل رامِقٌ يا أميرَ المؤمنين، قال: طُوبَى للزَّاهدين في الدنيا والراغبين في الآخرة، أولئك قومٌ اتَّخذوا الأرضَ بِساطاً، وتُرابَها فِراشاً، وماءها طِيباً[٣]، والقرآنَ والدعاءَ دِثاراً وشِعاراً، فرفضوا[٤] الدُّنيا على منهاج المسيح عليه السلام. وذكر باقي الخبرِ[٥]، وسيأتي تمامُه في هذه السُّورة عند قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ [الآية: ١٨٦] إن شاء الله تعالى.

السادسة: قولُه تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا﴾ نَهْيٌ.

﴿لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: أكْفاءً وأمثالاً ونُظَراءَ، واحدُها نِدٌّ، وكذلك قرأ محمد بنُ السَّمَيْفَع: «نِدّاً»[٦]. قال الشاعر:

نَحْمَدُ الله ولا نِدَّ له ... عندَه الخيرُ وما شاءَ فَعَلْ[٧]

وقال حَسَّان:

أتَهْجُوهُ ولَسْتَ له بِنِدٍّ ... فَشَرُّكُما لِخيرِكُما الفِداءُ[٨]

ويقال: نِدٌّ ونَدِيدٌ على المبالغة. قال لَبيد:

---

(١) في النسخ: أباح، والمثبت من (م)، والكلام بنحوه في لطائف الإشارات ١/ ٦٨.

(٢) ابن فضالة الحميري، وهو ابن امرأة كعب الأحبار، قال ابن حبان في الثقات: كان راوية للأخبار، وذكره البخاري في الأوسط في فصل من مات بين التسعين والمئة. تهذيب التهذيب ٤/ ٢٤٩.

(٣) في (ظ): وماءها طيباً وكلأها طعاماً.

(٤) في حلية الأولياء و(د) وهامش (ظ) و(ز): فرضوا.

(٥) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٧٩ و ٦/ ٥٣.

(٦) ذكرها الفخر الرازي في تفسيره ٢/ ١١٢.

(٧) قائله لَبِيد بن ربيعة العامري، والبيت في ديوانه ص ١٧٤، وروايته فيه:

أحمدُ الله فلا نِدَّ له ... بيديه الخيرُ ما شاء فعل

(٨) هو في ديوانه ص ٩، وفيه: بكفءٍ، بدل: بندٍّ.

والبيت من قصيدة طويلة قالها حسان في فتح مكة يهجو بها أبا سفيان قبل إسلامه، وكان قد هجا النبي ﷺ.

لكيلا يكونَ السَّنْدَرِيُّ نَدِيدَتي وأجعلَ أقواماً عُموماً عَماعِمَا[١]

وقال أبو عُبَيدة[٢]: ﴿أَندَادًا﴾: أضداداً.

النحاسُ[٣]: ﴿أَندَادًا﴾ مفعول أول، و﴿لِلَّهِ﴾ في موضع الثاني.

الجوهريّ[٤]: والنَّدُّ ـ بفتح النون ـ التَّلُّ المرتفعُ في السماء، والنَّدُّ: من الطِّيب، ليس بعربيٍّ، ونَدَّ البعيرُ يَنِدُّ نَدّاً ونِداداً ونُدُوداً: نَفرَ وذَهَبَ على وجهِه، ومنه قرأ بعضُهم: «يَومَ التَّنادِّ»[٥]. ونَدَّدَ به، أي: شَهَّرَه وسَمَّعَ به.

السابعة: قولُه تعالى[٦]: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ، والجملةُ في موضعِ الحال، والخطابُ للكفار[٧] والمنافقين. عن ابن عباس[٨].

فإن قيل: كيف وصَفَهم بالعلم وقد نَعَتَهم بخلافِ ذلك من الخَتْم والطَّبْع والصَّمَم والعَمَى؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: يريدُ العلمَ الخاصَّ في أنَّ[٩] الله تعالى خَلَقَ الخلقَ، وأنزل الماءَ، وأنبَتَ الرِّزْقَ[١٠]، فيعلمون أنَّه المُنعِمُ عليهم دون الأنداد.

---

(١) ديوانه ص ٢٨٦، وفيه: لكيما. والسَّنْدَرِي شاعر كان مع علقمة بن عُلاثة، وكان لبيد مع عامر بن الطفيل، فدعي لبيد إلى مهاجاته، فأبى. العماعم: الجماعات المتفرقون. والمعنى: وأجعل أقواماً مجتمعين فِرَقاً. اللسان: (عمم).

(٢) مجاز القرآن ١/ ٣٤.

(٣) إعراب القرآن ١/ ١٩٩.

(٤) الصحاح (ندد).

(٥) بالتشديد، وهي من سورة المؤمن، الآية ٣٢، ونسبت هذه القراءة لابن عباس والضحاك وأبي صالح والكلبي، وهي قراءة شاذة. القراءات الشاذة لابن خالويه ص ١٣٢، والمحتسب ٢/ ٢٤٣.

(٦) في النسخ: قوله تعالى وهي السابعة، والمثبت من (م).

(٧) في (م): للكافرين.

(٨) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٣٩٣.

(٩) في (م): بأن

(١٠) المحرر الوجيز ١/ ١٠٦.

الثاني: أن يكون المعنى: وأنتم تعلمون وَحْدانِيَّتَه بالقوَّةِ والإمكان لو تَدَبَّرتُم ونَظَرْتُم، والله أعلم.

وفي هذا دليلٌ على الأمر باستعمال حُجَج العقول، وإبطالِ التقليد.

وقال ابنُ فُورَك: يَحتَمِلُ أن تتناولَ الآيةُ المؤمنين، فالمعنى: لا تَرتَدُّوا أيُّها المؤمنون وتجعلُوا لله أنداداً بعد عِلْمكم ـ الذي هو نفيُ الجهل ـ بأنَّ الله واحدٌ[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ أي: في شكّ. ﴿مِّمَّا نَزَّلْنَا﴾ يعني القرآنَ، والمرادُ: المشركون الذين تُحُدُّوا، فإنَّهم لمَّا سمِعُوا القرآنَ قالوا: ما يُشبِهُ هذا كلامَ الله، وإنَّا لَفي شكٍّ منه، فنزلت الآيةُ.

ووجْهُ اتِّصالها بما قبلَها أنَّه سبحانه لمَّا ذَكر في الآية الأُولى الدلالةَ على وحدانيَّته وقُدْرتِهِ، ذكَرَ بعدَها الدلالة على نُبوّة نبيِّه، وأنَّ ما جاء به ليس مُفترًى من عندِه.

قوله: ﴿عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ يعني محمداً ﷺ، والعبدُ مأخُوذٌ من التعبُّد، وهو التذلُّلُ، فسُمِّيَ المملوكُ ـ من جنس ما يفعَلُه ـ عبداً، لتذلُّله لمولاه[2]. قال طَرَفَة:

إلى أنْ تَحامَتْني العشيرةُ كُلُّها ... وأُفرِدْتُ إفرادَ البعيرِ المُعَبَّدِ[3]

أي: المُذَلَّل.

قال بعضُهم: لمَّا كانتِ العبادةُ أشرَفَ الخِصال، والتسمِّي بها أشرفَ الخُطَط، سَمَّى نبيَّه عَبْداً، وأنشدوا:

يا قومِ قلبي عند زَهْراءِ ... يَعرِفُه السامعُ والرَّائي

لا تَدْعُني إلَّا بِيَا عبدَها ... فإنَّه أشرَفُ أسمائي[4]

---

(١) نفس المصدر.

(٢) النكت والعيون للماوردي ١/ ٨٤.

(٣) البيت من معلقته، وهو في ديوانه ص ٣١.

(٤) البيتان في نفح الطيب ٢/ ٦٦٥ من غير نسبة لقائله، وجاء فيه الشطر الأول من البيت الأول: يا عمرو=

﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ﴾ الفاءُ جوابُ الشَّرط، إئتوا مقصورٌ لأنَّه من باب المجيء؛ قاله ابن كَيْسان[١].

وهو أمرٌ معناه التعجيز؛ لأنَّه تعالى عَلِمَ عَجْزَهم عنه. والسورةُ: واحدةُ السُّوَر، وقد تقدَّم الكلام فيها وفي إعجاز القرآن[٢]، فلا معنى للإعادة.

و«مِن» في قوله: ﴿مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ زائدةٌ، كما قال: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨]. والضميرُ في «مثله» عائدٌ على القرآن عند الجمهور من العلماء، كقتادةَ ومجاهدٍ[٣] وغيرِهما.

وقيل: يعودُ على التَّوراة والإنجيل، فالمعنى: فَأْتُوا بسورةٍ من كتابٍ مثلِه، فإنَّها تُصَدِّق ما فيه.

وقيل: يعود على النبيِّ ﷺ، المعنى: من بَشَرٍ أُمِّيٍّ مثلِه، لا يكتُبُ ولا يقرأ[٤]. فـ: «مِنْ» على هذين التأويلين للتَّبعيض.

والوقفُ على «مثله» ليس بتامٍّ؛ لأنَّ «وادْعُوا» نَسَقٌ عليه[٥].

قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوا شُهَدَآءَكُم﴾ معناه أعوانكم ونُصَرَاءَكم. الفَرَّاءُ[٦]: آلِهَتكم.

وقال ابن كَيْسان: فإن قيل: كيف ذَكَرَ الشُّهداءَ ها هنا، وإنَّما يكون الشُّهداء لِيَشْهَدُوا أمْراً، أو لِيُخْبِرُوا بأمْرٍ شَهِدُوه، وإنَّما قيلَ لهم: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾؟

فالجوابُ: أنَّ المعنى: استعينوا بمن وجدتُموه من علمائكم، وأَحْضِروهم لِيُشاهِدُوا ما تأتُون به، فيكون الردُّ على الجميع أوكَدَ في الحُجَّة عليهم.

قلتُ: هذا هو معنى قولِ مجاهد؛ قال مجاهد: معنى ﴿وَٱدْعُوا شُهَدَآءَكُم﴾ أي:

= نادِ عبدَ زهراء.

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/١٩٩.

(٢) ص ١٠٦ و١١٢ ـ ١٢٢.

(٣) أخرجه الطبري ١/٣٩٦ـ٣٩٧.

(٤) المحرر الوجيز ١/١٠٦ ـ ١٠٧.

(٥) إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ١/٥٠٣.

(٦) معاني القرآن ١/١٩.

ادْعوا ناساً يشَهدونَ لكم[١]، أي: يشهَدون لكم أنَّكم عارَضْتُموه. النحَّاس[٢]: ﴿شُهَدَآءَكُم﴾ نصب بالفعل، جَمْعُ شهيد، يقال: شاهدٌ وشهيدٌ، مثل قادرٌ وقديرٌ.

قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: من غيره، و«دون» نقيضُ «فوقَ»، وهو تقصيرٌ عن الغاية، ويكون ظرفاً. والدُّون: الحقيرُ الخَسيس.

قال:

إذا مـا عَـلا الـمـرءُ رامَ الـعـلاء وَيـقْـنَـعُ بـالـدُّونِ مَـنْ كـان دُونـا[٣]

ولا يُشتقُّ منه فعلٌ، وبعضُهم يقول منه: دان يَدُون دَوْناً، ويقال: هذا دُونَ ذاك، أي: أقربُ منه، ويقال في الإغراء بالشيء: دُونَكَه. قالت تَميم للحجَّاج: أقْبِرنا صالِحاً ـ وكان قد صَلَبَه ـ فقال: دُونكُموه[٤].

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما قلتُم من أنَّكم تَقْدِرون على المعارضة، لقولهم في آية أخرى: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾ [الأنفال: ٣١].

والصِّدْقُ: خِلافُ الكذب، وقد صَدَق في الحديث، والصَّدْق: الصُّلب من الرِّماح، ويقال: صَدَقُوهم القتال، والصِّدِّيق: الملازِمُ للصِّدق، ويقال: رجلُ صِدْقٍ، كما يقال: نِعْمَ الرجل، والصَّداقةُ مشتقَّةٌ من الصِّدق في النُّصْح والوُدِّ[٥].

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟﴾ يعني فيما مضى ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾ أي: تُطِيقُوا ذلك فيما يأتي.

---

(١) أخرجه الطبري ١/ ٣٩٩.

(٢) إعراب القرآن ١/ ١٩٩.

(٣) هو في الصحاح واللسان (دون) من غير نسبة.

(٤) الصحاح (دون) وأورد هذا الخبر أيضاً ابن السكيت في إصلاح المنطق ١/ ٢٦٢، وابن الأثير في النهاية، وابن منظور في اللسان (قبر) نقلاً عن أبي عبيدة. ومعنى قولهم: أقبرنا صالحاً، أي: أمكِنَّا من دفنه في القبر. وصالح: هو ابن عبد الرحمن، وينظر ما سيرد عند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾ [عبس: ٢١].

(٥) مجمل اللغة لابن فارس (صدق).

والوقفُ على هذا على: ﴿صَٰدِقِينَ﴾ تامٌّ، وقال جماعة من المفسِّرين: معنى الآية: وادْعُوا شهداءَكم من دون الله إنْ كنتُم صادقين، ولن تفعلوا، فإن لم تفعلوا فاتَّقوا النار. فعلى هذا التفسيرِ لا يتمُّ الوقفُ على ﴿صَٰدِقِينَ﴾[١].

فإن قيل: كيف دخَلَت «إن» على «لم» ولا يدخُلُ عاملٌ على عامل؟

فالجوابُ أنَّ «إنْ» ها هنا غيرُ عاملةٍ في اللفظ، فدخَلتْ على «لم» كما تدخُلُ على الماضي؛ لأنَّها لا تعمَلُ في «لم» كما لا تعمَلُ في الماضي؛ فمعنى «إن لم تفعلوا»: إن تركتُم الفِعْلَ[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ نصب بـ «لن» ومن العرب مَن يجزمُ بها. ذكره أبو عُبيدة[٢]، ومنه بيتُ النابغة:

فلن أُعَرِّضْ أبَيْتَ اللَّعْنَ بالصَّفَدِ[٣]

وفي حديث ابنِ عمر حين ذُهِبَ به إلى النَّار في منامه: فقيل لي: لن تُرَعْ[٤]. هذا على تلك اللغةِ.

وفي قوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ إثارةٌ لِهِمَمِهِم، وتحريكٌ لنفوسهم؛ ليكون عجزُهم بعد ذلك أبدَعَ، وهذا من العيوب التي أخبَرَ بها القرآنُ قبل وُقوعِها[٥].

وقال ابن كَيْسان: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾[٦] توقيفاً لهم على أنَّه الحقُّ، وأنَّهم ليسوا

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء لابن الأنباري ١/٥٠٣.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/٢٠٠.

(٣) هذا عجز بيت من معلقته، وصدره: هذا الثناء فإن تسمع به حسناً. و«لن أعرض» رواية ابن عطية ١/١٠٧، ورواية الديوان ص ٣٧: فلم أعرض، ورواية النحاس في شرح القصائد ٢/٧٦٥: فما عرضت. قوله: الصفد: العطاء، قال الأصمعي: ولا يكون الصفد ابتداءً، إنما هو بمنزلة المكافأة. وسيورد المصنف البيت عند تفسير الآية (٤٩) من سورة الحجر، وروايته: فلم.

(٤) أخرجه بهذا اللفظ عبد الرزاق في المصنف (١٦٤٥)، وأخرجه البخاري (١١٢١)، ومسلم (٢٤٧٨) بلفظ: لم ترع، وعند البخاري كذلك (٧٠٣٠) بلفظ: لم تراع. قال الحافظ في الفتح ٣/٧: ووقع في رواية القابسي: لن ترع، بحذف الألف. قال ابن التين: وهي لغة قليلة. أي: الجزم بلن... وينظر تتمة كلامه.

(٥) المحرر الوجيز ١/١٠٧.

(٦) في النسخ: وإن لم تفعلوا: والمثبت من (م).

صادقين فيما زعموا من أنَّه كذبٌ، وأنَّه مفترًى، وأنَّه سحرٌ، وأنَّه شِعْر، وأنَّه أساطيرُ الأوَّلين، وهم يدَّعون العلمَ، ولا يأتون بسورة من مِثْله.

وقوله: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ جوابُ ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾ أي: فاتَّقوا النارَ بتصديقِ النبيِّ ﷺ وطاعةِ الله تعالى. وقد تقدَّم معنى التقوى[١]، فلا معنى لإعادتها. ويقال: إنَّ لغةَ تميم وأسد: «فَتَقُوا النار»، وحكى سيبويه[٢]: تَقَى يَتْقي، مثل: قَضَى يقضي. «النارَ» مفعولةٌ.

«التي» من نعتها[٣]، وفيها ثلاثُ لغات: «التي» و«اللَّتِ» بكسر التاء، و«اللَّتْ» بإسكانها، وهي اسم مُبْهَم للمؤنَّث، وهي معرفةٌ، ولا يجوز نَزْع الألفِ واللامِ منها للتَّنْكير، ولا تتمُّ إلا بصِلَةٍ. وفي تثنيتها ثلاثُ لغات أيضاً: «اللَّتانِ» و«اللَّتا» بحذف النون، و«اللَّتانِّ» بتشديد النون. وفي جمعها خمسُ لغات: «اللَّاتي»، وهي لغةُ القرآن، و«اللَّاتِ» بكسر التاء بلا ياء، و«اللَّواتي»، و«اللَّواتِ» بلا ياء.

وأنشد أبو عُبَيدة[٤]:

مِنَ اللَّواتي والتي واللَّاتي زَعَمْنَ أنْ قَدْ كَبِرَتْ لِدَاتي[٥]

و«اللَّوا» بإسقاط التاء. هذا ما حكاه الجوهريُّ[٦] وزاد ابنُ الشَّجَريِّ[٧]: «اللَّائي» بالهمز وإثبات الياء، و«اللَّاءِ» بكسر الهمزة وحذف الياء، و«اللَّا» بحذف الهمزة، فإن جمعتَ الجمعَ قلتَ في «اللَّاتي»: «اللَّواتي»، وفي «اللَّاء»: «اللَّوائي». قال الجوهريُّ: وتصغير «التي» «اللَّتيَّا» بالفتح والتشديد. قال الراجز[٨]:

---

(١) ص ٢٤٨.

(٢) الكتاب ٤/ ١١٢.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٢٠٠ - ٢٠١.

(٤) في (ز) و(ظ): أبو عبيد.

(٥) البيت في مجاز القرآن ١/ ١١٩، الشعر والشعراء ١/ ٨٨، وأمالي ابن الشجري ١/ ٣٤ من غير نسبة.

(٦) الصحاح: (لتي).

(٧) في أماليه ٣/ ٦٠.

(٨) هو العجاج، والشطر الأول من شواهد سيبويه ٢/ ٣٤٧ و٣/ ٤٨٨، والبيت في المقتضب ٢/ ٢٨٩، وأمالي ابن الشجري ١/ ٣٤.

بعد اللَّتَيَّا واللَّتَيَّا والتي إذا عَلَتْها أنفُسٌ تَرَدَّتِ

وبعضُ الشعراء أدخَلَ على «التي» حرفَ النِّداء، وحروفُ النِّداء لا تدخُلُ على ما فيه الألفُ واللامُ إلَّا في قولنا: يا الله، وحدَه، فكأنَّه شبَّهها به من حيثُ كانت الألفُ واللامُ غيرَ مفارِقَتين لها، وقال:

مِنَ أجْلِك يا التي تَيَّمْتِ قلبي وأنتِ بخيلةٌ بالوُدِّ عنِّي[1]

ويقال: وقَعَ فلان في اللَّتَيَّا والتي، وهما اسمان من أسماء الدَّاهية.

و«الوَقُود» بالفتح: الحَطَب، وبالضمِّ: التَّوقُّد.

و«الناس» عمومٌ، ومعناه الخصوصُ فيمن سَبَق عليه القضاءُ أنه يكون حطباً لها، أجارَنا الله منها.

و«الحجارة»: هي حجارة الكِبْرِيت الأسودِ؛ عن ابن مسعود والفرَّاء[2]. وخُصَّت بذلك لأنَّها تزيدُ على جميع الأحجار بخمسة أنواعٍ من العذاب: سرعة الاتِّقاد، نَتْنُ الرائحة، كَثْرة الدُّخَان، شدَّة الالتصاق بالأبدان، قوةُ حَرِّها إذا حَمِيَت[3].

وليس في قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ دليلٌ على أن ليس فيها غيرُ الناس والحجارة، بدليل ما ذَكَره في غير موضعٍ من كَوْن الجنِّ والشياطين فيها.

وقيل: المرادُ بالحجارة الأصنامُ؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] أي: حطبُ جهنَّم، وعليه فتكون الحجارةُ والناسُ وَقُوداً للنار، وذَكَر ذلك تعظيماً للنار أنَّها تُحرِقُ الحجارةَ مع إحراقها للناس.

وعلى التأويل الأول يكونون معذَّبين بالنار والحجارة.

---

(١) في الصحاح: بالوصل عني، والبيت من شواهد سيبويه ٢/١٩٧، وهو في المقتضب ٤/٢٤١، واللامات للزجاجي ص ٣٤، والإنصاف ١/٣٣٦ ـ والرواية فيه: فَديتُكِ يا التي ـ وشرح المفصل ٢/٨، ولم ينسبوه لقائله.

(٢) معاني القرآن ١/٢٠، وقول ابن مسعود أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/٤٠، والطبري ١/٤٠٣ و٤٠٤، والحاكم ٢/٢٦١، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

(٣) المحرر الوجيز ١/١٠٧.

وقد جاء الحديثُ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «كلُّ مُؤْذٍ في النار»[١]. وفي تأويله وجهان:

أحدُهما: أنَّ كلَّ مَنْ آذى الناسَ في الدنيا عذَّبه الله في الآخرة بالنار.

الثاني: أنَّ كلَّ ما يُؤْذي الناسَ في الدنيا من السِّباع والهَوامِّ وغيرِها في النار مُعَدٌّ لعقوبةِ أهل النار.

وذهَبَ بعضُ أهلِ التأويل أنَّ[٢] هذه النارَ المخصوصةَ بالحجارة هي نارُ الكافرين خاصَّةً. والله أعلم.

روى مسلم[٣] عن العباس بنِ عبدِ المُطَّلب قال: قلت: يا رسولَ الله، إنَّ أبا طالبٍ كان يَحُوطُك وينصُرُك، فهل نفَعَه ذلك؟ قال: «نعم، وَجَدْتُه في غَمَراتٍ من النار، فأخرجتُه إلى ضَحْضاح». في رواية: «ولولا أنا لكانَ في الدَّركِ الأسفلِ من النار».

«وَقُودُهَا» مبتدأ، «الناسُ» خَبَرُه، «والحجارةُ» عطفٌ عليهم، وقرأ الحَسَن ومجاهدٌ وطَلْحة بنُ مُصَرِّف: «وُقُودها» بضم الواو[٤]، وقرأ عُبَيد بنُ عُمَير: «وَقِيدُها الناسُ»[٥].

قال الكِسائيُّ والأخفش[٦]: الوَقود بفتح الواو: الحَطَب، ، وبالضم: الفعل.

يقال: وَقَدَتِ النارُ تَقِدُ وُقُوداً، بالضم، ووَقْداً، وَقِدَةً، [ووَقَداً]، ووَقَداناً، أي: تَوَقَّدَت، وأوْقَدتُها أنا، واستوقدتُها أيضاً، والاتِّقاد[٧] مثلُ التَّوقُّد، والموضع مَوْقِد،

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٧٤٩، والخطيب في تاريخ بغداد ١١/ ٢٩٩ من حديث علي رضي الله عنه، وفيه عثمان بن الخطاب الأشج المعروف بأبي الدنيا، وهو ضعيف.

(٢) في (م): إلى أن.

(٣) رقم (٢٠٩)، وأخرجه أيضاً أحمد (١٧٦٨)، والبخاري (٣٨٨٣).

(٤) القراءات الشاذة لابن خالويه ص٤، والمحتسب لابن جني ١/ ٦٣.

(٥) في (د): وقرأ أبو عبيد بن عمير، ولم نقف على من ذكر هذه القراءة. وأوردها أبو حيان في البحر ١/ ١٠٧.

(٦) معاني القرآن ١/ ٢١٢، ونقله المصنف بواسطة النحاس في إعراب القرآن ١/ ٢٠٢.

(٧) في النسخ: والإيقاد، والمثبت من (م).

مثلُ مَجْلِس، والنارُ مُوقَدةٌ. والوَقْدَة: شدَّةُ الحرِّ، وهي عشرةُ أيام، أو نصفُ شهر[١].

قال النحاس[٢]: يجب على هذا ألا يُقرأ إلَّا: «وَقُودها» [بفتح الواو] لأنَّ المعنى: حطبُها، إلَّا أنَّ الأخفشَ قال: وحُكِيَ أنَّ بعضَ العرب يجعَلُ الوَقود والوُقود بمعنى الحَطَب والمصدر.

قال النحاس: وذهبَ إلى أنَّ الأوّل أكثرُ. قال: كما أنَّ الوَضُوء الماءُ، والوُضُوء المصدر.

قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ ظاهرُه أنَّ غيرَ الكافرين لا يدخُلُها، وليس كذلك؛ بدليل ما ذَكَرَه في غيرِ موضعٍ من الوعيد للمُذنبين، وبالأحاديث الثابتة في الشفاعة على ما يأتي[٣].

وفيه دليلٌ على ما يقولُه أهلُ الحقِّ من أنَّ النارَ موجودةٌ مخلوقةٌ، خلافاً للمبتدعة في قولهم: إنَّها لم تُخْلَق حتى الآن، وهو القولُ الذي سَقَطَ فيه القاضي منذر بنُ سعيد البَلُّوطيُّ الأندلسيُّ[٤].

روى مسلم عن عبد الله بن مسعود[٥] قال: كنَّا مع رسول الله ﷺ إذ سمعَ وَجْبةً فقال النبيُّ ﷺ: «تَدْرُونَ ما هذا؟» قلنا[٦]: الله ورسولُه أعلم، قال: «هذا حَجَرٌ رُمِيَ به في النَّار منذُ سبعينَ خَرِيفاً، فهو يَهْوِي في النار الآن، حتى انتهى إلى قَعْرِها».

وروى البخاريُّ عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «احْتَجَّتِ النارُ والجنَّةُ،

---

(١) الصحاح (وقد)، وما بين حاصرتين منه.

(٢) إعراب القرآن ١/ ٢٠١، وما بين حاصرتين منه.

(٣) عند تفسير قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

(٤) المحرر الوجيز ١/ ١٠٨، ومنذر بن سعيد البلوطي: فقيهٌ محقّق، وخطيب مفوَّه، قاضي الجماعة بقرطبة، وهو من موضع قريب منها، يقال له فحص البلُّوط، توفي سنة (٣٥٥هـ)، السير ١٦/ ١٧٣.
وقال أبو حيان في البحر المحيط ١/ ١٠٨: وكان قاضي القضاة بالأندلس، وكان معتزلياً في أكثر الأصول، ظاهرياً في الفروع... وسرى إليه ذلك القول من كثير من المعتزلة.

(٥) رقم (٢٨٤٤)، وهو من حديث أبي هريرة لا من حديث ابن مسعود كما قال المصنف.

(٦) في (م): قال قلنا.

فقالت هذه: يدخُلُني الجبَّارون والمتكبِّرون، وقالت هذه: يدخُلُني الضُّعفاءُ والمساكين، فقال الله عزَّ وجلَّ لهذه: أنتِ عذابي أُعَذِّبُ بكِ من أشاء، وقال لهذه: أنتِ رَحْمَتي أرحَمُ بكِ من أشاء، ولكلٍّ واحدةٍ منكما مِلْؤها». وأخرجه مسلم بمعناه[١].

يقال: احتجَّتْ بمعنى تحتجُّ؛ للحديث المتقدِّم حديثِ ابن مسعود[٢]، ولأنَّ النبيَّ ﷺ قد أُرِيَهما في صلاة الكُسُوف[٣]، ورآهما أيضاً في إسرائه[٤]، ودَخَلَ الجنةَ[٥]، فلا معنى لما خالَفَ ذلك. وبالله التوفيق.

و﴿أُعِدَّتْ﴾ يجوز أن يكون حالاً للنَّار على معنى مُعَدَّة، وأُضْمِرَتْ معه «قد»، كما قال: ﴿أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾ [النساء: ٩٠]، فمعناه: قد حَصِرَتْ صدُورُهم، فمع[٦] «حَصِرَتْ» «قد» مضمَرةٌ، لأنَّ الماضيَ لا يكون حالاً إلَّا مع «قد»، فعلى هذا لا يتمُّ الوقفُ على «الحجارة».

ويجوز أن يكون كلاماً منقطعاً عمَّا قبلَه، كما قال: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ [فصلت: ٢٣].

وقال السِّجستانيُّ: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ من صلةِ «التي»، كما قال في آل عمران: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [الآية: ١٣١]. ابنُ الأنباريِّ[٧]: وهذا غَلَط، لأنَّ التي في سورة البقرة قد وُصِلَت بقوله: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ﴾ فلا يجوز أن تُوصَلَ بصلةٍ ثانية، وفي آل عمران ليس لها صِلةٌ غيرَ «أُعِدَّت».

---

(١) صحيح البخاري (٤٨٥٠)، وصحيح مسلم (٢٨٤٦) (٣٤)، غير أن لفظه لمسلم، وهو عند البخاري بمعناه خلافاً لما ذكره المصنف.

(٢) سلف أنه من حديث أبي هريرة.

(٣) سلف ص ٢٨٠.

(٤) أخرجه أحمد (٢٣٢٨٥)، والترمذي (٣١٤٧) من حديث حذيفة بن اليمان.

(٥) أخرجه البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٦) في النسخ: فمعناه حصرت صدورهم، ومع حصرت قد...، والمثبت من (م).

(٧) إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٥٠٤ ـ ٥٠٥، والكلام الذي قبله منه.

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فيه ثلاثُ مسائل:

الأولى: لمَّا ذكر الله عزَّ وجلَّ جزاءَ الكافرين، ذَكَرَ جزاءَ المؤمنين أيضاً.

والتبشيرُ: الإخبارُ بما يَظْهَرُ أثرهُ على البَشَرة ـ وهي ظاهِرُ الجِلْد ـ لِتغيُّرِها بأوَّلِ خَبَر يَرِدُ عليك، ثم الغالبُ أن يُسْتَعْمَل في السُّرور مُقَيداً بالخبر المُبَشَّر به، وغيرَ مقيَّدٍ أيضاً، ولا يُستعمَلُ في الغَمِّ والشَّرِّ إلَّا مُقَيَّداً منصوصاً على الشرِّ المُبَشَّر به، قال الله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1] [آل عمران: ٢١] ويقال: بَشَّرْتُه وبَشَرْتُه ـ مخفَّف ومشدَّد[2] ـ بِشارةً، بكسر الباء، فأبشَرَ واستبشَرَ، وبَشِرَ يَبْشَر: إذا فَرِح، ووَجْهٌ بشيرٌ إذا كان حَسَناً بَيِّنَ البَشارة، بفتح الباء، والبُشْرَى: ما يُعطاه المُبَشِّر، وتَباشِيرُ الشيء: أوَّلُه.

الثانية: أجمعَ العلماءُ على أنَّ المكلَّفَ إذا قال: مَنْ بَشَّرني من عَبِيدي بكذا فهو حُرٌّ، فبَشَّرَهُ واحدٌ من عبيده فأكثرَ، فإنَّ أوَّلَهم يكون حرّاً دون الثاني.

واختلفوا إذا قال: مَنْ أخبرني من عَبِيدي بكذا فهو حُرٌّ، فهل يكون[3] الثاني مثلَ الأول؟ فقال أصحابُ الشافعيِّ: نعم، لأنَّ كلَّ واحدٍ منهم مُخْبِرٌ، وقال علماؤنا: لا، لأنَّ المكلَّفَ إنَّما قصَدَ خبراً يكون بِشارةً، وذلك يختصُّ بالأوَّل، وهذا معلومٌ عُرْفاً، فوجَبَ صَرْفُ القول[4] إليه[5]، وفرَّقَ محمد بنُ الحَسَن بين قوله: أخبرني، أو حَدَّثني، فقال: إذا قال الرجل: أيُّ غلام لي أخبَرَني بكذا، أو أعلَمَني بكذا وكذا، فهو حُرٌّ ـ ولا نِيَّة له ـ فأخبَرَه غلامٌ له بذلك، بكتابٍ أو كلامٍ أو رسول، فإنَّ الغلامَ

(١) المحرر الوجيز ١/١٠٨.

(٢) في (د): مخففاً ومشدداً.

(٣) لفظ: يكون، ليس في النسخ.

(٤) في النسخ: الأول.

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ١/١٥.

يَعْتِقُ؛ لأنَّ هذا خبرٌ، وإن أخبَرَه بعد ذلك غلامٌ له، عَتَق، لأنَّه قال: أيُّ غلامٍ أخبَرَني فهو حُرٌّ، ولو أخبروه كلُّهم عَتَقوا؛ وإن كان عَنَى ـ حين حلَفَ ـ بالخبر كلامَ مشافهةٍ، لم يَعْتِق واحدٌ منهم إلاَّ أن يُخبِرهُ بكلامٍ مشافهةً بذلك الخبر، قال: وإذا قال: أيُّ غلامٍ لي حدَّثني، فهذا على المُشافهة، لا يَعتِقُ واحدٌ منهم[1].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ رَدٌّ على من يقول: إنَّ الإيمانَ بمجرَّدِه يقتضي الطاعات؛ لأنَّه لو كان ذلك ما أعادها[2]، فالجنةُ تُنال بالإيمان والعملِ الصالح، وقيل: الجنةُ تُنال بالإيمان، والدَّرجاتُ تُستَحقُّ بالأعمال الصالحات. والله أعلم.

﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ «أنَّ» في موضعِ نصبٍ بـ «بَشِّرْ»، والمعنى: وبشِّر الذين آمنوا بأنَّ لهم، أو: لأنَّ لهم، فلمَّا سقَطَ الخافضُ عَمِلَ الفعلُ، وقال الكسائيُّ وجماعةٌ من البصريين: «أنَّ» في موضعِ خفضٍ بإضمار الباء.

﴿جَنَّٰتٍ﴾ في موضعِ نصبِ اسمُ «أنَّ»، و«أنَّ» وما عملت فيه في موضعِ المفعول الثاني.

والجنَّاتُ: البساتين، وإنَّما سُمِّيت جنَّات، لأنَّها تُجِنُّ مَنْ فيها، أي: تستُره بشجرها، ومنه: المِجَنُّ والجَنِينُ والجِنّ[3] والجِنَّة.

﴿تَجْرِى﴾ في موضعِ النَّعتِ لـ«جنَّات»، وهو مرفوعٌ، لأنَّه فِعْلٌ مستقبلٌ، فحُذِفت الضَّمةُ من الياء لِثِقَلها معها[4].

﴿مِن تَحْتِهَا﴾ أي: من تحت أشجارِها، ولم يَجْرِ لها ذِكْر، لأنَّ الجنَّاتِ دالَّةٌ عليها.

﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: ماءُ الأنهار، فنُسِبَ الجَرْيُ إلى الأنهار تَوَسُّعاً، وإنَّما يجري الماءُ وحدَه، فُحذف اختصاراً، كما قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] أي: أهْلَها.

---

(١) المحدث الفاصل ص ٥١٩، والكفاية في علم الرواية للخطيب البغدادي ص ٤٣٧.

(٢) المحرر الوجيز ١/١٠٨.

(٣) لفظ: والجن، ليس في (م).

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/٢٠١.

وقال الشاعر:

نُبِّئْتُ أنَّ النارَ بعدَكَ أُوقِدَتْ واسْتَبَّ بعدَكَ يا كُلَيْبُ المجلِسُ[١]

أراد: أهلَ المجلس، فحُذف.

والنَّهر: مأخوذٌ من: أنْهَرْتُ، أي: وسَّعتُ، ومنه قولُ قَيْس بنِ الخَطِيم:

مَلَكْتُ بها كَفِّي فأنْهَرْتُ فَتْقَها يَرى قائمٌ مِنْ دونها ما وراءها[٢]

أي: وسَّعتُها، يصفُ طَعْنة، ومنه قولُ النبيِّ ﷺ: «ما أَنْهَرَ الدَّمَ وذُكِرَ اسمُ الله عليه فكُلُوه»[٣]. يعني[٤]: ما وَسَّعَ الذبحَ حتى جرى[٥] الدَّمُ كالنهر[٦].

وجمع النَّهر: نُهْرٌ وأنهار، ونَهْرٌ نَهِر: كثيرُ الماء، قال أبو ذُؤيب:

أقامَتْ به فابْتَنَتْ خَيْمَةً على قَصَبٍ وفُراتٍ نَهِرْ[٧]

وَرُوِيَ أنَّ أنهار الجنةِ ليست في أخاديدَ، إنَّما تجري على سطح الجنة منضبطةً بالقدرة حيث شاء أهلُها[٨].

والوقفُ على «الأنهار» حَسَن وليس بتامٍّ، لأنَّ قوله: ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ﴾ من وصف الجنَّات[٩].

---

(١) قائله مهلهل بن ربيعة، والبيت في الحماسة ٢/ ٩٢٨ (بشرح المرزوقي)، والمحرر الوجيز ١/ ١٠٨. ومعنى الشطر الثاني: إن أهل المجلس تنازعوا الكلام بعدك، حتى صار بعضهم يسب بعضاً، ولا شيء يردعهم.

(٢) البيت في ديوانه ص ٤٦، والحماسة ١/ ١٨٤ (بشرح المرزوقي) ورواية الديوان: يرى قائماً من خلفها ما وراءها. ورواية الحماسة: يرى قائماً من دونها.

(٣) أخرجه أحمد (١٥٨٠٦)، والبخاري (٢٤٨٨)، ومسلم (١٩٦٨) من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه.

(٤) في (م): معناه.

(٥) في (م): يجري.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ١٠٨.

(٧) البيت في ديوان الهذليين ص ١٤٦، وروايته: وفرات النهر. قوله: القصب، يعني مجاري الماء من العيون. الصحاح (قصب).

(٨) المحرر الوجيز ١/ ١٠٨. وأخرج ابن جرير ١/ ٤٠٦ من طريق أبي عبيدة، عن مسروق، قال: نخل الجنة نضيد من أصلها إلى فرعها، وثمرها أمثال القلال، كلما نزعت ثمرة عادت مكانَها أخرى، وماؤها يجري في غير أخدود. وانظر صفة الجنة لأبي نعيم ٢/ ١٦٧ ـ ١٦٩

(٩) إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٥٠٦.

﴿رِزْقًا﴾ مصدر، وقد تقدَّم القولُ في الرزق[١].

ومعنى ﴿مِن قَبْلُ﴾: يعني: في الدنيا، وفيه وجهان: أحدهما: أنَّهم قالوا: هذا الذي وُعِدْنا به في الدنيا. والثاني: هذا الذي رُزِقْنا في الدنيا، لأنَّ لونَها يُشبِهُ لونَ ثمار الدنيا، فإذا أكلُوا وجدوا طعمَه غيرَ ذلك.

وقيل: «مِن قبلُ» يعني في الجنة، لأنَّهم يُرزَقون ثم يُرزَقون، فإذا أُتُوا بطعام وثمار في أوَّل النهار فأكلُوا منها، ثم أُتُوا منها في آخر النهار، قالوا: هذا الذي رُزِقْنا من قَبْلُ، يعني: أُطْعِمْنَا في أوَّل النهار؛ لأنَّ لونَه يُشبِهُ ذلك، فإذا أكلوا منها وجدوا لها طعماً غيرَ طعمِ الأول[٢].

﴿وَأُتُوا۟﴾ فُعِلُوا، من: أتيتُ، وقراءةُ[٣] الجماعةِ بضمِّ الهمزة والتاء، وقرأ هارون الأعور: «وأَتَوا» بفتح الهمزة والتاء[٤]، فالضميرُ في القراءة الأُولى لأهل الجنة، وفي الثانية للخُدَّام.

﴿بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا۟﴾ حالٌ من الضمير في «به»، أي: يُشبِهُ بعضُه بعضاً في المنظر[٥]، ويختلفُ في الطَّعم. قاله ابنُ عباس ومجاهدٌ والحَسَن وغيرهم. وقال عِكْرمة: يُشبِهُ ثَمَرَ الدنيا، ويُبايِنُه في جُلِّ[٦] الصفات. ابنُ عباس: هذا على وجه التعجُّب، وليس في الدنيا شيءٌ ممَّا في الجنة سوى الأسماء، فكأنَّهم تعجَّبوا لِمَا رأَوه من حُسْن الثمرة وعِظَم خَلْقها. وقال قتادة: خِياراً لا رَذْل فيه، كقوله تعالى: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾ [الزمر:٢٣]، وليس كثمار الدنيا التي لا تتشابه، لأنَّ فيها خِياراً غيرَ خِيار[٧].

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ﴾ ابتداءٌ وخبر. وأزواج: جمع زَوْج، والمرأة: زَوْج الرجل،

(١) ص ٢٧٣.
(٢) تفسير الطبري ١/٤٠٨-٤٠٩، والمحرر الوجيز ١/١٠٩.
(٣) في (م): وقرأه.
(٤) القراءات الشاذة لابن خالويه ص٣، والمحرر الوجيز ١/١٠٩.
(٥) في النسخ: النظر، والمثبت من (م).
(٦) في (د) يشبه ثمار الدنيا في كل الصفات.
(٧) المحرر الوجيز ١/١٠٩، وتخريج هذه الآثار عند الطبري ١/٤١٣-٤١٦.

والرجل زَوْج المرأة. قال الأصمعيُّ: ولا تكادُ العربُ تقول: زوجة، وحكى الفَرَّاء[١] أنَّه يقال: زوجة، وأنشد الفرزدق:

وإنَّ الذي يسعى لِيُفْسِد زَوْجتي كساعٍ إلى أُسْد الشَّرَى يَسْتَبِيلُها[٢]

وقال عمَّار بنُ ياسر في شأن عائشة أُمِّ المؤمنين رضي الله عنها: والله إنّي لأعلَمُ أنَّها زوجتُه في الدنيا والآخرة، ولكنَّ الله ابتلاكم. ذكره البخاريُّ[٣]، واختاره الكسائيُّ.

﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾ نعتٌ للأزوج، ومُطَهَّرةٌ في اللغة أجمعُ من طاهرة وأبلغُ، ومعنى هذه: الطهارةُ من الحَيْض والبُصاق وسائل أقذار الآدميَّات[٤].

ذكر عبد الرزاق[٥] قال: أخبرني الثَّوريُّ، عن ابن أبي نَجيح، عن مجاهد: «مطهَّرة» قال: لا يَبُلْنَ، ولا يَتَغوَّطْنَ، ولا يَلِدْنَ، ولا يَحِضْنَ، ولا يُمْنِينَ، ولا يَبْزُقْنَ[٦]. وقد أتينا على هذا كلِّه في وَصْفِ أهلِ الجنة وصِفةِ الجنة ونعيمها من كتاب «التذكرة»[٧]، والحمد لله.

﴿وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ «هم» مبتدأٌ. «خالدون» خبره، والظرف مُلْغىً، ويجوز في غير القرآن نصبُ خالدين على الحال[٨].

والخلود: البقاء، ومنه جنَّة الخُلْد، وقد تُستعمَلُ مجازاً فيما يطولُ، ومنه قولهم في الدعاء: خَلَّد الله مُلْكَه، أي: طَوَّله. قال زُهير:

ألَا لا أرى على الحوادث باقياً ولا خالداً إلَّا الجبالَ الرَّواسيا[٩]

---

(١) في المذكر والمؤنث ص ٢٦.

(٢) البيت في ديوانه ٢/ ٦٠٥، وفي الأضداد لابن الأنباري ص ٣٧٤، والصحاح: (بول)، والمحرر الوجيز ١/ ١٠٩. ورواية ابن الأنباري: وإن الذي يمشي يحرش زوجتي كماشٍ... وقوله: يستبيلها، أي: يأخذ بولها في يده.

(٣) رقم (٣٧٧٢).

(٤) المحرر الوجيز ١/ ١٠٩.

(٥) في تفسيره ١/ ٤١.

(٦) في (د): ينزفن، وفي (م): يبصقن، والمثبت من (ز) و(ظ)، وهو موافق لتفسير عبد الرزاق.

(٧) ص ٤٣٨ وما بعدها.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٢.

(٩) ديوانه ص ٢٨٨.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ قال ابن عباس في رواية أبي صالح: لمَّا ضرب الله سبحانه هذين المَثَلَيْن للمنافقين، يعني: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧]، وقوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٩]، قالوا: الله أجلُّ وأعلى من أن يَضْرِبَ الأمثال، فأنزلَ الله هذه الآية[١]

وفي رواية عطاءٍ عن ابن عباس، قال: لمَّا ذكر الله آلهةَ المشركين، فقال: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣]، وذكر كيدَ الآلهة، فجعَلَه كبيت العنكبوت، قالوا: أرأيتَ حيث ذَكَرَ الله الذُّبابَ والعنكبوتَ فيما أنزل من القرآن على محمد، أيُّ شيء يصنعُ؟ فأنزل الله الآية.

وقال الحسن وقتادةُ: لمَّا ذكر الله الذُّبابَ والعنكبوتَ في كتابه، وضَرَبَ للمشركين به المَثَل، ضَحِكتِ اليهود، وقالوا: ما يُشبِهُ هذا كلامَ الله، فأنزل الله الآية[٢].

و﴿يَسْتَحْيِۦٓ﴾ أصلُه: يَسْتَحْيِيُ، عينُه ولامُه حرفا علَّة، أُعِلَّت اللامُ منه بأن استُثقلت الضَّمةُ على الياء فسكنت، واسم الفاعل على هذا: مُسْتَحْيٍ، والجمع: مُسْتَحْيُون ومُسْتَحْيِين. وقرأ ابن مُحَيْصن: «يَسْتَحِي» بكسر الحاء وياء واحدة ساكنة[٣]، ورُوِيَ عن ابن كثير، وهي لغة تميم، وبكرِ بنِ وائلٍ، نُقِلتْ فيها حركةُ الياء الأُولى إلى الحاء، فسكنت، ثم استُثْقِلَت الضمةُ على الثانية فسكنت، فحُذفت إحداهما للالتقاء، واسمُ الفاعل مُسْتَحٍ، والجمع: مُسْتَحُون ومُسْتَحِين. قاله الجوهريُّ[٤].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٤٢٣.

(٢) الأخبار الثلاثة في أسباب النزول للواحدي عند هذه الآية. وأخرج قول قتادة أيضاً الطبري في تفسيره ١/ ٤٢٤.

(٣) القراءات الشاذة لابن خالويه ص٤.

(٤) صحاح الجوهري (حيا)، ونقله عنه المصنف بواسطة ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ١١٠.

واختلف المتأولون في معنى «يستحيي» في هذه الآية، فقيل: لا يخشى، ورَجَّحه الطبريُّ[١]، وفي التنزيل: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، بمعنى تستحي. وقال غيره: لا يَتركُ، وقيل: لا يمتنع.

وأصلُ الاستحياء: الانقباضُ عن الشيءُ، والامتناعُ منه، خوفاً من مواقعة القبيح، وهذا محالٌ على الله تعالى.

وفي «صحيح» مسلم[٢]: عن أمِّ سَلَمة رضي الله عنها قالت: جاءت أمُّ سُلَيم[٣] إلى النبي ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إنَّ الله لاَ يَسْتَحيِي من الحقِّ. المعنى: لا يأمُرُ بالحياء فيه، ولا يمتنعُ من ذِكْره.

قوله تعالى: ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ «يضرب» معناه: يُبيِّن، و«أنْ» مع الفعل في موضع نصبٍ بتقدير حذف «من». «مثلاً» منصوبٌ بـ: «يضرب».

«بَعُوضةً»: في نصبها أربعةُ أوجه:

الأوّل: تكون «ما» زائدةً، و«بعوضةً» بدلاً من «مَثَلاً».

الثاني: تكون «ما» نكرةً في موضع نصبٍ على البدل من قوله: «مَثَلاً»، و«بعوضةً» نعتٌ لـ «ما»، فوُصِفَت «ما» بالجنس المنكَّر لإبهامها، لأنَّها بمعنى قليل. قاله الفرَّاء والزَّجَّاج وثعلب[٤].

الثالث: نُصِبت على تقدير إسقاط الجارِّ، المعنى: أن يضرِبَ مثلاً ما بين بعوضةٍ، فحُذِفت «بين» وأُعربت «بعوضة» بإعرابها. والفاء بمعنى «إلى»، أي: إلى ما

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٤٢٧. وليس فيما قاله الطبري ما يدل على أنه رجح هذا المعنى، ويظهر أن القرطبي قد تابع ابن عطية في هذا.

(٢) رقم (٣١٣)، وأخرجه البخاري (٣٣٢٨).

(٣) الغميصاء بنت ملحان الأنصارية الخزرجية، أم أنس بن مالك، مات زوجها مالك بن النضر مشركاً، ثم تزوجها أبو طلحة، وشهدت حنيناً وأحداً، وماتت في خلافة عثمان. السير ٢/ ٣٠٤.

(٤) حكاه عنهم المهدوي، فيما ذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ١١١. وينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٢١، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ١٠٤.

فوقَها. وهذا قولُ الكِسائيّ والفَرَّاء[١] أيضاً، وأنشدَ أبو العباس[٢]:

يا أحسنَ الناسِ ما قَرْناً إلى قَدَمٍ ولا حِبالَ مُحِبٍّ وَاصلٍ تَصِلُ

أراد: ما بين قَرْنٍ، فلمَّا أسقط «بين» نَصَبَ.

الرابع: أن يكون «يضرب» بمعنى يجعَلُ، فتكون «بعوضةً» المفعولَ الثاني.

وقرأ الضحَّاك وإبراهيم بنُ أبي عَبْلة ورُؤْبة بنُ العَجَّاج: «بعوضةٌ» بالرفع[٣]، وهي لغةُ تميم.

قال أبو الفتح[٤]: ووجهُ ذلك أنَّ «ما» اسمٌ بمنزلة «الذي»، و«بعوضةٌ» رفع على إضمار المبتدأ، التقدير: لا يستحيي أن يضربَ الذي هو بعوضةٌ مثلاً، فحذف العائد على الموصول، وهو مبتدأ. ومثلُه قراءةُ بعضهم: «تماماً على الذي أَحسنُ»[٥] أي: على الذي هو أحسنُ.

وحكى سيبويه[٦]: ما أنا بالذي قائلٌ لك شيئاً، أي: هو قائلٌ.

قال النحاس[٧]: والحذف في «ما» أقبحُ منه في «الذي»، لأن «الذي» إنَّما له وَجْهٌ واحدٌ، والاسمُ معه أطولُ.

ويقال: إنَّ معنى ضربتُ له مَثَلاً: مَثَّلتُ له مَثَلاً، وهذه الأبنيةُ على ضَرْبٍ واحد، وعلى مثال واحد، ونوع واحد، والضَّرْبُ: النَّوْع.

---

(١) معاني القرآن ١/ ٢٢، وقد نقل المصنف الأوجه الثلاثة عن النحاس في إعراب القرآن ١/ ٢٠٣.

(٢) كذا قال المصنف رحمه الله. وقال ابن عطية في المحرر الوجيز: وأنكر أبو العباس هذا الوجه (يعني نصب بعوضة على تقدير إسقاط الجار).
والبيت في الأضداد ص ٢٥١، وإيضاح الوقف والابتداء ١/ ٣٥٤، وفيه: وأنشد الفراء. ونقله أبو حيان في البحر ١/ ١٢٢ عن الفراء، عن أعرابي من بني سليم.

(٣) ذكرها ابن عطية ١/ ١١١، واقتصر ابن خالويه ص٤، وابن جني ١/ ٦٤ على نسبتها لرؤبة.

(٤) المحتسب ١/ ٦٤.

(٥) يعني بالضم، وهي قراءة ابن يعمر فيما ذكر ابن جني في المحتسب ١/ ٢٣٤. وقراءة العشرة: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ [الأنعام: ١٥٤] بالفتح، وانظر القراءات الشاذة لابن خالويه ص ٤١.

(٦) الكتاب ٢/ ١٠٨، وقد حكاه عن الخليل.

(٧) إعراب القرآن ١/ ٢٠٣ و٢٠٤.

والبَعُوضة: فَعُولَة، من: بَعَضَ: إذا قَطَعَ اللحمَ، يقال: بَضَعَ وبَعَضَ، بمعنًى، وقد بَعَّضتُه تبعيضاً، أي: جَزَّأتُه فتبعَّضَ، والبَعُوض: البَقُّ، الواحدة بعوضةٌ، سُمِّيت بذلك لصِغَرها. قاله الجوهريُّ وغيره[١].

قوله تعالى: ﴿فَمَا فَوْقَهَا﴾ قد تقدَّم أنَّ الفاء بمعنى «إلى»، ومَنْ جعلَ «ما» الأُولى صلةً زائدةً فـ «ما» الثانية عطفٌ على «بعوضة»، ومن جعلها اسماً، فـ «ما» الثانية[٢] عطفٌ عليها، وقال الكسائي وأبو عُبَيدة[٣] وغيرهما: معنى «فما فوقَها» ـ والله أعلم ـ: ما دونَها، أي: إنّها فوقَها في الصِّغر، قال الكسائي: وهذا كقولك في الكلام: أتراه قصيراً؟ فيقول القائل: أو فوق ذلك، أي: هو أقصرُ ممَّا ترى، وقال قتادة وابن جُريج[٤]: المعنى: في الكِبَر.

والضمير في «أنَّه» عائدٌ على المَثَل، أي: إن المثل حقٌّ.

والحقُّ خلافُ الباطل، والحقُّ: واحدُ الحقُوق، والحَقَّة ـ بفتح الحاء ـ أخَصُّ منه، يقال: هذه حَقَّتي، أي: حَقِّي[٥].

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لغةُ بني تميم وبني عامرٍ في «أمَّا»: أَيْمَا، يُبْدِلُون من إحدى الميمينِ ياءً كراهيةَ التضعيف، وعلى هذا يُنْشَدُ بيتُ عمرَ بنِ أبي ربيعة:

رَأتْ رجلاً أيْمَا إذا الشمسُ عارَضَتْ فيَضْحَى وأيْما بالعَشِيِّ فيَخْصَرُ[٦]

---

(١) الصحاح: (بعض)، وانظر المحرر الوجيز ١/ ١١١.

(٢) من قوله: عطف على بعوضة، سقط من (د) و(م)، وينظر المحرر الوجيز ١/ ١١١.

(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٥.

(٤) ذكره ابن عطية ١/ ١١١، وأخرج الطبري ١/ ٤٢٦ من طريق معمر، عن قتادة، قال: البعوضة أضعف ما خلق الله. وعزا نحوه لابن جريج.

(٥) الصحاح: (حقق).

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٤، والبيت في ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ٦٤، وروايته فيه: «أما» بدل: «أيما» في الموضعين. قال البغدادي في خزانة الأدب ١١/ ٣٦٧: أورده أبو العباس المبرد في الكامل في ثلاثة مواضع، فرواه في أول الثلث الثالث بالإبدال في الأول فقط [٣/ ١١٥٣ ووقع في مطبوعه «أما» في الموضعين] ورواه في الثلث الأول [١/ ٣٨٤] على الأصل في الموضعين بلا إبدال، ورواه في أوائله [١/ ٩٨] بالإبدال في الموضعين. =

قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ اختلفَ النَّحْويُّون في «ماذا»، فقيل: هي بمنزلة اسمٍ واحد بمعنى: أيُّ شيءٍ أرادَ الله؟ فيكون في موضع نصبٍ بـ «أراد».

قال ابن كَيْسان: وهو الجيِّد. وقيل: «ما» اسمٌ تامٌّ في موضع رفعٍ بالابتداء، و«ذا» بمعنى الذي، وهو خبرُ الابتداء، ويكون التقدير: ما الذي أراده الله بهذا مثلاً. ومعنى كلامهم هذا الإنكارُ بلفظ الاستفهام. و«مثلاً» منصوبٌ على القطع، التقدير: أراد مثلاً. قاله ثعلب، وقال ابنُ كَيْسان: هو منصوب على التمييز الذي وقعَ موقعَ الحال[١].

قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ قيل: هو من قول[٢] الكافرين، أي: ما مرادُ الله بهذا المَثَل الذي يُفرِّق به الناسَ إلى ضلالة وإلى هُدى؟ وقيل: بل هو خبرٌ من الله عزَّ وجلَّ، وهو أشبَهُ؛ لأنَّهم يُقِرُّون بالهُدى أنَّه من عنده، فالمعنى: قل: يُضِلُّ اللهُ به كثيراً، ويهدي به كثيراً، أي: يوفِّق ويَخْذِل، وعليه فيكون فيه رَدٌّ على مَنْ تقدَّم ذِكْرُهم من المعتزلة وغيرهم[٣] في قولهم: إنَّ الله لا يخلُقُ الضَّلال ولا الهُدى؛ قالوا: ومعنى ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾: التسميةُ هنا، أي: يُسَمِّيه ضالًّا[٤]، كما يقال: فَسَّقْتُ فلاناً، يعني: سَمَّيْتُه فاسقاً، لأنَّ الله تعالى لا يُضِلُّ أحداً. هذا طريقُهم في الإضلال، وهو خلافُ أقاويلِ المفسِّرين، وهو غيرُ محتَمَلٍ في اللغة؛ لأنَّه يقال: ضَلَّلَه إذا سمَّاه ضالًّا، ولا يقال: أضَلَّه إذا سمَّاه ضالًّا، ولكنَّ معناه ما ذكرهَ المفسرون أهلُ التأويل من الحقِّ[٥]: أنَّه يَخْذُلُ به كثيراً من الناس مجازاةً لكفرهم.

= وقال أيضاً في شرحه للبيت: ومعارضة الشمس: ارتفاعها حتى تصير في حيال الرأس، قال صاحب الصحاح: وضَحِيتُ بالكسر ضَحىً: عرقت اهـ. وقوله: فيخصر (كما في المعجم الوسيط) أي: يؤلمه البرد في أطرافه.

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٤.

(٢) في (د): كلام.

(٣) ص ٢٨٥.

(٤) في (ز) و(ظ): التسمية أي: سميته ضلالاً.

(٥) قوله: من الحق، ليس في «ظ»، ولا في تفسير أبي الليث والكلام منه ١/ ١٠٥.

ولا خلافَ أنَّ قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أنَّه من قول الله تعالى.

و«الفاسقين» نُصب بوقوع الفعل عليهم، والتقدير: وما يُضلُّ به أحداً إلَّا الفاسقين الذين سَبَقَ في علمه أنَّه لا يهديهم.

ولا يجوز أن تَنصِبَهم على الاستثناء؛ لأنَّ الاستثناءَ لا يكون إلَّا بعد تمام الكلام[١].

وقال نَوْف البِكاليُّ: قال عُزَيْرٌ فيما يُناجي ربَّه عزَّ وجلَّ: إلهي، تخلُق خلقاً، فتُضِلُّ من تشاءُ وتهدي من تشاء. قال: فقيل: يا عُزَيْر، أعْرِضْ عن هذا، لَتُعْرِضَنَّ عن هذا أو لأَمْحُونَّك[٢] من النبوة، إني لا أُسْأَلُ عمَّا أفعلُ وهم يُسألون[٣].

والضَّلال أصلُه: الهلاك، يقال منه: ضَلَّ الماءُ في اللبن: إذا استُهلك، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠] وقد تقدَّم في الفاتحة[٤].

والفِسْق أصلُه في كلام العرب: الخروجُ عن الشيء، يقال: فَسَقَتِ الرُّطَبَة: إذا خرجت عن قِشرها، والفأرةُ من جُحْرِها.

والفُوَيْسقَة: الفأرة، وفي الحديث: «خمسٌ فواسِقُ يُقْتَلْنَ في الحِلِّ والحَرَم: الحيَّةُ، والغُرابُ الأبْقَعُ، والفأرةُ، والكلبُ العَقُور، والحُدَيَّا». روته عائشة عن النبيِّ ﷺ، أخرجه مسلم. وفي رواية: «العقرب» مكان «الحية»[٥]. فأطلَقَ ﷺ عليها اسمَ الفِسْق لأذِيَّتها، على ما يأتي بيانه في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى[٦].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٥.

(٢) في (د): أعرض عن هذا وإلا محوتُك.

(٣) هذا الخبر من الإسرائيليات. وأخرجه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (١٣٤٣)، وأبو نعيم في الحلية ٦/ ٥٠. ونوف البكالي ـ راوي الخبر ـ هو ابن امرأة كعب الأحبار، ولم يذكره أحدٌ بجرح ولا تعديل، وذكره ابن حبان في «الثقات» ٥/ ٤٨٣ وقال: يروي القصص، وقال الحافظ ابن حجر في التقريب: مستور.

(٤) ص ٢٣١ ـ ٢٣٢.

(٥) صحيح مسلم (١١٩٨) (٦٧)، وأخرجه البخاري أيضاً (٣٣١٤). ورواية: «العقرب» عند مسلم (١١٩٨) (٦٨)، وعند البخاري كذلك (١٨٢٩).

(٦) ص ٤٧٣ ـ ٤٧٤، وكذلك عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ٩٥].

وفَسَقَ الرجلُ يَفْسُقُ ـ ويَفْسِقُ أيضاً عن الأخفش ـ فَسْقاً وفُسوقاً، أي: فَجَر. فأمَّا قوله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠] فمعناه: خرج. وزعم ابنُ الأعرابيِّ أنَّه لم يُسْمَعْ قطُّ في كلام الجاهلية ولا في شعرهم: فاسق. قال: وهذا عجبٌ، وهو كلام عربيٌّ. حكاه عنه ابن فارس والجوهريُّ[١].

قلت: قد ذكر أبو بكر بنُ الأنباريِّ في كتاب «الزاهر» له لمَّا تكلَّم على معنى الفِسْق قولَ الشاعر[٢]:

يهوين[٣] في نَجْدٍ وغَوْراً غائِرا فَواسِقاً عن قَصْدِهم[٤] جَوائِرا

والفِسِّيق: الدائمُ الفِسْقِ، ويقال في النداء: يا فُسَقُ، ويا خُبَثُ، يريد: يا أيُّها الفاسقُ، ويا أيُّها الخبيثُ.

والفِسْقُ في عُرْفِ الاستعمالِ الشرعيِّ: الخروجُ من طاعة اللهِ عزَّ وجلَّ، فقد يَقعُ على مَنْ خَرَجَ بكُفْرٍ، وعلى مَنْ خَرَجَ بعصيان[٥].

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾

فيه سبعُ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ «الذين» في موضع نصبٍ على النَّعت للفاسقين، وإن شئتَ جعلتَه في موضع رفعٍ على أنَّه خبرُ ابتداءٍ محذوفٍ، أي: هم الذين. وقد تقدَّم[٦].

الثانية: قولُه تعالى: ﴿يَنقُضُونَ﴾ النَّقْض: إفسادُ ما أبرمتَه من بناءٍ أو حَبْلٍ أو عَهْد.

---

(١) مجمل اللغة ٣/ ٧٢٠، والصحاح: (فسق).

(٢) الزاهر ١/ ١٢٠. ونسب البيت المذكور إلى رؤبة، ونسبه سيبويه في الكتاب ١/ ٩٤ إلى العجّاج.

(٣) في (د) و(ز) و(ظ): تهوين، وفي (م): يذهَبْن، والمثبت من الزاهر.

(٤) في (م): قصدها، وفي الزاهر: قصده.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ١١٢.

(٦) ص ٢٥١.

والنُّقاضة: ما نُقِضَ من حَبلِ الشَّعر، والمُناقضةُ في القول: أن يتكلَّم بما يناقض[١] معناه. والنَّقِيضةُ في الشِّعر: ما يُنْقَض به، والنَّقْض: المنقوض[٢].

واختلف الناسُ في تعيين هذا العهد:

فقيل: هو الذي أخذَه الله على بني آدمَ حين استخرجَهم من ظهره.

وقيل: هو وصيةُ الله تعالى إلى خلقِه، وأمْرُه إيَّاهم بما أمرَهم به من طاعته، ونَهْيُه إيَّاهم عمَّا نهاهم عنه من معصيته في كتبه على ألسنةِ رسُلِه، ونَقْضُهم ذلك: تركُ العملِ به.

وقيل: بل نَصْبُ الأدلةِ على وحدانيَّته بالسماوات والأرض وسائِر الصَّنْعة هو بمنزلة العَهْد، ونَقْضُهم: تركُ النظرِ في ذلك.

وقيل: هو ما عَهِدَهُ إلى مَنْ أُوتِيَ الكتابَ أنْ يُبيِّنوا نبوَّةَ محمد ﷺ ولا يكتموا أمرَه، فالآيةُ على هذا في أهل الكتاب[٣].

قال أبو إسحاق الزَّجَّاج[٤]: عَهْدُه جَلَّ وعَزَّ: ما أخَذَه على النَّبيين ومن اتَّبعهم أَلَّا يكفُروا بالنبي[٥] ﷺ، ودليلُ ذلك: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ [آل عمران: ٨١] أي: عهدي.

قلت[٦]: وظاهر ما قبل وما بعد يدلُّ على أنَّها في الكفار. فهذه خمسةُ أقوال، والقول الثاني يجمعها.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ الميثاق: العهدُ المؤكَّد باليمين، مِفْعال، من الوَثاقة والمعاهدة[٧]: وهي الشِّدَّة في العَقْد والرَّبْط ونحوه، والجمعُ: المواثيق،

---

(١) في (م): أن تتكلم بما تناقض.

(٢) الصحاح: (نقض).

(٣) المحرر الوجيز ١/ ١١٣، والنكت والعيون ١/ ٨٩.

(٤) معاني القرآن ١/ ١٠٥.

(٥) في معاني القرآن: بأمر النبيِّ.

(٦) في (ز): قال الشيخ المؤلف رحمه الله.

(٧) في (ظ): «المعاقدة».

على الأصل ـ لأنَّ أصلَ مِيثاق: مِوْثاق، صارت الواو ياءً لانكسار ما قبلها ـ والمياثِقُ والمياثيقُ أيضاً. وأنشد ابنُ الأعرابيِّ:

حِمَّى لا يُحَلُّ الدَّهْرَ إلَّا بإذْننا ولا نَسْألُ الأقوامَ عَهْدَ المَياثِقِ[1]

والمَوْثِق: المِيثاق، والمُواثقة: المعاهدة، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾[2] [المائدة: ٧].

الرابعة: قولُه تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ﴾ القَطْعُ معروفٌ، والمصدر ـ في الرَّحِم ـ القطيعة، يقال: قطعَ رَحِمَهُ قطيعةً، فهو رجل قُطَعٌ وقُطَعَة، مثال هُمَزَة. وقطعتُ الحَبْلَ قَطْعاً، وقطعتُ النهر قُطُوعاً، وقَطَعَتِ الطيرُ قُطوعاً وقَطاعاً وقِطاعاً: إذا خرجت من بلدٍ إلى بلد، وأصابَ الناسَ قُطْعَةٌ: إذا قَلَّت مياهُهم، ورجل به قُطْعٌ، أي: انْبِهار[3].

الخامسة: قولُه تعالى: ﴿مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ «ما» في موضع نصبٍ بـ «يقطعون». و«أنْ» إن شئتَ كانت بدلاً من «ما»، وإن شئتَ من الهاء في «به»، وهو أَحسنُ، ويجوز أن يكون: لئلَّا يُوْصَلَ، أي: كراهَةَ أن يُوْصل.

واختُلِف: ما الشيءُ الذي أَمَرَ بوصلِه؟.

فقيل: صِلةُ الأرحام.

وقيل: أَمَرَ أنْ يُوصَلَ القولُ بالعمل، فقطعوا بينهما بأن قالوا ولم يعمَلوا.

وقيل: أَمَرَ أن يُوصَلَ التَّصديقُ بجميع أنبيائه، فقطعوه بتصديق بعضِهم وتكذيب بعضهم.

وقيل: الإشارةُ إلى دين الله وعبادته في الأرض، وإقامةِ شرائعهِ، وحفظِ

---

(١) البيت في اللسان: (وثق)، وقد نسبه لعياض بن درة الطائي، وكذا جاء منسوباً له في بعض نسخ الصحاح (وثق)، كما ذكر في حواشيه، وهو في إصلاح المنطق ص ١٥٥، وتهذيب اللغة ٩/ ٢٦٦، والخصائص ٣/ ١٥٧ من غير نسبة. وفيها: عقد المياثق.

(٢) الصحاح: (وثق).

(٣) الانبهار، من البُهْر: وهو تتابع النفس. الصحاح: (بهر)، إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٥، والصحاح: (قطع).

حدوده[١] فهي عامَّةٌ في كلِّ ما أمَرَ الله تعالى به أن يُوصل. هذا قولُ الجمهور، والرَّحِمُ جزءٌ من هذا[٢].

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: يعبدون غيرَ الله تعالى، ويَجُورون في الأفعال، إذ هي بِحَسَبِ شَهَواتِهم، وهذا غايةُ الفساد.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ ابتداءٌ وخبر، و«هم» زائدة، ويجوز أن تكون «هم» ابتداء ثانٍ «الخاسرون» خبرُه، والثاني وخبرُه خبرُ الأول، كما تقدَّم[٣].

والخاسر: الذي نقَصَ نفسَه حَظَّها من الفلاح والفَوْز، والخُسْران: النُّقصان، كان في ميزان أو غيرِهِ. قال جرير:

إنَّ سَلِيطاً في الخَسار إنَّهْ أولادُ قَومٍ خُلِقُوا أقِنَّهْ[٤]

يعني بالخَسار: ما ينقُصُ من حظوظهم وشرفهم.

قال الجوهريُّ[٥]: وخَسَرتُ الشيءَ ـ بالفتح ـ وأخسرتُه: نَقَصْتُه، والخَسَار والخَسارة والخَيْسرى: الضَّلال والهلاك. فقيل للهالك: خاسر؛ لأنَّه خَسِرَ نَفسَه وأهلَه يومَ القيامة، ومُنِعَ منزلَه من الجنة.

السابعة: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ الوفاءَ بالعهد والتزامَه، وكلَّ عهدٍ جائزٍ ألزَمَه المرءُ نفسَه، فلا يحلُّ له نقضُه، سواءٌ أكان بين[٦] مسلمٍ أم غيرِه، لذمِّ الله تعالى مَنْ نقَضَ عهدَه. وقد قال: ﴿أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]. وقال[٧] لنبيه عليه السلام: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]، فنهاه عن الغَدْر، وذلك لا يكون إلَّا بنقض العهد، على ما يأتي بيانُه في موضعه إن شاء الله تعالى.

---

(١) في (د): عهوده.

(٢) المحرر الوجيز ١/١١٣.

(٣) ص ٢٧٧.

(٤) ديوانه ١/ ١٠٧١. وأقنة، جمع قِنّ، وهو (كما في مختار الصحاح) العبد إذا مُلك هو وأبواه.

(٥) الصحاح: (خسر).

(٦) في (د) و(ظ): من.

(٧) في (م): وقد قال.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾

«كيف» سؤالٌ عن الحال، وهي اسمٌ في موضع نصبٍ بـ «تكفرون»، وهي مبنيةٌ على الفتح، وكان سبيلُها أن تكون ساكنةً، لأنَّ فيها معنَى الاستفهامِ الذي معناه التعجُّبُ، فأَشْبهت الحروف، واختير لها الفتحُ لخِفَّته[1]، أي: هؤلاء ممَّن يجبُ أن يُتَعجَّب منهم حين كفروا وقد ثبَتَتْ عليهم الحُجَّة.

فإن قيل: كيف يجوز أن يكون هذا الخطابُ لأهل الكتاب وهم لم يكفروا بالله؟

فالجواب: ما سبَقَ من أنَّهم لمَّا لم يُثبِتُوا أمرَ محمد ﷺ ولم يُصدِّقوه فيما جاء به، فقد أشركوا؛ لأنَّهم لم يُقِرُّوا بأنَّ القرآنَ من عند الله، ومَنْ زعمَ أنَّ القرآنَ كلامُ البشر فقد أشركَ بالله، وصارَ ناقضاً للعهد.

وقيل: «كيف» لفظُه لفظُ الاستفهام، وليس به، بل هو تقريرٌ وتوبيخٌ، أي: كيف تكفرون بالله ونعمُه عليكم[2] وقدرتُه هذه؟!

قال الواسطيُّ[3]: وَبَّخَهم بهذا غايةَ التوبيخ؛ لأنَّ المَوَاتَ والجمادَ لا يُنازِعُ صانعَه في شيء، وإنَّما المنازعَةُ من الهياكل الروحانية.

قوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا﴾ هذه الواوُ واوُ الحال، و«قد» مضمرةٌ. قال الزجَّاج[4]: التقدير: وقد كنتم، ثم حُذِفت قد. وقال الفرَّاء[5]: «أمواتاً» خبر «كنتُم».

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٦.

(٢) في (م): «كيف تكفرون نعمه عليكم»، وفي (د): «كيف تكفرون ونعمة الله عليكم». والمثبت من (ظ)، وهو موافق لما في المحرر الوجيز ١/ ١١٣.

(٣) أبو بكر محمد بن موسى، المعروف بابن الفرغاني، من قدماء أصحاب الجنيد وأبي الحسين النوري، وكان عالماً بالأصول والفروع. توفي بمرو سنة ٣٢٠هـ. طبقات الصوفية للسلمي ص ٣٠٢، وحلية الأولياء ١٠/ ٣٤٩، والوافي بالوفيات ٥/ ٨٥.

(٤) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ١/ ١٠٧، وبلفظه في إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٦.

(٥) لم نجد هذا القول في معاني القرآن للفراء، وهو تتمة الكلام السابق في إعراب القرآن للنحاس.

﴿فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ هذا وقفُ التمام، كذا قال أبو حاتم[١]. ثم قال: ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾.

واختلف أهلُ التأويل في ترتيب هاتَيْن المَوْتَتَيْنِ والحياتَيْن، وكم من مَوْتةٍ وحياةٍ للإنسان؟

فقال ابنُ عباس وابنُ مسعود: أي: كنتُم أمواتاً معدُومين قبل أن تُخلَقُوا، فأحياكم ـ أي: خلقَكم ـ ثم يُميتُكم عند انقضاء آجالِكم، ثم يُحييكم يوم القيامة[٢]. قال ابن عطية[٣]: وهذا القولُ هو المرادُ بالآية، وهو الذي لا مَحيدَ للكفار عنه، لإقرارِهم بهما، وإذا أَذْعَنَتْ نفوسُ الكفار لكونهم أمواتاً معدومين، ثم للإحياء في الدنيا، ثم للإماتة فيها، قَوِيَ عليهم لزومُ الإحياء الآخِر، وجاء جَحْدُهم له دَعْوَى لا حُجَّةَ عليها.

قال غيره: والحياةُ التي تكون في القبر على هذا التأويل في حكم حياةِ الدنيا. وقيل: لم يعتدَّ بها كما لم يعتدَّ بموت[٤] مَنْ أماتَه في الدنيا ثم أحياه في الدنيا.

وقيل: كنتُم أمواتاً في ظهر آدم، ثم أخرَجكم مِنْ ظهرِه كالذَّرِّ، ثم يُميتكم موتَ الدنيا، ثم يبعثُكم.

وقيل: كنتُم أمواتاً ـ أي: نُطَفاً ـ في أصلاب الرجال وأرحامِ النساء، ثم نقلكم من الأرحام، فأحياكم، ثم يميتُكم بعد هذه الحياةِ، ثم يُحييكم في القبر للمسألة، ثم

---

(١) هو السجستاني، والذي نقله عنه أبو بكر الأنباري في إيضاح الوقف والابتداء ١/ ٥١٠: أن الوقف التام على قوله: «فأحياكم» لأنهم إنما وبخوا بما يعرفونه ويقرون به، وذلك أنهم كانوا يقرون بأنهم كانوا أمواتاً إذ كانوا نطفاً في أصلاب آبائهم ثم أُحيوا من النطف ولم يكونوا يعترفون بالحياة بعد الموت، فقال الله موبخاً لهم: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ﴾ أي: ويحكم كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم، ثم ابتدأ فقال: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وقد تعقبه الأنباري بقوله: وهذا الذي قال تنقضه الآية عليه؛ لأنه زعم أن الله لا يوبخهم إلا على ما يعترفون به، وقد قال: «كيف تكفرون» فوبخهم بالكفر ولم يكونوا يعترفون بأنهم كفار.

(٢) أخرج قوليهما الطبري في تفسيره ١/ ٤٤٣.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ١١٤.

(٤) في (ظ): بموتة.

يُميتُكم في القبر، ثم يُحييكم حياةَ النَّشْر إلى الحَشْر، وهي الحياةُ التي ليس بعدها موتٌ.

قلتُ: فعلى هذا التأويل هي ثلاث موتاتٍ، وثلاثُ إحياءات. وكونُهم موتى في ظهر آدم، وإخراجُهم من ظهره والشهادةُ عليهم، غيرُ كونِهم نُطَفاً في أصلاب الرجال وأرحامِ النساء، فعلى هذا تجيءُ أربعُ موتاتٍ وأربعُ إحياءات.

وقد قيل: إنَّ الله تعالى أوجَدهم قبل خلق آدم عليه السلام كالهباء[١]، ثم أماتَهم، فيكون على هذا خُمس موتاتٍ، وخمس إحياءات، وموتة سادسة للعصاة من أُمَّة محمد ﷺ إذا دخلوا النار، لحديث أبي سعيد الخُدْريِّ قال: قال رسول الله ﷺ: «أما أهلُ النار الذين هم أهلُها، فإنَّهم لا يموتون فيها ولا يَحْيَوْن، ولكنْ ناسٌ أصابتهم النارُ بذنوبهم ـ أو قال: بخطاياهم ـ فأماتَهم الله إماتةً، حتى إذا كانوا فَحْماً أذِنَ في الشفاعة، فجيء بهم ضَبائرَ ضَبائرَ، فَبُثُّوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة، أفيضوا عليهم، فَيَنْبُتون نباتَ الحِبَّة تكون[٢] في حَمِيل السَّيل». فقال رجلٌ من القوم: كأنَّ رسولَ الله ﷺ قد كان يَرْعَى بالبادية[٣]. أخرجه مسلم[٤].

قلتُ: فقوله: «فأماتَهم الله» حقيقةٌ في الموت، لأنه أكَّده بالمصدر، وذلك تكريماً لهم.

وقيل: يجوز أن يكون «أماتهم»[٥] عبارةً عن تغييبهم عن آلامها بالنوم، ولا يكون ذلك موتاً على الحقيقة، والأول أصحُّ، وقد أجمعَ النَّحْويون على أنَّك إذا أكَّدَت الفعل بالمصدر لم يكن مَجازاً، وإنَّما هو على الحقيقة، ومثله: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] على ما يأتي بيانُه إن شاء الله تعالى.

---

(١) في (ز) و(ظ): كالبهائم.

(٢) في (ز): يكون، وليس في (د) و(ظ).

(٣) في (ز) و(ظ): في البادية.

(٤) رقم (١٨٥): (٣٠٦). وفيه: قد كان بالبادية. وهو في المسند (١١٠٧٧). وقوله: ضبائر، أي: جماعات في تفرقة، والحِبة، بكسر الحاء، بزر البقول والعشب تنبت في البراري وجوانب السيول، وحَمِيل السيل: هو ما جاء به السيل من طين أو غُثاء، ومعناه: محمول السيل، والمراد التشبيه في سرعة الإنبات وحسنه وطراوته. شرح صحيح مسلم للنووي ٣/ ٢٣ و ٢٨.

(٥) في (ظ) إماتتهم.

وقيل: المعنى: وكنتُم أمواتاً بالخُمول، فأحياكم بأن ذُكِرتُم وشُرِّفتُم بهذا الدِّين والنبيِّ الذي جاءكم، ثم يُميتُكم، فيموتُ ذِكْرُكم، ثم يُحييكم للبَعْث.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي: إلى عذابه مرجعُكم، لكفركم، وقيل: إلى الحياة وإلى المسألة[1]، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] فإعادتُهم كابتدائهم، فهو رجوعٌ.

و«تُرْجَعون» قراءةُ الجماعة. ويحيى بنُ يَعْمر وابنُ أبي إسحاق ومجاهدٌ وابنُ مُحَيْصِن وسلام ويعقوب[2] يفتحون حرفَ المضارعة، ويكسرون الجيمَ حيثُ وقعَتْ[3].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فيه عشرُ مسائل:

الأولى: ﴿خَلَقَ﴾ معناه: اخترَعَ، وأوجَدَ بعد العَدَم، وقد يقال في الإنسان: خَلَق، عند إنشائه شيئاً، ومنه قول الشاعر:

مَنْ كان يَخْلُق ما يقو ... لُ فحِيلَتي فيه قليلهْ[4]

وقد تقدَّم هذا المعنى[5].

وقال ابن كَيْسان: «خلَقَ لكم» أي: من أجلكم، وقيل: المعنى: إنَّ جميعَ ما في الأرض مُنْعَمٌ به عليكم، فهو لكم، وقيل: إنَّه دليلٌ على التوحيد والاعتبار.

---

(١) في (د) و(ظ): المساءلة.

(٢) في (د) و(ظ) و(م): سلام بن يعقوب وهو خطأ، والمثبت من (ز). يعقوب ـ وهو ابنُ إسحاق الحضرمي ـ من العشرة. وينظر النشر ٢/ ٢٠٨.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ١١٤.

(٤) نسبه الباقلاني في إعجاز القرآن ص ١٥٤ لبشار، ونُسب في معجم الشعراء ص ٤٩٢ ليحيى بن مروان بن أبي حفصة. ونُسب في معجم الأدباء ١٩/ ١٨٦، ووفيات الأعيان ٥/ ٢٩٠، وطبقات الشافعية الكبرى ٣/ ٤٨٣ لأبي الحسن منصور بن إسماعيل التميمي الفقيه، وهو في الكامل للمبرد ٢/ ٨٨٢، والمحرر الوجيز ١/ ١١٤ من غير نسبة. ورواية الكامل ومعجم الشعراء: من كان يكذب ما يريد.

(٥) ص ٣٤١.

قلتُ: وهذا هو الصَّحيح على ما نُبيِّنُه، ويجوزُ أن يكون عنى به ما هم إليه محتاجون من جميع الأشياء.

الثانية: استدلَّ من قال: إنَّ أصلَ الأشياء التي يُنتَفع بها الإباحةُ بهذه الآية، وما كان مثلُها، كقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ الآية [الجاثية: ١٣]، حتى يقومَ الدليلُ على الحَظْر، وعَضَد هذا بأن قال[١]: إنَّ المآكِلَ الشهيةَ خُلِقَتْ مع إمكان ألَّا تُخْلَق، فلم تُخلَق عبثاً، فلا بدَّ لها من منفعة، وتلك المنفعةُ لا يصحُّ رجوعُها إلى الله تعالى، لاستغنائه بذاته، فهي راجعةٌ إلينا، ومنفعتنا إمَّا في نَيل لَذَّتها[٢]، أو في اجتنابها لنُخْتَبَر بذلك، أو في اعتبارنا بها، ولا يحصُلُ شيءٌ من تلك الأمور إلَّا بذوقها، فلزِمَ أن تكون مباحةً.

وهذا فاسدٌ، لأنَّا لا نُسلِّمُ لُزومَ العَبَث مِنْ خلقها إلَّا لمنفعة، بل خلقها كذلك، لأنَّه لا يجبُ عليه أصلُ المنفعة، بل هو الموجِبُ، ولا نُسلِّم حصرَ المنفعة فيما ذكروه، ولا حصولَ بعض تلك المنافع إلَّا بالذَّوق، بل قد يُستدلُّ على الطُّعوم بأمورٍ أُخَر، كما هو معروف عند الطبائعيين.

ثم هو معارَضٌ بما يُخاف أن يكون سموماً مُهلِكةً، ومعارَضُون بشبهات أصحابِ الحَظْر.

وتوقَّفَ آخرون وقالوا: ما من فعلٍ لا نُدرِكُ[٣] منه حُسناً ولا قُبْحاً إلاَّ ويمكن أن يكون حَسَناً في نفسه، ولا مُعيِّن قبل ورودِ الشرع، فتعيَّنَ الوقفُ إلى ورود الشرع. وهذه الأقاويلُ الثلاثةُ للمعتزلة.

وقد أطلق الشيخُ أبو الحَسَن وأصحابهُ وأكثرُ المالكية والصَّيرفيُّ[٤] في هذه

---

(١) في (م): وعضدوا هذا بأن قالوا.

(٢) في (د) و(ظ): لذاتها.

(٣) في النسخ: يدرك.

(٤) أبو بكر محمد بن عبد الله، الشافعي، البغدادي، اشتهر بالحذق في النظر وفي القياس وعلم الأصول، وهو أحد أصحاب الوجوه في المذهب، قال القفال: إن أبا بكر الصيرفي كان أعلم الناس بالأصول بعد الشافعي. من تصانيفه: شرح الرسالة وكتاب في الشروط. توفي سنة ٣٣٠هـ. الوافي بالوفيات ٣/ ٣٤٦، وطبقات الشافعية الكبرى ٣/ ١٨٦.

المسألة القولَ بالوقف، ومعناه عندهم أن لا حكمَ فيها في تلك الحال، وأنَّ للشرع إذا جاء أن يحكم بما شاء، وأنَّ العقلَ لا يحكم بوجوبٍ ولا غيره[١]، وإنما حَظُّه تَعَرُّف الأمور على ما هي عليه. قال ابنُ عطية[٢]: وحكى ابن فُورَك عن ابن الصائغ أنَّه قال: لم يَخْلُ العقلُ قطُّ من السمع، ولا نازلةَ إلَّا وفيها سَمْع، أو لها تعلُّقٌ به، أو لها حالٌ تُستصحَب. قال: فينبغي أن يُعتمد على هذا، ويغني عن النَّظر في حظرٍ وإباحةٍ ووقفٍ.

الثالثة: الصَّحيحُ في معنى قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: الاعتبارُ، يدلُّ عليه ما قبلَه وما بعدَه من نصبِ العِبَر: الإحياء والإماتة والخَلْق، والاستواء إلى السماء وتسويتها، أي: الذي قَدَر على إحيائكم وخَلْقِكم وخلقِ السموات والأرض لا تَبعُدُ منه القدرةُ على الإعادة.

فإن قيل: إنَّ معنى «لكم»: الانتفاعُ، أي: لتنتفعوا بجميع ذلك. قلنا: المرادُ بالانتفاع الاعتبارُ لما ذكرنا.

فإن قيل: وأيُّ اعتبارٍ في العقارب والحيَّات؟ قلنا: قد يتذكَّر الإنسانُ ببعض ما يرى من المؤذيات ما أعدَّ الله للكفار في النار من العقوبات، فيكون سبباً للإيمان وتركِ المعاصي، وذلك أعظمُ الاعتبار.

قال ابنُ العربيِّ[٣]: وليس في الإخبار بهذه القدرة عن هذه الجملة ما يقتضي حظراً ولا إباحةً ولا وقفاً، وإنَّما جاء ذِكْرُ هذه الآية في مَعْرِض الدلالةِ والتنبيه ليُسْتَدَلَّ بها على وحدانيَّته.

وقال أرباب المعاني في قوله: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾: لتَتَقوَّوْا به على طاعته[٤]، لا لتصرفوه في وجوه معصيته.

---

(١) في (د): بغيره.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ١١٥.

(٣) أحكام القرآن ١/ ١٤.

(٤) في (د): لتبقوا على طاعته، وفي (ز): ليتقوا به.

وقال أبو عثمان: وَهَبَ لك الكلَّ وَسَخَّرَه لك لِتستدِلَّ به على سَعَة جُودِه[١]، وتَسْكُنَ إلى ما ضَمِنَ لك من جَزِيل عطائه في المَعَاد، ولا تستكثِرَ كثيرَ بِرِّه على قليلِ عملك، فقد ابتدأكَ بعظيم النِّعم قبل العمل، وهو التوحيد.

الرابعة: روى زيد بنُ أسلم، عن أبيه، عن عمرَ بنِ الخطَّاب رضي الله عنه، أنَّ رجلاً أتَى رسولَ الله ﷺ، فسألَه أن يُعْطِيَه، فقال رسولُ الله ﷺ: «ما عندي شيءٌ، ولكن ابْتَعْ عَلَيَّ، فإذا جاء شيءٌ قَضَيْنا». فقال له عمر: هذا أعطيتَ إذا كان عندك، فما كَلَّفَكَ الله ما لا تَقْدِرُ، فَكِرَهَ رسولُ الله ﷺ قولَ عمر، فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أنفِقْ ولا تَخَفْ[٢] من ذي العرش إقلالاً، فتبسَّمَ رسولُ الله ﷺ، وعُرِفَ السُّرور في وجهه لقول الأنصاريِّ، ثم قال رسول الله ﷺ: «بذلك أُمِرتُ»[٣].

قال علماؤنا رحمة الله عليهم: فخوفُ الإقلال من سوء الظنِّ بالله، لأنَّ الله تعالى خلقَ الأرضَ بما فيها لولد آدم، وقال في تنزيله: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾، ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]. فهذه الأشياءُ كلُّها مسخَّرة للآدميِّ قَطْعاً لعُذْرِه وحُجَّةً عليه، ليكونَ له عبداً كما خلقَه عبداً، فإذا كان العبدُ حَسَنَ الظنِّ بالله لم يخفِ الإقلال، لأنَّه يُخْلِفُ عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، وقال: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

---

(١) في النسخ: وجوده.

(٢) في (م): ولا تخش.

(٣) أخرجه الترمذي في الشمائل (٣٤٨)، والبزار في مسنده (٢٧٣)، وأبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ ص ٥٣، والضياء المقدسي في المختارة (٨٨).

وقوله: أنفق ولا تخف من ذي العرش إقلالاً، روي من قوله ﷺ لبلال في سياق آخر أخرجه الطبراني في الكبير (١٠٢٠) و(١٠٣٠٠)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ١٤٩، والقضاعي في مسند الشهاب (٧٤٩) من حديث ابن مسعود، وأخرجه أبو يعلى (٦٠٤٠)، والطبراني (١٠٢٤) و(١٠٢٥) من حديث أبي هريرة، وأخرجه البزار في مسنده (١٣٦٦) من حديث بلال، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٤٦٦) من حديث عائشة، وقال المناوي في «فيض القدير» ٣/ ٦١: أطلق الحافظ العراقي أن الحديث ضعيف من جميع طرقه، لكن قال تلميذه الحافظ ابن حجر في «زوائد البزار»: إسناد حديثه حسن.

وقال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: سَبَقَتْ رحمتي غَضَبي، يا ابنَ آدم، أَنفِقْ أُنفِقْ عليك، يمينُ الله ملأى، سَحَّاءُ لا يَغِيضُها شيءٌ الليلَ والنهارَ»[١].

وقال رسول الله ﷺ: «ما من يومٍ يُصْبِحُ العبادُ فيه إلَّا ومَلَكانِ يَنْزِلان، فيقولُ أحدُهما: اللهمَّ أعْطِ مُنْفِقاً خَلَفاً، ويقول الآخر: اللهمَّ أعْطِ مُمْسِكاً تَلَفاً»[٢]. وكذا في المساء عند الغروب ينادِيانِ أيضاً. وهذا كلُّه صحيحٌ رواه الأئمة، والحمد لله.

فمن استنارَ صدرُه، وعَلِمَ غِنَى ربِّه وكرمَه، أنفَقَ ولم يَخَفِ الإقلالَ، وكذلك من ماتَتْ شهواتُه عن الدنيا، واجتزأ باليسير من القوت المقيم لمهجته، وانقطعت مشيئتُه لنفسه، فهذا يُعطي مِنْ يُسْرِه وعُسْرِه، ولا يخافُ إقلالاً، وإنَّما يخافُ الإقلالَ مَنْ له مشيئةٌ في الأشياء، فإذا أعطى اليومَ وله غداً مشيئةٌ في شيء خافَ ألَّا يُصيبَ غداً، فيضيق عليه الأمر في نفقة[٣] اليوم لمخافة إقلاله.

روى مسلم[٤] عن أسماء بنت أبي بكر قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «انْفَحِي ـ أو انْضَحِي أو أَنْفِقي ـ ولا تُحْصي، فيُحصيَ الله عليك، ولا تُوعِي، فيُوعِيَ الله عليكِ».

وروى النسائيُّ[٥] عن عائشة قالت: دخل عليَّ سائلٌ مرَّةً وعندي رسولُ الله ﷺ، فأمرتُ له بشيء، ثم دعوتُ به، فنظرتُ إليه، فقال رسول الله ﷺ: «أما تريدين ألَّا يدخُلَ بيتَكِ شيءٌ ولا يخرجَ إلَّا بعلمك؟» قلتُ: نعم. قال: «مهلاً يا عائشة، لا تُحصي، فيُحصيَ الله عزَّ وجلَّ عليكِ».

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ﴾ «ثم» لترتيب الإخبارِ، لا لترتيب الأمر في نفسه. والاستواء في اللغة: الارتفاعُ والعُلُوُّ على الشيء، قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [المؤمنون: ٢٨]، وقال: ﴿لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ [الزخرف: ١٣]،

---

(١) قوله: «سبقت رحمتي غضبي» أخرجه أحمد (٧٢٩٩)، والبخاري (٧٤٢٢)، ومسلم (٢٧٥١) (١٥)، وقوله: «يا ابن آدم، أنفق...» أخرجه أحمد (٧٢٩٨) والبخاري (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣) (٣٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأورده بتمامه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص ١٥١.

(٢) أخرجه أحمد (٨٠٥٤)، والبخاري (١٤٤٢)، ومسلم (١٠١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في النسخ: نفقته.

(٤) صحيح مسلم (١٠٢٩)، وأخرجه كذلك البخاري (٢٥٩١)، وهو في المسند (٢٦٩٢٢).

(٥) المجتبى ٥/ ٧٣، وهو بنحوه في المسند (٢٤٤١٨).

وقال الشاعر:

فأوْرَدْتُهُم ماءً بفَيفاءَ قَفْرةٍ وقد حَلَّقَ النَّجْمُ اليمانيُّ فاسْتَوَى[١]

أي: ارتفَعَ وعَلا. واستوتِ الشمسُ على رأسي، واستوتِ الطيرُ على قمَّة رأسي، بمعنى علا.

وهذه الآيةُ من المُشْكلات، والناسُ فيها وفيما شاكَلَها على ثلاثة أوجه:

قال بعضُهم: نقرؤها[٢] ونؤمن بها ولا نُفسِّرُها، وذهَبَ إليه كثيرٌ من الأئمة، وهذا كما روي عن مالك رحمه الله أنَّ رجلاً سأله عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، قال مالك: الاستواءُ غيرُ مجهولٍ، والكيفُ غيرُ معقولٍ، والإيمانُ به واجبٌ، والسؤالُ عنه بِدْعةٌ، وأُراك رجلَ سوء! أخرجوه[٣].

وقال بعضهم: نقرؤها ونُفسِّرُها على ما يَحتمِلُه ظاهرُ اللغة. وهذا قولُ المُشَبِّهة.

وقال بعضهم: نقرؤها ونتأوَّلُها، ونُحِيلُ حَمْلَها على ظاهرها[٤].

وقال الفرَّاء[٥] في قوله عز وجلَّ: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ﴾ قال: الاستواءُ في كلام العرب على وجهين: أحدُهما: أن يستويَ الرجلُ وينتهي شبابُه وقوَّتُه، أو يستوي عن[٦] اعوجاجٍ. فهذان وجهان. ووجهٌ ثالثٌ: أن تقول: كان مقبلاً على [فلانٍ، ثم استوى عليَّ] يُشاتِمُني وإليَّ، سواء، على معنى أقبلَ إليَّ وعليَّ، فهذا معنى قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ والله أعلم. قال: وقد قال ابن عباس: ثم استوى إلى السماء: صَعِد[٧]. وهذا كقولك: كان قاعداً فاستوى قائماً، وكان قائماً

(١) تهذيب اللغة ٤/ ٢٦٥، واللسان، وتاج العروس (صبح)، وفيها: وصبَّحهم، بدل: فأوردتُهم.

(٢) في (د): نقرأ بها، وفي (ز): يقرؤها.

(٣) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٨٦٦) و(٨٦٧)، وأخرجه اللالكائي (٦٦٣) من قول أمِّ سَلَمة رضي الله عنها.
وقد فسَّر السلف رضي الله عنهم لفظ الاستواء الوارد في النصوص بأربعة معانٍ؛ هي: العلوّ، والارتفاع، والصعود، والاستقرار. توضيح المقاصد في شرح قصيدة ابن القيم لابن عيسى ٢/ ٤٤٠-٤٤١.

(٤) تفسير أبي الليث ١/ ١٠٦-١٠٧.

(٥) معاني القرآن ١/ ٢٥، وما بين حاصرتين منه.

(٦) في النسخ: من، والمثبت من (م)، وهو موافق لما في معاني القرآن.

(٧) أخرجه البيهقيُّ في الأسماء والصفات (٨٧٢). وفيه: صعد أمره إلى السماء.

فاستوى قاعداً، وكلٌّ ذلك في كلام العرب جائزٌ.

قال البيهقيُّ أبو بكر أحمد بنُ عليِّ بن الحُسَين[١]: قوله: «استوى» بمعنى أقبل صحيحٌ، لأنَّ الإقبالَ هو القصدُ إلى خلق السماء، والقصدُ هو الإرادة، وذلك جائزٌ في صفات الله تعالى، ولفظة «ثم» تتعلَّقُ بالخلق لا بالإرادة، وأمَّا ما حَكَى[٢] عن ابن عباس؛ فإنَّما أخَذَه عن تفسير الكلبيِّ، والكلبيُّ ضعيفٌ.

وقال سفيانُ بن عُيينة وابنُ كَيْسان في قوله: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾: قَصَدَ إليها، أي: بخلقه واختراعه. فهذا قول.

وقيل: علا دون تكييفٍ ولا تحديد، واختاره الطبريُّ[٣].

ويُذكر عن أبي العالية الرِّياحيِّ في هذه الآية أنه يقال: استوى بمعنى أنَّه ارتفَعَ[٤]. قال البيهقيُّ[٥]: ومرادُه من ذلك ـ والله أعلم ـ ارتفاعُ أمره، وهو بخارُ الماء الذي وقَعَ منه خَلْقُ السماء. وقيل: إنَّ المستوي الدخانُ.قال ابن عطية[٦]: وهذا يأباه وصفُ[٧] الكلام. وقيل: المعنى استولى، كما قال الشاعر[٨]:

قد اسْتَوَى بِشْرٌ على العراقِ ... من غيرِ سَيْفٍ ودَمٍ مُهْراقِ

قال ابن عطية: وهذا إنَّما يجيء في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

قلت: قد تَقَدَّم في قول الفَرَّاء: عليَّ وإليَّ بمعنًى، وسيأتي لهذا الباب مزيدُ بيانٍ في سورة «الأعراف»[٩] إن شاء الله تعالى.

---

(١) في الأسماء والصفات ٢/ ٣١٠.

(٢) يعني الفرَّاء، والكلام للبيهقي في الأسماء والصفات.

(٣) تفسيره ١/ ٤٥٧.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١/ ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٥) الأسماء والصفات ٢/ ٣١١.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ١١٥.

(٧) في المحرر الوجيز: رصف، وهو الأشبه.

(٨) هو الأخطل كما في المحرر الوجيز ١/ ١١٥، وتاج العروس: (سوى)، والبيت من غير نسبة في الصحاح: (سوى)، والأسماء والصفات ٢/ ٣٠٩، و البحر المحيط ١/ ١٣٤.

(٩) عند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ الآية: ٥٤.

والقاعدةُ في هذه الآية ونحوها منعُ الحركة والنُّقلة[١].

السادسة: يظهر من هذه الآية أنَّه سبحانه خَلَقَ الأرضَ قبل السماء، وكذلك في «حم السجدة»[٢]. وقال في النازعات: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾﴾، فوصفَ خلقَها، ثم قال: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾﴾. فكأنَّ السماءَ على هذا خُلِقت قبل الأرض، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، وهذا قولُ قتادة: إنَّ السماءَ خُلِقت أولاً. حكاه عنه الطبريُّ[٣]. وقال مجاهد وغيره من المفسرين: إنَّه تعالى أيبَسَ الماءَ الذي كان عرشُه عليه، فجعلَه أرضاً، وثارَ منه دخانٌ، فارتفَعَ، فجعلَه سماءً، فصار خَلْق الأرض قبل خَلْق السماء، ثم قصَدَ أمرُه إلى السماء، فسوَّاهنَّ سبعَ سموات، ثم دحا الأرضَ بعد ذلك، وكانت إذ خَلقَها غيرَ مَدْحُوَّة[٤].

قلتُ: وقولُ قتادة يُخَرَّجُ على وجهٍ صحيحٍ إن شاء الله تعالى: وهو أنَّ الله تعالى خَلَقَ أولاً دخانَ السماء، ثم خَلَق الأرضَ، ثم استوى إلى السماء وهي دخانٌ فسوَّاها، ثم دحا الأرضَ بعد ذلك.

وممَّا يدلُّ على أنَّ الدخانَ خُلِقَ أولاً قبل الأرض ما رواه السُّدِّيُّ، عن أبي مالك، وعن أبي صالحٍ، عن ابن عباس. وعن مُرَّةَ الهَمْدانيِّ، عن ابن مسعود. وعن ناسٍ من أصحاب رسول الله ﷺ في قوله عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ قال: إنَّ الله تبارك وتعالى كان عرشُه على الماء، ولم يخلُقْ شيئاً قبل الماء، فلمَّا أرادَ أن يخلُقَ الخلقَ أخرج من الماء دخاناً، فارتفَعَ فوق الماء، فسَما عليه، فَسمَّاه سماءً، ثم أيبس الماء، فجَعلَه أرضاً واحدةً، ثم فَتَقها، فجعلها سبعَ أرضين في يومين، في الأحد والاثنين، فجعل الأرضَ على حُوتٍ ـ والحُوتُ هو النُّون الذي ذكر الله تبارك وتعالى في القرآن بقوله:

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ١١٥.

(٢) في قوله تعالى: ﴿قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين...﴾ الآيات [٩-١١].

(٣) في تفسيره ٩/ ١٤٥.

(٤) أخرج ابن جرير ١/ ٤٦٣ عن مجاهد في تفسير هذه الآية قوله: خلق الأرض قبل السماء، فلما خلق الأرض ثار منها دخان، فذلك حين يقول: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ قال: بعضهن فوق بعض، وسبع أرضين بعضهن تحت بعض.

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ﴾ [القلم: ١] ـ والحوتُ في الماء، و[الماء][(١)] على صَفاة[(٢)]، والصَّفاةُ على ظهر ملَك، والمَلكُ على الصَّخرة، والصَّخرة في الريح ـ وهي الصَّخرةُ التي ذكر لقمانُ ـ ليست في السماء ولا في الأرض، فتحرَّك الحوتُ، فاضطربَ، فتزلزلت الأرضُ، فأرسى[(٣)] عليها الجبالَ، فقرَّت، فالجبالُ تَفْخرُ على الأرض، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، وخلقَ الجبالَ فيها وأقواتَ أهلِها وشجرَها وما ينبغي لها في يومين: في الثلاثاء والأربعاء، وذلك حين يقول: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ يقول: أقواتها لأهلها[(٤)] ﴿فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ يقول: من سأل فهكذا الأمر ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾ وكان ذلك الدخانُ مِنْ تنفُّس الماء حين تنفَّسَ، فجعلها سماءً واحدة، ثم فَتَقَها، فجعَلها سبعَ سموات في يومين: في الخميس والجمعة، وإنَّما سُمِّيَ يومَ الجمعة لأنَّه جُمع فيه خَلْقُ السماوات والأرض ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ٩-١٢] قال: خلقَ في كلِّ سماءٍ خَلْقَها من الملائكة والخَلْق الذي فيها من البحار وجبال البَرَد وما لا يُعلم، ثم زيَّنَ السماءَ الدنيا بالكواكب، فجعَلَها زِينةً وحِفْظاً تُحفظُ من الشياطين، فلمَّا فرغَ من خلق ما أحبَّ، استوى على العرش. قال: فذلك حين يقول: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ويقول: ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠]. وذكر القصة في خلق آدم عليه السلام[(٥)]، على ما يأتي بيانُه في هذه

---

(١) ما بين حاصرتين من تفسير الطبري ١/ ٤٦٢.

(٢) الصفاة: صخرة ملساء. الصحاح: (صفا).

(٣) في (م) والنسخ الخطية: «فأرسل»، والمثبت من تفسير الطبري.

(٤) قوله: يقول أقواتها لأهلها، ليس في (م).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٤٦٢-٤٦٣، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٠٧). وقد غمز الطبري في هذا الإسناد ١/ ٣٧٥ عند تفسير قوله تعالى: ﴿فيه ظلمات ورعد وبرق...﴾، فقال: ولستُ أعلمه صحيحاً، إذ كنتُ بإسناده مرتاباً.

وقال الحافظ ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾: فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السدي، ويقع فيه إسرائيليات كثيرة، فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة، أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة. والله أعلم. وانظر تعليق الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في تفسير الطبري ١/ ١٥٦ ـ ١٦٠.

السورة إن شاء الله تعالى[١].

وروى وكيع، عن الأعمش، عن أبي ظَبْيان، عن ابن عباس قال: إنَّ أولَ ما خلقَ الله عزَّ وجلَّ من شيء القلمُ، فقال له: اكتب، فقال: يا ربِّ، وما أَكتبُ؟ قال: اكتب القَدَر، قال: فجرى بما هو كائنٌ من ذلك اليوم إلى قيام الساعة. قال: ثم خلقَ النُّونَ، فدحا الأرضَ عليها، فارتفعَ بخارُ الماء، ففَتَقَ منه السماوات، واضطربَ النُّونُ، فمادَتِ الأرضُ، فأُثْبِتَت بالجبال، فإنَّ الجبالَ تَفْخَرُ على الأرض إلى يوم القيامة[٢]. ففي هذه الرواية خلقُ الأرضِ قبل ارتفاع بخار الماء الذي هو الدُّخان، خلافاً للرواية الأولى، والرواية الأُولى عنه وعن غيره أَولى، لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] والله أعلم بما فعل، فقد اختلفت فيه الأقاويلُ، وليس للاجتهاد فيه مدخل.

وذكر أبو نُعيم[٣] عن كعب الأحبار أنَّ إبليسَ تغلغلَ إلى الحوت الذي على ظهره الأرضُ كلُّها، فألقى في قلبِه، فقال: هل تدري ما على ظهرِكَ يا لوثيا من الأُمم والشجر الدَّوابِّ والناس والجبال؟ لو نفضتَهم ألقيتَهم عن ظهرك أجمع. قال: فهمَّ لوثيا بفعل ذلك، فبعث الله دابَّةً، فدخَلَتْ في مِنْخَرِه، فعجَّ إلى الله منها، فخرجت. قال كعب: والذي نفسي بيده، إنَّه لينظُرُ إليها بين يديه وتنظُرُ إليه، إنْ هَمَّ بشيء من ذلك عادَتْ حيثُ كانت[٤].

السابعة: أصلُ خَلْقِ الأشياء كلِّها من الماءِ، لما رواه ابنُ ماجه في «سننه»، وأبو حاتم البُسْتيُّ في صحيح مسنده عن أبي هريرة قال: قلتُ: يا رسول الله، إذا رأيتُك، طابَتْ نفسي، وقرَّتْ عَيْني، أنبِئْني عن كلِّ شَيْءٍ. قال: «كُلُّ شيءٍ خُلِقَ من الماء». فقلتُ: أخبرني بشيء[٥] إذا عملتُ به دخلتُ الجنة. قال: «أَطْعِمِ الطعامَ، وأَفْشِ السَّلامَ، وصِلِ الأرحامَ، وقُمِ الليلَ والناسُ نيامٌ، تدخُلِ الجنةَ بسلام»[٦].

(١) ص ٤١٧ ـ ٤١٩.

(٢) أخرجه الطبري في تاريخه ١/ ٣٣ و٥٠ ـ ٥١، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٠٤).

(٣) حلية الأولياء ٦/ ٨.

(٤) خبر إسرائيلي لا أساس له، وكان من الأولى بالمصنف أن ينزّه كتابه عن مثل هذا.

(٥) في (م): عن شيء.

(٦) صحيح ابن حبان (٢٥٥٩)، وهو في المسند (٧٩٣٢)، ولم نقف عليه في سنن ابن ماجه من حديث=

قال أبو حاتم[١]: قولُ أبي هريرة: أنْبِئْني عن كلِّ شيء، أراد به[٢]: عن كلِّ شيء خُلق من الماء، والدليلُ على صحَّة هذا جوابُ المصطفى ﷺ إياه حيث قال: «كلُّ شيء خُلق من الماء». [فهذا جوابٌ خرج على سؤال بعينه، لا أنَّ كلَّ شيء خُلق من الماء] وإن لم يكن مخلوقاً.

وروى سعيد بن جُبَير عن ابن عباس أنَّه كان يُحَدِّث أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أوّلَ شيءٍ خلقَه الله القلمُ، وأمرَه، فكتَبَ كلَّ شيء يكون»[٣]. ويُروى ذلك أيضاً عن عُبادةَ بنِ الصَّامتِ مرفوعاً[٤].

قال البيهقيُّ[٥]: وإنَّما أراد ـ والله أعلم ـ: أولُ شيء خلقَه بعد خلقِ الماء والريح والعرشِ القلمُ، وذلك بَيِّنٌ في حديث عِمرانَ بنِ حُصَيْن: «ثم خَلقَ السماوات والأرض»[٦].

وذكر عبد الرزاق[٧]، عن[٨] عمرَ بنِ حَبيب المكيِّ، عن حُمَيْد بن قَيْس الأعرج، عن طاوس قال: جاء رجلٌ إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، فسأله: مِمَّ خُلِقَ الخلقُ؟ قال: من الماء والنُّورِ والظُّلمة، والريح والتراب. قال الرجل: فمِمَّ خُلق

= أبي هريرة، وقد أخرج المرفوع منه برقم (٣٢٥١) من حديث عبد الله بن سلام، بلفظ: «يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، وادخلوا الجنة بسلام».

(١) هو ابنُ حبان، وقد قاله بإثر حديثه المذكور، وما بين حاصرتين من صحيحه.

(٢) في (د) مراده.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٣/ ١٤٦، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٠٣).

(٤) أخرجه الطيالسي (٥٧٨)، والترمذي (٢١٥٥)، و(٣٣١٩)، وهو في المسند (٢٢٧٠٥). قال الترمذي في الموضع الأول: وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وقال في الموضع الثاني: هذا حديث حسن غريب.

(٥) الأسماء والصفات ٢/ ٢٣٨.

(٦) أخرجه البخاري (٧٤١٨) ضمن حديث طويل، وفيه: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشُه على الماء، ثم خلق السماواتِ والأرضَ، وكتبَ في الذكر كل شيء».

(٧) في تفسيره ٢/ ٢١٣، وأخرجه أيضاً الحاكم ٢/ ٤٥٢، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٢٩).

(٨) في (د) و(م): «بن»، وهو خطأ.

هؤلاء؟ قال: لا أدري. قال: ثم أتى الرجلُ عبدَ الله بنَ الزُّبير، فسأله، فقال مثل قول عبد الله بن عمرو. قال: فأتى الرجلُ عبدَ الله بنَ عباس، فسأله، فقال: ممَّ خُلق الخلقُ؟ قال: من الماء والنُّور والظُّلمة والريح والتراب. قال الرجل: فممَّ خُلق هؤلاء؟ فتلا عبد الله بنُ عباس: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]. فقال الرجل: ما كان ليأتيَ بهذا إلا رجلٌ من أهل بيت النبيِّ ﷺ.

قال البيهقيُّ[١]: أراد أنَّ مصدرَ الجميعِ منه، أي: مِنْ خلقِه وإبداعه واختراعه، خَلَق الماءَ أولاً، أو الماءَ وما شاء مِنْ خلقِه، لا عن أصلٍ، ولا على مثالٍ سَبَقَ، ثم جعلَه أصلاً لِما خَلَقَ بعد، فهو المبدعُ، وهو البارئ، لا إلهَ غيره، ولا خالقَ سواه، سبحانه جلَّ وعزَّ.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ ذكر تعالى أن السماوات سبعٌ، ولم يأتِ للأرض في التنزيل عَدَدٌ صريحٌ لا يَحتملُ التأويلَ إلَّا قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]. وقد اختُلِفَ فيه: فقيل: «ومن الأرضِ مِثْلَهنّ» أي: في العدد؛ لأنَّ الكيفيةَ والصِّفَةَ مختلفةٌ بالمشاهدة والأخبار، فتَعيَّنَ العددُ. وقيل: «ومن الأرض مثلهنّ» أي: في غِلَظِهنَّ وما بينهنَّ. وقيل: هي سبعٌ، إلَّا أنَّه لم يَفْتِقْ بعضَها من بعض. قاله الداوُديُّ. والصَّحيحُ الأولُ، وأنَّها سبعٌ، كالسموات سبعٌ.

روى مسلمٌ[٢]، عن سعيد بنِ زيد[٣] قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أخَذَ شِبْراً من الأرض ظُلْماً طُوِّقَه إلى سبع أَرَضِين». وعن عائشةَ رضي الله عنها مثلَه، إلَّا أنَّ فيه: «من» بدل «إلى»[٤]. ومن حديث أبي هريرة: «لا يأخُذُ أحدٌ شبراً من الأرض بغير حقِّه إلَّا طَوَّقه الله إلى سبع أَرَضين [يوم القيامة]»[٥].

---

(١) الأسماء والصفات ٢/ ٢٦٦.

(٢) رقم (١٦١٠)، وأخرجه أيضاً البخاري (٣١٩٨).

(٣) القرشي العدوي، أحد العشرة المبشرين بالجنة، شهد المشاهد مع رسول الله ﷺ، مات سنة (٥١هـ). السير ١/ ١٢٤.

(٤) صحيح مسلم (١٦١٢)، وأخرجه أيضاً البخاري (٢٤٥٣).

(٥) صحيح مسلم (١٦١١) وما بين حاصرتين منه.

وروى النَّسائيُّ، عن أبي سعيد الخُدْريِّ، عن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى عليه السلام: يا ربِّ، علِّمني شيئاً أذْكُرُكَ به وأدعوكَ به. قال: يا موسى، قل: لا إله إلَّا الله. قال موسى: يا ربِّ، كلُّ عبادكَ يقول هذا. قال: قل: لا إله إلَّا الله. قال: لا إله إلَّا أنت، إنَّما أريدُ شيئاً تَخُصُّني به. قال: يا موسى، لو أنَّ السماوات السبعَ وعامِرَهنَّ غيري والأَرَضين السبعَ في كِفَّةٍ، ولا إله إلَّا الله في كِفَّةٍ، مالَتْ بهنَّ لا إله إلَّا الله»[1].

وروى الترمذيُّ، عن أبي هريرة قال: بينما نبيُّ الله ﷺ جالسٌ وأصحابهُ، إذ أتى عليهم سحابٌ، فقال نبيُّ الله ﷺ: «هل تَدْرُون ما هذا؟» فقالوا: الله ورسولُه أعلم. قال: «هذا العَنان، هذه رَوايا الأرضِ، يَسُوقُه الله إلى قوم لا يشكرونَه ولا يدعونَه». قال: «هل تَدْرُون ما فوقكم؟» قالوا: الله ورسولُه أعلم. قال: «فإنَّها الرَّقيعُ، سقفٌ محفوظٌ، وموجٌ مكفوفٌ». ثم قال: «هل تَدْرُون ما[2] بينكم وبينها؟». قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «بينكم وبينها [مسيرةُ] خمسِ مئة عام». ثم قال: «هل تَدْرُون ما فوقَ ذلك؟» قالوا: اللهُ ورسولُه أعلم. قال: «[فإن فوق ذلك] سماءين، بُعْدُ ما بَيْنَهما [مسيرة] خمس مئة سنة». ثم قال كذلك حتى عدَّ سبعَ سماوات، ما بين كلِّ سماءين ما بين السَّماءِ والأرض. ثم قال: «هل تَدْرون ما فوق ذلك؟» قالوا: الله ورسولُه أعلم. قال: «فإنَّ فوق ذلك العرشَ، وبينَه وبين السَّماء بُعْدُ ما بين السَّماءين». ثم قال: «هل تَدْرُون ما الذي تحتكم؟». قالوا: الله ورسُوله أعلم. قال: «فإنَّها الأرضُ». ثم قال: «هل تَدْرُون ما تحتَ ذلك؟» قالوا: الله ورسوُله أعلم. قال: «إن تحتها أرضاً أخرى[3]، بينهما مسيرةُ خمسِ مئة سنة». حتى عدَّ سبعَ أَرَضين، بين كلِّ أَرْضَيْن مسيرةُ خمس مئة سنة. ثم قال: «والذي نفسُ محمدٍ بيده، لو أنَّكم دَلَّيتُم [رجلاً] بحبل إلى

---

(١) السنن الكبرى (١٠٦٠٢) و(١٠٩١٣)، وهو من رواية أبي السمح درَّاج بن سمعان عن أبي الهيثم سليمانَ بنِ عمرو العُتْواري، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. ودرَّاج ضعَّفه أحمد والنسائي وأبو حاتم الرازي والدارقطني ـ وقال في موضع: متروك ـ وفَضْلَك الرازي، وثقه يحيى بن معين. وقال أبو داود: أحاديثه مستقيمة إلا ما كان عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد. اهـ. وهذه منها.

(٢) في (م): كم.

(٣) في (م): فإن تحتها الأرض الأخرى.

الأرض السُّفلى لهبَطَ على الله». ثم قرأ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]. قال أبو عيسى: قراءةُ رسولِ الله ﷺ الآية تدلُّ على أنَّه أرادَ: لَهَبَطَ على عِلْم الله وقدرتِه وسلطانِه. [علمُ الله وقدرتُه وسلطانُه] في كلِّ مكانٍ، وهو على عَرْشه كما وصَفَ نفسَه في كتابه. قال: هذا حديثٌ غريبٌ، والحَسَن لم يسمَعْ من أبي هريرة[١].

والآثارُ بأنَّ الأَرضَين سبعٌ كثيرةٌ، وفيما ذكرنا كفاية.

وقد روى أبو الضُّحى ـ واسمُه مسلم ـ عن ابن عباس أنَّه قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] قال: سبعَ أَرَضين، في كلِّ أرضٍ نبيٌّ كنبيِّكم، وآدمُ كآدم، ونوحٌ كنوح، وإبراهيمُ كإبراهيم، وعيسى كعيسى. قال البيهقيُّ[٢]: إسنادُ هذا عن ابن عباس صحيحٌ، وهو شاذٌّ بمرَّة، لا أعلمُ لأبي الضُّحى عليه متابعاً[٣]، والله أعلم.

التاسعة: قولُه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ابتداءٌ وخبر. «ما» في موضع نصبٍ. ﴿جَمِيعًا﴾ عند سيبويه نصب على الحال[٤].

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ﴾ أهلُ نَجْد يُميلون لِيَدُلُّوا على أنَّه من ذوات الياء، وأهلُ الحجازُ يُفخِّمون.

﴿سَبْعَ﴾ منصوبٌ على البدل من الهاء والنون، أي: فسوَّى سبعَ سمواتٍ، ويجوزُ أن يكون مفعولاً على تقدير: فسَوَّى منهنَّ[٥] سبعَ سموات، كما قال الله جلَّ وعزَّ: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥] أي: من قومه. قاله النحاس[٦]. وقال الأخفش: انتصَبَ على الحال.

---

(١) سنن الترمذي (٣٢٩٨)، وقد أشار الترمذي إلى علة الحديث، وهو في المسند (٨٨٢٨). قال ابن الجوزي في العلل المتناهية ١/ ٢٨: هذا حديث لا يصحُّ عن رسول الله ﷺ.

(٢) في الأسماء والصفات، بعد إخراجه تفسير ابن عباس المذكور (٨٣١) (٨٣٢).

(٣) في (د) و(ظ) و(م): «دليلاً».

(٤) الكتاب ١/ ٣٧٦.

(٥) في (د) و(م): «يسوّي بينهن».

(٦) إعراب القرآن ١/ ٢٠٦.

﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ابتداءٌ وخبرٌ. والأصلُ في «هو» تحريكُ الهاء، والإسكانُ استخفاف.

والسماءُ تكون واحدةً مؤنَّثة، مثل عَنان، وتذكيرُها شاذٌّ، وتكون جمعاً لِسَماوة في قول الأخفش، وسماءة في قول الزَّجَّاج[١]، وجمعُ الجمعِ سماوات وسماءات[٢]، فجاء «سوَّاهنَّ» إمَّا على أن السماءَ جمعٌ، وإما على أنها مفردٌ اسمُ جنس، ومعنى «سَوَّاهنَّ»: سوَّى سُطوحَهنَّ بالإملاس[٣]، وقيل: جعلهنَّ سواءً[٤].

العاشرة: قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: بما خلَقَ، وهو خالقُ كلِّ شيء، فوجَبَ أن يكون عالماً بكلِّ شيء، وقد قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤]، فهو العالمُ والعليمُ بجميع المعلومات بعلمٍ قديمٍ أزليٍّ واحدٍ قائمٍ بذاته.

ووافَقَنا المعتزلةُ على العالِمِيَّة دون العِلْمية. وقالت الجَهْمِيَّة: عالمٌ بعلمٍ قائمٍ لا في محلٍّ! تعالى الله عن قولِ أهل الزَّيْغِ والضَّلالات، والردُّ على هؤلاء في كتب الدِّيانات.

وقد وصَفَ نفسَه سبحانه بالعلم، فقال: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: ١٦٦]، وقال: ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ١٤]، وقال: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٧]، وقال: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ [فاطر: ١١]، وقال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] الآية.

وسندلُّ على ثبوتِ علمه وسائرِ صفاته في هذه السورة عند قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [الآية: ١٨٥] إن شاءَ الله تعالى.

وقرأ الكِسائيُّ وقالُون[٥] عن نافعٍ بإسكان الهاء من: «هو» و«هي» إذا كان قبلَها فاءٌ، أو واوٌ، أو لامٌ، أو ثُمَّ، وكذلك فعَلَ أبو عَمرو إلَّا مع ثُمَّ[٦].

---

(١) معاني القرآن ١/ ١٠٧.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ١٩٨.

(٣) في (د) و(ز): بالامتلاس.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ١١٥.

(٥) عيسى بن مينا، أبو محمد، مولى بني زريق، مقرئ المدينة، لقَّبه نافع بقالون لجودة قراءته، مات سنة (٢٢٠هـ). السير ١٠/ ٣٢٦.

(٦) التيسير ص ٧٢، وقوله: «ثمَّ» يعني في آية «القصص» ٦١: ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾.

وزاد أبو عَوْن[١]، عن الحُلْوانيِّ[٢]، عن قالُون إسكانَ الهاء من ﴿أَن يُمِلَّ هُوَ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، والباقون بالتحريك[٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فيه سبعَ عَشْرةَ مسألةً:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ «إذ» و «إذا» حرفا توقيتٍ؛ فـ «إذ» للماضي، و«إذا» للمستقبل، وقد تُوضَعُ إحداهُما موضعَ الأخرى. وقال المُبَرِّد: إذا جاء «إذ» مع مستقبلٍ كان معناه ماضياً، نحو قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. معناه: إذ مكروا، وإذ قلتَ، وإذا جاء «إذا» مع الماضي كان معناه مستقبلاً، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ﴾ [النازعات: ٣٤]، ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ [عبس: ٣٣]، و﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ [النصر: ١]، أي: يجيء. وقال مَعْمَر بن المُثَنَّى أبو عُبَيدة[٤]: «إذ» زائدةٌ، والتقدير: وقال ربُّك. واستشهد بقول الأسود بن يَعْفُر[٥]:

فإذ وذلك لا مَهَاةَ لِذِكْرِه والدَّهْرُ يُعْقِبُ صالحاً بفساد[٦]

---

(١) محمد بن عمرو بن عون السلمي الواسطي، المقرئ، المحدث، قيل: مات قبل سنة (٢٧٠هـ). طبقات القراء ٢/ ٢٢١.

(٢) هو أحمد بن يزيد، أبو الحسن، مات سنة (٢٥٠هـ). طبقات القراء ١/ ١٤٩.

(٣) الكشف عن وجوه القراءات ١/ ٢٣٤، وما ذكره المصنف عن قالون هو من طريق النشر ٢/ ٢٠٩.

(٤) مجاز القرآن ١/ ٣٦ ـ ٣٧.

(٥) هو أبو الجراح، شاعر جاهلي، مقدم فصيح فحل، ليس بمكثر، كان ينادم النعمان بن المنذر، وكان ممن يهجو قومه، والبيت من قصيدة له مشهورة هي من مختار شعر العرب وروائعه. طبقات فحول الشعراء ١/ ١٤٧، وخزانة الأدب ١/ ٤٠٥.

(٦) المفضليات ص ٢٢٠، وتفسير الطبري ١/ ٤٦٦، وروايته: فإذا، بدل: فإذْ. وذكر الشيخ محمود شاكر رحمه الله في تعليقه على تفسير الطبري ١/ ٤٣٩ أن أبا عبيدة أخطأ فيه، وأن الشاهد في زيادة «إذا»=

وأنكر هذا القولَ الزجَّاجُ والنحَّاس وجميعُ المفسرين. قال النحَّاس: وهذا خطأٌ؛ لأنَّ «إذ» اسمٌ، وهي ظرفُ زمانٍ، ليس ممَّا تُزاد[١]، وقال الزجَّاج: هذا اجترامٌ من أبي عُبيدة، ذَكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ خَلْقَ الناسِ وغيرِهم، فالتقديرُ: وابتدأَ خَلْقَكُم إذ قال[٢]. فكان هذا من المحذوف الذي دلَّ عليه الكلام، كما قال[٣]:

فإنَّ المَنِيَّةَ مَنْ يَخْشَها فسوفَ تُصادِفُه أينما

يريدُ: أينما ذهَبَ.

ويحتَمل أن تكون متعلِّقةً بفعل مقدَّر تقديرُه: واذكر إذ قال. وقيل: هو مردودٌ إلى قوله تعالى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]. فالمعنى: الذي خلقكم إذ قال ربُّك للملائكة.

وقولُ الله تعالى وخطابُه للملائكة مُتَقَرِّرٌ قديمٌ في الأزل بشرطِ وجودِهم وفَهْمِهم، وهكذا[٤] البابُ كلُّه في أوامر الله تعالى ونواهيه ومخاطباته. وهذا مذهبُ الشيخ أبي الحسن الأشعريِّ، وهو الذي ارتضاه أبو المعالي[٥]، وقد أتينا عليه في كتاب «الأسنى في شرح أسماء الله الحُسْنى وصفاتِ الله العُلَى»[٦].

والربُّ: المالكُ والسيِّدُ والمصلِحُ والجابِرُ، وقد تقدّم بيانه[٧].

الثانية: قوله تعالى: ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ الملائكةُ: واحدُها مَلَك. قال ابن كَيْسان

= لا في زيادة «إذ». اهـ قوله: لامهاه لذكره، يعني لا طعم ولا فضل. قاله أبو عبيدة.

(١) إعراب القرآن ١/ ٢٠٧. وسقط من مطبوعه كلام أبي عبيدة!.

(٢) معاني القرآن ١/ ١٠٨. وفيه: إقدام، بدل: اجترام.

(٣) هو النَّمِر بن تولَب، والبيت في ديوانه ص ٣٧٨ (شعراء إسلاميون)، وتفسير الطبري ١/ ٤٦٨، وتفسير الماوردي ١/ ٩٣، وخزانة الأدب ١١/ ١٠١.

(٤) في (د): وكذا، وفي (ظ): وهذا.

(٥) وقال ابن أبي العز في شرح العقيدة الطحاوية ١/ ٥٦: المأثور عن أئمة الحديث والسنة أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء، ومتى شاء، وكيف شاء، وهو يتكلم بصوت يُسمع، وأن نوع الكلام قديم، وإن لم يكن الصوتُ المعين قديماً.

(٦) لم نقف عليه في المطبوع من الأسنى.

(٧) ص ٢١١.

وغيرُه: وزن مَلَك: فَعَل، من المُلْك[١].

وقال أبو عُبَيدة: هو مَفْعَل من لأَكَ: إذا أرسَلَ، والأُلوكة والمَأْلَكة والمَأْلُكة: الرسالة. قال لَبِيد[٢]:

وغلامٍ أرسلَتْهُ أمُّه بأَلُوكٍ فبذَلْنا ما سأَلْ

وقال آخر:

أبْلِغ النُّعْمانَ عَنِّي مَأْلُكاً إنّه[٣] قد طالَ حَبْسي وانتظاري[٤]

ويقال: ألِكْني، أي: أرسِلْني، فأصلُه على هذا: مَأْلَك، الهمزةُ فاءُ الفعل؛ لكنَّهم[٥] قلبوها إلى عينه، فقالوا: مَلْأَك، ثم سَهَّلوه فقالوا: مَلَك.

وقيل: أصلُه: مَلْأَك، من مَلَك يملِك، نحو شَمْأل، من شَمَل، فالهمزةُ زائدةٌ. عن ابن كيسان أيضاً، وقد تأتي في الشعر على الأصل، قال الشاعر:

فلستَ لإنْسِيٍّ ولكنْ لِمَلْأَكٍ تَنَزَّلَ من جَوِّ السماء يَصُوبُ[٦]

وقال النَّضْر بنُ شُمَيْل: لا اشتقاقَ للمَلَك عند العرب. والهاء في الملائكة تأكيدٌ لتأنيث الجمع، ومثلُه: الصَّلادمة، والصَّلادم: الخيلُ الشِّداد، واحدُها صِلْدِم. وقيل: هي للمبالغة، كعلَّامة ونسَّابة.

وقال أرْبابُ المعاني: خاطَبَ الله الملائكةَ لا للمشورة، ولكن لاستخراج ما

---

(١) في المحرر الوجيز ١/ ١١٦. هو من: مَلَكَ يملك.

(٢) ديوانه ص ١٧٨.

(٣) في (م): إنني.

(٤) البيت لعدي بن زيد وهو في الشعر والشعراء ١/ ٢٢٩، وتفسير الطبري ١/ ٤٧٤، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ١١٢، والأغاني ٢/ ١١٤، وخزانة الأدب ٨/ ٥١٣. وعند الطبري: مَلْأكاً، وقال: وقد ينشد: مَألكاً.

(٥) في (م): فإنهم.

(٦) نسب هذا البيت في المفضليات ص ٣٩٤، وتحصيل عين الذهب ص ٥٩٠ لعلقمة بن عبدة، وهو في زيادات ديوانه ص ١١٨. ونسب في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٣، والصحاح: (ملك) لجاهلي من عبد القيس يمدح بعض الملوك. وهو في كتاب سيبويه ٤/ ٣٨٠، والمنصف ٢/ ١٠٢، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٢٠٣، ومعاني القرآن للزجاج ١/ ١١٢، وتفسير الطبري ١/ ٣٥٠، والمحرر الوجيز ١/ ١١٦ غير منسوب.

فيهم من رؤية الحركات والعبادةِ والتسبيح والتقديس، ثم ردَّهم إلى قيمتهم، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾.

الثالثة: قولُه تعالى: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ «جاعلٌ» هنا بمعنى خالق. ذكره الطبريُّ[١] عن أبي رَوْق، ويقضي بذلك تعدِّيها إلى مفعولٍ واحد، وقد تقدم[٢].

و«الأرض» قيل: إنَّها مكة. روى ابنُ سابطٍ[٣] عن النبيِّ ﷺ قال: «دُحِيَتِ الأرضُ من مكة». ولذلك سُمِّيَتْ أمَّ القُرَى، قال: وقبرُ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ وشُعَيب بين زمزم والركن والمقام[٤].

و«خليفة» يكون بمعنى فاعل، أي: يخلُفُ مَنْ كان قبلَه من الملائكة في الأرض، أو مَنْ كان قبلَه من غير الملائكة على ما رُوي. ويجوز أن يكون «خليفة» بمعنى مفعول أي: يُخْلَفُ[٥]، كما يقال: ذبيحةٌ، بمعنى مفعولة[٦]. والخَلَف، بالتحريك: من الصالحين، وبتسكينها: من الطالحين، هذا هو المعروفُ. وسيأتي له مزيدُ بيانٍ في الأعراف إن شاء الله[٧].

و«خليفة» بالفاء قراءةُ الجماعة، إلَّا ما رُوي عن زيد بن عليٍّ، فإنَّه قرأ: «خليقة» بالقاف[٨].

والمعني بالخليفة هنا في قول ابن مسعود وابن عباس وجميعِ أهل التأويل: آدمُ

---

(١) تفسير الطبري ١/ ٤٧٥، وانظر المحرر الوجيز ١/ ١١٦.

(٢) ص ٣٤٣.

(٣) عبد الرحمن بن سابط، ويقال: ابن عبد الله بن سابط، القرشي المكي الجمحي، كان كثير الحديث، مات سنة (١١٨هـ). تهذيب الكمال ١٧/ ١٢٣.

(٤) أخرجه الطبري ١/ ٤٧٦. وقال ابن كثير ١/ ٢١٥ بعد أن أورد الحديث من رواية ابن أبي حاتم: وهذا مرسل، وفي سنده ضعف، وفيه مدرج: وهو أن المراد بالأرض مكة، والله أعلم؛ فإن الظاهر أن المراد بالأرض أعم من ذلك. اهـ.

(٥) في (ز) و(ظ) و(م): مخلف، والمثبت من (د).

(٦) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٧.

(٧) في تفسير الآية (١٦٩).

(٨) المحرر الوجيز ١/ ١١٧. ولم نقف على من ذكر هذه القراءة الشاذة غيره.

عليه السلام[١]، وهو خليفةُ الله في إمضاء أحكامِه وأوامرِه، لأنَّه أوّلُ رسولٍ إلى الأرض، كما في حديث أبي ذرٍّ؛ قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أنَبيًّا كان مُرسَلًا؟ قال: «نعم». الحديث[٢]. ويقال: لِمنْ كان رسولاً ولم يكن في الأرض أحد؟ فيقال: كان رسولاً إلى ولدِه، وكانوا أربعين ولداً في عشرين بطناً، في كلِّ بطنٍ ذكرٌ وأنثى، وتوالدوا حتى كَثُروا، كما قال الله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١]. وأنزلَ عليه[٣] تحريمَ الميتةِ والدَّمِ ولحمِ الخنزير، وعاش تسع مئة وثلاثين سنة. هكذا ذكر أهلُ التوراة، ورُوِيَ عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ أنَّه عاشَ ألفَ سنة، والله أعلم.

الرابعة: هذه الآيةُ أَصْلٌ في نَصْبِ إمامٍ وخليفةٍ يُسْمَع له ويُطاع، لتجتمعَ به الكلمةُ، وتَنْفُذَ به أحكامُ الخليفة، ولا خلافَ في وجوب ذلك بين الأُمة ولا بين الأئمة، إلَّا ما رُوِيَ عن الأصمِّ[٤] حيث كان عن الشريعة أصمَّ، وكذلك كلُّ من قال بقوله واتَّبعه على رأيه ومذهبِه، قال: إنَّها غيرُ واجبةٍ في الدِّين، بل يَسُوغُ ذلك، وإنَّ الأُمةَ متى أقاموا حَجَّهم وجهادَهم، وتَناصَفُوا فيما بينهم، وبذَلوا الحقَّ من أنفسهم، وقَسَمُوا الغنائمَ والفَيْءَ والصَّدَقاتِ على أهلها، وأقاموا الحدودَ على مَنْ وَجَبَتْ عليه، أجزأهم ذلك، ولا يجبُ عليهم أن ينصبوا إماماً يتولَّى ذلك!

ودليلُنا قولُ الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وقولُه تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]، وقال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥]، أي: يجعَلُ منهم خلفاءَ، إلى غير ذلك من الآي.

---

(١) قال ابن كثير في تفسيره: وفي ذلك نظر، بل الخلافُ في ذلك كثير، حكاه الرازي في تفسيره وغيرُه، والظاهر أنه لم يُرِدْ آدمَ عَيْناً. اهـ وقول ابن مسعود وابن عباس أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٤٧٩-٤٨٠، وذكره ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ١١٧.

(٢) أخرجه الطيالسي (٤٨٠)، وأحمد (٢١٥٥٢)، وأخرجه مطولاً ابن حبان (٣٦١).

(٣) في (م): عليهم.

(٤) هو عبد الرحمن بن كيسان، أبو بكر، شيخ المعتزلة، صاحب مقالات في الأصول، وله تفسير عجيب، وكتاب خلق القرآن، وافتراق الأمة، والرد على الملحدة وغيرها، مات سنة (٢٠١هـ). السير ٩/ ٤٠٢، ولسان الميزان ٣/ ٤٢٧.

وأجمعت الصَّحابةُ على تقديم الصِّدِّيق بعد اختلافٍ وقَعَ بين المهاجرين والأنصار في سَقِيفَة بني ساعِدَة في التعيين، حتى قالت الأنصار: منَّا أميرٌ ومنكم أميرٌ، فدَفَعهم أبو بكر وعمرُ والمهاجرون عن ذلك، وقالوا لهم: إنَّ العربَ لا تَدِينُ إلَّا لهذا الحَيِّ من قريش، ورَوَوْا لهم الخبرَ في ذلك[١]، فرجعوا وأطاعوا لقريش، فلو كان فرضُ الإمامة غيرَ واجبٍ لا في قريش ولا في غيرهم لما ساغت هذه المناظرةُ والمحاورةُ عليها، ولَقال قائل: إنَّها ليست بواجبةٍ لا في قريش ولا في غيرهم[٢]، فما لتنازعهم[٣] وجهٌ ولا فائدةٌ في أمرٍ ليس بواجب، ثم إنَّ الصِّديقَ رضي الله عنه لمَّا حضرته الوفاةُ عَهِدَ إلى عمر في الإمامة[٤]، ولم يقل له أحدٌ: هذا أمرٌ غيرُ واجب علينا ولا عليك، فدلَّ على وجوبها، وأنَّها ركنٌ من أركان الدِّين الذي به قِوام المسلمين، والحمدُ لله ربِّ العالمين.

وقالت الرافضة: يجبُ نَصْبُه عقلاً، وإنَّ السمعَ إنَّما وردَ على جهة التأكيد لقضية العقل، فأمَّا معرفةُ الإمام فإنَّ ذلك مُدْرَكٌ من جهة السمع دون العقل. وهذا فاسدٌ؛ لأنَّ العقلَ لا يُوجِبُ ولا يحظُرُ ولا يُقَبِّح ولا يُحسِّن، وإذا كان كذلك ثبتَ أنَّها واجبةٌ من جهة الشرع لا من جهة العقل، وهذا واضحٌ.

فإن قيل وهي

الخامسة: إذا سلم أنَّ طريقَ وجوبِ الإمامة السمعُ، فخبِّرونا هل يجبُ من جهة السَّمع بالنَّصِّ على الإمام من جهة الرسول ﷺ، أم من جهة اختيارِ أهل الحَلِّ والعَقْد له، أم بكمال خصالِ الأئمة فيه، ودعاؤه مع ذلك إلى نفسه كافٍ فيه؟.

فالجواب أن يقال: اختلفَ الناسُ في هذا الباب: فذهبت الإماميَّةُ وغيرُها إلى أن

---

(١) حديث السقيفة أخرجه أحمد (٣٩١) والبخاري (٦٨٣٠) من حديث عمر، وأخرجه الإمام أحمد (١٨) مختصراً من حديث أبي بكر، وفيه: «قريش ولاة الأمر، فبرُّ الناس تبعٌ لِبرِّهم، وفاجرُهم تبع لفاجرهم». وله شاهد من حديث أبي هريرة عند البخاري (٣٤٩٥)، ومسلم (١٨١٨) ولفظه: «الناس تَبَعٌ لقريش في هذا الشأن، مسلمهم لمسلمهم، وكافرهم لكافرهم». وانظر ص ٢٧٠ من هذا الجزء، وتفسير الآية (٤٠) من سورة التوبة.

(٢) الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء ص ١٩.

(٣) في (ز) و(ظ) و(م): لتنازعكم، والمثبت من (د).

(٤) أخرجه هناد في الزهد (٤٩٦).

الطريق الذي يُعرفُ به الإمام هو النصُّ من الرسول ﷺ، ولا مَدْخَل للاختيار فيه، وعندنا: النَّظَرُ طريقٌ إلى معرفة الإمام، وإجماعُ أهل الاجتهاد طريقٌ أيضاً إليه، وهؤلاء الذين قالوا: لا طريقَ إليه إلَّا النصُّ، بَنَوْه على أصلهم أنَّ القياسَ والرأيَ والاجتهادَ باطلٌ لا يُعْرَفُ به شيءٌ أصلاً، وأبطلوا القياسَ أصلاً وفرعاً.

ثم اختلفوا على ثلاثِ فرقٍ:

فرقة تدَّعي النصَّ على أبي بكر، وفرقة تدَّعي النصَّ على العباس، وفرقة تدَّعي النصَّ على عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنهم.

والدليل على فَقْد النص وعدمِه على إمامٍ بعينه هو أنَّه ﷺ لو فرضَ على الأمة طاعةَ إمامٍ بعينه بحيثُ لا يجوزُ العُدُولُ عنه إلى غيره، لعُلِمَ ذلك، لاستحالة تكليفِ الأُمَّة بأَسْرِها طاعةَ الله في غير معيَّن، ولا سبيلَ لهم إلى العلم بذلك التكليف، وإذا وَجَبَ العلمُ به لم يَخْلُ ذلك العلمُ من أن يكون طريقُه أدلَّةَ العقول أو الخبرَ، وليسَ في العقل ما يدلُّ على ثبوت الإمامة لشخص معيَّن، وكذلك ليس في الخبر ما يُوجِبُ العلمَ بثبوتِ إمام معيَّن، لأنَّ ذلك الخبرَ إمَّا أن يكون تواتراً أوجَبَ العلمَ ضرورةً أو استدلالًا، أو يكونَ من أخبارِ الآحاد، ولا يجوزُ أن يكون طريقُه التواترَ الموجِبَ للعلم ضرورةً أو دلالةً، إذْ لو كان كذلك لكان كلُّ مُكَلَّفٍ يجدُ من نفسه العلمَ بوجوب الطاعة لذلك المعيَّن، وأنَّ ذلك مِنْ دِينِ الله عليه، كما أنَّ كلَّ مكلَّفٍ عَلِمَ أنَّ مِنْ دين الله الواجبِ عليه خمسَ صلواتٍ، وصومَ رمضان، وحجَّ البيت، ونحوَها، ولا أحدَ يعلمُ ذلك من نفسه ضرورةً، فبَطَلَت هذه الدَّعوى، وبَطَلَ أن يكون معلوماً بأخبار الآحاد؛ لاستحالة وقوعِ العلمِ به.

وأيضاً؛ فإنَّه لو وجَبَ المصيرُ إلى نقل النصِّ على الإمام بأيِّ وجهٍ كان، وجَبَ إثباتُ إمامةِ أبي بكر والعباس، لأنَّ لكلِّ واحدٍ منهما قوماً ينقُلُون النصَّ صريحاً في إمامته، وإذا بطَلَ إثباتُ الثلاثةِ بالنصِّ في وقت واحد؛ على ما يأتي بيانُه؛ كذلك الواحدُ، إذ ليس أحدُ الفِرَقِ أولى بالنصِّ من الآخَر، وإذا بَطَلَ ثبوتُ النصِّ لعدم الطريق المُوصِلِ إليه، ثَبَتَ الاختيارُ والاجتهادُ.

فإنْ تعسَّفَ مُتَعَسِّفٌ وادَّعَى التواترَ والعلمَ الضروريَّ بالنَّصِّ فينبغي أن يُقابَلوا على الفَوْرِ بِنقيض دعواهم في النصِّ على أبي بكر، وبأخبارٍ في ذلك كثيرةٍ تقومُ أيضاً في

جملتها مقامَ النصِّ. ثم لا شكَّ في تصميم مَنْ عدا الإماميَّةَ على نفي النصِّ، وهم الخلقُ الكثيرُ والجمُّ الغفير، والعلمُ الضروريُّ لا يجتمعُ على نفيه مَنْ ينحطُّ عن مِعْشار أعداد مخالفي الإماميَّة، ولو جاز ردُّ الضروريِّ في ذلك، لجاز أن يُنكِر طائفةٌ بغدادَ والصِّينَ الأقصى وغيرهما[١].

السادسة: في ردِّ الأحاديث التي احتجَّ بها الإماميةُ في النصِّ على عليٍّ رضي الله عنه، وأنَّ الأمة كفرَتْ بهذا النصِّ وارتدَّت، وخالفت أمرَ الرسول عِناداً:

منها قولُه عليه الصلاة والسلام: «مَنْ كنتُ مَوْلاه فَعَليٌّ مَوْلاه، اللهمَّ والِ مَنْ والاه، وعادِ مَنْ عاداه»[٢]. قالوا: والمَوْلى في اللغة بمعنى أولى، فلمَّا قال: «فعليٌّ مولاه» بفاء التعقيب، عُلِمَ أنَّ المرادَ بقوله: «مَوْلى» أنَّه أحقُّ وأوْلَى، فوجَبَ أن يكون أراد بذلك الإمامةَ، وأنَّه مفترَضُ الطاعة!

وقولُه عليه الصلاة والسلام لعليٍّ: «أنتَ منِّي بمنزلة هارون من موسى، إلَّا أنَّه لا نبيَّ بعدي»[٣]. قالوا: ومنزلةُ هارون معروفةٌ، وهو أنَّه كان مشاركاً له في النبوة، ولم يكن ذلك لعليٍّ، وكان أخاً له، ولم يكن ذلك لعليٍّ، وكان خليفةً، فعُلِمَ أنَّ المرادَ به الخلافةُ! إلى غير ذلك ممَّا احتجُّوا به، على ما يأتي ذِكْرُه في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى[٤].

والجواب عن الحديث الأول: أنَّه ليس بمتواترٍ، وقد اختُلِفَ في صحَّته[٥]، وقد

---

(١) الإرشاد للجويني ص ٣٥٣ ـ ٣٥٤.

(٢) أخرجه بتمامه أحمد في مسنده (٩٥٠) من حديث علي، وبرقم (١٨٤٧٩) من حديث البراء بن عازب، وبرقم (١٩٣٠٢) من حديث علي وزيد بن أرقم، وأخرج شطره الأول أحمد كذلك (٢٣١٠٧) من حديث خمسة أو ستة من أصحاب النبي ﷺ، وبرقم (٢٣٥٦٣) من حديث أبي أيوب الأنصاري، وأورد السيوطي شطره الأول في الأزهار المتناثرة في الأحاديث المتواترة ص ١٣١، ونقل ابن كثير في البداية والنهاية ٥/ ١٨٨ عن الذهبي قوله: صدر الحديث متواتر، أتيقَّن أن رسول الله ﷺ قاله، وأما: «اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» فزيادة قوية الإسناد.

(٣) أخرجه البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤) من حديث سعد بن أبي وقاص. وأورده السيوطي في الأزهار المتناثرة (١٠١).

(٤) في تفسير الآية (١٤٢) من سورة الأعراف.

(٥) ينظر منهاج السنة لابن تيمية ٧/ ٣١٩ وما بعدها.

طعَنَ فيه أبو داود السجستانيُّ وأبو حاتم الرازيُّ[١]، واستدلَّا على بطلانه بأنَّ النبيَّ ﷺ قال: «مُزَينةُ وجُهَينةُ وغِفارُ وأَسْلَمُ مواليَّ دون الناس كلِّهم، ليس لهم مَوْلى دون الله ورسوله»[٢]. قالوا: فلو كان قد قال: «مَنْ كنتُ مولاه، فعليٌّ مولاه» لكان أحدُ الخبرَيْنِ كَذِباً.

جواب ثان: وهو أنَّ الخبرَ؛ وإنْ كان صحيحاً؛ رواه ثقة عن ثقةٍ، فليس فيه ما يدلُّ على إمامتِه، وإنَّما يَدُلُّ على فضيلته، وذلك أنَّ المَوْلَى بمعنى الوليِّ، فيكون معنى الخبر: من كنتُ وَلِيَّه فعليٌّ وَلِيُّه، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ [التحريم: ٤]، أي: وَلِيُّه، فكان المقصودُ من الخبر أنْ يعلمَ الناسُ أنَّ ظاهرَ عليٍّ كباطنِه، وذلك فضيلةٌ عظيمةٌ لعليٍّ.

جواب ثالث: وهو أنَّ هذا الخبرَ وَرَدَ على سبب، وذلك أنَّ أسامةَ وعليًّا اختصما، فقال عليٌّ لأسامة: أنتَ مولاي، فقال: لستُ مولاكَ، بل أنا مَوْلى رسولِ الله ﷺ، فذُكِرَ للنبيِّ ﷺ، فقال: «مَنْ كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه»[٣].

جواب رابع: وهو أنَّ عليًّا عليه السلام لمَّا قال للنبيِّ ﷺ في قصة الإفك في عائشة رضي الله عنها: النساءُ سواها كثيرٌ، شقَّ ذلك عليها، فوجَدَ أهلُ النفاق مجالًا، فطعنوا عليه وأظهروا البراءةَ منه، فقال النبيُّ ﷺ هذا المقالَ ردًّا لقولهم، وتكذيباً لهم فيما أقدَموا[٤] عليه من البراءة منه والطعنِ فيه[٥]، ولهذا ما رُوي عن جماعةٍ من الصحابة أنَّهم قالوا: ما كنَّا نعرفُ المنافقين على عهدِ رسول الله ﷺ إلَّا ببغضهم لعليٍّ عليه السلام[٦].

---

(١) ينظر الصواعق المحرقة لابن حجر الهيتمي ١/١٠٧.

(٢) أخرجه البخاري (٣٥١٢)، ومسلم (٢٥٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سلف تخريج الحديث، ولم نقف على هذه القصة.

(٤) في (م): قدموا.

(٥) قصة الإفك أخرجها البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها. ولم نقف على من ذكر أن النبي ﷺ قال هذا الحديث ردًّا على أهل النفاق في تلك الحادثة.

(٦) أخرجه الإمام أحمد في فضائل الصحابة (١٠٨٦) من حديث جابر بن عبد الله، وأخرجه الترمذي (٣٧١٧) من طريق أبي هارون عمارة بن جُوين العَبْدي، عن أبي سعيد الخدري، وقال: هذا حديث=

وأما الحديث الثاني، فلا خلافَ أنَّ النبيَّ ﷺ لم يُرِدْ بمنزلة هارون من موسى الخلافةَ بعدَه، ولا خلافَ أنَّ هارونَ مات قبل موسى عليهما السلام ـ على ما يأتي من بيانِ وفاتيهما في سورة المائدة[١] ـ وما كان خليفةً بعدَه، وإنَّما كان خليفة[٢] يوشع بن نون، فلو أراد بقوله: «أنتَ منِّي بمنزلة هارون من موسى» الخلافةَ، لقال: أنت منِّي بمنزلة يُوشع من موسى، فلمَّا لم يقل هذا، دلَّ على أنَّه لم يُرِدْ هذا، وإنَّما أراد: إنِّي استخلفتُك على أهلي في حياتي وغيبوبتي عن أهلي، كما كان هارون خليفةَ موسى على قومه لمَّا خرج إلى مناجاة رَبِّه. وقد قيل: إنَّ هذا الحديثَ خرج على سببٍ[٣]، وهو أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا خرَجَ إلى غَزْوة تبُوك، استخلَفَ عليًّا عليه السلام في المدينة على أهله وقومِه، فأرجَفَ[٤] أهلُ النفاق، وقالوا: إنَّما خلَّفَه بُغْضاً وقِلًى له، فخرج عليٌّ، فلحِقَ بالنبيِّ ﷺ، وقال له: إنَّ المنافقين قالوا كذا وكذا، فقال: «كَذَبوا، بل خلَّفتُكَ كما خلَّفَ موسى هارونَ». وقال: «أما تَرْضَى أن تكون منِّي بمنزلة هارونَ من موسى؟»[٥].

وإذا ثبَتَ أنَّه أراد الاستخلافَ على زعمهم، فقد شارك عليًّا في هذه الفضيلة غيرُه؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ استخلَفَ[٦] في كلِّ غَزاةٍ غزاها رجلاً من أصحابه، منهم: ابنُ أُمِّ مكتوم[٧]، ومحمد بنُ مَسْلَمة[٨]، وغيرُهما من أصحابه، على أنَّ مدارَ هذا الخبرِ

= غريب، إنما نعرفه من حديث أبي هارون، وقد تكلم شعبة في أبي هارون، وقال فيه الحافظ في التقريب: متروك، ومنهم مَنْ كذَّبه.

(١) في الآية (٢٦).

(٢) في (م): الخليفة.

(٣) الإرشاد للجويني ص ٣٥٥ ـ ٣٥٦.

(٤) في (م): أرجف به.

(٥) أخرجه بنحوه النسائي في الكبرى (٨٠٨٢) من حديث سعد بن أبي وقاص، وابن سعد ٣/ ٢٤ من حديث البراء بن عازب وزيد بن أرقم. وانظر ما سلف ص ٣٩٨، تعليق رقم (٣).

(٦) في (د): خلف.

(٧) أخرجه أحمد (١٢٣٤٤)، وأبو داود (٢٩٣١)، وابن حبان (٢١٣٤) من حديث أنس بن مالك.

(٨) ذكر ابن سعد ٢/ ١٦٥ أنَّ النبي ﷺ استخلف محمد بن مسلمة على المدينة حين خرج إلى تبوك، ثم قال: وهو أثبت عندنا ممن قال: استخلف غيره. وقيل: إنه استخلفه في غزوة قرقرة الكُدْر، فيما ذكر=

على سعد بن أبي وَقَّاص، وهو خبرُ واحدٍ[١]. ورُوِيَ في مقابلته لأبي بكر وعمر ما هو أولى منه. ورُوِيَ أنَّ النبيَّ ﷺ لما أنْفَذَ معاذَ بنَ جَبَلٍ إلى اليمن قيل له: ألا تُنْفِذُ أبا بكر وعمر؟ فقال: «إنَّهما لا غِنًى بي عنهما، إنَّ منزلَتَهما منِّي بمنزلة السَّمع والبصر من الرأس»[٢]. وقال: «هما وَزِيرايَ في أهلِ الأرض»[٣]. ورُوي عنه عليه السلام أنَّه قال: «أبو بكرٍ وعمرُ بمنزلة هارون من موسى»[٤]. وهذا الخبرُ ورد ابتداءً، وخبرُ عليٍّ ورَدَ على سببٍ، فوجَبَ أن يكون أبو بكرٍ أولى منه بالإمامة، والله أعلم.

السابعة: واختُلِفَ فيما يكون به الإمامُ إماماً، وذلك ثلاث طرق: أحدُها: النصُّ، وقد تقدَّم الخلافُ فيه، وقال به أيضاً الحنابلةُ، وجماعةٌ من أصحاب الحديث، والحَسَنُ البصريُّ، وبَكْر ابنُ أختِ عبد الواحد[٥] وأصحابُه، وطائفةٌ من

= ابن عبد البر في الاستيعاب ١٠/ ٤٥، وابن الأثير في أسد الغابة ٥/ ١١٢.
ومحمد بن مسلمة هو أبو عبد الله الأنصاري الأوسي، شهد بدراً وغيرها، وكان ممن اجتنب الفتنة فلم يحضر الجمل ولا صفين، مات سنة (٤٣هـ). السير ٢/ ٣٦٩.

(١) سلف في تخريج الحديث ص ٣٩٨ أن السيوطي عده من الأحاديث المتواترة.

(٢) أخرجه بنحوه ابن أبي عاصم في السنة (١٢٢٢)، والطبراني في مسند الشاميين (٤٩٤) من حديث عبد الله بن عمرو. ولفظه: «إن منزلتهما من الدين بمنزلة السمع والبصر من الجسد»، وفي إسناده بقية بن الوليد، مدلِّس، وقد عنعن، وفيه أيضاً من لم نعرفه. وأخرجه بنحوه كذلك أبو نعيم في الحلية ٤/ ٧٣ من حديث ابن عباس، وفيه الوليد بن الفضل العنزي، قال ابن حبان: يروي موضوعات، لا يجوز الاحتجاج به بحال. وأخرجه بنحوه كذلك الطبراني في الأوسط (٤٩٩٦)، وابن عدي ٢/ ٧٨٦ من حديث ابن عمر، وفيه حمزة بن أبي حمزة النصيبي: كان يضع الحديث.
وأخرجه بنحوه كذلك الحاكم ٣/ ٧٤ من حديث حذيفة بن اليمان، وفيه حفص بن عمر العدني، قال الذهبي: هو واهٍ.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٦٨٠) من حديث أبي سعيد الخدري، وفي إسناده عطية ا لعوفي، وهو ضعيف. قال الترمذي: هذا حسن غريب.

(٤) أخرجه ابن عدي في الكامل ٥/ ١٧٣٠، والخطيب في تاريخ بغداد ١١/ ٣٨٤ ـ ٣٨٥ من حديث ابن عباس. وهو حديث منكر فيما ذكر الذهبي في ميزان الاعتدال ٣/ ٣٩٠.

(٥) هو البصري الزاهد، قال الحافظ في لسان الميزان ٢/ ٦٠: ذكره ابن حزم في الملل والنحل في جملة الخوارج، وعبد الواحد: هو ابن زيد البصري الزاهد شيخ الصوفية. لسان الميزان ٤/ ٨١.

الخوارج. وذلك أنَّ النبيَّ ﷺ نصَّ على أبي بكر بالإشارة[١]، وأبو بكر على عمر[٢].

فإذا نصَّ المسْتَخْلِفُ على واحدٍ معيَّنٍ كما فعلَ الصدِّيقُ، أو على جماعةٍ كما فعل عمر[٣] ـ وهو الطريقُ الثاني ـ ويكون التخييرُ إليهم في تعيين واحد منهم كما فعلَ الصحابةُ رضي الله عنهم.

الطريقُ الثالث: إجماعُ أهل الحَلِّ والعَقْد، وذلك أنَّ الجماعةَ في مصرٍ من أمصار المسلمين إذا ماتَ إمامُهم ولم يكن لهم إمامٌ، ولا اسْتَخْلَفَ، فأقام أهلُ ذلك المِصْرِ الذي هو حضرةُ الإمامِ وموضعُه إماماً لأنفسهم اجتمعوا[٤] عليه ورَضُوه، فإنَّ كلَّ مَنْ خَلْفَهم وأمامَهم من المسلمين في الآفاق يَلزمُهم الدخولُ في طاعة ذلك الإمام، إذا لم يكن الإمامُ مُعْلِناً بالفسق والفساد، لأنَّها دعوةٌ محيطةٌ بهم، تجبُ إجابتُها، ولا يَسَعُ أحداً التخلُّفُ عنها، لما في إقامة إمامَيْنِ من اختلاف الكلمةِ وفسادِ ذات البَيْن، قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ لا يَغِلُّ عليهنَّ قلبُ مؤمنٍ: إخلاصُ العمل لله، ولزومُ الجماعة، ومناصحةُ وُلاةِ الأمر، فإنَّ دعوةَ المسلمين من ورائهم محيطةٌ»[٥].

الثامنة: فإنْ عَقَدَها واحدٌ من أهل الحَلِّ والعَقْد، فذلك ثابت، ويلزمُ الغيرَ فعلُه، خلافاً لبعض الناس حيث قال: لا تنعقدُ إلا بجماعةٍ من أهل الحَلِّ والعَقْد، ودليلُنا أنَّ عمر رضي الله عنه عقَدَ البيعةَ لأبي بكرٍ، ولم يُنْكِرْ أحدٌ من الصحابة ذلك[٦]، ولأنَّه عقدٌ، فوجَبَ ألا يفتقر إلى عددٍ يعقدونه، كسائر العقود. قال الإمام

---

(١) من ذلك ما أخرجه البخاري (٧٢١٧)، ومسلم (٢٣٨٧) ـ واللفظ له ـ من حديث عائشة، قالت: قال لي رسول الله ﷺ في مرضه: «ادعي لي أبا بكر وأخاك حتى أكتب كتاباً؛ فإني أخاف أن يتمنَّى متمنٍّ، ويقول قائل: أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر».
ومن ذلك أيضاً ما أخرجه أحمد (٢٣٢٤٥)، والترمذي (٣٦٦٢)، و ابن ماجه (٩٧) من حديث حذيفة بن اليمان، أن النبي ﷺ قال: «اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر». قال الترمذي: حديث حسن.

(٢) سلف تخريجه ص ٣٩٦.

(٣) سيرد تخريجه ص ٤٠٣.

(٤) في (ز) و(ظ): أجمعوا.

(٥) أخرجه أحمد (١٦٧٣٨)، وابن ماجه (٣٠٥٦) من حديث جبير بن مطعم. وأخرجه أحمد كذلك (٢١٥٩٠) من حديث زيد بن ثابت. وينظر التمهيد ٢١/ ٢٧٦ ـ ٢٧٨.

(٦) سلف حديث السقيفة ص ٣٩٦.

أبو المَعالي[١]: من انعقدت له الإمامةُ بعقدٍ واحدٍ فقد لزمت، ولا يجوزُ خلعُه من غير حَدَث وتغيُّرِ أمرٍ، قال: وهذا مُجْمَعٌ عليه.

التاسعة: فإنْ تَغَلَّبَ مَنْ له أهليَّةُ الإمامة، وأخَذَها بالقَهْر والغَلَبَة، فقد قيل: إنَّ ذلك يكون طريقاً رابعاً، وقد سُئل سهلُ بنُ عبد الله التُّسْتَريُّ[٢]: ما يجبُ علينا لمن غَلَبَ على بلادنا وهو إمام؟ قال: تُجيبُه، وتؤدِّي إليه ما يُطالبُكَ[٣] من حقِّه، ولا تُنكِرُ فِعالَه، ولا تَفِرُّ[٤] منه، وإذا ائتمنَك على سرٍّ من أمرِ الدِّين لم تُفْشِهِ. وقال ابن خُوَيزمَنداد[٥]: ولو وثبَ على الأمرِ مَنْ يصلُحُ له من غير مشورةٍ ولا اختيارٍ، وبايَعَ له الناسُ، تَمَّتْ له البَيْعة، والله أعلم.

العاشرة: واختُلف في الشهادة على عَقْدِ الإمامة، فقال بعضُ أصحابنا: إنَّه لا يفتقرُ إلى الشهود؛ لأنَّ الشهادةَ لا تثبُتُ إلَّا بسمعٍ قاطعٍ، وليس هاهنا سمعٌ قاطعٌ يدلُّ على إثبات الشهادة. ومنهم من قال: يَفْتَقِرُ إلى شهودٍ، فمن قال بهذا احتجَّ بأن قال: لو لم تعقد فيه الشهادةُ أدَّى إلى أن يَدَّعيَ كلُّ مدَّعٍ أنَّه عُقِدَ له سرًّا، ويؤدِّي إلى الهَرْج والفتنة، فوجَبَ أن تكونَ الشهادةُ معتبرةً، ويكفي فيها شاهدان، خلافاً للجبَّائيِّ[٦] حيث قالَ باعتبارِ أربعةِ شهودٍ وعاقدٍ ومعقودٍ له؛ لأنَّ عمر حيثُ جعلَها شُورى في ستةٍ دلَّ على ذلك[٧]. ودليلُنا أنَّه لا خلافَ بيننا وبينه أنَّ شهادةَ الاثنين معتبرةٌ، وما زادَ مختلَفٌ فيه، ولم يدلَّ عليه الدليلُ، فيجب ألَّا يُعتبر.

---

(١) في الإرشاد ص ٣٥٨.

(٢) أبو محمد الزاهد، صحب ذا النون المصري، مات سنة (٢٨٣هـ). السير ١٣/ ٣٣٠.

(٣) في (ظ): يطالبك به.

(٤) في (ظ): تنفر.

(٥) في (د): خواز منداد، وفي (ز): خواز منداذ، وفي (ظ): خوازبنداد، والمثبت من (م). وانظر ص ١٨٠.

(٦) المعروف بهذه النسبة: محمد بن عبد الوهاب البصري، أبو علي، شيخ المعتزلة، له كتاب الأصول، وكتاب الاجتهاد، وكتاب الأسماء والصفات وغيرها، مات سنة (٣٠٣هـ). السير ١٤/ ١٨٣. وابنُه عبد السلام، أبو هاشم المعتزلي، له كتاب الجامع الكبير، وكتاب العَرَض، وغيرهما، مات سنة (٣٢١هـ). السير ١٥/ ٦٣.

(٧) أخرج البخاري (١٣٩٢) من طريق عمرو بن ميمون الأودي، عن عمر رضي الله عنه قال: إني لا أعلم أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، فمن استخلفوا بعدي فهو الخليفة، فاسمعوا وأطيعوا، فسمى عثمانَ وعليًّا وطلحةَ والزبيرَ وعبدَ الرحمن بنَ عوف وسعد بنَ أبي وقاص.

الحاديةَ عشرة: في شرائط الإمام[١]، وهي أحدَ عشر:

الأوَّل: أن يكون من صميمِ قريشٍ؛ لقوله ﷺ: «الأئمةُ من قريش»[٢]. وقد اختُلِف في هذا.

الثاني: أن يكون ممَّن يصلُحُ أن يكون قاضياً من قضاة المسلمين، مجتهداً لا يحتاجُ إلى غيره في الاستفتاء في الحوادث؛ وهذا مُتَّفَقٌ عليه.

الثالث: أن يكون ذا خبرةٍ ورأي حَصيفٍ بأمر الحرب، وتدبير الجيوش، وسدِّ الثُّغُور، وحمايةِ البيضة، ورَدْعِ الأُمة، والانتقامِ من الظالم، والأخذِ للمظلوم.

الرابع: أن يكون ممَّن لا تلحقه رِقَّةٌ في إقامة الحدود، ولا فَزَعٌ من ضربِ الرقاب، ولا قطعِ الأبشار.

والدليلُ على هذا كلِّه إجماعُ الصحابة رضي الله عنهم، لأنَّه لا خلافَ بينهم أنَّه لا بدَّ من أن يكون ذلك كلُّه مجتمعاً فيه، ولأنَّه هو الذي يولِّي القُضاةَ والحُكَّامَ، وله أن يُباشرَ الفَصْلَ والحُكْمَ، ويتفحَّصَ أمورَ خلفائه وقُضاتِه، ولن يصلُحَ لذلك كلِّه إلَّا من كان عالماً بذلك كلِّه قَيِّماً به[٣].

الخامس: أن يكون حُرًّا، ولا خَفاءَ باشتراطِ حرِّيةِ الإمام وإسلامِه، وهو السادس.

السابع: أن يكون ذكراً، سليمَ الأعضاء، وهو الثامن.

وأجمعوا على أنَّ المرأةَ لا يجوزُ أن تكون إماماً، وإن اختلفوا في جواز كونِها قاضيةً فيما تجوزُ شهادتُها فيه.

التاسع والعاشر: أن يكون بالغاً عاقلاً، ولا خلافَ في ذلك.

الحادي عشر: أن يكون عَدْلاً؛ لأنَّه لا خلافَ بين الأُمَّة أنَّه لا يجوزُ أن تُعقَدَ الإمامةُ لفاسقٍ.

---

(١) ينظر الإرشاد للجويني ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩.

(٢) أخرجه أحمد (١٢٣٠٧)، والنسائي في الكبرى (٥٩٠٩) من حديث أنس بن مالك. وأخرجه الطيالسي (٩٦٨)، وأحمد (١٩٧٧٧) من حديث أبي برزة الأسلمي.

(٣) في (م) زيادة: والله أعلم.

ويجبُ أن يكون من أفضلِهم في العلم، لقوله عليه السلام: «أئمَّتُكم شفعاؤكم، فانظروا بمن تستشفعون»[١]. وفي التنزيل في وصف طالوت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. فبدأ بالعلم، ثم ذكرَ ما يدلُّ على القوَّةِ وسلامةِ الأعضاء. وقوله: «اصطفاه» معناه: اختاره، وهذا يدلُّ على شرطِ النَّسَب.

وليس من شرطِه أن يكون معصوماً من الزَّلَلِ والخطأ، ولاعالماً بالغيب، ولا أفرَسَ الأُمة، ولا أشْجَعَهم، ولا أن يكون من بني هاشم فقط دون غيرهم من قريش، فإنَّ الإجماعَ قد انعقد على إمامة أبي بكر وعمر وعثمان، وليسوا من بني هاشم.

الثانية عشرة: يجوز نصبُ المفضول مع وجودِ الفاضل[٢] خوفَ الفتنةِ وألَّا يستقيمَ أمرُ الأُمة، وذلكَ أنَّ الإمامَ إنَّما نُصِبَ لدفعِ العدوِّ، وحمايةِ البَيْضَةِ، وسَدِّ الخَلَل، واستخراجِ الحقوق، وإقامة الحدود، وجباية[٣] الأموال لبيت المال وقسمتِها على أهلها، فإذا خيفَ بإقامةِ الأفضل الهَرْجُ والفسادُ وتعطيلُ الأمور التي لأجلها يُنْصَبُ الإمامُ، كان ذلك عُذْراً ظاهراً في العدول عن الفاضل إلى المفضول، ويدلُّ على ذلك أيضاً علمُ عمرَ وسائرِ الأمة وقت الشُّورى بأنَّ الستةَ فيهم فاضلٌ ومفضولٌ، وقد أجازَ العقدَ لكلِّ واحدٍ منهم إذا أدَّى المصلحةَ إلى ذلك، واجتمعت كلمتُهم عليه من غير إنكارِ أحدٍ عليه[٤]، والله أعلم.

الثالثةَ عشرة: الإمامُ إذا نُصِبَ، ثم فَسَقَ بعد انبرامِ العَقْدِ:

فقال الجمهور: إنَّه تنفسخُ إمامتُه، ويُخلع بالفسقِ الظاهر المعلوم، لأنَّه قد ثبتَ أنَّ الإمامَ إنَّما يُقام لإقامة الحدود، واستيفاءِ الحقوق، وحفظِ أموالِ الأيتامِ

---

(١) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وذكره ابن قدامة في المغني ٣/ ٤٠٩. وأخرج الدارقطني في السنن ٢/ ٨٨، والبيهقي في السنن الكبرى ٣/ ٩٠ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله: «اجعلوا أئمتكم خياركم، فإنهم وَفْدكم فيما بينكم وبين الله عز وجل». قال البيهقي: إسناد هذا الحديث ضعيف. وسيورده المصنف عند قوله تعالى: ﴿وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣] المسألة الرابعة والعشرون.

(٢) في (ز) و(ظ): الأفضل.

(٣) في (د): وحيازة.

(٤) في (م): عليهم.

والمجانينِ والنظرِ في أمورهم، إلى غير ذلك ممَّا تقدَّم ذِكْره، وما فيه من الفسق يُقْعِدُه عن القيام بهذه الأمور والنهوضِ بها[١]، فلو جوَّزْنا أن يكون فاسقاً، أدَّى إلى إبطال ما أُقيمَ لأجله، ألا ترى في الابتداء أنَّما لم يَجُزْ أن يُعقَدَ للفاسق لأجل أنَّه يؤدي إلى إبطال ما أُقيم له؟ وكذلك هذا مثلُه.

وقال آخرون: لا ينخلعُ إلَّا بالكفرِ، أو بتركِ إقامةِ الصلاة، أو التَّركِ إلى دعائها، أو شيءٍ من الشريعة، لقوله عليه السلام في حديث عُبادة: وألَّا نُنازِعَ الأمرَ أهلَه. [قال]: «إلَّا أن تَرَوْا كُفْراً بَوَاحاً، عندَكم من الله فيه برهانٌ»[٢].

وفي حديث عوفِ بنِ مالك[٣]: «لا، ما أقامُوا فيكم الصلاةَ»[٤] الحديث[٥]. أخرجَهما مسلم. وعن أمِّ سَلَمةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّه يُستَعمَلُ[٦] عليكم أمراءُ، فتَعرِفُون وتُنْكِرون، فمن كَرِهَ فقد بَرئ، ومَنْ أنْكَرَ فقد سَلِمَ، ولكنْ مَنْ رَضِيَ وتابَعَ»[٧]. قالوا: يا رسول الله، ألَا نُقاتِلُهم؟ قال: «لا، ما صَلَّوْا». أي: من كَرِه بقلبه وأنكر بقلبه. أخرجه أيضاً مسلم[٨].

الرابعةَ عشرة: ويجبُ عليه أن يخلَعَ نفسَه إذا وجدَ في نفسه نقصاً يؤثِّر في الإمامة، فأمَّا إذا لم يجد نَقْصاً؛ فهل له أن يَعزِلَ نفسَه ويعقِدَ لغيره؟ اختلَفَ الناسُ فيه: فمنهم من قال: ليس له أن يَفْعَلَ ذلك، وإن فعلَ لم تَنْخَلِعْ إمامتُه. ومنهم من قال: له أن يفعل ذلك.

والدليلُ على أنَّ الإمامَ إذا عَزَلَ نفسَه انعزل: قولُ أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه: أقِيلُوني، أقِيلُوني. وقولُ الصحابة: لا نُقِيلُكَ ولا نستقيلُك، قدَّمك رسولُ الله ﷺ

---

(١) في النسخ: والنهوض فيها، والمثبت من (م).

(٢) أخرجه البخاري (٧٠٥٦)، ومسلم (١٧٠٩) كتاب الإمارة (٣/ ١٤٧٠) وما بين حاصرتين منه.

(٣) هو أبو عبد الرحمن، الأشجعي الغطفاني، شهد فتح مكة وغزوة مؤتة، مات سنة (٧٣هـ). السير ٢/ ٤٨٧.

(٤) صحيح مسلم (١٨٥٥)، وهو في المسند (٢٣٩٨١).

(٥) في (ز): والحديثين.

(٦) في (د): سيستعمل.

(٧) في (ظ): ويبايع.

(٨) رقم (١٨٥٤) (٦٣)، وهو في المسند (٢٦٥٢٨).

لِدِينِنا، فمَنْ ذا يؤخِّرك؟ رَضِيَكَ رسولُ الله ﷺ لِدِينِنا فلا[١] نرضاك؟![٢]» فلو لم يكن له أن يفعلَ ذلك لأنكرت الصحابةُ ذلك عليه، ولقالت له: ليس لك أن تقول هذا، وليس لك أن تفعلَه، فلمَّا أقرَّته الصحابةُ على ذلك، عُلِمَ أنَّ للإمام أن يفعلَ ذلك، ولأنَّ الإمامَ ناظرٌ للغير[٣]، فيجب أن يكونَ حكمُه حكمَ الحاكمِ والوكيلِ إذا عزَلَ نفسَه، فإنَّ الإمامَ هو وكيلُ الأمةِ ونائبٌ عنها، ولمَّا اتُّفِقَ على أنَّ الوكيلَ والحاكمَ وجميعَ مَنْ نابَ عن غيره في شيءٍ له أن يَعْزِلَ نفسَه، كذلك الإمامُ يجبُ أن يكونَ مثلَه. والله أعلم.

الخامسةَ عشرة: إذا انعقدت الإمامةُ باتفاق أهلِ الحَلِّ والعَقْد ـ أو بواحدٍ على ما تقدَّم ـ وجَبَ على الناس كافَّةً مبايعتُه على السمع والطاعة، وإقامةِ كتابِ الله وسُنَّةِ رسولِه ﷺ، ومن تَأَبَّى عن البَيعة لعُذْرٍ عُذِرَ، ومَنْ تَأَبَّى لغيرِ عُذْر جُبِرَ وقُهِرَ، لئلَّا تفترق كلمةُ المسلمين.

وإذا بُويع لخليفتين، فالخليفةُ الأول، وقُتِلَ الآخرُ، واختُلف في قتله: هل هو محسوسٌ، أو معنًى؛ فيكونَ عزلُه قتلَه وموتَه؟ والأوَّلُ أظهَرُ. قال رسول الله ﷺ: «إذا بُويعَ لخليفتين فاقْتُلُوا الآخَرَ منهما». رواه أبو سعيد الخُدريُّ، أخرجه مسلم[٤].

وفي حديث عبد الله بن عمرو، عن النبيِّ ﷺ أنَّه سمعَه يقول: «ومَنْ بايَعَ إماماً، فأعطاه صَفْقَةَ يدِه وثمرةَ قلبه، فلْيُطِعْه إنِ استطاع، فإن جاء آخرُ ينازِعُه فاضربوا عنقَ الآخَرِ». رواه مسلم[٥] أيضاً، ومن حديث عَرْفَجَة[٦]: «فاضْرِبُوه بالسيف كائناً مَنْ[٧]

---

(١) في (د) و(ظ): أفلا.

(٢) أخرجه أحمد في فضائل الصحابة (١٣٣) مختصراً، وفيه تليد بن سليمان: رماه ابن معين بالكذب، وأورد الحافظ هذا الحديث في تلخيص الحبير ٤/ ٤٥، وعزاه لأبي خير الطالقاني في السنة، ثم قال: وهو منكر متناً، ضعيف منقطع سنداً.

(٣) في (م): للغيب.

(٤) رقم (١٨٥٣).

(٥) رقم (١٨٤٤)، وهو في المسند (٦٥٠١).

(٦) ابن شُرَيح، ويقال غير ذلك، الأشجعي، له صحبة، روى له مسلم وأبو داود والنسائي حديثاً واحداً، وهو هذا الحديث. تهذيب الكمال ١٩/ ٥٥٥، والإصابة ٦/ ٤١١.

(٧) في (ظ): ما.

كان»[١]. وهذا أدلُّ دليلٍ على منعِ إقامة إمامين، ولأنَّ ذلك يؤدِّي إلى النفاقِ والمخالفةِ والشِّقاق، وحدوثِ الفتن، وزوالِ النعم، لكن إن تباعدتِ الأقطارُ وتباينت، كالأندلس وخُراسان جاز ذلك[٢]، على ما يأتي بيانُه إن شاء الله تعالى.

السادسة عشرة: لو خرجَ خارجيٌّ على إمامٍ معروفِ العدالة، وجَبَ على الناس جهادُه، فإن كان الإمامُ فاسقاً والخارجيُّ مظهرٌ للعدلِ، لم ينبغ للناس أن يُسرعوا إلى نُصْرة الخارجيِّ حتى يتبيَّنَ أمرُه فيما يُظهر من العدل، أو تتفقُ كلمةُ الجماعة على خَلْع الأول، وذلك أنَّ كلَّ مَنْ طَلَبَ مثلَ هذا الأمرِ أظهَرَ من نفسِه الصَّلاحَ، حتى إذا تمكَّن رجَعَ إلى عادته من خلافِ ما أظهَرَ.

السابعةَ عشرة: فأمَّا إقامةُ إمامَيْن أو ثلاثة في عصرٍ واحد وبلدٍ واحد، فلا يجوزُ إجماعاً لما ذكرنا.

قال الإمام أبو المَعَالي[٣]: ذهبَ أصحابُنا إلى منع عقدِ الإمامة لشخصين في طرفي العالَم، ثم قالوا: لو اتفَقَ عقدُ الإمامة لشخصين، نزلَ ذلك منزلةَ تزويجِ وَلِيَّين امرأةً واحدةً من زوجين من غير أن يشعُرَ أحدُهما بعقد الآخر. قال: والذي عندي فيه أنَّ عقدَ الإمامةِ لشخصين في صُقْع واحدٍ متضايقِ الخِطَطِ والمخاليفِ غيرُ جائزٍ، وقد حصلَ الإجماعُ عليه، فأمَّا إذا بَعُدَ المَدَى، وتخلَّل بين الإمامين شُسوع النَّوَى، فللاحتمال في ذلك مجالٌ، وهو خارجٌ عن القواطع.

وكان الأستاذ أبو إسحاق[٤] يُجَوِّز ذلك في إقليمين متباعدَيْن غايةَ التباعُد، لئلَّا تتعطَّلَ حقوقُ الناس وأحكامُهم، وذهبت الكَرَّاميةُ إلى جواز نَصْب إمامين من غير تفصيل، ويلزمُهم إجازةُ ذلك في بلدٍ واحد، وصارُوا إلى أنَّ عليًّا ومعاويةَ كانا إمامين.

---

(١) صحيح مسلم (١٨٥٢)، وهو في المسند (١٨٢٩٥).

(٢) في (د): فإن ذلك جائز.

(٣) الإرشاد ص ٣٥٧ ـ ٣٥٨.

(٤) إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الإسفراييني، الأصولي، المتكلم، الفقيه، الشافعي، أحد المجتهدين في عصره، وعنه أخذ الكلام والأصول عامة شيوخ نيسابور. من تصانيفه: «جامع الخلي في أصول الدين والرد على الملحدين» و«تعليقة في أصول الفقه». توفي سنة ٤١٨هـ. طبقات الشافعية الكبرى ٤/ ٢٥٦، والسير ١٧/ ٣٥٣.

قالوا: وإذا كانا اثنين في بلدين أو ناحيتين كان كلُّ واحدٍ منهما أَقْوَمَ بما في يديه وأضبطَ لما يَلِيه، ولأنَّه لمَّا جازَ بِعْثةُ نبيَّين في عصرٍ واحدٍ، ولم يُؤدِّ ذلك إلى إبطال النبوة، كانت الإمامةُ أولى، ولا يؤدي ذلك إلى إبطال الإمامة، والجوابُ أنَّ ذلك جائزٌ لولا منعُ الشرعِ منه، لقوله: «فاقتلوا الآخَرَ منهما»[١]. ولأنَّ الأُمَّة عليه، وأمَّا معاويةُ فلم يدَّع الإمامةَ لنفسه، وإنَّما[٢] ادعى ولايةَ الشام بتولية مَنْ قبلَه من الأئمة، وممَّا يدلُّ على هذا إجماعُ الأمة في عصرهما على أنَّ الإمامَ أحدُهما[٣]، ولا قال أحدُهما: إنِّي إمامٌ، ومخالفي إمامٌ. فإن قالوا: العقلُ لا يُحِيلُ ذلك، وليس في السمع ما يمنعُ منه، قلنا: أقوى السَّمْعِ الإجماعُ، وقد وُجِدَ على المنع.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ قد علمنا قطعاً أنَّ الملائكةَ لا تعلمُ إلَّا ما أُعْلِمَتْ، ولا تَسبِقُ بالقول، وذلك عامٌّ في جميع الملائكة، لأنَّ قوله: ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ [الأنبياء: ٢٧] خرج على جهة المَدْح لهم، فكيف قالوا: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾؟

فقيل: المعنى أنَّهم لمَّا سمعوا لفظَ «خليفة» فهمُوا أنَّ في بني آدمَ مَنْ يُفسِدُ، إذ الخليفةُ المقصودُ منه الإصلاحُ وتركُ الفسادِ، لكن عمَّموا الحكمَ على الجميع بالمعصية، فبيَّن الربُّ تعالى أنَّ فيهم مَنْ يُفسِدُ ومن لا يُفسِدُ، فقال تطييباً لقلوبهم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ﴾، وحَقَّقَ ذلك بأنْ عَلَّمَ آدَمَ الأسماءَ، وكشَفَ لهم عن مكنون عِلْمِه.

وقيل: إنَّ الملائكة قد رَأَتْ وعَلِمَتْ ما كان من إفسادِ الجنِّ وسَفْكِهِم الدماءَ، وذلك لأنَّ الأرضَ كان[٤] فيها الجنُّ قبل خَلْق آدمَ، فأفسدوا وسَفَكوا الدماءَ، فبعثَ الله إليهم إبليسَ في جندٍ من الملائكة، فقتلَهم وألحقَهم[٥] بالبحار ورؤوس الجبال[٦]، فمن حينئذٍ دخَلَته العِزَّة، فجاء قولهم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾ على جهة الاستفهام

(١) سلف تخريجه ص ٤٠٧.

(٢) في (ظ): بل.

(٣) في (د): أحد هؤلاء.

(٤) في (ز): كانت.

(٥) في (د): وألحقوهم.

(٦) لم يثبت في ذلك خبر مرفوع، إنما أخرج الحاكم ٢/ ٢٦١ نحوه عن ابن عباس قولَه.

المَحْض: هل هذا الخليفةُ على طريقة من تقدَّم من الجنِّ أم لا؟ قاله أحمد بنُ يحيى ثعلبُ.

وقال ابن زيد[١] وغيره: إنَّ الله تعالى أعلَمَهم أنَّ الخليفةَ سيكون من ذُرِّيته قومٌ يُفسِدون في الأرض ويسفكون الدماءَ، فقالوا لذلك هذه المقالةَ، إمَّا على طريق التعجُّب من استخلاف الله من يَعصِيه، أو مِنْ عِصْيان الله مَنْ يستخلفُه في أرضه ويُنعم عليه بذلك، وإمَّا على طريق الاستعظام والإكبار للفصلين[٢] جميعاً: الاستخلاف والعصيان[٣].

وقال قتادة: كان الله أعلَمَهم أنَّه إذا جعلَ في الأرض خلقاً[٤] أفسدوا وسفكُوا الدماءَ، فسألوا حين قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾: أهو الذي أعلَمَهم أم غيرُه؟

وهذا قول حَسَن، رواه عبد الرزاق[٥] قال: أخبرنا مَعْمَر، عن قتادة في قوله: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ قال: كان الله أعلَمَهم أنَّه إذا كان في الأرض خَلْقٌ أفسدوا فيها، وسَفَكُوا الدماء، فلذلك قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾. وفي الكلام حذفٌ على مذهبه، والمعنى: إنِّي جاعلٌ في الأرض خليفةً يفعل كذا ويفعل كذا، فقالوا: أتجعلُ فيها الذي أعلَمْتناه أم غيره؟ والقولُ الأوّلُ أيضاً حسنٌ جدًّا، لأنَّ فيه استخراجَ العلمِ واستنباطَه من مقتضى الألفاظِ، وذلك لا يكون إلا من العلماء، وما بين القولين حسنٌ، فتأمَّلْه.

وقد قيل: إنَّ سؤالَه تعالى للملائكة بقوله: «كيف تركتُم عبادي؟» ـ على ما ثبتَ

---

(١) عبد الرحمن بن زيد بن أسلم مولى عمر رضي الله عنه، كان صاحب قرآن وتفسير، جمع تفسيراً في مجلد، وكتاباً في الناسخ والمنسوخ، وهو أخو أسامة وعبد الله، وفيهم لين، توفي سنة (١٨٢هـ). السير ٨/ ٣٤٩.

(٢) في (ظ): للمفصلين.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ١١٧. وقوله: إما على طريق التعجب... إلخ، ليس من كلام ابن زيد، بل من كلام ابن عطية.

(٤) في (د): خلفاء، وفي (ز): خليفة.

(٥) تفسير عبد الرزاق ١/ ٤٢.

في صحيح مسلم[١] وغيره ـ إنَّما هو على جهة[٢] التوبيخ لمن قال: «أتجعلُ فيها»، وإظهارٌ لما سَبَقَ في معلومه إذ قال لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

قوله: ﴿مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ «مَنْ» في موضع نَصْب على المفعول بـ «تجعل»، والمفعول الثاني يقوم مقامَه «فيها».

«يُفسد» على اللفظ، ويجوزُ في غير القرآن: يفسدون، على المعنى. وفي التنزيل: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَۖ﴾ [محمد: ١٦]. على اللفظ، ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُونَ﴾ [يونس: ٤٢] على المعنى.

﴿وَيَسۡفِكُ﴾ عطف عليه، ويجوزُ فيه الوجهان. ورَوى أسيد عن الأعرج[٣] أنه قرأ: «ويَسْفِكَ الدّماءَ» بالنصب[٤]، يجعلُه جوابَ الاستفهام بالواو[٥]، كما قال[٦]:

ألـم أكُ جـارَكُـم ويـكـونَ[٧] بـيـنـي وبـيـنَـكُـم الـمـودَّةُ والإخـاءُ[٨]

والسَّفْكُ: الصَّبُّ، سفكتُ الدَّمَ أَسْفِكُه سَفْكاً: صَبَبْتُه، وكذلك الدمعُ، حكاه ابنُ فارس والجوهريُّ[٩]. والسفَّاكُ: السفَّاحُ، وهو القادرُ على الكلام. قال المهدويُّ: ولا يستعمل السفكُ إلا في الدم، وقد يستعملُ في نثر الكلام، يقال: سفكَ الكلامَ: إذا نثرَه.

وواحدُ الدماء دَمٌ، محذوفُ اللام، قيل[١٠]: أصلُه دَمْيٌ، وقيل: دَمَيٌ، ولا يكون

---

(١) رقم (٦٣٢) من حديث أبي هريرة، وأخرجه أيضاً البخاري (٥٥٥)، وهو في المسند (٧٤٩١).

(٢) في (د): سبيل.

(٣) أسيد هو ابن يزيد المديني، والأعرج هو عبد الرحمن بن هرمز، الحافظ المقرئ، مات مرابطاً بالاسكندرية سنة (١١٧هـ). التاريخ الكبير ٢/ ١٥، والجرح والتعديل ٢/ ٣١٦، و السير ٥/ ٦٩.

(٤) القراءات الشاذة لابن خالويه ص ٤.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٧.

(٦) في (د) و(ظ): كما قال الشاعر.

(٧) في (ز) و(م): وتكون، والمثبت من (د) و(ظ)، وهو الموافق للمصادر.

(٨) البيت للحطيئة، وهو في ديوانه ص ٩٨، وروايته فيه: ألم أكُ مسلماً فيكونَ بيني. وهو من شواهد سيبويه ٣/ ٤٣.

(٩) مجمل اللغة ٢/ ٤٦٣، والصحاح: (سفك).

(١٠) في (م): وقيل.

اسمٌ على حرفين إلا وقد حُذِفَ منه، والمحذوفُ منه ياءٌ، وقد نُطِقَ به على الأصل[١]، قال الشاعر:

فلو أنَّا على حجرٍ ذُبحنا جَرى الدَّمَيان بالخبرِ اليقين[٢]

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾ أي: نُنَزِّهُك عمَّا لا يَليقُ بصفاتك، والتسبيحُ في كلامهم: التنزيهُ من السُّوء على وجهِ التعظيم، ومنه قولُ أعْشَى بني ثَعْلَبَة[٣]:

أقُولُ لمَّا جاءني فَخرُه سبحانَ مِن عَلْقَمَةَ الفاخرِ

أي: براءة من عَلْقَمة.

وروى طلحةُ بنُ عُبَيد الله[٤] قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن تفسير سبحان الله، فقال: «هو تنزيهُ الله عزَّ وجلَّ عن كلِّ سُوء»[٥]. وهو مشتقٌّ من السَّبْح، وهو الجَرْيُ والذهاب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾ [المزمل: ٧]، فالمسبِّح جارٍ في تنزيه[٦] الله تعالى وتبرئته من السُّوء.

وقد تقدَّم الكلامُ في «نحن»[٧]، ولا يجوز إدغامُ النون في النون لئلَّا يلتقيَ ساكنان[٨].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٧، وقال الجوهري في الصحاح (دما): أصله: دَمَوٌ، بالتحريك، وإنما قالوا: دَمِيَ يَدْمَىٰ، لحال الكسرة التي قبل الياء، كما قالوا: رَضِيَ يَرْضَىٰ.

(٢) نسب البيت في أمالي الزَّجَّاجي ص ٢٠، وخزانة الأدب ٣/ ٣٥١ (طبعة بولاق) لعلي بن بدَّال، ونسبه في الحماسة البصرية ١/ ٤٠ للمثقب العبدي، ونسب لغيرهما كذلك فيما ذكر البغدادي في الخزانة ٣/ ٣٥٣، غير أنه رجح نسبته لعلي بن بدَّال، وهو في اللسان: (دمي) غير منسوب.

(٣) هو الأعشى الكبير، والبيت في ديوانه ص ١٩٣.

(٤) أبو محمد القرشي، التميمي، المكي، أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، قُتل يوم الجمل. السير ١/ ٢٣.

(٥) أخرجه الشاشي في مسنده (١٠)، والحاكم ١/ ٥٠٢ من طريق طلحة بن يحيى بن طلحة، عن أبيه، عن طلحة بن عبيد الله، به. قال الحاكم: هذا حديث صحيح، ولم يخرجاه، وتعقبه الذهبي بقوله: بل لم يصح؛ فإن طلحة منكر الحديث، قاله البخاري... إلخ.

(٦) في (د): تسبيح.

(٧) ص ٣٠٨.

(٨) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٨. لكن إدغام النونين في قوله: ﴿ونحن نسبح﴾ هو من الإدغام الكبير لأبي عمرو من السبعة في رواية السوسي، فهو يدغم النون في مثلها ولا ينظر إلى ما قبلَها. التذكرة ١/ ١١١ لابن غلبون.

مسألة: واختلَفَ أهلُ التأويل في تسبيح الملائكة، فقال ابنُ مسعود وابنُ عباس: تسبيحُهم صلاتُهم[١]، ومنه قول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ [الصافات: ١٤٣] أي: من المُصَلِّين[٢]. وقيل: تسبيحُهم رفعُ الصوت بالذِّكر. قالَه المُفَضَّل، واستشهد بقول جرير:

قَبَحَ الإلهُ وجوهَ تَغْلِبَ كلَّما ... سَبَحَ الحجيجُ وكَبَّروا إهلالا[٣]

وقال قتادة: تسبيحُهم: سبحان الله، على عُرْفِه في اللغة[٤]. وهو الصَّحيح، لما رواه[٥] أبو ذَرٍّ أنَّ رسولَ الله ﷺ سُئل: أيُّ الكلام أفضلُ؟ قال: «ما اصطفى الله لملائكته [أو لعباده]: سبحان الله وبحمده». أخرجه مسلم[٦]. وعن عبد الرحمن بن قُرْط[٧]، أنَّ رسول الله ﷺ ليلة أُسْريَ به سمع تسبيحاً في السماوات العُلا: «سبحان العليِّ الأعلى، سبحانه وتعالى». ذكره البيهقي[٨].

قوله تعالى: ﴿بِحَمْدِكَ﴾ أي: وبحمدك، نَخلِطُ التسبيحَ بالحمد، ونَصِلُه به. والحمدُ: الثناء، وقد تقدم[٩]. ويحتمل أن يكون قولهم: «بحمدك» اعتراضاً بين الكلامين، كأنَّهم قالوا: ونحن نسبِّحُ ونقدِّسُ، ثم اعترضوا على جهة التسليم، أي: وأنت[١٠] المحمودُ في الهداية إلى ذلك. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ أي: نُعَظِّمُك ونُمجِّدُك، ونُطَهِّرُ ذِكْرَكَ عمَّا لا يليقُ بك ممَّا نَسَبَكَ إليه الملحدون. قاله مجاهد وأبو صالح وغيرهما[١١]. وقال الضحَّاك

---

(١) أخرجهما الطبري ١/ ٥٠٤.

(٢) في (م): أي المصلين.

(٣) ديوانه ١/ ٥٢. وفيه: شبح الحجيج. وفسره ابن حبيب شارحُه بقوله: الشبح: رفع الأيدي بالدعاء.

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ١/ ٥٠٥.

(٥) في (ظ): روى.

(٦) رقم (٢٧٣١) وما بين حاصرتين منه. وهو في المسند (٢١٥٢٩).

(٧) الثُّمالي، الحمصي، كان من أهل الصُّفَّة، سكن الشام. الإصابة ٦/ ٣١٧.

(٨) لم نجده عند البيهقي، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٣٧٥٤)، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٧ ـ ٨.

(٩) ص ٢٠٥.

(١٠) في (ز): أي ونحمدك وأنت، وفي (ظ): أي نحمدك وأنت.

(١١) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٥٠٦.

وغيره: المعنى نُطَهِّر أنفسَنا لك ابتغاءَ مرضاتك[١]. وقال قومٌ منهم قتادة: «نقدِّسُ لك» معناه: نصلِّي. والتقديسُ: الصلاة[٢]. قال ابن عطية[٣]: وهذا ضعيف.

قلت: بل معناه صحيحٌ، فإنَّ الصلاةَ تشتمل على التعظيم والتقديس والتسبيح، وكان رسول الله يقول في ركوعه وسجوده: «سُبُّوحٌ قُدُّوس رَبُّ الملائكةِ والرُّوح». روته عائشة، أخرجه مسلم[٤]. وبناء «قدَّس»[٥] كيفما تصرَّفَ فإنَّ معناه التطهير، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة: ٢١]، أي: المُطَهَّرة. وقال: ﴿ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ﴾ [الحشر: ٢٣] يعني[٦] الطاهر، ومثله: ﴿بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢]. وبيتُ المَقْدِس سُمِّيَ به لأنَّه المكانُ الذي يُتقدَّسُ فيه من الذنوب، أي: يُتَطهَّر، ومنه قيل للسَّطْل: قَدَس، لأنَّه يُتوضَّأ فيه ويُتَطَهَّر؛ ومنه القادوس[٧]. وفي الحديث: «لا قُدِّسَتْ أُمَّةٌ لا يُؤخذ لضعيفها مِن قَوِيِّها». يريد: لا طَهَّرَها الله. أخرجه ابنُ ماجه في «سُنَنه»[٨] فالقُدْس: الطُّهْر من غير خلاف، وقال الشاعر:

فأدْرَكْنَهُ يأخُذْنَ بالسَّاق والنَّسَا كما شَبْرَقَ الوِلدانُ ثَوْبَ المُقَدَّسِ[٩]

أي: المطهّر[١٠].

---

(١) أخرجه الطبري ١/٥٠٦.

(٢) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/٤٢، والطبري ١/٥٠٥.

(٣) المحرر الوجيز ١/١١٨.

(٤) رقم (٤٨٧)، وهو في المسند (٢٤٠٦٣).

(٥) في (د) و(ظ) قدوس.

(٦) في (د) و(ظ): أي.

(٧) هو إناء من خَزَف أصغر من الجرَّة، يُخرج به الماء من السواقي، والجمع قواديس. تاج العروس (قدس).

(٨) رقم (٤٠١٠) من حديث جابر بن عبد الله، ولفظه: «كيف يقدس الله أمة لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم؟». وأخرجه كذلك (٢٤٢٦) من حديث أبي سعيد الخدري بلفظ: «إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيفُ فيها حقَّه غير متعتع».

(٩) قائله امرؤ القيس، والبيت في ديوانه ص ١٠٤. والنَّسا: عرق يخرج من الورك، فيستبطن الفخذين، ثم يمر بالعرقوب، حتى يبلغ الحافر. وشبرق: خرَّق ومزَّق، والمقدَّس: الراهب الذي يأتي بيت المقدس، وكان إذا نزل من صومعته يجتمع الصبيان إليه، فيخرِّقون ثيابه ويمزقونها تمسحاً به وتبركاً، والشاعر يصف ثوراً لاحقته الكلاب، فأدركته وفعلت به ما فعلت. ينظر شرح الديوان، والصحاح: (نسا).

(١٠) النكت والعيون ١/٩٧.

فالصلاة طُهْرَةٌ للعبد من الذنوب، والمُصَلِّي يدخلُها على أكمل الأحوال لكونها[١] أفضلَ الأعمال، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ «أعلم» فيه تأويلان: قيل: إنَّه فعل مستقبل. وقيل: إنَّه اسمٌ بمعنى فاعل، كما يقال: الله أكبر، بمعنى كبير، وكما قال:

لَعَمْرُكَ ما أدري وإنِّي لَأَوْجَلُ على أيِّنا تَغْدُو المنيَّةُ أوَّلُ[٢]

فعلى أنَّه فعل، تكون «ما» في موضع نصبٍ بـ: «أعلمُ»، ويجوز إدغامُ الميم في الميم. وإن جعلتَه اسماً بمعنى عالم، تكون «ما» في موضع خفضٍ بالإضافة[٣]. قال ابن عطية[٤]: ولا يصحُّ فيه الصرفُ بإجماعٍ[٥] من النُّحاة، وإنَّما الخلافُ في «أفعل» إذا سُمِّيَ به وكان نكرةً، فسيبويه[٦] والخليلُ لا يَصْرِفانِه، والأخفشُ يَصْرِفُه. قال المَهْدَويُّ: يجوز أن يُقدَّرَ[٧] التنوينُ في «أعلم» إذا قدَّرتَه بمعنى عالم، وتنصبَ «ما» به، فيكون مثلُ: حَواجُّ بيتَ الله. قال الجوهريُّ[٨]: ونِسوةٌ حواجُّ بيتِ الله، بالإضافة: إذا كنَّ قد حَجَجْن، وإن لم يكنَّ حَجَجْنَ، قلتَ: حواجُّ بيتَ الله، فتنصبُ البيتَ، لأنَّك تريدُ التنوينَ في «حواجُّ»، [إلا أنه لا ينصرف].

قوله تعالى: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ اختلف علماءُ التأويل في المراد بقوله تعالى: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: فقال ابنُ عبَّاس: كان إبليسُ ـ لعنه الله ـ قد أُعجِبَ، ودَخَلَهُ الكِبْرُ لمَّا جعلَه خازنَ السماء وشرَّفَه، فاعتقد أنَّ ذلك لمزِيَّةٍ له، فاستخفَّ[٩] الكفرَ والمعصيةَ في جانب آدم عليه السلام. وقالت الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ وهي

(١) في (ظ): لأنها.

(٢) قائله معن بن أوس، والبيت في ديوان الحماسة ٣/ ١١٢٦، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٨، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٧٤.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٨.

(٤) المحرر الوجيز ١/ ١١٩.

(٥) في (د): بالإجماع.

(٦) الكتاب ٣/ ١٩٣.

(٧) في (م): تقدر.

(٨) الصحاح: (حجج) وما بين حاصرتين منه.

(٩) في المحرر الوجيز ١/ ١١٩ (والكلام منه): فاستحقب.

لا تعلمُ أنَّ في نفس إبليسَ خلافَ ذلك، فقال الله تعالى لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[١].

وقال قتادة: لمَّا قالت الملائكةُ: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا﴾ وقد علمَ الله أنَّ فيمن يُستخلَفُ في الأرض أنبياءَ وفضلاءَ وأهلَ طاعة، قال لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[٢].

قلتُ: ويحتملُ أن يكون المعنى إنِّي أعلمُ ما لا تعلمون، ممَّا كان، وممَّا يكون، وممَّا هو كائن، فهو عامٌّ.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١﴾

فيه سبعُ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ عَلَّمَ: معناه عَرَّفَ، وتعليمُه هنا إلهامُ عِلْمِهِ ضرورةً. ويَحتمِلُ أن يكونَ بواسطة مَلَك[٣]، وهو جبريلُ عليه السلام، على ما يأتي.

وقُرئ: «وعُلِّمَ» غيرُ مسمًّى الفاعل[٤]. والأوَّل أظهَر، على ما يأتي.

قال عُلماء الصوفية: عَلِمَها[٥] بتعليم الحقِّ إيَّاه، وحَفِظَها بحفظِه عليه، ونَسِيَ ما عَهِدَ إليه، لأنَّه[٦] وكَلَه فيه إلى نفسه فقال: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا﴾ [طه: ١١٥]. وقال ابنُ عطاء: لو لم يُكشف لآدم عِلْمُ تلك الأسماء، لكان أعجَزَ مِن الملائكة في الإخبار عنها. وهذا واضحٌ.

وآدمُ عليه السَّلام يُكْنَى أبا البشر، وقيل: أبا محمد؛ كُنِّي بمحمّد خاتمِ الأنبياء[٧]

---

(١) أخرجه الطبري بنحوه في تفسيره ١/ ٤٨٦-٤٨٧، وذكر ص ٣٧٥ أنه مرتاب بإسناده.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٤٩١، والكلام في المحرر الوجيز ١/ ١١٩.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ١١٩.

(٤) هي قراءة الحسن كما في المحتسب ١/ ٦٤، والقراءات الشاذة لابن خالويه ص ٤.

(٥) في (د): علمه.

(٦) في (م): لأن.

(٧) في (ظ): النبيين.

صلواتُ الله عليهم؛ قاله السُهَيْليّ[١]. وقيل: كُنيتُه في الجنَّة أبو محمَّد، وفي الأرض أبو البَشَر.

وأصلُه بهمزتين، لأنَّه أَفْعَل، إلَّا أنَّهم ليَّنُوا الثانية، فإذا احتجْتَ إلى تحريكها جعلتَها واواً فقلت: أَوَادِم في الجمع؛ لأنَّه ليس لها أصلٌ في الياء مَعروف، فجعَلْتَ الغالبَ عليها الواو. عن الأخفش[٢].

واختُلِفَ في اشتقاقه، فقيل: هو مُشتَقٌّ من أَدَمَةِ الأرضِ وأديمها، وهو وَجْهُها، فسُمِّي بما خُلِق منه، قاله ابنُ عباس[٣]. وقيل: إنه مُشتَقٌّ من الأُدْمَة وهي السُّمْرة. واختلفوا في الأُدْمَة، فزعم الضَّحَّاك أنَّها السُّمْرَة، وزَعَمَ النَّضْر أنَّها البياض، وأنَّ آدمَ عليه السلام كان أَبيضَ، مأخوذٌ من قولهم: ناقَةٌ أَدْماءُ: إذا كانت بَيضاء. وعلى هذا الاشتقاق جَمْعُه أُدْمٌ وأَوادِم؛ كحُمْرٍ وأَحامِر، ولا يَنصرِفُ بوَجْه. وعلى أنَّه مُشتَقٌّ من الأُدْمَة جَمْعُه آدَمُون، ويلزم قائلو هذه المقالَةِ صَرْفُه.

قلتُ: الصَّحيحُ أنَّه مشتقٌّ من أَديمِ الأرضِ. قال سعيدُ بن جُبير: إنَّما سُمِّي آدَمَ لأنَّه خُلِقَ من أَدِيم الأرض، وإنما سُمِّيَ إنساناً لأنه نَسِي، ذكره ابنُ سعد في الطبقات[٤].

ورَوى السُّدِّيُّ، عن أبي مالك وعن أبي صالح، عن ابن عبَّاس. وعن مُرّة الهَمْدانيّ عن ابن مسعود[٥] في قصَّة خَلْق آدمَ عليه السَّلام قال: فبعثَ الله جبريل عليه السَّلام إلى الأرض لِيَأتيَه بطينٍ منها، فقالت الأرضُ: أعوذُ بالله منك أن تنقصَ[٦] منِّي أو تَشِينَني؛ فرجَعَ ولم يأخُذْ، وقال: ربِّ[٧]، إنَّها عاذَتْ بك فأَعذْتُها. فبعثَ

(١) عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أصبغ، أبو القاسم وأبو زيد الخثعمي الأندلسي المالقي، صاحب الروض الأُنُف في شرح السيرة، توفي سنة (٥٨١هـ). الوافي بالوفيات ١٨/ ١٧٠. وكلامه المذكور أعلاه في التعريف والإعلام ص ١٩.

(٢) نقله عنه الجوهري في الصحاح (أدم).

(٣) أخرج نحوه الطبري ١/ ٥١١، وابن سعد في الطبقات ١/ ٢٥-٢٦.

(٤) الطبقات الكبرى ١/ ٢٦، وابن سعد هو محمد بن سعد بن منيع، أبو عبد الله البغدادي، الهاشمي مولاهم، كاتب الواقدي مات سنة (٢٣٠هـ). السير ١٠/ ٦٦٤.

(٥) غمز الطبري في تفسيره بهذين الإسنادين، ينظر تفسيره ١/ ٣٧٥.

(٦) في (د): تقبض.

(٧) في (م): يا ربّ.

ميكائيل، فعاذَتْ منه فأَعاذَها، فرجع، فقال كما قال جبريل. فبعثَ مَلَك الموت، فعاذَتْ منه، فقال: وأنا أَعوذُ بالله أنْ أرجِعَ ولم أُنفِذْ أمرَه. فأخذَ من وَجهِ الأرض وخَلَطَ، ولم يأخُذْ من مكانٍ واحد، وأخذ من تُرْبَةٍ حَمْراءَ وبَيضاءَ وسَوداءَ، فلذلك خرجَ بنو آدم مختَلِفين ـ ولذلك سُمّي آدمَ، لأنه أُخذ من أديم الأرض ـ فصَعِدَ به، فقال الله تعالى له: أمَا رَحِمتَ الأرض حين تَضَرَّعتْ إليك؟ فقال: رأيتُ أمرَك أوجَبَ من قولها. فقال: أنت تَصلُح لقَبْض أرواح ولَدِه. فبلَّ التُّرابَ حتَّى عادَ[1] طيناً لازِباً ـ اللَّازِبُ: هو الذي يلتصقُ بعضُه ببعض ـ ثم تُرك حتَّى أنتَنَ، فذلك حيثُ يقول: ﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣]. قال: مُنْتِن. ثُم قال للملائكة: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧١ ـ ٧٢]، فخلقَه الله بيده لكيلا[2] يتكبَّر إبليسُ عنه. يقول: أتتكبَّر عمَّا خلقتُ بيديَّ ولم أتكبَّر أنا عنه؟ فخلقَه بشراً، فكان جسداً من طينٍ أربعينَ سنَة من مقدار يوم الجُمعة، فمرَّت به الملائكةُ، ففَزِعوا منه لمَّا رأَوْه، وكان أشدَّهُم منه فزَعاً إبليسُ، فكان يمرُّ به فيضرِبُه، فيصوِّتُ الجسدُ كما يصوِّتُ الفَخَّارُ تكون له صَلْصَلَة، فذلك حين يقول: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: ١٤]. ويقول: لأمرٍ مَّا خُلقتَ!. ودخل من فمِه[3] وخرج من دُبُره، فقال إبليسُ للملائكة: لا ترهَبُوا من هذا فإنَّه أجْوَفُ، ولئنْ سُلِّطتُ عليه لَأُهلِكَنَّه. ويُقال: إنَّه كانَ إذا مَرَّ عليه مع الملائكة يقول: أرأيتُم هذا الذي لم تَرَوْا من الخلائق يُشبهُهُ إنْ فُضِّلَ عليكم وأُمِرتُم بطاعته ما أنتُم فاعلون؟ قالوا: نُطيع أمرَ ربِّنا، فأسَرَّ إبليسُ في نفسه لئن فُضِّلَ عليَّ فلا أُطيعه، ولئن فُضِّلتُ عليه لأُهلِكَنَّه، فلما بلغَ الحِينُ الذي أُريد أنْ يَنْفُخَ فيه الرُّوحَ، قالَ للملائكة: إذا نفخْتُ فيه من رُوحي فاسجُدوا له[4]. فلمَّا نفخَ فيه الرُّوحَ، فدخلَ الرُّوحُ في رأسهِ عَطَس، فقالت له الملائكةُ: قُل الحَمدُ لله، فقال: الحمدُ لله، فقال الله له: رَحِمَكَ ربُّك، فلما دخل

(١) في (ظ): صار.

(٢) في (د): لئلا، وفي (ظ): كيلا.

(٣) في (د): من فيه.

(٤) في (ظ): فقعوا له ساجدين.

الرُّوحُ في عينيه نظَر إلى ثمار الجنَّة، فلما دخلَ في جوفه اشتَهى الطَّعامَ، فوثَبَ قبْلَ أن يبلُغَ الرُّوح رجلَيهِ عَجْلانَ إلى ثمار الجنَّة، فذلك حين[1] يقول: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]. ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٠ ـ ٣١]. وذكر القصة[2].

وروى الترمذيُّ[3] عن أبي موسى الأشْعَريِّ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ خلقَ آدمَ من قَبضَةٍ قَبَضَها من جميع الأرض، فجاءَ بنو آدم على قَدْرِ الأرض، فجاءَ[4] منهم الأحمَرُ والأبيضُ والأسودُ، وبينَ ذلك، والسَّهْلُ والحَزْنُ، والخبيثُ والطيِّبُ». قال أبو عيسى: هذا حديث حسنٌ صحيح.

أديم: جمعُ أَدَم؛ قال الشاعر:

النـاسُ أخيـافٌ وشَتَّـى فـي الشِّـيَـمْ وكـلُّـهـم يـجـمـعُـهُـم وَجـهُ الأَدَمْ[5]

فـ«آدم» مشتقٌّ من الأَدِيم والأَدَمِ، لا من الأُدْمَة؛ والله أعلم.

ويحتملُ أن يكون منهما جميعاً. وسيأتي لهذا الباب مزيدُ بيانٍ في خَلْقِ آدم في «الأنعام»[6] وغيرها إن شاء الله تعالى.

و«آدم» لا يَنصَرِفُ. قال أبو جعفر النحَّاس[7]: «آدمُ» لا ينصرفُ في المعرفة بإجماع النَّحْويين، لأنَّه على أفْعَل، وهو معرفة، ولا يَمتنعُ شيءٌ من الصَّرْفِ عند

---

(١) في (ظ): أن تبلغ الروح... حيث يقول.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٤٨٦ـ٤٨٨ أطول منه، وفي تاريخه ١/ ٩٠، وأورد ابن كثير القصة عند تفسيره هذه الآية وقال: فهذا الإسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور في تفسير السدي، ويقع فيه إسرائيليات كثيرة، فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة، أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة، والله أعلم.

(٣) في سننه (٢٩٥٥)، وهو في مسند أحمد (١٩٥٨٢).

(٤) في (د) و(ظ): جاء.

(٥) الرجز في جمهرة أمثال العرب للعسكري ٢/ ٣٠٣، ولسان العرب (أدم)، وروايته: يجمعهم بيت الأدم.

(٦) عند تفسير قوله ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ الآية ٢.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢٠٨ ـ ٢٠٩، وفيه قول الزجاج المذكور.

البصريين إلا لعلَّتين. فإنْ نكَّرتَه ولم يكن نعتاً، لم يَصرفْه الخليل وسيبويه، وصَرَفَه الأخفَش سعيد؛ لأنَّه إنما منعه من الصرف[١]؛ لأنه كان نعتاً وهو على وزْنِ الفعل، فإذا لم يكن نعتاً صَرَفه. قال أبو إسحاق الزجَّاج: القولُ قولُ سيبويه، ولا يُفرَّق بين النَّعت وغيره؛ لأنَّه هو ذاك بعينه.

الثانية: قولُه تعالى: ﴿ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾: الأسماءُ هنا بمعنى العبارات، فإنَّ الاسم قد يُطلَقُ ويُرادُ به المسمَّى، كقولك: زيدٌ قائم، والأسدُ شُجاعٌ. وقد يُرادُ به التَّسميَةُ ذاتُها، كقولك: أسَدٌ ثلاثةُ أحرُف، ففي الأوَّل يُقال: الاسم هو المسمَّى، بمعنى يُرادُ به المسمَّى، وفي الثاني لا يُرادُ به المسمَّى.

وقد يَجري اسمٌ في اللُّغة مجرى ذات العبارة، وهو الأكثَرُ من استعمالها، ومنه قولُه تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ على أشهر التأويلات، ومنه قول النبيِّ ﷺ: «إنَّ لله تسعةً وتسعين اسماً»[٢].

ويجري مجرى الذَّات، يُقال: ذاتٌ ونفسٌ وعينٌ واسمٌ بمعنًى، وعلى هذا حَمَلَ أكثرُ أهلِ العلم قولَه تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ ﴿تَبَارَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٧٨] ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [يوسف: ٤٠].

الثالثة: واخْتَلَفَ أهلُ التَّأويل في معنى الأسماء التي عَلَّمَها لآدم عليه السلام، فقال ابنُ عباس وعِكرمةُ وقَتادةُ ومُجاهدُ وابنُ جُبيرٍ: علَّمه أسماءَ جميعِ الأشياء كلّها جَليلِها وحَقيرِها[٣]. روى[٤] عاصِمُ بنُ كُلَيب، عن سَعْد مولى الحسنِ بن عليّ قال: كنتُ جالساً عند ابنِ عبَّاس، فذكروا اسمَ الآنيةِ واسمَ السَّوْط، قال ابنُ عباس: «وعلَّم آدم الأسماء كلَّها».

قلت: وقد رُوِيَ هذا المعنى مرفوعاً على ما يأتي، وهو الذي يقتَضيه لفظُ «كُلَّها» إذ هو اسمٌ موضُوعٌ للإحاطةِ والعُموم. وفي البخاريِّ من حديث أنس، عن النبيِّ ﷺ

(١) قوله: لأنه إنما منعه من الصرف، ليس في (م).

(٢) أخرجه أحمد (٧٥٠٢)، والبخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة.

(٣) تفسير الطبري ١/ ٥١٤-٥١٦.

(٤) في (م): وروى.

قال: «ويجتمعُ المؤمنون يومَ القيامة، فيقولون: لو استَشْفَعْنا إلى ربِّنا، فيأتون آدمَ، فيقولون: أنت أبو النَّاس، خَلَقَكَ الله بيدِه، وأسجدَ لك ملائكتَه، وعَلَّمَكَ أسماءَ كلِّ شيء»[١] الحديث. قال ابن خُوَيْز مَنْدَاد[٢]: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ اللُّغة مأخوذةٌ توقيفاً، وأن الله تعالى علَّمها آدمَ عليه السلام جملةً وتفصيلًا. وكذلك قال ابن عباس: علَّمه أسماءَ كلِّ شيءٍ حتى الجَفْنة والمِحْلَب. وروى شيبان، عن قتادة قال: علّم آدمَ من الأسماء أسماءَ خلقِه ما لم يُعلّم الملائكةَ، وسمَّى كلَّ شيء باسمه وأنْحَى منفعةَ كلِّ شيء إلى جنسه[٣]. قال النَّحاس: وهذا أحسَنُ ما رُوِيَ في هذا. والمعنى: عَلَّمَه أسماءَ الأجناسِ وعَرَّفَهُ مَنافِعَها، هذا كذا، وهو يصلح لكذا.

وقال الطبريّ: علَّمه أسماء الملائكة وذرِّيته، واختار هذا ورجَّحه بقوله: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾. وقال ابنُ زيد: علَّمه أسماء ذرِّيته كلّهم.

الربيع بن خُثَيْم[٤]: أسماء الملائكةِ خاصَّة[٥].

القُتَبيّ: أسماء ما خلقَ في الأرض[٦]. وقيل: أسماء الأجناسِ والأنواع.

قلتُ: القولُ الأوَّلُ أصحُّ، لما ذكرناه آنفاً، ولِمَا نبيِّنُه إن شاء الله تعالى.

الرابعة: واختلفَ المتأوِّلُون أيضاً: هل عَرَضَ على الملائكةِ أشخاص الأسماء[٧] أو الأسماء دونَ الأشخاص، فقال ابنُ مسعود وغيره: عرضَ الأشخاص[٨] لقوله تعالى: ﴿عَرَضَهُمْ﴾، وقوله: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ وتقولُ

(١) صحيح البخاري (٧٤١)، وصحيح مسلم (١٩٣)، وهو في المسند (١٢١٥٣).

(٢) في (د) و(ظ): ابن خواز منداد، وفي (ز): أبو خواز منذاد، والمثبت من (م)، وانظر ص ١٨٠.

(٣) تفسير الطبري ١/ ٥١٧، وتاريخه ١/ ٩٨.

(٤) أبو يزيد الثوري، الكوفي، أدرك زمان النبي ﷺ، وكان أورع أصحاب ابن مسعود، مات قبل سنة (٦٥هـ). السير ٤/ ٢٥٨.

(٥) تفسير الطبري ١/ ٥١٧، واختيار الطبري وترجيحه في ١/ ٥١٨، وتاريخه ١/ ٩٩.

(٦) غريب القرآن ص ٥٦، والقُتَبيّ هو: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري الكاتب صاحب التصانيف، كان رأساً في علم اللسان العربي والأخبار وأيام الناس، صنف غريب القرآن والحديث وأدب الكاتب والشعر والشعراء وغيرها، توفي سنة (٢٧٦هـ). السير ١٣/ ٢٩٦.

(٧) في (م): أسماء الأشخاص.

(٨) المحرر الوجيز ١/ ١١٩.

العربُ: عَرَضْتُ الشيءَ فأَعْرَض، أي: أظهرتُه فظهَر. ومنه: عَرَضْتُ الشيء للبيع[١]. وفي الحديث: «إنه عَرَضَهم أمثالَ الذَّرِّ»[٢].

وقال ابنُ عباس وغيرُه: عرضَ الأسماء[٣]. وفي حرفِ ابنِ مسعود: «عَرَضَهُنَّ» فأعاد على الأسماء دون الأشخاص، لأنّ الهاء والنون أخصُّ بالمؤنث. وفي حرف أُبيّ «عَرَضَها»[٤]. مجاهد: أصحاب الأسماء[٥]. فمَنْ قال في الأسماء: إنها المسمَّيات[٦]، فاستقامَ على قراءةِ أُبَيّ: «عَرَضَها». ويقول[٧] في قراءة مَنْ قرأ: «عَرَضَهُم»: إنَّ لفظَ الأسماء يدلُّ على أشخاص، فلذلك سَاغَ أن يقول[٨] للأسماء: «عَرَضَهُم». وقال في «هؤلاء»: المرادُ بالإشارة إلى أشخاص الأسماء، لكنْ وإن كانت غائبةً؛ فقد حَضَرَ ما هو منها بسَبَبٍ، وذلك أسماؤها.

قال ابنُ عطيَّة[٩]: والذي يظهرُ أنَّ الله تعالى عَلَّمَ آدَمَ الأسماءَ وعَرَضَ عليه مع ذلك الأجناسَ أشخاصاً[١٠] ثم عرضَ تلكَ على الملائكة، وسألهم عن تسمياتها[١١] التي قد تعلَّمها، ثم إنَّ آدمَ قال لهم: هذا اسمُه كذا، وهذا اسمُه كذا. وقال الماوَرْدِيّ[١٢]: فكانَ[١٣] الأصحُّ توجُّهَ العَرْضِ إلى المُسَمَّيْن. ثم في زمن عَرْضِهم

(١) الصحاح (عرض).

(٢) سيذكره المصنف عند قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ [الأعراف: ١١].

(٣) تفسير الطبري ١/ ٥٢٠، والمحرر الوجيز ١/ ١٢٠.

(٤) ذكر القراءتين ابنُ خالويه في القراءات الشاذة ص ٤، والماوردي في النكت والعيون ١/ ٩٩، وابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ١٢٠.

(٥) تفسير الطبري ١/ ٥٢١.

(٦) في (ز) و(ظ) و(م): التسميات، وهو خطأ، والمثبت من (د).

(٧) في (م): وتقول.

(٨) في (م): يقال.

(٩) المحرر الوجيز ١/ ١٢١.

(١٠) اضطربت العبارة في (د) و(ظ) و(م)، فقد وقع فيها: وعرضهن عليه مع ذلك الأجناس بأشخاصها، إلا أن في (ظ): أشخاصاً، بدل: بأشخاصها، وفي (م): تلك، بدل: ذلك. والمثبت من (ز) وهو المناسب لما في المحرر الوجيز، فاللفظ فيه: وعرض مع ذلك عليه الأجناسَ أشخاصاً.

(١١) في (د): مسمياتها.

(١٢) في النكت والعيون ١/ ٩٩-١٠٠.

(١٣) في (م): وكان.

قولان: أحدُهما: أنَّه عرَضَهم بعد أنْ خَلَقَهم. الثاني: أنَّه صوَّرهم لقلوبِ الملائكَةِ، ثُمَّ عَرَضَهُم.

الخامسة: واختُلِفَ في أوَّل مَنْ تكَلَّمَ باللِّسان العربيّ[١]، فرُوِيَ عن كَعب الأحبار أنَّ أوَّل مَنْ وَضَعَ الكتابَ العربيَّ والسُّرْيانيَّ والكتبَ كلَّها وتكلَّمَ بالألسنة كلِّها آدمُ عليه السلام. وقاله غيرُ كعب الأحبار.

فإن قيل: قد رُوِيَ عن كعب الأحبار من وجهٍ حَسَن قال: أوَّلُ مَنْ تكلَّم بالعربيَّةِ جبريلُ عليه السلام، وهو الذي ألقاها على لسانِ نوحٍ عليه السلام، وألقاها نوحٌ على لسانِ ابنه سام، رواه ثَوْرُ بنُ يزيد[٢]، عن خالدِ بنِ مَعْدان، عن كعب. ورُوِيَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «أوَّلُ مَنْ فُتِقَ لسانُه بالعربيَّةِ المُبِينة إسماعيلُ وهو ابنُ عشرِ سنين»[٣]. وقد رُوِيَ أيضاً: أنَّ أوَّلَ مَنْ تكلَّمَ بالعربية يَعْرُبُ بنُ قَحْطان، وقد رُوِيَ غيرُ ذلك.

قلنا: الصَّحيحُ أنَّ أوَّل مَن تكلَّم باللُّغاتِ كلِّها من البشر آدمُ عليه السلام، والقرآنُ يشهد له، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾، واللُّغاتُ كلُّها أسماء، فهي داخلةٌ تحتَه، وبهذا جاءت السُّنَّة، قال ﷺ: «وعَلَّمَ آدمَ الأسماءَ كلَّها حتَّى القَصْعةَ والقُصَيعَة»[٤] وما ذكروه يَحتمِلُ أن يكونَ المرادُ به: أوَّلُ مَنْ تكلَّم بالعربيَّةِ من ولدِ إبراهيمَ عليه السلام إسماعيلُ عليه السلام. وكذلك إن صحَّ ما سواه؛ فإنَّه يكونُ محمولًا على أنَّ المذكورَ أوَّلُ مَنْ تكلَّم من قبيلتِه بالعربيَّة بدليلِ ما ذكرنا، والله أعلم. وكذلك جبريلُ أوَّلُ مَنْ تكلَّم بها من الملائكةِ، وألقاها على لسانِ نُوح بعد أنْ عَلَّمها الله آدمَ أو جِبريل، على ما تقدَّم، والله أعلم.

---

(١) القصد والأمم لابن عبد البر ص ١٩-٢٦.

(٢) في (م): ورواه ثور بن زيد.

(٣) أخرج الحاكم في المستدرك ٢/ ٥٥٢-٥٥٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أول من نطق بالعربية ووضع الكتاب على لفظه ومنطقه... إسماعيل بن إبراهيم، وأورده السيوطي في «الجامع الصغير» من حديث علي رضي الله عنه ونسبه للشيرازي في «الألقاب» وفيه: وهو ابن أربع عشرة سنة.

(٤) أخرجه الطبري ١/ ٥١٥ و٥١٦ موقوفاً على ابن عباس.

قولُه تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: لفظٌ مبنيٌّ على الكسر، ولغةُ تَميم وبعضِ قيس وأسَد فيه القَصْرُ[١]، قال الأعشى[٢]:

هَـؤُلَا ثـم هَـؤُلَا كـلًّا أعـطـيـ ـتَ نِـعـالاً مَـحْـذُوَّةً بـمـثـالِ

ومن العرب مَنْ يقولُ: هَوْلاء، فيحذفُ الألفَ والهمزة[٣].

السادسة: قولُه تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ شرطٌ، والجوابُ محذوفٌ تقديرُه: إنْ كنتُم صادقين أنَّ بني آدم يُفسدون في الأرض فأنبئوني، قاله المبرِّد[٤].

ومعنى «صادقين» عالِمينَ، ولذلك لم يَسُغْ للملائكةِ[٥] الاجتهادُ، وقالوا: «سُبحانَك». حكاه النقَّاش قال: ولو لم يشترِطْ عليهم الصِّدق[٦] في الإنباءِ لجازَ لهمُ الاجتهادُ كما جاز للَّذي أماتَه الله مئةَ عامٍ حين قال له: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾ [البقرة: ٢٥٩] فلم يشترطْ عليه الإصابةَ، فقالَ، ولم يُصِبْ، ولم[٧] يُعنَّفْ، وهذا بيِّنٌ لا خفاءَ فيه[٨]. وحكى الطبريُّ وأبو عُبَيْد: أنَّ بعضَ المفسِّرين قال: معنى[٩] «إن كنتم»: إذْ كنتم، وقالا: هذا خطأ[١٠]. و«أَنْبِئُوني» معناه أخبروني. والنَّبأ: الخَبر، ومنه النبيءُ بالهمز[١١]، وسيأتي بيانُه إن شاء الله تعالى[١٢].

السابعة: قال بعضُ العلماء: يخرج من هذا الأمرِ بالإنباء تَكْليفُ ما لا يُطاق؛

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ١٢١.

(٢) ديوانه ص ٦١ من قصيدة يمدح فيها الأسود بن المنذر اللخمي.

(٣) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢١٠، يعني حذف ألف «ها»، وقلب همزة «أولاء» واواً، كما في خزانة الأدب ٥/ ٤٣٨.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢١٠، والمحرر الوجيز ١/ ١٢١.

(٥) في (د) و(ز): لم يسعِ الملائكة.

(٦) في (ز) و(ظ) و(م): إلا الصدق، والمثبت من (د)، وهو الموافق لما في المحرر الوجيز.

(٧) في (ز) و(ظ): فلم.

(٨) المحرر الوجيز ١/ ١٢١.

(٩) في (م): إن معنى.

(١٠) تفسير الطبري ١/ ٥٢٦، وإعراب القرآن للنحاس ١/ ٢١٠، والمحرر الوجيز ١/ ١٢١.

(١١) المحرر الوجيز ١/ ١٢٠.

(١٢) في تفسير قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١].

لأنَّه عَلِمَ أنَّهم لا يعلمون. وقال المحقِّقون من أهلِ التَّأويل: ليسَ هذا على جهةِ التَّكليفِ، وإنَّما هو على جهةِ التقرير والتَّوقيفِ[١]. وسيأتي القولُ في تكليفِ ما لا يُطاق: هل وقعَ التكليفُ به أمْ لا، في آخر السُّورة إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾ فيه ثلاثُ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: تنزيهاً لك عن أنْ يعلَمَ الغيبَ أحدٌ سواك. وهذا جوابُهم عن قوله: «أَنْبِئُوني»، فأجابوا أنَّهم لا يعلمون إلا ما أعلَمَهم به، ولم يتعاطَوْا ما لا عِلْمَ لهم به كما يفعلُه الجُهَّالُ منَّا. و«ما» في «ما عَلَّمتَنا» بمعنى «الذي»، أي: إلا الذي علَّمتَنا، ويجوزُ أن تكون مَصدريَّة بمعنى: إلا تعليمَكَ إيَّانا.

الثانية: الواجبُ على مَنْ سُئِل عن علمٍ أنْ يقولَ إن لم يعلمْ: الله أعلَم، ولا أدْري، اقتداءً بالملائكةِ والأنبياءِ والفُضَلاء من العُلَماء، لكنْ قد أخبرَ الصادِقُ أنَّ بموتِ العُلَماءِ يُقبَضُ العِلمُ، فيبقَى ناسٌ جُهَّالٌ يُستفتَوْن، فيُفْتُون برأيهم، فَيَضِلُّونَ ويُضِلُّون[٢].

وأمَّا ما وردَ من الأخبار عن النبيِّ ﷺ وأصحابِهِ والتَّابعين بعدَهم في معنى الآية؛ فَرَوَى البُسْتِيّ[٣] في المسندِ الصَّحيح لهُ عن ابنِ عُمرَ أنَّ رجلًا سألَ رسولَ الله ﷺ: أيُّ البقاعِ شَرٌّ؟ قال: «لا أدري حتَّى أسألَ جبريلَ»، فسألَ جبريلَ، فقال: «لا أدري حتَّى أسألَ ميكائيلَ»، فجاءَ فقال: «خيرُ البِقاع المساجِدُ، وشَرُّها الأسواقُ».

وقال الصِّدِّيقُ للجَدَّة: ارجعي حتَّى أسألَ النَّاسَ[٤]. وكان عليٌّ يقول: وابَرْدَها على الكبِد! ثلاثَ مرَّات. قالوا: وما ذلك يا أميرَ المؤمنين؟ قال: أنْ يُسألَ الرَّجلُ عمَّا لا يعلمُ، فيَقُول: الله أعلمُ.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ١٢٠.

(٢) أخرجه أحمد (٦٥١١)، والبخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٣) في (د) و(ظ): النسائي، وهو خطأ، والحديث في صحيح ابن حبان (١٥٩٩)، ولم يرد في الكتب الستة.

(٤) أخرجه أحمد (١٧٩٨٠)، وأبو داود (٢٨٩٤)، والترمذي (٢١٠١)، والنسائي في الكبرى (٦٣٠٥)، وابن ماجه (٢٧٢٤) من حديث قَبيصة بن ذؤيب.

وسألَ ابنَ عمر رجلٌ عن مَسْألةٍ، فقال: لا عِلْمَ لي بها، فلمَّا أدبرَ الرجُلُ قال ابنُ عمر: نِعْمَ ما قالَ ابنُ عُمَر، سُئِل عمَّا لا يَعْلَمُ، فقالَ: لا عِلْمَ لي به. ذكره الدَّارِميُّ في مسنده[١].

وفي صحيح مُسلم[٢] عن أبي عَقِيل يحيى بنِ المتوكِّل صاحبِ بُهَيَّة قال: كنتُ جالساً عندَ القاسمِ بن عُبيدِ الله ويَحيى بنِ سعيد[٣]، فقال يحيى للقَاسم: يا أبا محمَّد، إنَّه قَبيحٌ على مثلِكَ عظيمٌ أن يُسْألَ عن شيءٍ من أمرِ هذا الدِّين، فلا يُوجَدَ عندَك منه عِلْمٌ ولا فَرَجٌ، أو عِلْمٌ ولا مَخْرَجٌ؟ فقال له القاسم: وعَمَّ ذاك؟ قال: لأنَّك ابنُ إمَامَيْ هُدًى: ابنُ أبي بكر وعُمرَ. قال: يقولُ له القاسم: أقْبَحُ مِن ذاكَ عندَ مَنْ عَقَلَ عن الله أن أقُولَ بغير عِلْم، أو آخُذَ عن غيرِ ثِقَةٍ. فسكتَ فما أجابَهُ.

وقال مالكُ بنُ أنس: سمعتُ ابنَ هُرْمُزٍ[٤] يقول: يَنبغي للعالِم أن يُوَرِّثَ جُلَساءَه مِن بعدِه لا أدري، حتَّى يكونَ أَصلًا في أيديهم، فإذا سُئل أحدُهم عمَّا لا يدري قال: لا أدري[٥].

وذكر الهَيْثَمُ بنُ جَميل[٦] قال: شَهِدْتُ مالكَ بنَ أنس سُئل عن ثمانٍ[٧] وأربعينَ مَسألةً، فقال في اثنتَينِ وثلاثينَ منها: لا أدري[٨].

---

(١) الأثران عن علي وابن عمر في مسند الدارمي (١٨٤) و(١٨٥)، وأخرجهما الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه ٢/ ١٧١ و١٧٢ وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ص ٣٠٨.

(٢) في مقدمته ص ١٧.

(٣) يحيى بن المتوكل: هو العُمري المدني، الحذَّاء الضرير، مات ببغداد سنة (١٦٧هـ)، روى له مسلم في مقدمة كتابه وأبو داود. والقاسم بن عُبيد الله: هو ابنُ عبد الله بن عمر بن الخطاب، القرشي العدوي، أبو محمد المدني، روى له البخاري في الأدب، ومسلم والنسائي، مات في حدود الثلاثين ومئة. ويحيى بن سعيد: هو الأنصاري، أبو سعيد المدني، قاضي المدينة، كان ثقة كثير الحديث، مات سنة (١٤٣هـ) وقيل غير ذلك. تهذيب الكمال ٢٣/ ٣٩٩ و٣١/ ٣٤٦، ٥١١.

(٤) في (د): أبا هريرة، وهو خطأ، وابن هرمز هو عبد الله بن يزيد الأصم، أبو بكر، فقيه المدينة، كان عابداً زاهداً، مات سنة (١٤٨هـ). السير ٦/ ٣٧٩.

(٥) الفقيه والمتفقه ٢/ ١٧٣، والتمهيد لابن عبد البر ١/ ٧٣.

(٦) أبو سهل الأنطاكي، البغدادي، الحافظ، مات سنة (٢١٣هـ). السير ١٠/ ٣٩٦.

(٧) في النسخ: ثمانية، والمثبت من (م).

(٨) التمهيد ١/ ٧٣.

قلتُ: ومثلُه كثيرٌ عن الصَّحابة والتَّابعين وفقهاءِ المسلمين، وإنَّما يَحمل على تركِ ذلك الرِّياسةُ، وعدمُ الإنصافِ في العلم. قال ابنُ عبد البَرّ: مِن بركَةِ العِلم وآدابِهِ الإنصافُ فيه، ومن لم يُنْصِفْ لم يَفْهَم ولم يَتَفَهَّم. روى يونسُ بنُ عبدِ الأعلى قال: سمعتُ ابنَ وَهْب يقول: سمعتُ مالكَ بنَ أنسٍ يقول: ما في زمانِنا شيءٌ أقلَّ من الإنصافِ[١].

قلتُ: هذا في زمنِ مالك، فكيفَ في زماننا اليوم الذي عمَّ فيه[٢] الفسادُ، وكثُر فيه الطَّغَام[٣]، وطُلِبَ فيه العلمُ للرِّياسَةِ لا للدِّراية، بل للظُّهورِ في الدُّنيا، وغلَبَة الأقران بالمِراءِ والجِدال الذي يُقَسِّي القلبَ ويُورِثُ الضِّغن، وذلك مما يَحمِلُ على عدمِ التَّقوى، وتركِ الخوفِ من الله تعالى؟! أينَ هذا مما رُوِيَ عن عمرَ رضي الله عنه وقد قال: لا تَزِيدوا في مُهورِ النِّساء على أربعينَ أُوقِيَّة ولو كانت بنتَ ذي الغَصَّة[٤] ـ يعني يزيدَ بنَ الحُصين الحارثي [٥] ـ فَمَنْ زادَ ألقيتُ زيادتَه في بيت المال؛ فقامت امرأةٌ من صَوْبِ[٦] النِّساء طويلةٌ فيها فَطَسٌ، فقالت: ما ذلكَ لكَ. قال: ولِمَ؟ قالت: لأنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٢٠]. فقال عُمَر: امرأةٌ أصابَتْ ورجلٌ أخطأ[٧].

وروى وَكيع، عن أبي مَعْشَر، عن محمَّد بنِ كعب القُرَظِيِّ قال: سألَ رجلٌ عليًّا رضي الله عنه عن مسألةٍ، فقال فيها، فقال الرجُل: ليس كذلك يا أميرَ المؤمنين، ولكن كذا وكذا، فقال عليٌّ: أصبْتَ وأخطأْتُ، وفوقَ كلِّ ذي عِلْمٍ عليم[٨].

---

(١) جامع بيان العلم ص ١٧٤ و١٧٥.

(٢) في (م): فينا.

(٣) هم أوغاد الناس، كما في الصحاح (طغم).

(٤) في النسخ: ذي العصبة.

(٥) كذا وقع الاسم عند القرطبي هنا، وعند ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا﴾، وسماه ابن عبد البر في الاستيعاب، وابن الأثير في أسد الغابة، والحافظ ابن حجر في الإصابة: الحصين بن يزيد، قال الحافظ: ذو الغَصَّة: بفتح المعجمة وتشديد المهملة... لُقِّب بذلك لأنه كان في حلقه شبه الحوصلة، ويقال: إنه رَأس بني الحارث بن كعب مئة سنة. اهـ.

(٦) في جامع بيان العلم ص ١٧٥: صفّ.

(٧) أخرجه سعيد بن منصور في السنن (٥٩٨)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم ص ١٧٤ ـ ١٧٥، والبيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٢٣٣.

(٨) جامع بيان العلم ص ١٧٥.

وذكر أبو محمَّد قاسمُ بنُ أَصْبَغ[١] قال: لمَّا رَحَلْتُ إلى المشرق نزلْتُ القَيْرَوان، فأخذتُ على بكر بنِ حَمَّاد[٢] حديثَ مُسَدَّد[٣]، ثمَّ رحلتُ إلى بَغداد ولقيْتُ النَّاس، فلمَّا انصرفتُ عدتُ إليه لتمام حديث مُسَدَّد، فقرأتُ عليه فيه يوماً حديثَ النبيِّ ﷺ أنَّه قَدِم عليه قومٌ من مُضَر مِن مُجْتابِي النِّمار، فقال: إنَّما هو مُجْتابي النِّمار، فقلتُ: إنَّما هو مُجتابي النِّمار، هكذا قرأتُه على كلِّ مَنْ قرأتُه عليه بالأنْدَلُس والعراق، فقال لي: بدخولكَ العراقَ تُعارضُنا وتفخَرُ علينا! أو نحو هذا. ثم قال لي: قُمْ بنا إلى ذلك الشَّيخ ـ لشيخٍ كان في المسجدِ ـ فإنَّ له بمثلِ هذا عِلماً، فقُمنا إليه، فسألناه عن ذلك فقال: إنَّما هو مُجْتابي النِّمار ـ كما قلتُ، وهم قَومٌ كانوا يلبَسونَ الثِّيابَ مشقَّقةً، جيوبُهم أمامَهم. والنِّمار: جَمعُ نَمِرة ـ فقال بَكرُ بنُ حَمَّاد ـ وأخذَ بأنفِه ـ رَغِمَ أنْفِي للحقِّ، رَغِمَ أنْفِي للحقِّ. وانصرفَ[٤].

وقال يزيدُ بنُ الوليد بنِ عبد الملك[٥] فأحسنَ:

إذا مـا تَـحَـدَّثْـتُ فـي مـجـلـسٍ تَـنـاهَـى حـديـثـي إلـى مـا عَـلِـمـتْ
ولـم أَعْـدُ عـلـمـي إلـى غـيـرِه وكـان إذا مـا تَـنـاهَـى سَـكَـتّ

الثالثة[٦]: قولُه تعالى: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ سُبحانَ: منصوبٌ على المصدر عند الخليلِ وسيبويه، يؤدِّي عن معنى: نُسَبِّحُك تسبيحاً. وقال الكِسائيّ: هو منصوبٌ على أنَّه نداءٌ مُضاف[٧].

---

(١) الحافظ، محدث الأندلس، القرطبي، مولى بني أمية، صنف كتاب برّ الوالدين، والمنتقى في الآثار، مات سنة (٣٤٠هـ). السير ١٥/ ٤٧٢.

(٢) هو أبو عبد الرحمن، الفقيه، الإمام، الثقة، مات بالقاهرة سنة (٢٩٥هـ). شجرة النور الزكية ص ٧٢.

(٣) هو ابن مُسَرْهَد بن مُسَرْبَل، أبو الحسن، الأسدي، البصري، الحافظ، روى له الجماعة سوى مسلم وابن ماجه، مات سنة (٢٢٨هـ). السير ١٠/ ٥٩١.

(٤) الحديث أخرجه أحمد (١٩١٧٤)، ومسلم (١٠١٧)، والقصة بتمامها أخرجها ابن عبد البر في جامع بيان العلم ص ١٧٨.

(٥) أبو خالد، الأموي، القرشي، الخليفة، مات سنة (١٢٦هـ). السير ٥/ ٣٧٤، والبيتان المذكوران له في جامع بيان العلم ص ١٧٦.

(٦) في (م) الثانية، وهو خطأ.

(٧) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢١٠، والمحرر الوجيز ١/ ٢٢٦.

و﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ فَعيل للمبالغة والتَّكثيرِ في المعلومات في حقِّ[١] الله تعالى.

و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ معناه الحاكِمُ، وبينهما مَزِيَّة[٢] المبالغة. وقيل: معناه المُحْكِم، ويجيءُ الحكيمُ على هذا من صفاتِ الفِعْل[٣]، صُرِفَ عن مُفعِل إلى فَعِيل، كما صُرف عن مُسْمِع إلى سَميع، ومُؤلِم إلى أليم. قاله ابنُ الأنباري[٤].

وقال قوم: الحكيمُ: المانعُ من الفَساد، ومنه سُمِّيت حَكَمَةُ اللِّجام، لأنَّها تمنعُ الفرسَ من الجَرْي والذَّهابِ في غيرِ قَصْدٍ[٥]. قال جرير[٦]:

أَبَني حَنِيفةَ أَحْكِموا سُفهاءَكم إنِّي أخافُ عليكُمُ أنْ أَغْضَبَا

أي: امنَعوهم من الفساد. وقال زُهير[٧]:

القائدُ الخيلَ مَنْكوباً دوابِرُها قد أُحْكِمَتْ حَكَماتِ القِدِّ والأَبَقَا

القِدِّ: الجِلْد. والأَبَق: القِنَّب[٨]. والعربُ تقول: أحْكِم اليتيمَ عن كذا وكذا، يريدون: امْنَعْه[٩].

والسُّورةُ المُحْكَمة: الممنوعةُ من التَّغييرِ وكُلِّ التَّبديلِ، وأن يُلحقَ بها ما يَخرُجُ عنها، ويُزادَ عليها ما ليسَ منها.

والحِكمةُ من هذا، لأنَّها تمنعُ صاحبَها من الجَهْلِ، ويُقال: أَحْكَمَ الشيءَ: إذا أتقنَهُ ومنَعهُ من الخروجِ عمَّا يريدُ. فهو مُحْكِمٌ وحَكيمٌ على التَّكثيرِ[١٠].

---

(١) في (د) و(م): خلق، وهو خطأ.

(٢) في (د) و(م): مزيد.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ١٢٢.

(٤) الزاهر ١/ ٨٠.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ١٢٢، والصحاح (حكم).

(٦) ديوانه ص ٤٤٦.

(٧) ديوانه (بشرح ثعلب) ص ٤٩.

(٨) في النسخ: القتب، وهو خطأ، والمثبت من (م)، والقنَّب: ضرب من الكتان. اللسان.

(٩) في (م): منعه.

(١٠) تهذيب اللغة للأزهري ٤/ ١١٠، والصحاح، واللسان (حكم).

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ﴾ فيه خمسُ مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ﴾ أمَرَه الله أن يُعْلِمَهم بأسمائهم بعد أنْ عَرَضَهم على الملائكةِ، ليعلموا أنّه أعلمُ بما سألَهم عنه، تنبيهاً على فَضْلِه وعُلُوِّ شأنِه، فكان أفضلَ منهم بأن قدَّمَه عليهم، وأسجدَهم له، وجعلَهم تلامذَتَه، وأمرَهم بأن يتعلَّموا منه، فحصلَتْ له رتبةُ الجَلال والعَظَمَةِ بأن جعلَه مسجوداً[1] له، مختصًّا بالعِلم.

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على فضلِ العلمِ وأهلِه، وفي الحديث: «وإنَّ الملائكةَ لَتَضعُ أجْنِحَتَها رِضًا لطالب العلم»[2] أي: تخضعُ وتتواضَعُ، وإنما تفعلُ ذلك لأهلِ العلم خاصَّةً مِن بين سائر عِيالِ الله، لأنَّ الله تعالى ألزَمَها ذلك في آدمَ عليه السلام، فتأدَّبَتْ بذلك الأدب، فكُلَّما ظهرَ لها عِلْمٌ في بَشَرٍ خَضَعَتْ له، وتواضعَتْ وتذلَّلَتْ، إعظاماً للعِلم وأهلِه، ورِضًى منهم بالطَّلَبِ له والشُّغْلِ به. هذا في الطُّلَّاب منهم، فكيف بالأحبارِ فيهم والربَّانيِّين منهم؟! جعلَنا الله منهم وفيهم، إنَّه ذو فضلٍ عظيم.

الثالثة: اختلَفَ العلماءُ من هذا[3] الباب: أيُّما أفضلُ: الملائكةُ، أو بنو آدم، على قولين:

فذهبَ قومٌ إلى أنَّ الرُّسُل من البشر أفضلُ من الرُّسلِ من الملائكة، والأولياء من البشر أفضلُ من الأولياءِ من الملائكة.

وذهبَ آخرون إلى أنَّ الملأَ الأعلى أفضلُ.

احتجَّ مَنْ فَضَّلَ الملائكةَ بأنَّهم ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء]. ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]. وقوله: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢].

---

(١) في (د): حصل سجوداً، وفي (ز): حصل مسجوداً، وفي (ظ): جعل مسجوداً، والمثبت من (م).

(٢) رواه أحمد (٢١٧١٥)، وأبو داود (٣٦٤١) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٣) في (د): في هذا.

وقـولـه: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠]. وفي البخاريّ[١]: «يقولُ الله عز وجل: مَنْ ذكَرني في مَلَأ ذكرتُه في ملأ خيرٍ منهم». وهذا نَصٌّ.

واحتجَّ[٢] مَنْ فضَّلَ بني آدم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيئَةِ﴾ [البينة: ٧]. بالهَمْز، مِن: بَرَأ الله الخلقَ، وبقوله[٣] عليه السلام: «وإنَّ الملائكةَ لتَضَعُ أجنحتَها رِضاً لطالبِ العلم» الحديث، أخرجه أبو داود[٤]. وبما جاء في أحاديثَ مِن أنَّ الله تعالى يُباهي بأهل عَرفات الملائكة[٥]، ولا يُباهي إلا بالأفضلِ، والله أعلم.

وقال بعضُ العُلماء: ولا طريقَ إلى القَطْعِ بأنَّ الأنبياءَ أفضلُ من الملائكةِ، ولا القَطْعِ بأنَّ الملائكةَ خيرٌ منهم؛ لأنَّ طريقَ ذلك خبرُ الله تعالى وخبرُ رسولِه، أو[٦] إجماعُ الأمَّة، وليس ها هنا شيءٌ من ذلك، خِلافاً للقَدَريَّة والقاضي أبي بكر[٧] رحمه الله، حيثُ قالوا: الملائكةُ أفضَلُ. قال: وأمَّا مَنْ قال مِن أصحابنا والشِّيعةِ: إنَّ الأنبياءَ أفضلُ، لأنَّ الله تعالى أمرَ الملائكةَ بالسُّجودِ لآدم، فيُقال لهم: المسجودُ له لا يكونُ أفضلَ من السَّاجد، ألا تَرى أنَّ الكعبةَ مسجودٌ لها[٨]، والأنبياءُ والخلقُ يسجدون نحوَها، ثمَّ إنَّ الأنبياءَ خيرٌ من الكعبة باتِّفاق الأُمَّة، ولا خِلافَ أنَّ السُّجودَ لا يكونُ إلَّا لله تعالى، لأنَّ السُّجودَ عِبادةٌ، والعبادةُ لا تكون إلا لله، فإذا كان كذلك؛ فكَونُ

---

(١) صحيح البخاري (٧٤٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه مسلم أيضاً (٢٦٧٥): (٢). وهو في المسند (٧٤٢٢).

(٢) في (ز) و(ظ) و(م). احتج، دون واو، والمثبت من (د).

(٣) في (م): وقوله.

(٤) في سننه (٣٦٤١) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٥) من ذلك ما أخرجه أحمد (٨٠٤٧)، وابن خزيمة (٢٨٣٩)، وابن حبان (٣٨٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) في (د) و(ظ): وإجماع.

(٧) هو الباقلاني. انظر تفسير الرازي ٢/ ٢١٥.

(٨) ليس السجود للكعبة، بل السجود لله عزّ وجلّ، وقد أمرنا بالتوجّه لها، فالسجود عبادة، والعبادة لا تكون إلا لله، وهو ما سيذكره المصنف.

السُّجودِ إلى جهةٍ لا يدُلُّ على أنَّ الجِهةَ خيرٌ من السَّاجدِ العابد، وهذا واضحٌ. وسيأتي له مزيدُ بيان في الآية بعد هذا[١].

الرابعة: قولُه تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ دليلٌ على أنَّ أحداً لا يعلمُ من الغيب إلّا ما أعلمَه الله، كالأنبياء، أو مَنْ أعلمَهُ[٢] الله تعالى، فالمنَجِّمون والكُهَّان وغيرُهم كَذَبَةٌ. وسيأتي بيانُ هذا في الأنعام إنْ شاء الله تعالى عند قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ﴾ [الآية: ٥٩].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ﴾ أي من قولهم: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا﴾ حكاه مَكِّيّ والماوَرْدِيّ[٣]. وقال الزَّهْراويُّ: ما أبدَوْه هو بِدارُهُم[٤] بالسُّجود لآدم.

﴿وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ قال ابنُ عبَّاس وابنُ مسعود وسعيدُ بنُ جُبير[٥]: المرادُ ما كتَمَه إبليسُ في نفسه من الكِبْرِ والمعصيَةِ.

قال ابنُ عطيَّة[٦]: وجاءَ «تكتُمون» للجماعَةِ؛ والكاتِمُ واحد في هذا القول على تجوُّزِ العرب واتِّساعِها، كما يُقال لقومٍ قد جَنَى سَفِيهٌ منهم: أنتمُ فعلتُم كذا. أي: منكم فاعِلُه، وهذا مَعَ قَصْدِ تعنيف، ومنه قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الحجرات: ٤]. وإنما ناداه منهم عُيَيْنَةُ، وقيل: الأقرعُ. وقالت طائفةٌ: الإبداءُ والمكتُوم ذلك على معنى العُموم في معرفةِ أسرارهم وظواهِرِهم أجمع.

وقال مَهديُّ بنُ مَيمون[٧]: كنَّا عندَ الحسَنِ، فسألَه الحسنُ بنُ دِينار[٨]: ما الذي

---

(١) ص ٤٣٥.

(٢) تكرر قوله: من أعلمه، في (م).

(٣) النكت والعيون ١/ ١٠١.

(٤) في (ز) و(ظ): بداؤهم.

(٥) أخرج هذه الآثار الطبري في تفسيره ١/ ٥٣١-٥٣٢.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ١٢٣.

(٧) أبو يحيى، الكردي، الأزدي، أحد الأثبات المعمرين، مات سنة (١٧٢هـ). السير ٨/ ١٠.

(٨) أبو سعيد البصري، التميمي، مولى بني سليط، قال النسائي: متروك، وقال أبو خيثمة: كذاب. تهذيب التهذيب ١/ ٣٩٣.

كتمتِ الملائكةُ؟ قال: إنَّ الله عزَّ وجلَّ لمَّا خلقَ آدمَ رأتِ الملائكةُ خَلْقاً عَجَباً، وكأنَّهم دخلَهم من ذلك شيءٌ، قال: ثمَّ أقبلَ بعضُهم على بعضٍ، وأسرُّوا ذلك بينَهم، [فقالوا: و] ما يُهِمُّكُم من هذا المخلوق؟! إنَّ الله لم[١] يَخلُقْ خلقاً إلا كُنَّا أكرمَ عليه منه[٢].

و«ما» في قوله: «ما تُبدون» يجوزُ أن ينتصب بـ «أعلمُ» على أنَّه فِعلٌ، ويجوزُ أن يكونَ بمعنى عالم، وتنصبُ به «ما» فيكونُ مثلَ: حَوَاجُّ بيتَ الله، وقد تقدّم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾

فيه عشر مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ أي: واذكر. وأما قولُ أبي عُبيدة: إنَّ «إذْ» زائدةٌ، فليس بجائز، لأن «إذ» ظرفٌ، وقد تقدّم[٤].

وقال: «قلنا» ولم يقل: قلتُ، لأن الجبارَ العظيمَ يُخبِرُ عن نفسه بفعل الجماعة تفخيماً وإشادةً بذكره.

والملائكة جمع مَلَك، وقد تقدّم[٥]. وتقدّم القولُ أيضاً في آدم واشتقاقه[٦]، فلا معنى لإعادته.

ورُوي عن أبي جعفر بن القَعْقاع[٧] أنه ضَمَّ تاء التأنيث من «الملائكة» إتباعاً

---

(١) في سنن سعيد بن منصور: «لا»، وفي تفسير الطبري: «لن».

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (التفسير) (١٨٥)، والطبري في تفسيره ١/ ٤٩٩. وما بين حاصرتين منهما. وقد صرح مهدي بن ميمون في هذا الإسناد بأنه سمع جواب الحسن البصري حين سأله الحسن بن دينار، قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله في تعليقه على الطبري: وقد نبهتُ على هذا خشية أن يظن أنه من رواية مهدي عن الحسن بن دينار، والحسن بن دينار كذاب لا يوثق به.

(٣) ص ٤١٥.

(٤) ص ٣٩١.

(٥) ص ٣٩٢ ـ ٣٩٣.

(٦) ص ٤١٧.

(٧) هو يزيد بن القعقاع المدني، أحد الأئمة العشرة في القراءات، مات سنة (١٢٧هـ). السير ٥/ ٢٨٧.

لضمة[١] الجيم في «اسجُدوا»[٢]. ونظيرُه: «الحمدِ لِلّه».

الثانية: قولُه تعالى: ﴿اسْجُدُوا﴾ السجودُ معناه في كلام العرب التذلُّلُ والخضوع، قال الشاعر:

بِجَمْعٍ تَضِلُّ البُلْقُ في حَجَراتِه ... ترى الأُكْمَ فيها سُجَّداً للحوافِرِ[٣]

الأُكُمُ: الجبال الصِّغار، جعلها سُجَّداً للحوافر، لقهر الحوافرِ إياها، وأنها لا تمنعُ عليها. وعَيْنٌ ساجدةٌ، أي: فاترةٌ عن النظر.

وغايتُه وضعُ الوجه بالأرض. قال ابن فارس[٤]: سَجَد: إذا تطامَنَ، وكلُّ ما سجدَ فقد ذَلَّ، والإسجادُ: إدامةُ النَّظَر، قال أبو عمرو: وأسجد: إذا طأطأ رأسَه، قال:

فُضُولَ أزِمَّتِها أسجَدَتْ ... سجودَ النصارى لأربابِها[٥]

قال أبو عُبيد[٦]: وأنشدني أعرابيٌّ من بني أسد:

---

(١) في (م): لضم.

(٢) هي من القراءات العشر، وقد ضعف هذه القراءة الزجاج في معاني القرآن ١/ ١١١-١١٢، والنحاس في إعراب القرآن ١/ ٢١٢، وابن جني في المحتسب ١/ ٧١، والزمخشري في الكشاف ١/ ٢٧٣، وذكرها ابن عطية ١/ ١٢٤، ونقل عن أبي علي قوله: وهذا خطأ. وقد ردَّ أبو حيان في البحر المحيط ١/ ١٥٢، وابن الجزري في النشر ٢/ ٢١٠-٢١١ قول من ضعفها، وذكرا أنها لغة أزد شنوءة. وسلف الكلام على قراءة «الحمدِ لِلّه» و«الحمدُ لُلّه» ص ٢١٠-٢١١.

(٣) قائله زيد الخيل، والبيت في ديوانه ص ٦٦، والكامل ٢/ ٧٣٥، وتفسير الطبري ١/ ٧١٥، باختلاف في الرواية، وهو في الصحاح: (سجد) بمثل رواية المصنف. والبُلْق: جمع أبلق وبلقاء، والبَلَق: سواد وبياض، وارتفاع التحجيل إلى الفخذين. اللسان (بلق). والحجرات: مفرده حَجْرة، وحَجْرة القوم: ناحية دارهم. الصحاح: (حجر).

(٤) مجمل اللغة: (سجد).

(٥) البيت لحميد بن ثور، يصف نساءً، وقبله:

فلما لَوَيْنَ على مِعْصَمٍ ... وكفٌّ خَضيبٍ وإسوارِها

يقول: لما ارتحلن ولوين فضول أزمّة أجمالهن على معاصمهن أسجدت الجمالُ لهن، وطأطأت رؤوسها ليركبنها. والبيت في ديوانه ص ٩٦، وإصلاح المنطق ص ٢٧٥، والمجمل، والصحاح (سجد).

ووقع في (م): «لأحبارها»، وهي رواية الديوان، ونقل ابن منظور في اللسان (سجد) عن ابن بري أنها الصواب في رواية البيت.

(٦) في (ز) و(م): أبو عبيدة (وذكر محقق المجمل أنه في الغريب المصنف لأبي عبيد).

فقلنَ[١] له أسْجِدْ لِلَيلَى فأسجدا[٢]

يعني البعيرَ إذا طأطأ رأسَه.

ودَراهِمُ الإسجاد: دَراهِمُ كانت عليها صُور كانوا يسجدون لها، قال:

وافَى بها لدراهم[٣] الإسجاد[٤]

الثالثة: استدلَّ مَنْ فضَّل آدمَ و بنِيه بقوله تعالى للملائكة: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ قالوا[٥]: وذلك يدلُّ على أنه كان أفضلَ منهم.

والجوابُ أن معنى ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾: اسجدوا لي مستقبلين وَجْهَ آدم، وهو كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨]، أي: عند دُلوك[٦] الشمس، وكقوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص: ٧٢]، أي: فقعوا لِي عند إتمام خلقه ومواجهتكم إياه ساجدين، وقد بيَّنَّا أن المسجودَ له لا يكونُ أفضلَ من الساجد، بدليل القِبْلة[٧].

فإن قيل: فإذا لم يكن أفضلَ منهم، فما الحكمةُ في الأمر بالسجود له؟

قيل له: إنَّ الملائكةَ لمَّا استعظَمُوا بتسبيحهم[٨] و تقديسهم، أمَرَهُم بالسجودِ لغيره، لِيُرِيَهم استغناءَه عنهم وعن عبادتهم.

وقال بعضُهم: غَيَّرُوا آدمَ و استَصْغَرُوه، ولم يَعرِفُوا خصائصَ الصُّنْع به، فأُمِرُوا بالسجود له تكريماً.

---

(١) في (م): «وقلن».

(٢) هو في المجمل والصحاح: (سجد).

(٣) في النسخ: وأوفى، والمثبت من (م)، وهو الموافق لمصادر البيت، وفي (م): كدراهم.

(٤) عجز بيت للأسود بن يعفر، وصدره:

من خمرِ ذي نَطَفٍ أغَنَّ مُنَطَّقٍ

والبيت في المفضليات ص ٢١٨، وهو في المجمل والصحاح: (سجد) من غير نسبة.

(٥) في (د): قال.

(٦) في (ظ): طلوع.

(٧) ص ٤٣١ ـ ٤٣٢.

(٨) في (ز) و(ظ): تسبيحهم.

ويَحتملُ أن يكون الله تعالى أَمَرَهم بالسجود له معاقبةً لهم على قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ لمَّا قال لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، وكان عَلِمَ منهم أنه إن خاطَبَهم أنهم قائلُون هذا، فقال لهم: ﴿إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١]. وجاعلُه خليفةً، فإذا نَفَخْتُ فيه من رُوحي فقَعوا له ساجدين. والمعنَى: ليكونَ ذلك عقوبةً لكم في ذلك الوقت على ما أنتُم قائلون لي الآن.

فإن قيل: فقد استدلَّ ابنُ عباس على فضل البشر بأنَّ الله تعالى أقسمَ بحياة رسوله ﷺ، فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[1] [الحجر: ٧٢]. وأَمَّنَه من العذاب بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. وقال للملائكة: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٢٩].

قيل له: إنما لم يُقسِمْ بحياة الملائكة كما لم يُقسم بحياة نفسه سبحانه، فلم يقل: لَعَمري، وأقسمَ بالسماء والأرض، ولم يدلَّ[2] على أنهما أرفعُ قدراً من العرش والجِنانِ السَّبع، وأقسمَ بالتِّين والزيتون، وأمَّا قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ فهو نظيرُ قوله لنبيِّه عليه السلام: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، فليس فيه إذاً دلالةٌ، والله أعلم.

الرابعة: واختلفَ الناسُ في كيفية سجودِ الملائكة لآدمَ بعد اتفاقِهم على أنه لم يكن سجودَ عِبَادةٍ.

فقال الجمهور: كان هذا أمراً[3] للملائكة بوضع الجِباهِ على الأرض لآدم، كالسجود المُعتاد في الصلاة، لأنه الظاهرُ من السجود في العُرف والشرع؛ وعلى هذا قيل: كان ذلك السجودُ تكريماً لآدمَ وإظهاراً لفضله، وطاعةً لله تعالى، وكان آدمُ كالقِبْلة لنا، ومعنى «لآدم»: إلى آدم، كما يقال صلَّى للقِبْلة، أي: إلى القبلة.

وقال قوم: لم يكن هذا السجودَ المعتادَ اليومَ، الذي هو وضعُ الجبهة على الأرض، ولكنَّه مُبْقًى على أصل اللُّغة، فهو من التذلُّلِ والانقياد، أي: اخضعوا

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٤/ ٩١-٩٢، وليس فيه أن ابن عباس استدل بذلك على فضل البشر، والله أعلم.

(٢) في (د): يدلا.

(٣) في (د): الأمر، وفي (ظ): أمرٌ.

لآدم، وأَقِرُّوا له بالفضل، ﴿فَسَجَدُوٓاْ﴾ أي: امتثَلوا ما أُمِرُوا به.

واختُلِف[١] أيضاً: هل كان ذلك السجودُ خاصًّا بآدمَ عليه السلام، فلا يجوزُ السجودُ لغيره من جميع العالم إلا لله تعالى: أم كان جائزاً بعدَه إلى زمانٍ يعقوبَ عليه السلام، لقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فكان آخرَ ما أُبِيحَ من السجود للمخلوقين؟ والذي عليه الأكثرُ أنه كان مباحاً إلى عصر رسول الله ﷺ، وأنَّ أصحابَه قالوا له حين سجدَتْ له الشجرةُ والجمل: نحن أَوْلَى بالسجود لك من الشجرة والجملِ الشارد، فقال لهم: «لا ينبغي أن يُسْجَد[٢] لأحدٍ إلا لله ربِّ العالمين»[٣].

روى ابنُ ماجه في «سُننه»، والبُسْتِيُّ في «صحيحه» عن أبي واقِدٍ[٤]، قال: لمَّا قَدِمَ معاذُ بنُ جَبَلٍ من الشام سجَدَ لرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «ما هذا؟!» فقال: يا رسولَ الله، قدمتُ الشامَ، فرأيتُهم يسجدون لِبَطارِقَتهم وأساقِفَتهم، فأردتُ أن أفعلَ ذلك بك، قال: «فلا تفعل[٥]؛ فإني لو أمرتُ شيئاً أن يسجدَ لشيء لأمرتُ المرأةَ أن تسجُدَ لزوجها، [والذي نفسي بيده] لا تُؤدي المرأةُ حقَّ ربِّها حتى تؤديَ حقَّ زوجها، حتى لو سألَها نفسَها وهي على قَتَب لم تمنعه». لفظ البُسْتيِّ. ومعنى القَتَب أنَّ العربَ يَعِزُّ عندهم وجودُ كرسيٍّ للولادة، فيحملون نساءهم على القَتَب عند الولادة[٦]، وفي بعض طرق معاذ: ونهى عن السجود للبشر، وأَمَرَ بالمصافحة[٧].

---

(١) في النسخ: والخامسة: واختلف، والمثبت (م) وهو الموافق لقول المصنف فيه عشر مسائل.

(٢) في (د): لا ينبغي السجود، وفي (ظ): أن تسجد.

(٣) أخرج نحوه الإمام أحمد في المسند (٢٤٤٧٠) من حديث عائشة رضي الله عنها، وابن حبان (٤١٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) الحارث بن عوف المدني، شهد بدراً والفتح، وقيل: أسلم يوم الفتح، توفي سنة (٦٨هـ). السير ٢/ ٥٧٤. والحديث في سنن ابن ماجه (١٨٥٣)، وصحيح ابن حبان (٤١٧١)، وما بين حاصرتين منه، وهو من حديث ابن أبي أوفى، لا من حديث أبي واقد.

(٥) في (ظ): فقال: لا تفعل.

(٦) غريب الحديث لأبي عبيد ٤/ ٣٣٠. والقَتَب: رَحْلٌ صغير على قدر السَّنام. الصحاح (قتب).

(٧) لم نقف عليها.

قلتُ: وهذا السجودُ المنهيُّ عنه قد اتخذَه جُهَّالُ المتصوِّفةِ عادةً في سماعهم، وعند دخولهم على مشايخهم واستغفارهم، فترى[١] الواحدَ منهم إذا أخَذَه الحالُ بزعمه، يسجدُ للأقدام لجهله، سواءٌ كان للقِبلة أم[٢] غيرِها جهالةً منه[٣]، ضلَّ سَعْيُهم وخابَ عملُهم.

الخامسة[٤]: قوله: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ نصب على الاستثناء المتَّصل، لأنه كان من الملائكة على قول الجمهور: ابنِ عباس، وابنِ مسعود، وابنِ جُريج، وابنِ المُسَيّب وقَتادةَ، وغيرهم[٥]، وهو اختيارُ الشيخ أبي الحسن، ورَجَّحَه الطبريُّ[٦]، وهو ظاهرُ الآية.

قال ابن عباس: وكان اسمُه عزازيل[٧]، وكان من أشراف الملائكة، وكان من أولي[٨] الأجنحة الأربعة، ثم أَبْلَسَ بعدُ[٩].

روى سِمَاك بنُ حرب، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: كان إبليسُ من الملائكة، فلمَّا عصى الله غضبَ عليه، فلعنَه، فصار شيطاناً[١٠].

وحكى الماوَرديُّ عن قتادة: أنه كان من أفضل صِنْف من الملائكة يقال لهم: الجِنَّة[١١].

---

(١) في (م): فيرى.

(٢) في (د) و(ظ): أو، وفي (ز): وغيرها، والمثبت من (م).

(٣) في (د) و(ظ): منهم.

(٤) في النسخ: السادسة، والمثبت من (م) وهو الموافق لقول المؤلف: فيه عشر مسائل.

(٥) أخرج هذه الآثار ـ عدا قول ابن جريج ـ الطبري في تفسيره ١/ ٥٣٥ـ٥٣٩، وذكرها الماوردي في النكت والعيون ١/ ١٠٢.

(٦) في تفسيره ١/ ٥٤٢.

(٧) في (ظ): عزاييل.

(٨) لفظ: أولي، ليس في (م).

(٩) أخرجه ابن الأنباري في الأضداد ص ٣٣٦، وابن أبي حاتم في تفسيره ١/ ١٢٢، وأبلس من رحمة الله؛ أي: يئس.

(١٠) أخرجه أبو الشيخ في العظمة (١١٤٩).

(١١) لم نجد قول قتادة هذا في تفسير الماوردي، وقد حكى ١/ ١٠٣ عن ابن عباس أنهم حي من الملائكة يسمون جناً كانوا من أشد الملائكة اجتهاداً.

وقال سعيد بنُ جُبير: إن الجِنَّ سِبْطٌ من الملائكة خُلقوا من نارٍ، وإبليسُ منهم، وخلق سائر[١] الملائكة من نور.

وقال ابنُ زيد والحسنُ وقتادةُ أيضاً: إبليسُ أبو الجنِّ، كما أنَّ آدمَ أبو البشر، ولم يكن مَلَكاً[٢]، ورُوي نحوه عن ابن عباس، وقال: اسمُه الحارث[٣].

وقال شَهْرُ بنُ حَوْشَبٍ[٤] وبعضُ الأصوليين: كان من الجِنِّ الذين كانوا في الأرض، وقاتَلَتْهم الملائكةُ، فسَبَوْه صغيراً، وتَعَبَّد مع الملائكة، وخُوطِبَ، وحكاه الطبريُّ عن ابن مسعود[٥]. والاستثناءُ على هذا منقطعٌ، مثل قوله تعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ [النساء: ١٥٨]، وقوله: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ [المائدة: ٣] في أحد القولين، وقال الشاعر:

ليس عليك عطشٌ ولا جوعْ إلا الرُّقادَ والرُّقادُ ممنوعْ[٦]

واحتجَّ بعضُ أصحابِ هذا القولِ بأنَّ الله جلَّ وعزَّ وصفَ الملائكةَ، فقال: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ [الكهف: ٥٠]، والجنُّ غيرُ الملائكة.

أجابَ أهلُ المقالة الأُولى بأنه لا يمتنعُ أن يَخرجَ إبليسُ من جملة الملائكة لما سبقَ في علم الله بشقائه عدلاً منه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، وليس في خلقه من نارٍ ولا في تركيب الشهوة حين غضبَ عليه ما يدفعُ أنه من الملائكة.

وقول من قال: إنه كان من جِنِّ الأرض فسُبيَ، فقد رُوي في مقابلته أنَّ إبليسَ هو الذي قاتلَ الجنَّ في الأرض مع جُندٍ من الملائكة[٧]، حكاه المهدَويُّ وغيره.

---

(١) في (د) و(ز): معاشر، وفي (ظ): آدم ومعاشر، والمثبت من (م)، ولم نقف على تخريجه.

(٢) قول ابن زيد والحسن أخرجهما الطبري في تفسيره ١/ ٥٣٩-٥٤٠، وقول قتادة لم نقف عليه.

(٣) سيذكره المصنف قريباً مطولاً.

(٤) أبو سعيد الأشعري، الشامي، مولى أسماء بنت يزيد الأنصارية، من كبار علماء التابعين، توفي سنة (١١٢هـ). السير ٤/ ٣٧٢.

(٥) في تفسيره ١/ ٥٤٠-٥٤١، وفيه: عن سعد بن مسعود، وكذلك نقله عنه ابن كثير ١/ ٢٣١، وتابع المصنف ابنَ عطية ١/ ١٢٤ في قوله: عن ابن مسعود.

(٦) لم نقف عليه.

(٧) أخرجه الطبري ١/ ٤٨٢-٤٨٤ عن ابن عباس، وانظر ما سلف ص ٤٠٩.

وحكى الثَّعلبيُّ عن ابن عباس: أنَّ إبليسَ كان من حيٍّ من أحياء الملائكة يقال لهم: الجنُّ، خُلِقُوا من نار السَّمُوم، وخُلِقتِ الملائكةُ من نور، وكان اسمُه بالسّريانية عزازيل، وبالعربية الحارث، وكان من خُزَّان الجنة، وكان رئيسَ ملائكةِ السماءِ الدنيا، وكان له سلطانُها وسلطانُ الأرض، وكان من أشدِّ الملائكة اجتهاداً وأكثرِهم علماً، وكانَ يَسُوسُ ما بينَ السماء والأرض، فرأى لنفسه بذلك شرفاً وعظمةً، فذلك الذي دعاه إلى الكفر، فعصى، فمسخَه شيطاناً رجيماً[١].

فإذا كانت خطيئة الرجل في كِبْرٍ فلا تَرْجُهُ، وإن كانت خطيئتُه في معصية فارْجُه، وكانت خطيئةُ آدم عليه السلام معصيةً، وخطيئةُ إبليس كِبْراً.

والملائكةُ قد تُسَمَّى جِنًّا؛ لاستتارها، وفي التنزيل: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ [الصافات: ١٥٨]، وقال الشاعر[٢] في ذِكْر سليمان عليه السلام:

وسَخَّرَ مِن جِنِّ الملائِكِ تِسعةً قياماً لَدَيهِ يعملونَ بلا أَجرِ

وأيضاً لمَّا كان من خُزَّان الجَنَّة نُسِب إليها، فاشتُقَّ اسمُه من اسمها، والله أعلم.

وإبليسُ وزنُه إفعيل، مشتقٌّ من الإبلاس: وهو اليأسُ من رحمة الله تعالى، ولم[٣] ينصرف؛ لأنه معرفةٌ، ولا نظيرَ له في الأسماء، فشُبِّه بالأعجمية[٤]. قاله أبو عُبيدة[٥] وغيره، وقيل: هو أعجميٌّ لا اشتقاقَ له، فلم ينصرِفْ للعُجْمة والتعريف، قاله الزجَّاج[٦] وغيره.

السادسة[٧]: قوله تعالى: ﴿أَبَىٰ﴾ معناه امتنعَ من فعل ما أُمِرَ به، ومنه الحديثُ

---

(١) أخرجه مقطعاً الطبري في تفسيره ١/ ٥٣٥-٥٣٧، وأبو الشيخ في العظمة (١١٣٦) و(١١٤٨)، ولم يثبت في ذلك نصّ صحيح.

(٢) هو أعشى بني قيس، والبيت في الأضداد لابن الأنباري ص ٣٣٥، وتفسير الطبري ١/ ٥٣٩، والنكت والعيون ١/ ١٠٣، والمحرر الوجيز ١/ ١٢٥.

(٣) في (ظ): ولا.

(٤) في (د) و (ظ): بالعجمية.

(٥) مجاز القرآن ١/ ٣٨، وانظر تفسير الطبري ١/ ٥٤٤.

(٦) معاني القرآن ١/ ١١٤.

(٧) في النسخ: السابعة، والمثبت من (م).

الصحيحُ عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ: «إذا قرأ ابنُ آدمَ السجدةَ [فسَجَدَ] اعتزل الشيطانُ يبكي يقول: يا وَيْلَه - وفي رواية: يا ويلتا[١] - أُمِر ابنُ آدمَ بالسجود فسَجَدَ، فله الجنةُ، وأُمِرتُ بالسجود فأَبَيْتُ، فليَ النارُ». خرجه مسلم[٢]. يقال: أَبَى يأبَى إباءً، وهو حرفٌ نادرٌ جاء على فَعَل يَفْعَل، ليس فيه حرفٌ من حروف الحَلْق، وقد قيل: إنَّ الألفَ مُضارِعةٌ لحروفِ الحَلْق. قال الزَّجاجُ. سمعتُ إسماعيلَ بنَ إسحاقَ القاضيَ يقول: القولُ عندي أنَّ الألفَ مضارِعةٌ لحروف الحَلْق. قال النحَّاس[٣]: ولا أعلمُ أنَّ أبا إسحاقَ[٤] روى عن إسماعيلَ نحواً غيرَ هذا الحرف.

السابعة[٥]: قولُه تعالى: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ﴾ الاستكبارُ: الاستعظامُ، فكأنه كَرِهَ السجودَ في حقِّه، واستعظمَه في حقِّ آدم، فكان تركه[٦] السجودَ لآدمَ تسفيهاً لأمرِ الله وحكمته، وعن هذا الكِبر عبَّر عليه السلام بقوله: «لا يدخلُ الجنة مَن [كان] في قلبه مثقالُ حبَّة من خَرْدَلٍ من كِبْر». في رواية: فقال رجل: إن الرجلَ يُحبُّ أن يكونَ ثوبُه حسناً، ونعلُه حسنةً، قال: «إن الله جميلٌ يحبُّ الجمال، الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ الناسِ». أخرجه مسلم[٧]. ومعنى بَطَر الحقّ: تسفيهُه وإبطالُه، وغَمْط الناس: الاحتقار لهم والازدراء[٨] بهم. ويُروى: «وغمص» بالصاد المهملة، والمعنى واحد، يقال: غَمصه يَغْمِصه غَمْصاً واغتمصه، أي: استصغره، ولم يره شيئاً، وغَمَصَ فلانٌ النعمةَ: إذا لم يشكرها، وغَمَصْتُ عليه قولًا قاله، أي: عِبتُه عليه[٩].

---

(١) في (ظ): يا ويلتي، وفي (م): يا ويلي.

(٢) برقم (٨١)، وما بين حاصرتين منه، وهو في المسند (٩٧١٣).

(٣) إعراب القرآن ١/ ٢١٣.

(٤) يعني الزَّجَّاج.

(٥) في النسخ: الثامنة، والمثبت من (م).

(٦) في (م): ترك، وفي (د): تركه للسجود.

(٧) برقم (٩١) و(١٤٧) من حديث ابن مسعود، وما بين حاصرتين منه، وفيه: «مثقال ذرة»، وهو في المسند (٤٣١٠).

(٨) في (ز) و(ظ): والإزراء.

(٩) الصحاح (غمص).

وقد صرَّح اللّعينُ بهذا المعنى فقال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢] ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١] ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣] فَكَفَّرَه الله بذلك.

فكلُّ مَنْ سَفَّه شيئاً من أوامر الله تعالى، أو أمْرِ رسوله عليه السلام، كان حُكْمُه حُكْمَه، وهذا ما لا خلافَ فيه.

وروى ابن القاسم عن مالك أنه قال: بلغني أنَّ أوّل معصيةٍ كانت الحسدَ والكِبْرَ [والشحَّ]، حَسَدَ إبليسُ آدمَ [وتكبَّرَ]، وشحَّ آدمُ في أكله من شجرةٍ[١] [قد نُهي عن قُربها][٢].

وقال قتادة: حَسَد إبليسُ آدم، على ما أعطاه الله من الكرامة، فقال: أنا ناريٌّ وهذا طِينيٌّ، وكان بَدءُ الذنوب الكِبْر، ثم الحرصُ حتى[٣] أكلَ آدمُ من الشجرة، ثم الحسدُ إذ حسدَ ابنُ آدم أخاه[٤].

الثامنة[٥]: قولُه تعالى: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قيل: «كان» هنا بمعنى «صار»، ومنه قوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣]. وقال الشاعر:

بِتَيهاءَ قَفْرٍ والمَطِيُّ كأنَّها قطا الحَزْنِ قد كانَتْ فِراخاً بُيوضُها[٦]

أي: صارت.

---

(١) في (م): الشجرة.

(٢) المحرر الوجيز ١/ ١٢٥، وما بين حاصرتين منه.

(٣) في (ظ): حين.

(٤) أخرجه مختصراً الطبري في تفسيره ١٤/ ٦٣، وابن أبي حاتم في تفسيره ١/ ١٢٣.

(٥) في النسخ: التاسعة، والمثبت من (م).

(٦) البيت لابن أحمر، وهو في الحيوان للجاحظ ٥/ ٥٧٥، واللسان: (عرض) و(كون)، والخزانة ٩/ ٢٠١، وقبله:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلة صحيح السُّرى والعِيسُ تجري عروضُها

والتيهاء: الأرض التي لا يهتدي فيها، اللسان: (تيه)، والحَزْن: ما غلظ من الأرض، اللسان: (حزن)، وأضاف القطا إليه؛ لأنه يكون قليل الماء، فيكون قطاه أكثر عطشاً، فإذا أرادَ الماء كان سريع الطيران، وقد شبه الشاعر المطيَّ بالقطا التي فارقت فراخها لتحمل إليها الماء فتسقيها، فهو أسرع لطيرانها. وسيذكره المصنف عند تفسير الآية ٢٦ من سورة المائدة.

وقال ابن فُورَك: «كان» هنا بمعنى «صار» خطأٌ تردُّه[١] الأصول، وقال جمهور المتأوّلين: المعنى: أي كان في علم الله تعالى أنه سيكفر، لأنَّ الكافر حقيقةً والمؤمنَ حقيقةً هو الذي قد علم الله منه الموافاةَ[٢].

قلت: وهذا صحيحٌ، لقوله ﷺ في «صحيح» البخاري: «وإنَّما الأعمالُ بالخواتيم»[٣].

وقيل: إن إبليسَ عبَدَ الله تعالى ثمانين ألف سنة، وأُعطيَ الرياسةَ والخِزانةَ في الجنة على الاستدراج، كما أُعطيَ المنافقون شهادةَ أن لا إله إلا الله على أطراف ألسنتهم، وكما أُعطِيَ بَلْعامُ الاسمَ الأعظمَ على طرف لسانه، فكان في رياسته، والكِبْرُ في نفسه متمكِّن.

قال ابن عباس: كان يرى لنفسه أن له فضيلةً على الملائكة بما عنده، فلذلك قال: أنا خيرٌ منه، ولذلك قال الله عز وجل: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ [ص: ٧٥]، أي: استكبرتَ ولا كِبْر لكَ، ولم أتكبَّر أنا حين خلقتُه بيديَّ والكِبْرُ لي! فلذلك قال: ﴿وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾. وكان أصلُ خِلقته من نار العِزَّة، ولذلك حَلَفَ بالعِزَّة، فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢]. فالعِزَّةُ أورثته الكِبْرَ حتى رأى الفضلَ له على آدم عليه السلام[٤].

وعن أبي صالح قال: خُلقت الملائكةُ من نُور العِزَّة، وخُلق إبليسُ من نار العِزَّة[٥].

التاسعة[٦]: قال علماؤنا رحمةُ الله عليهم: مَنْ أظْهَرَ اللهُ تعالى على يديه ممَّن ليس بنبيٍّ كراماتٍ وخَوارِقَ للعادات، فليس ذلك دالًّا على ولايته، خلافاً لبعض

(١) في النسخ: يردّه، والمثبت من (م).
(٢) المحرر الوجيز ١/١٢٦.
(٣) سلف ص ٢٩٦.
(٤) انظر ما سلف ص ٤٤٠.
(٥) لم نقف عليه من قول أبي صالح، وأخرجه إسحاق في مسنده (٧٨٨)، وعبد الله بن أحمد في السنة (٩١٩) من طريق أبي صالح، عن عكرمة.
(٦) في النسخ: العاشرة، والمثبت من (م).

الصُّوفية والرافضة؛ حيث قالوا: إنَّ ذلك يدلُّ على أنه وَليٌّ، إذ لو لم يكن وَلِيًّا ما أظهرَ الله على يديه ما أظهَرَ.

ودليلُنا أنَّ العلمَ بأنَّ الواحدَ منَّا وليٌّ لله تعالى لا يصحُّ إلا بعد العلم بأنه يموتُ مؤمناً، وإذا لم يُعلم أنه يموتُ مؤمناً لم يُمكِنَّا أن نقطعَ على أنه وليٌّ للهِ تعالى، لأن الوليَّ للهِ تعالى مَنْ عَلِمَ اللهُ تعالى أنّه لا يوافيه إلا بالإيمان، ولمَّا اتفقنا على أننا لا يمكنُنا أن نقطعَ على أن ذلك الرجلَ يُوافي بالإيمان، ولا الرجلُ نفسُه يقطعُ على أنه يُوافي[١] بالإيمان، عُلِم أنَّ ذلك ليس يدلُّ على ولايته لله. قالوا: ولا نمنعُ[٢] أن يُطْلِعَ الله بعضَ أوليائه على حُسْن عاقبتِه وخاتمةِ عملِه وغيرِه معه. قاله الشيخُ أبو الحسن الأشعريُّ وغيره.

وذهب الطَّبريُّ[٣] إلى أن الله تعالى أرادَ بقصة إبليس تقريعَ أشباهِه من بني آدم، وهم اليهودُ الذين[٤] كفروا بمحمد ﷺ مع علمهم بنبوته، ومع قِدَم نِعَمِ الله عليهم وعلى أسلافهم.

العاشرة[٥]: واختُلف هل كان قبلَ إبليسَ كافرٌ أو لا؟ فقيل: لا، وإنَّ إبليسَ أولُ من كفرَ، وقيل: كان قبلَه قومٌ كفار، وهم الجنُّ، وهم الذين كانوا في الأرض.

واختلف أيضاً هل كفر إبليسُ جهلاً أو عِناداً؟ على قولين بين أهل السُّنة، ولا خلافَ أنه كان عالماً بالله تعالى قبل كفره، فمن قال: إنه كفر جهلًا، قال: إنه سُلِبَ العلم عند كفره، ومن قال: كفر عِناداً، قال: كفر ومعه علمُه. قال ابنُ عطية[٦]: والكفر [عِناداً] مع بقاء العلم مستبعدٌ، إلا أنه عندي جائزٌ لا يستحيلُ مع خَذْل الله لمن يشاء.

---

(١) في النسخ: لا يوافي، في الموضعين، والمثبت من (م).

(٢) في (د): يمتنع، وفي (ظ): يمنع.

(٣) في تفسيره ١/ ٥٤٥.

(٤) في (م): الذي.

(٥) في النسخ: الحادية عشرة، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما قال قبل: فيه عشر مسائل.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ١٢٦، وما بين حاصرتين منه.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾

فيه ثلاثَ[1] عشرةَ مسألة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾: لا خلافَ أن الله تعالى أخرجَ إبليسَ عند كفره[2] وأبعَدَه عن الجنة، وبعد إخراجه قال لآدمَ: اسْكُن[3]، أي: لازِمِ الإقامةَ، واتَّخِذْها مسكناً، وهو محلُّ السكون، وسَكَنَ إليه يَسْكُنُ سُكوناً، والسَّكَن: النار، قال الشاعر:

قد قُوِّمَتْ بِسَكَنٍ وأدهانِ[4]

والسَّكَن: كلُّ ما سُكِنَ إليه.

والسِّكِّين معروفٌ، سُمِّيَ به؛ لأنه يُسَكِّن حركةَ المذبوح.

ومنه المِسْكين، لقلَّة تصرُّفِه وحركته.

وسُكَّان السفينة عربيٌّ؛ لأنه يُسَكِّنُها عن الاضطراب[5].

الثانية: في قوله تعالى: ﴿ٱسْكُنْ﴾ تنبيهٌ على الخروج، لأن السُّكْنَى لا تكونُ مِلْكاً، ولهذا قال بعضُ العارفين: السُّكْنَى تكونُ إلى مدَّةٍ ثم تنقطعُ، فدخولُهما في الجنة كان دخولَ سُكْنَى لا دخولَ إقامة[6].

قلت: وإذا كان هذا، فيكونُ فيه دَلالةٌ على ما يقولُه الجمهور من العلماء: إنَّ من أسكنَ رجلًا مسكناً له أنه لا يملكُه بالسُّكْنَى، وأنَّ له أن يُخرِجَه منه إذا انقضت مدَّةُ الإسكان.

---

(١) في (د) و(ز): اثنتا، وفي (ظ): اثنتي، والمثبت من (م)، وهو الموافق لعدد المسائل الآتية.

(٢) في (د): بكفره.

(٣) المحرر الوجيز ١/١٢٦.

(٤) مقاييس اللغة ٣/٨٨، ومجمل اللغة ٢/٤٦٨. وفي إصلاح المنطق ص ٦٥، وتهذيب اللغة ١٠/ ٦٥، واللسان (سكن) برواية: أقامها، بدل: قد قوّمت. والشاعر يصف قناة ثقَّفها بالنار والدهن.

(٥) مجمل اللغة (سكن)، وسُكَّانُ السفينة يعني ذَيْلها الذي تسكَّن به، وتُمنعُ به من الحركة والاضطراب. تاج العروس (سكن).

(٦) في النسخ: ثواب، والمثبت من (م). وسيذكر المصنف أحكام السُّكْنَى والعمرى والرُّقْبَى، وكلام الفقهاء في ذلك؛ قال أبو حيان في البحر ١/١٥٦: ليس في الآية ما يدلُّ على شيءٍ مما ذكر.

وكان الشعبيُّ يقول: إذا قال الرجلُ: داري لك سُكْنَى حتى تموتَ، فهي له حياتَه وموتَه، وإذا قال: داري هذه اسكُنْها حتى تموتَ، فإنَّها ترجعُ إلى صاحبها إذا مات[١].

ونَحوٌ من السُّكْنَى العُمْرَى، إلا أنَّ الخلافَ في العُمْرَى أقوى منه في السُّكْنَى. وسيأتي الكلامُ في العُمْرَى في «هود» إن شاء الله تعالى[٢].

قال الحَرْبيّ[٣]: سمعتُ ابنَ الأعرابيِّ يقول: لم يختلف العربُ في أن هذه الأشياءَ على مِلْك أربابها، ومنافعُها لمن جُعلت له: العُمْرَى، والرُّقْبَى، والإفقارُ، والإخبالُ، والمِنحةُ، والعَرِيَّةُ، والسُّكْنَى، والإطراق.

وهذا حجةُ مالكٍ وأصحابِه في أنه لا يُملَكُ شيءٌ من العطايا إلا المنافعُ دون الرِّقاب، وهو قول اللَّيْث بن سعد والقاسم بن محمد، ويزيد بن قُسيط[٤].

والعُمْرَى: هي[٥] إسكانُك الرجلَ في دارٍ لك مدَّةَ عمرِك أو عُمُرِه، ومثلُه الرُّقْبَى: وهو أن يقول: إنْ مُتَّ قبلي رجعَتْ إليَّ، وإن مُتُّ قبلك فهي لك، وهي من المراقبة، والمراقبة: أن يَرْقُب كلٌّ واحد منهما موتَ صاحبه، ولذلك اختلفوا في إجازتها ومنعها: فأجازها أبو يوسف والشافعيُّ، وكأنها وَصِيَّةٌ عندهم، ومنعها مالكٌ والكوفيون، لأنَّ كلَّ واحد منهم يقصدُ إلى عِوَضٍ لا يدري هل يحصُلُ له، و يتمنَّى كلٌّ واحد منهما موتَ صاحبه.

وفي الباب حديثان أيضاً بالإجازة والمنع ذكرهما ابنُ ماجه في «سُننه»:

الأوَّل: رواه جابر بنُ عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «العُمْرَى جائزةٌ لمن

---

(١) التمهيد ٧/ ١١٩، والاستذكار ٢٢/ ٣٢٣.

(٢) عند قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [الآية: ٦١].

(٣) إبراهيم بن إسحاق، أبو إسحاق البغدادي، صنف غريب الحديث وغيره، مات سنة (٢٨٥هـ). السير ١٣/ ٣٧١.

(٤) المفهم ٤/ ٥٩٢ ـ ٥٩٣، ويزيد بن قُسيط: هو أبو عبد الله الليثي، المدني، الأعرج، الفقيه، مات سنة (١٢٢هـ). السير ٥/ ٢٦٦.

(٥) في (ظ) و(م): هو.

أُعْمِرَها، والرُّقْبى جائزةٌ لمن أُرْقِبَها»[١] ففي هذا الحديث التسويةُ بين العُمْرَى والرُّقْبَى في الحكم.

الثاني: رواه ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا رُقْبَى، فمن أُرْقِبَ شيئاً فهو له حَياتَه ومَماتَه»[٢]. قال: والرُّقْبَى أنْ يقول هو للآخر: مِنِّي ومنك موتاً[٣].

فقولُه: «لا رُقْبى» نَهْيٌ[٤] يدلُّ على المنع، وقولُه: «فمن[٥] أُرْقِبَ شيئاً فهو له» يدلُّ على الجواز، وأخرجَهما أيضاً النَّسائي[٦]، وذَكَرَ عن ابن عباس قال: العُمْرَى والرُّقْبَى سواء[٧].

وقال ابن المنذر: ثبتَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «العُمْرَى جائزةٌ لمن أُعْمِرَها، والرُّقْبَى جائزةٌ لمن أُرْقِبَها». فقد صحَّحَ الحديثَ ابنُ المنذر، وهو حجةٌ لمن قال بأن العُمْرَى والرُّقْبَى سواءٌ، ورُوي عن عليٍّ[٨]، وبه قال الثَّوريُّ وأحمد، وأنها لا ترجعُ إلى الأوّل أبداً، وبه قال إسحاق. وقال طاوس: مَنْ أُرْقِبَ شيئاً فهو سبيلُ[٩] الميراث[١٠].

والإفقارُ: مأخوذ من فَقار الظَّهر، أفْقَرْتُك ناقتي: أعَرْتُك فَقارَها لتركبَها، وأفقرَك الصيدُ: إذا أمكنك من فَقاره حتى ترميَه، ومثله الإخبالُ، يقال: أخبلتُ فلاناً: إذا أعَرْتَه ناقةً يركبها، أو فرساً يغزو عليه[١١]، قال زهير:

---

(١) سنن ابن ماجه (٢٣٨٣).

(٢) في (ظ): وموته.

(٣) سنن ابن ماجه (٢٣٨٢)، والمجتبى ٦/ ٢٧٣، والسنن الكبرى (٦٥٢٨).

(٤) في (ظ): نفي.

(٥) في (م): من.

(٦) في المجتبى ٦/ ٢٧٣ و٢٧٤، والكبرى (٦٥٢٨) و(٦٥٣٥).

(٧) المجتبى ٦/ ٢٧٠، والكبرى (٦٥٠٦).

(٨) أخرجه ابن أبي شيبة ٧/ ١٤٤.

(٩) في (ظ): سبيل إلى.

(١٠) أخرجه النسائي في المجتبى ٦/ ٢٧٠، وفي الكبرى (٦٥٠٩) إلا أنه من طريق طاوس عن النبي ﷺ، مرسلاً، وفيه: «بسبيل».

(١١) في (د): عليها.

هنالك إن يُسْتَخْبَلُوا المالَ يُخْبِلُوا وإن يُسألوا يُعْطُوا وإن يَيْسِروا يُغْلُوا[١]

والمِنْحَة: العَطِيَّة، والمِنْحَة: مِنحةُ اللَّبن، والمَنِيحة: الناقةُ أو الشاةُ يُعطيها الرجلُ آخرَ يحتلبُها، ثم يردُّها، قال رسول الله ﷺ: «العاريَّة مُؤدَّاةٌ، والمِنْحَةُ مَرْدُودةٌ، والدَّيْنُ مَقْضِيٌّ، والزَّعيمُ غارمٌ». رواه أبو أمامة، أخرجه الترمذيُّ والدارقطنيُّ وغيرهما[٢]، وهو صحيحٌ.

والإطْراق: إعارةُ الفحل، استطرقَ فلانٌ فلاناً فَحْلَه: إذا طَلَبَه لِيضربَ في إبله، فأطرقَه إياه، ويقال: أَطْرِقني فَحْلَكَ، أي: أعِرْني فَحْلَكَ لِيضربَ في إبلي، وطَرَقَ الفحلُ الناقةَ يَطْرُق طُروقاً، أي قَعا عليها، وطَرُوقةُ الفحل: أُنثاه، يقال: ناقةٌ طَروقة الفحل للتي بلغت أن يضربَها الفَحْلُ.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿أَنتَ وَزَوْجُكَ﴾ «أنت» تأكيدٌ للمضمَر الذي في الفعل، ومثله﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ﴾ [المائدة: ٢٤]، ولا يجوز: اسْكُنْ وزوجُك، ولا: اذْهَبْ وربُّك، إلا في ضرورة الشعر، كما قال:

قلتُ إذْ أقبلتْ وزُهْرٌ تَهادَى كنِعاج المَلا تَعَسَّفْنَ رَمْلا[٣]

فـ «زُهْر» معطوف على المضمر في «أقبلتْ» ولم يؤكَّد ذلك المضمر، ويجوز في غير القرآن على بُعْدٍ: قم وزيدٌ.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَزَوْجُكَ﴾ لغةُ القرآن «زَوْجٌ» بغير هاء، وقد تقدَّم القولُ فيه[٤]. وقد جاء في «صحيح» مسلم[٥] «زوجة»: حدَّثنا عبد الله بنُ مَسْلَمة بن قَعْنَب، قال: حدَّثنا حماد بنُ سَلَمَة، عن ثابت البُنانيِّ، عن أنس، أنَّ النبيَّ ﷺ كان مع إحدى

---

(١) ديوانه ص ١١٢ (بشرح ثعلب)، وص ٤٢ (بشرح الأعلم الشنتمري)، ومعنى قوله: وإن ييسروا يغلوا: أنهم إذا قامروا بالميسر يأخذون سمان الجزر، فيقامرون عليها لا ينحرون إلا غالية. قاله الأعلم.

(٢) سنن الترمذي (٢١٢٠)، وسنن الدارقطني ٣/ ٤٠ ـ ٤١، وهو في المسند (٢٢٢٩٤).

(٣) البيت لعمر بن أبي ربيعة، وهو في ملحق ديوانه ص ٤٩٨، وهو من شواهد سيبويه ٢/ ٣٧٩. قال الأعلم الشنتمري في شرحه: والزُّهر: جمع زهراء: وهي البيضاء المشرقة، وتَهادَى: تمشي المشي الرويد الساكن، والنعاج: بقر الوحش، والمَلا: الفَلاة الواسعة، وتعسَّفْن: سِرْن بغير هداية، وإذا مشت في الرمل كان أسكنَ لمشيها، لصعوبة ذلك.

(٤) ص ٣٦١ ـ ٣٦٢.

(٥) رقم (٢١٧٤)، وهو في مسند أحمد (١٤٠٤٢).

نسائه، فمرَّ به رجل، فدعاه فجاء، فقال: «يا فلانُ، هذه زوجتي فلانةُ» فقال: يا رسول الله، مَنْ كنتُ أظنُّ به فلم أكن أظنُّ بك! فقال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان يجري من الإنسان مَجْرَى الدَّم».

وزوجُ آدم عليه السلام هي حوَّاءُ عليها السلام، وهو أوّلُ مَنْ سمَّاها بذلك حين خُلقت من ضِلَعه من غير أن يُحِسَّ آدم عليه السلام بذلك[1]، ولو أَلِمَ بذلك لم يَعْطِف رجلٌ على امرأته، فلما انتبه قيل له: من هذه؟ قال: امرأةٌ، قيل: وما اسمُها؟ قال: حوّاء، قيل: ولِمَ سُمِّيت امرأة؟ قال: لأنها من المرء أُخِذت، قيل: ولمَ سُمِّيت حوّاء؟ قال: لأنها خُلقت من حيٍّ. رُوِيَ أن الملائكةَ سألته عن ذلك لتجربَ علمَه، وأنهم قالوا له: أتحبُّها يا آدمُ؟ قال: نعم. قالوا لحوَّاء: أتحبينَه يا حوَّاءُ؟ قالت: لا. وفي قلبها أضعافُ ما في قلبه من حبِّه. قالوا: فلو صَدَقتِ امرأةٌ في حبِّها لزوجها لصدَقت حوّاء.

وقال ابن مسعود وابن عباس: لما أُسْكِن آدمُ الجنةَ مشى فيها مستوحشاً، فلمَّا نام خُلقت حوّاءُ مِن ضِلَعه القُصَيْرى[2] مِن شقِّه الأيسر، ليسكن إليها ويأنَسَ بها، فلما انتبه رآها، فقال: من أنتِ؟! قالت: امرأةٌ خُلِقتُ من ضِلَعك لتسكن إليَّ[3]، وهو معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقال العلماء: ولهذا كانت المرأةُ عَوْجاءَ، لأنها خُلقت من أعوجَ، وهو الضِّلَع.

---

(١) ليس في الآثار الصحيحة ما يشير إلى أن حواء خلقت من ضلع آدم، ومن ذهب إلى ذلك جعل «من» في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ (النساء: ١) تبعيضية. والأشبه أن تكون لبيان الجنس، كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ (الروم: ٢١). وقولُه عليه الصلاة والسلام: «إن المرأة خلقت من ضلع» إنما هو على جهة التمثيل كما جاء ذلك صريحاً في رواية الشيخين: «المرأة كالضِّلَع».

(٢) في (ز): القصير، وفي (ظ) و(م): القصرى، والمثبت من (د)، وهو الموافق لمصادر تخريجه.

(٣) أخرجهما باختصار الطبري في تفسيره ١/٥٤٨، وفي تاريخه ١/١٠٣ من طريقين: عن ابن عباس وابن مسعود، وفي إسنادهما ضعف. وانظر المحرر الوجيز ١/١٢٦، وعرائس المجالس ص ٣٠.

وفي «صحيح» مسلم[١] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ المرأةَ خُلقت من ضِلَع ـ في رواية: «وإنَّ أعوجَ شيء[٢] في الضِّلَع أعلاهُ» ـ لن تستقيمَ لك على طريقةٍ واحدةٍ، فإن استمتعتَ بها استمعتَ [بها] وبها عِوَجٌ، وإن ذَهبْتَ تُقِيمُها كسرتَها، وكَسْرُها طلاقُها». وقال الشاعر[٣]:

هي الضِّلَعُ العَوْجاءُ لَسْتَ تُقِيمُها ألا إنَّ تَقْويمَ الضُّلوعِ انْكِسارُها
أتجمعُ ضَعْفاً واقْتِداراً على الفَتَى أليسَ عجيباً ضَعْفُها واقتدارُها

ومن هذا الباب استدلَّ العلماء على ميراث الخُنْثَى المُشْكِل إذا تساوت فيه علاماتُ النساء والرجال من اللِّحية والثَّدْي والمَبال بنقص الأعضاء، فإنْ نَقَصَتْ أضلاعُه عن أضلاع المرأة أُعْطِيَ نصيبَ رجلٍ ـ رُوِيَ ذلك عن عليٍّ رضي الله عنه[٤] ـ لخلقِ حوّاءَ من أحدِ أضلاعه، وسيأتي في المواريث بيانُ هذا إن شاء الله تعالى[٥].

الخامسة: قوله تعالى: ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ الجنَّة: البُستان، وقد تقدَّمَ القولُ فيها[٦].

ولا التفات لما ذهبت إليه المعتزلةُ والقَدَرِيَّةُ من أنه لم يكن في جنة الخُلْد، وإنما كان في جنةٍ بأرضِ عَدَن، واستدَلُّوا على بِدْعَتِهم بأنها لو كانت جنةَ الخُلْد، لما وصلَ إليه إبليسُ، فإن الله يقول: ﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ [الطور: ٢٣]، وقال: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ [النبأ: ٣٥]، وقال: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٥ـ٢٦]، وأنه لا يُخرَجُ منها أهلُها لقوله: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٩]. وأيضاً؛ فإنَّ جنةَ الخُلْدِ هي دارُ القُدْس، قُدِّسَتْ عن الخطايا والمعاصي تطهيراً لها، وقد لَغا فيها إبليسُ وكَذَب، وأُخْرِجَ منها آدمُ وحَوَّاءُ بمعصيتهما.

---

(١) برقم (١٤٦٨) (٥٩) و(٦٠) وما بين حاصرتين منه، وهو أيضاً في صحيح البخاري (٣٣٣١).

(٢) في (د): ما.

(٣) هو حاجب بن دينار، والبيت الأول في اللسان: (ضلع)، ووقع فيه حاجب بن ذبيان. وانظر حاشية البيان والتبيين ٢/ ١٨٣.

(٤) لم نقف على من أخرجه، وقد ذكر ابن قدامة في المغني ٩/ ١١٠ أن هذا القول مروي عن علي والحسن رضي الله عنهما.

(٥) في تفسير الآية (١١) من سورة النساء.

(٦) ص ٣٥٩.

قالوا: وكيف يجوزُ على آدمَ مع مكانه من الله وكمالِ عقلِه أن يطلبَ شَجَرةَ الخُلْدِ ـ وهو في دار الخُلْدِ ـ والمُلْكَ الذي لا يَبْلَى؟

فالجوابُ: أنَّ الله تعالى عَرَّفَ الجنةَ بالألف واللام، ومن قال: أسألُ الله الجنةَ، لم يُفهَم منه في تعارُفِ الخلق إلا طلبُ جنةِ الخُلْد، ولا يستحيلُ في العقل دخولُ إبليسَ الجنةَ لتغرير[١] آدم، وقد لَقِيَ موسى آدمَ عليهما السلام، فقال له موسى: أنتَ أَشْقَيْتَ ذُرِّيَّتَك، وأخْرَجْتَهم من الجنة[٢]، فأدخلَ الألفَ واللامَ ليدلَّ على أنها جنةُ الخُلْد المعروفةُ، فلم يُنْكِرْ ذلك آدمُ، ولو كانت غيرَها لَرَدَّ على موسى، فلمَّا سَكَتَ آدمُ على ما قَرَّرَه موسى صَحَّ أنَّ الدارَ التي أخْرَجَهم الله عزَّ وجلَّ منها بخلاف الدار التي أُخْرِجُوا إليها.

وأمَّا ما احتجُّوا به من الآي؛ فذلك إنما جعلَه الله فيها بعدَ دخولِ أهلِها فيها يومَ القيامة، ولا يمتنعُ أن تكون دارَ خُلْد[٣] لمن أرادَ الله تخليدَه فيها، وقد يخرجُ منها مَنْ قُضِيَ عليه بالفناء. وقد أجمعَ أهلُ التأويل على أن الملائكةَ يدخلون الجنةَ على أهل الجنة ويخرُجون منها، وقد كان مفاتيحُها بيد إبليسَ، ثم انتُزِعَت منه بعد المعصية، وقد دخلَها النبيُّ ﷺ ليلةَ الإسراء، ثم خرجَ منها، وأخبرَ بما فيها[٤]، وأنها هي جنةُ الخُلْد حقًّا.

وأما قولهم: إن الجنةَ دارُ القُدْس، وقد طهَّرها الله تعالى من الخطايا، فجهلٌ منهم، وذلك أن الله تعالى أمرَ بني إسرائيلَ أن يدخلوا الأرضَ المقدَّسةَ، وهي الشام، وأجمع أهلُ الشرائع على أنَّ الله تعالى قَدَّسها، وقد شُوهِدَ فيها المعاصي والكفرُ والكذبُ، ولم يكن تقديسُها مما يمنعُ فيها المعاصي، وكذلك[٥] دار القُدْس.

قال أبو الحسن بنُ بطَّال: وقد حكى بعضُ المشايخ أن أهلَ السُّنّة مُجمعون على أنَّ جنةَ الخُلْد هي التي أُهْبِطَ منها آدمُ عليه السلام، فلا معنى لقولِ مَنْ خالَفَهم.

---

(١) في (د): لتعذير، وفي (ز) و(ظ): لتعزير، والمثبت من (م).

(٢) أخرجه البخاري (٧٥١٥)، ومسلم (٢٦٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) في (م): الخلد.

(٤) سلف ص ٣٥٧.

(٥) في (د): فلذلك سمّيت، وفي (ز) و(ظ): فكذلك، والمثبت من (م).

وقولهم: كيف يجوزُ على آدم في كمال عقله أن يطلبَ شجرةَ الخُلْد وهو في دار الخُلْد؟ فيُعكَس عليهم، ويقال: كيف يجوزُ على آدم وهو في كمال عقلِه أن يطلبَ شجرةَ الخُلْد في دار الفناء؟! هذا ما لا يجوزُ[١] على مَنْ له أدنى مُسْكةٍ من عقل، فكيف بآدم الذي هو أرجحُ الخلقِ عقلاً! على ما قال أبو أُمامة، على ما يأتي[٢].

السادسة: قوله تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ قراءةُ الجمهور: «رَغَداً» بفتح الغين، وقرأ النَّخَعيُّ وابنُ وَثَّاب بسكونها[٣]، والرَّغَد: العيشُ الدَّارُّ الهَنِيُّ الذي لا غَناءَ فيه. قال:

بينما المرءُ تَراهُ ناعماً ... يأمَنُ الأحداثَ في عيشٍ رَغَد[٤]

ويقال: رَغُدَ عيشُهم ورَغِدَ[٥] ـ بضمِّ الغين وكسرِها ـ وأرغَدَ القومُ: أخْصَبُوا وصارُوا في رَغَدٍ من العيش، وهو منصوبٌ على الصفة لمصدر محذوف[٦].

وحَيْثُ وحيثَ وحيثِ، وحَوْثُ وحَوْثَ وحَوْثِ[٧] وحاثَ، كلُّها لغاتٌ، ذكرها النَّحاسُ وغيره[٨].

السابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ أي: لا تقرباها بأكل؛ لأن الإباحةَ فيه وقعت. قال ابن العربيّ: سمعتُ الشَّاشيَّ[٩] في مجلس النَّظَرِ[١٠] يقول: إذا قيل:

---

(١) في (د): هذا مما لا يجوز، وفي (ظ): وهذا وهذا لا يجوز.

(٢) ص ٤٥٧.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ١٢٧. ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٣ للنخعي.

(٤) البيت لامرئ القيس، كما في تفسير الطبري ١/ ٥٥٠، والمحرر الوجيز ١/ ١٢٧. ولم نقف عليه في ديوانه.

(٥) في (ظ): رغُد عيشهم يَرغَد ورغِد.

(٦) أو أن يكون مصدراً في موضع الحال، كما حكاه النحاس في إعراب القرآن ١/ ٢١٣ عن ابن كيسان، وسيذكره المصنف ص ٤٦١.

(٧) اللفظة الثالثة: وحَوْثِ، من (د) و(ز)، وهو موافق لما في كتب اللغة.

(٨) إعراب القرآن ١/ ٢١٣، وأمالي ابن الشجري ٢/ ٥٩٩. وانظر الصحاح: (حوث)، والدر المصون ١/ ٢٨٢.

(٩) هو محمد بن أحمد بن الحسين، أبو بكر التركي، شيخ الشافعية، له حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء. كان يسمى الجنيد لورعه. مات سنة (٥٠٧هـ). السير ١٩/ ٣٩٣.

(١٠) كذا في النسخ الخطية، ونقله عنه أبو حيان في «البحر» ١/ ١٥٨ وقال: في مجلس النضر بن شُميل، ثم=

لا تقرَب ـ بفتح الراء ـ كان معناه: لا تَلَبَّس بالفعل، وإذا كان بضم الراء، فإنَّ معناه: لا تَدْنُ منه.

وفي «الصحاح»: قَرُبَ الشيءُ ـ بالضمّ ـ يقرُبُ قُرْباً، أي: دَنَا، وقَرِبْتُه ـ بالكسر ـ أقْرَبُه قُرْباناً، أي: دنَوْتُ منه، وقَرَبْتُ أقرُبُ قِرابةً ـ مثل: كَتَبتُ أكتُبُ كِتابةً ـ إذا سِرتَ إلى الماء وبينك وبينه ليلةٌ، والاسم: القَرَب، قال الأصمعيُّ: قلتُ لأعرابيٍّ: ما القَرَبُ؟ فقال: سَيْرُ الليل لوِرْد الغد.

وقال ابن عطية[1]: قال بعضُ الحُذَّاق: إنَّ الله تعالى لما أرادَ النهيَ عن أكل الشجرةِ، نهى عنه بلفظٍ يقتضي الأكلَ وما يدعو إليه[2]، وهو القُرْب. قال ابن عطية: وهذا مثالٌ بَيِّنٌ في سَدِّ الذرائع.

وقال بعض أرباب المعاني: قوله: «ولا تَقْرَبا» إشعارٌ بالوقوع في الخطيئة والخروجِ من الجنة، وأنَّ سُكْناه فيها لا يدوم، لأنَّ المُخَلَّدَ لا يُحْظَر عليه شيءٌ، ولا يُؤمَرُ ولا يُنْهَى، والدليلُ على هذا قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فدلَّ على خُروجه منها.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ الاسمُ المبهَم يُنعَتُ بما فيه الألفُ واللام لا غير، كقولك: مررتُ بهذا الرجل، وبهذه المرأة، وهذه الشجرة.

وقرأ ابن مُحَيْصِن: «هذي الشجرة» بالياء، وهو الأصل، لأنَّ الهاء في هذه بدلٌ من ياء، ولذلك انكسر ما قبلها، وليس في الكلام هاءُ تأنيثٍ قبلَها كسرةٌ سواها، وذلك لأنَّ أصلَها الياء[3].

= تعقبَه بقوله: وفي هذه الحكاية عن ابن العربي من التخليط ما يُتعجب من حاكيها...، وبين النضر والشاشيِّ من السنين مئون! إلا إن كان ثَمَّ مكان معروف بمجلس النضر بن شميل، فيمكن. اهـ. وستتكرر عبارة مجلس النظر في ٣/ ٧٤، ٤٨٦ ولعل المراد به مجلس المناظرة، كما هو وارد في كتب الأصوليين. ينظر المنثور في القواعد للزركشي ٣/ ٢١٧، وأصول البزدوي ٣/ ٢٦٩.

(١) المحرر الوجيز ١/ ١٢٧.

(٢) في (م): وما يدعو إليه العرب، ولفظة «العرب» مقحمة.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ١٢٧. ونسب هذه القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤ لابن كثير في بعض رواياته.

والشَّجَرة والشِّجَرة والشِّيَرة: ثلاثُ لغات، وقُرئ: «الشِّجَرة» بكسر الشين[١].

والشَّجَرة والشِّجَرة[٢]: ما كان على ساقٍ من نبات الأرض، وأرضٌ شَجِيرة وشَجْراء، أي: كثيرةُ الأشجار، ووادٍ شَجِير، ولا يقال: وادٍ أشجر. وواحد الشَّجْراء شَجَرة، ولم يأتِ من الجمع على هذا المثال إلا أحرفٌ يسيرة: شَجَرة وشَجْراء، وقَصَبة وقَصْباء، وطَرَفة وطَرْفاء، وحَلَفة وحَلْفاء[٣]، وكان الأصمعيُّ يقول في واحد الحَلْفاء: حَلِفَة ـ بكسر اللام ـ مخالفةً لأخواتها. وقال سيبويه: الشَّجْراءُ واحدٌ وجَمْع، وكذلك القَصْباءُ والطَّرْفاء والحَلْفاء. والمَشْجَرة[٤]: موضعُ الأشجار، وأرضٌ مَشْجَرة، وهذه الأرض أشجر من هذه، أي: أكثرُ شَجَراً، قاله الجوهريُّ[٥].

التاسعة: واختلفَ أهلُ التأويل في تعيين هذه الشجرة التي نُهيَ عنها، فأكل منها، فقال ابنُ مسعود وابنُ عباس وسعيد بنُ جُبير وجَعْدة بنُ هُبيرة[٦]: هي الكَرْم، ولذلك حُرِّمت علينا الخمر. وقال ابنُ عباس أيضاً وأبو مالك وقتادةُ: هي السُّنْبُلة، والحَبَّةُ منها كَكُلَى البقر، أحْلَى من العسل، وألْيَن من الزُّبْد، قاله وَهْب بن مُنَبِّه. ولمَّا تاب الله على آدم جعلَها غذاءً لبنيه. وقال ابنُ جُريج عن بعض الصحابة: هي شجرةُ التِّين[٧]، وكذا روى سعيد[٨] عن قتادة. ولذلك تُعَبَّر في الرؤيا بالندامة لآكلها من أجل ندم آدم عليه السلام على أكلها. ذكره السُّهَيليُّ[٩].

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ١٢٧، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤ لأبي السمَّال، وابن جني في المحتسب ١/ ٧٤ لهارون الأعور عن بعض العرب.

(٢) في (ظ): والشَّجرَ والشِّجَر، وفي (د): والشَّجر والشّجرة.

(٣) في (د) و(ز): وحلقة وحلقاء، وفي (ظ): وخلفة وخلفاء، والمثبت من (م).

(٤) في النسخ: والمشجر، والمثبت من (م) والصحاح.

(٥) الصحاح (شجر).

(٦) ابن أبي وهب، المخزومي، أمُّه أمّ هانئ بنت أبي طالب، وهو من رجال التهذيب.

(٧) أخرج الأخبار السالفة الطبريُّ في تفسيره ١/ ٥٥١ـ٥٥٦.

(٨) في (د): شعبة، وأخرج الطبري ١/ ٥٥٢ من طريق سعيد، عن قتادة قال: هي السنبلة.

(٩) التعريف والإعلام ص ٢٠.

قال ابن عطية[١]: وليس في شيء من هذا التعيين ما يَعْضُده خبرٌ، وإنما الصوابُ أن يُعتقَد أن الله تعالى نهى آدمَ عن شجرةٍ، فخالف هو إليها، وعصى في الأكل منها.

وقال القُشيري أبو نصر: وكان الإمام والدي رحمه الله يقول: يُعلَم على الجملة أنها كانت شجرةَ المِحْنة[٢].

العاشرة: واختلفوا كيف أكَلَ منها مع الوعيد المقترن بالقُرب، وهو قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فقال قوم: أكلا من غير التي أُشيرَ إليها، فلم يتأوَّلا النهيَ واقعاً على جميع جنسها، كأن إبليس غَرَّه [بالأخذ] بالظاهر. قال ابن العربي[٣]: وهي أوّل معصيةٍ عُصِيَ الله بها على هذا القول.

قال: وفيه دليلٌ على أنَّ من حلفَ ألا يأكل من هذا الخبز، فأكل من جنسه، حَنِثَ، وتحقيقُ المذاهب فيه أنَّ أكثر العلماء قالوا: لا حِنْثَ فيه، وقال مالك وأصحابه: إن اقْتَضَى بِساطُ اليمين[٤] تعيينَ المشارِ إليه، لم يَحْنَثْ بأكل جنسِه، وإن اقْتَضَى بِساطُ اليمين أو سَبَبُها أو نيَّتُها الجنسَ حُمِلَ عليه، وحَنِثَ بأكل غيرِه، وعليه حُمِلَتْ قصةُ آدمَ عليه السلام، فإنه نُهِيَ عن شجرة عُيِّنَتْ له وأُريدَ به[٥] جنسُها، فحَمَلَ القولَ على اللفظ دون المعنى.

وقد اختلف علماؤنا في فَرْعٍ من هذا: وهو أنه إذا حلَفَ ألا يأكل هذه الحنطةَ، فأكل خبزاً منها، على قولين: قال في «الكتاب»[٦]: يحنَثُ، لأنَّها هكذا تؤكلُ، وقال ابنُ المَوَّاز[٧]: لا شيء عليه، لأنه لم يأكل حنطةً، إنما[٨] أكل خبزاً، فَرَاعَى الاسمَ

(١) المحرر الوجيز ١/١٢٨.

(٢) لطائف الإشارات ١/٨٠.

(٣) أحكام القرآن ١/١٨ و١٩، والكلام السابق وما بين حاصرتين منه.

(٤) هوا لسبب المثير لليمين لتُعرف منه، وسلف ذكره ص ٣٤٤.

(٥) في (ظ) و(م): بها.

(٦) المدونة الكبرى ٢/١٢٧، ونقله المصنف بواسطة ابن العربي.

(٧) محمد بن إبراهيم بن زياد، أبو عبد الله، الإسكندراني، المالكي، فقيه الديار المصرية، صاحب التصانيف، توفي سنة (٢٦٩هـ). السير ١٣/٦.

(٨) في (م) وأحكام القرآن: وإنما.

والصفةَ. ولو قال في يمينه: لا آكلُ من هذه الحنطة، لَحَنِثَ بأكل الخبز المعمولِ منها، وفيما اشتُرِيَ بثمنها من طعام، وفيما أنبتت خلافٌ.

وقال آخرون: تأوّلا النَّهيَ على النَّدب. قال ابن العربيّ: وهذا وإن كانت[١] مسألة[٢] من أصول الفقه، فقد سقطَ ذلك هاهنا، لقوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾. فقرنَ النَّهْيَ بالوعيد، وكذلك قوله سبحانه: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧].

وقال ابن المُسَيِّب: إنما أكلَ آدمُ بعد أن سَقَته حوَّاءُ الخمر، فسَكِر، وكان في غير عقلِه. وكذلك قال يزيدُ بن قُسيط[٣]، وكانا يحلفان بالله أنه ما أكل من هذه الشجرة وهو يعقِلُ. قال ابن العربيّ[٤]: وهذا فاسدٌ نقلًا وعقلًا، أما النَّقْلُ فلم يَصِحَّ بحالٍ، وقد وَصَفَ الله عزَّ وجلَّ خمرَ الجنة، فقال: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ [الصافات: ٤٧]. وأما العقلُ فلأنَّ الأنبياءَ بعد النبوّة معصومون عما يؤدّي إلى الإخلال بالفرائض واقتحامِ الجرائم.

قلت: قد استنبطَ بعضُ العلماء نبوّةَ آدمَ عليه السلام قبل إسكانه الجنةَ من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾ فأمرَه الله تعالى أن يُنبئَ الملائكةَ بما ليس عندهم من علم الله جلّ وعَزّ.

وقيل: أكلَها ناسياً، ومن الممكن أنهما نَسِيا الوعيدَ.

قلت: وهو الصحيحُ؛ لإخبار الله تعالى في كتابه[٥] بذلك حتماً وجزماً، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]. لكن لمَّا كان الأنبياءُ عليهم السلام يلزمهم من التحفُّظ والتيقُّظ ـ لكثرة معارفهم وعُلُوّ منازلهم ـ ما لا يلزم غيرَهم، كان تشاغلُه[٦] عن تذكُّر النّهي تضييعاً صارَ به عاصياً، أي: مخالفاً.

---

(١) في (م): كان.

(٢) في أحكام القرآن ١/ ١٩: وأما حمل النهي على التنزيه فهي وإن كانت مسألة...

(٣) قول ابن المسيب أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٥٦٦ من طريق يزيد بن عبد الله بن قسيط، عنه، أنه سمعه يحلف بالله ما يستثني: ما أكل آدم من الشجرة و هو يعقل.
وقول يزيد لم نقف على من ذكره منسوباً له. وانظر المحرر الوجيز ١/ ١٢٩.

(٤) أحكام القرآن ١/ ١٩.

(٥) في (ظ): الكتاب.

(٦) في (د) و(ظ): تشاغلهم.

قال أبو أُمامة: لو أن أحلامَ بني آدمَ منذ خَلَقَ الله الخَلْقَ إلى يوم القيامة وُضِعت في كِفَّة ميزان، ووُضع حِلْم آدمَ في كِفَّة أخرى، لَرَجَحَهم، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[١].

قلت: قولُ أبي أُمامةَ هذا عمومٌ في جميع بني آدم، وقد يَحتمِلُ أن يُخصَّ من ذلك نبيُّنا محمد ﷺ؛ فإنه كان أوفَرَ الناس حِلْماً وعقلاً، وقد يَحْتَمِلُ أن يكون المعنى: لو أنَّ أحلامَ بني آدم من غير الأنبياء. والله أعلَم.

قلتُ: والقولُ الأوّل[٢] أيضاً حَسَن، فظَنَّا أنَّ المرادَ العَيْنُ، وكان المرادُ الجنسَ، كقول النبيِّ ﷺ حين أخذ ذهباً وحريراً، فقال: «هذانِ حرامانِ على ذكورِ أُمتي»[٣].

وقال في خبرٍ آخر: «هذان مُهلكانِ أُمتي»[٤]. وإنما أرادَ[٥] الجنسَ لا العين.

الحادية عشرة: يقال: إن أوّل مَنْ أكلَ من الشجرة حوّاءُ بإغواء إبليس إياها، على ما يأتي بيانهُ[٦]، وإن أوّلَ كلامه كان معها؛ لأنها وسواسُ المِخَدَّة، وهي أوّلُ فِتنة دخلت على الرجال من النساء، فقال: ما مُنِعْتُما هذه الشجرةَ إلا أنها شجرةُ الخُلْد؛ لأنه علمَ منهما أنهما كانا يُحِبّان الخُلْد، فأتاهما من حيث أحبَّا ـ حُبُّكَ الشيءَ يُعمي ويُصِمُّ[٧] ـ فلما قالت حوّاء لآدمَ أنكرَ عليها، وذكرَ العهدَ، فألحَّ على حوّاءَ، وألَحَّتْ حوّاءُ على آدم، إلى أن قالت: أنا آكلُ قبلكَ، حتى إنْ أصابني شيءٌ سَلِمْتَ أنت، فأكلتْ فلم يضرَّها، فأتَتْ آدمَ، فقالت: كُلْ، فإني قد أكَلْتُ فلم يضرَّني، فأكل، فبَدَتْ لهما سوآتُهما، وحصلا في حكم الذنب، لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا

(١) أخرجه الطبري ١٦/ ١٨٥.

(٢) يعني ما سلف في أول المسألة ص ٤٥٥.

(٣) أخرجه أحمد (٧٥٠)، والنسائي ٨/ ١٦٠ ـ ١٦١ من حديث علي رضي الله عنه.

(٤) لم نقف عليه.

(٥) في (د): المراد.

(٦) في الآية التالية.

(٧) هو من كلام أبي الدرداء رضي الله عنه. المسند (٢١٦٩٤)، والقصة في تفسير الطبري ١/ ٥٦١ـ٥٦٦، وتاريخه ١/ ١٠٧ ـ ١٠٨، والمحرر الوجيز ١/ ١٢٨.

﴿هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ فجمعهما في النَّهْي، فلذلك لم تنزل بهما[١] العقوبةُ حتى وُجِدَ المنهيُّ عنه منهما جميعاً، وخَفِيت على آدمَ هذه المسألةُ.

ولهذا قال بعضُ العلماء: إنَّ مَنْ قالَ لزوجتيه أو أَمَتَيه: إن دخلتُما الدارَ، فأنتما طالقتان أو حُرَّتان: إن الطلاقَ والعتقَ لا يقعُ بدخول إحداهما.

وقد اختلفَ علماؤنا في ذلك على ثلاثة أقوال: قال ابن القاسم: لا تطلقان ولا تَعتِقان إلا باجتماعهما في الدخول، حملاً على هذا الأصل، وأخذاً بمقتضى مُطلَقِ اللفظ. وقاله سُحْنون.

وقال ابن القاسم مرةً أخرى: تطلقان جميعاً وتَعتِقان جميعاً بوجود الدخول من إحداهما؛ لأنّ بعضَ الحِنْثِ حِنْثٌ، كما لو حلفَ ألّا يأكلَ هذين الرغيفين، فإنه يحنَثُ بأكل أحدهما، بل بأكل لُقمةٍ منهما.

وقال أشهب: تَعتِقُ وتَطْلُقُ التي دخلت وحدَها، لأن دخول كلّ واحدةٍ منهما شرطٌ في طلاقها أو عِتْقها. قال ابن العربي[٢]: وهذا بعيدٌ، لأن بعضَ الشرط لا يكون شرطاً إجماعاً.

قلت: الصحيحُ الأوّل، وإنَّ النَّهْيَ إذا كان معلَّقاً على فعلين لا تتحقَّقُ المخالفةُ إلا بهما، لأنك إذا قلتَ: لا تدخلا الدار، فدخل أحدُهما، ما وُجدت المخالفةُ منهما، لأن قولَ الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ نَهْيٌ لهما ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ جوابُه، فلا يكونا من الظالمين[٣] حتى يفعلا، فلما أكَلتْ لم يُصِبْها شيءٌ؛ لأن المنهيَّ عنه ما وُجد كاملاً، وخَفِيَ هذا المعنى على آدم، فطمعَ ونسيَ هذا الحكم، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾ [طه: ١١٥]، وقيل: نسي قوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ﴾ [طه: ١١٧]. والله أعلم.

الثانيةَ عشرة: واختلف العلماءُ في هذا الباب: هل وقعَ من الأنبياء ـ صلوات الله

---

(١) في (ز) و(م): بها، والمثبت من (د) و(ظ)، وهو الموافق لأحكام القرآن ١/ ١٧.

(٢) أحكام القرآن ١/ ١٧.

(٣) في (د) و(ز): فلا يكونا ظالمين.

عليهم أجمعين ـ صغائرُ من الذنوب يُؤاخذون بها، ويُعاتَبون[١] عليها، أم لا؟ بعد اتفاقهم على أنهم معصومون من الكبائر، ومن كلِّ رذيلةٍ فيها شَيْنٌ ونقصٌ، إجماعاً عند القاضي أبي بكر. وعند الأستاذ أبي إسحاق[٢] أنَّ ذلك مقتضى دليلِ المعجزة، وعند المعتزلة أنَّ ذلك مقتضى دليلِ العقل على أصولهم:

فقال الطبريُّ وغيره من الفقهاء والمتكلّمين والمحدّثين: تقعُ الصغائر منهم، خلافاً للرافضة حيث قالوا: إنَّهم معصومون من جميع ذلك، واحتجُّوا بما وقعَ من ذلك في التنزيل، وثبتَ من تنصُّلهم[٣] من ذلك في الحديث، وهذا ظاهرٌ لا خفاءَ فيه.

وقال جمهورٌ من الفقهاء من أصحاب مالك وأبي حنيفة والشافعي: إنهم معصومون من الصغائر كلِّها كعصمتهم من الكبائر أجمعِها، لأنا أُمِرْنا باتِّباعهم في أفعالهم وآثارهم وسِيَرهم أمراً مطلقاً من غير التزامِ قرينةٍ، فلو جوَّزنا عليهم الصغائرَ لم يكن الاقتداءُ بهم، إذ ليس كلُّ فعل من أفعالهم يتميزُ مقصدُه من القُرْبة والإباحة، أو الحَظْر أو المعصية، ولا يصحُّ أن يؤمر المرءُ بامتثال أمرٍ لعلَّه معصيةٌ، لاسيَّما على مَنْ يرى تقديمَ الفعلِ على القول إذا تعارضا من الأصوليين.

قال الأستاذ أبو إسحاق الإسْفَرايني: واختلفوا في الصغائر، والذي عليه الأكثرُ أن ذلك غيرُ جائزٍ عليهم، وصار بعضُهم إلى تجويزها، ولا أصلَ لهذه المقالة.

وقال بعض المتأخرين ممن ذهب إلى القول الأوّل: الذي ينبغي أن يقال: إنَّ الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوبٍ من بعضهم، ونَسَبَها إليهم، وعاتَبهم عليها، وأخبروا بها عن نفوسهم، وتنصَّلوا منها، وأشفقوا منها، وتابوا، وكلُّ ذلك وَرَد في مواضعَ كثيرةٍ لا يقبَلُ التأويلَ جملتُها، وإن قَبِل ذلك آحادُها، وكلُّ ذلك مما لا يُزْرِي بمناصبهم، وإنما تلك الأمورُ التي وقعت منهم على جهة النُّدور[٤]، وعلى جهة الخطأ والنسيان، أو تأويلٍ دعا إلى ذلك، فهي بالنسبة إلى غيرهم حسناتٌ، وفي حقِّهم سيّئاتٌ [بالنسبة]

(١) في (ز) و(ظ): ويعاقبون.

(٢) في النسخ: الأستاذ أبي بكر، وهو خطأ، ينظر الشفاء للقاضي عياض ٢/ ١٤٤.

(٣) في (د) و(ز): تفضلهم، وفي (ظ) تفضيلهم. والمثبت من (م).

(٤) في (ظ): النذير.

إلى مناصبهم وعُلوِّ أقدارِهم، إذ قد يُؤاخَذُ الوزيرُ بما يُثابُ عليه السائسُ، فأشفقوا من ذلك في موقف القيامة مع علمهم بالأمن والأمانِ والسلامةِ. قال: وهذا هو الحقُّ.

ولقد أحسن الجُنَيد حيث قال: حسناتُ الأبرار سيئاتُ المقرَّبين[١]، فهم ـ صلواتُ الله وسلامُه عليهم ـ وإن كان قد شهدتِ النصوصُ بوقوع ذنوبٍ منهم، فلم يُخِلَّ ذلك بمناصبهم، ولا قَدَح في رُتَبهم، بل قد تلافاهم، واجتباهم، وهداهم، ومدحَهم، وزكَّاهم، واختارَهم، واصطفاهم، صلواتُ الله عليهم وسلامه.

الثالثةَ عشرة: قولُه تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الظُّلم: أصلُه وضعُ الشيءِ في غير موضعه، والأرضُ المظلومةُ: التي لم تُحفَر قطُّ، ثم حُفِرت. قال النابغة:

وقفتُ فيها أُصَيْلالاً أُسائلُها ... عَيّتْ جواباً وما بالرَّبع مِن أحدِ
إلا الأَوَارِيَّ لَأْياً ما أُبَيِّنُها ... والنُّؤْيُ كالحَوْض بالمظلومة الجَلَد[٢]

ويُسمَّى ذلك التراب: الظَّلِيم. قال الشاعر:

فأصبَحَ في غبراءَ بعدَ إشاحةٍ ... على العيش مردودٍ عليها ظَلِيمُها[٣]

وإذا نُحِرَ البعيرُ من غير داءٍ به فقد ظُلم، ومنه:

ظَلّامون للجُزُر[٤]

ويقال: سقانا ظَلِيمةً طَيِّبة: إذا سقاهم اللبنَ قبل إدراكِه، وقد ظَلَمَ وَطْبَه[٥]: إذا سَقَى منه قبل أن يَرُوبَ ويُخْرَجَ زُبْدُه، واللّبنُ مظلومٌ وظَليم. قال:

---

(١) ذكر ابن عساكر في تاريخ دمشق ٢/ ٦٥ أنه من كلام أبي سعيد الخراز.

(٢) ديوانه ص٣٠. وأصيلاً: تصغير أُصلان جمع أصيل، والأواري: جمع آريّ، وهو محبِسُ الدابة. واللأي: الشدة والإبطاء. والنؤي: حفيرة حول الخباء لئلا يدخله ماء المطر. والجلد: الأرض الصلبة. الصحاح (أرا) (أصل) (جلد) (تأى).

(٣) البيت في رثاء رجل، وهو في الصحاح (ظلم) من غير نسبة. قال في اللسان (ظلم): يعني حفرة القبر يرد ترابها عليه بعد دفن الميت فيها.

(٤) هذا جزء من بيت لابن مقبل، والبيت بتمامه:

عادَ الأذِلَّةُ في دار وكان بها ... هُرْتُ الشقاشِقِ ظلّامون للجُزُر

وهو في ديوانه ص٨١، والصحاح (ظلم).

(٥) الوَطْب: سِقاءُ اللبن خاصة، ويعمل من جلد الجَذَع فما فوقه. الصحاح (وطب).

وقائلةٍ ظلمتُ لكم سِقائي وهل يَخْفَى على العَكِدِ[١] الظَّلِيمُ[٢]

ورجلٌ ظِلِّيم: شديدُ الظُّلم[٣].

والظُّلم: الشِّرك، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

قوله تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾ حُذفت النون من «كُلاَ» لأنه أَمْر، وحُذفت الهمزةُ لكثرة الاستعمال، وحذفُها شاذٌّ. قال سيبويه[٤]: من العرب من يقول: أُؤْكُل؛ فيُتِمُّ.

يقال منه: أَكَلْتُ الطعامَ أَكْلاً ومَأْكَلاً. والأَكْلة، بالفتح: المرّةُ الواحدةُ حتى تشبَعَ، والأُكْلة، بالضم: اللُّقْمة، تقول: أكلتُ أُكْلَةً واحدةً [أي: لُقْمة]، وهي القُرْصةُ أيضاً. وهذا الشيء أُكْلَةٌ لك، أي: طُعْمَةٌ لك، والأُكْلُ أيضاً: ما أُكل، ويقال: فلانٌ ذو أُكْل: إذا كان ذا حظٍّ من الدنيا ورزقٍ واسعٍ[٥].

﴿رَغَدًا﴾ نعتٌ لمصدر محذوف، أي: أَكْلاً رَغَداً. قال ابن كَيْسان: ويجوزُ أن يكون مصدراً في موضع الحال، وقال مجاهد: «رَغَداً» أي: لا حسابَ عليهم[٦]. والرَّغَدُ في اللغة: الكثيرُ الذي لا يُعَنِّيكَ، ويقال: أرغَدَ القومُ، إذا وقعوا في خِصْب وسَعَة. وقد تقدّم هذا المعنى[٧].

و﴿حَيْثُ﴾ مبنيَّة على الضَّم، لأنها خالفت أخواتِها الظروفَ في أنها لا تُضافُ، فأشبهت «قبلُ» و«بعدُ» إذا أُفرِدتا، فضُمَّتْ[٨]. قال الكسائيُّ: لغةُ قَيس وكِنانة الضمُّ، ولغةُ تميم الفتحُ. قال الكسائيُّ: وبنو أسَدٍ يخفضونها في موضع الخفض، وينصبونها

(١) في النسخ: العكر (براء) والمثبت من المصدر. والعَكِد: السمين. معجم متن اللغة (عكد).

(٢) البيت في تهذيب اللغة ١٤/ ٣٨٣، ومقاييس اللغة ٣/ ٤٦٩، ومجمل اللغة ١/ ٦٠٢، والصحاح، واللسان (ظلم).

(٣) الصحاح: (ظلم).

(٤) الكتاب ٤/ ٢١٩.

(٥) الصحاح (أكل)، وما بين حاصرتين منه.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٥٥٠.

(٧) في المسألة السادسة ص ٤٥٢.

(٨) في (ظ): بضم.

في موضع النصب، قال الله تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٢] وتُضمُّ وتُفتح[١].

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ الهاء من «هذه» بدلٌ من ياء الأصل، لأنَّ الأصلَ: هذي[٢]. قال النحاس[٣]: ولا أعلم في العربية هاءَ تأنيثٍ مكسوراً ما قبلَها إلا هاء «هذه». ومن العرب من يقول: هاتا هندٌ، ومنهم من يقول: هاتي هندٌ.

وحكى سيبويه[٤]: هذِهْ هندٌ، بإسكان الهاء.

وحكى الكِسائيُّ عن العرب: «ولا تَقْرَبا هذي الشجرة».

وعن شِبْلِ بنِ عَبَّاد[٥] قال: كان ابنُ كَثير وابنُ مُحَيْصِن لا يُثْبِتانِ الهاءَ في «هذه» في جميع القرآن[٦].

وقراءةُ الجماعة: «رَغَداً» بفتح الغين، ورُوِيَ عن ابن وَثَّاب والنَّخَعيِّ أنهما سَكَّنَا الغين[٧]. وحكى سلمةُ عن الفَرّاء قال: يقال: هذه فعلَتْ، وهذي فعلَتْ، بإثبات ياء بعد الذال، وهذِ فعلَتْ، بكسرِ الذال من غير إلحاقِ ياءٍ ولا هاء، وهاتا فعلَتْ. قال هشام[٨]: ويقال: تافعلَتْ. وأنشد:

خَلِيلَيَّ لَوْلَا ساكنُ الدَّارِ لم أُقِمْ ... بِتا الدَّارِ إلّا عابرَ ابنَ سبيلِ[٩]

قال ابنُ الأنباريِّ: و«تا» بإسقاط «ها» بمنزلة «ذي» بإسقاط «ها» من «هذي» وبمنزلة «ذه»بإسقاط«ها» من «هذه». وقد قال الفرّاء: مَن قال: هذِ قامتْ، لا يُسقِط «ها»، لأنَّ الاسمَ لا يكون على ذالٍ واحدة.

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢١٣.

(٢) وسلف الكلام فيها ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤ في المسألة الثامنة.

(٣) إعراب القرآن ١/ ٢١٤.

(٤) الكتاب ٤/ ١٨٢.

(٥) المكي صاحب عبد الله بن كثير المقرئ، مات سنة (١٤٨هـ)، تهذيب الكمال ١٢/ ٣٥٦.

(٦) قراءة ابن محيصن سلفت ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤، وذكر ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٤ أن في بعض روايات ابن كثير: هذي، بالياء.

(٧) المحرر الوجيز ١/ ١٢٧ وسلفت هذه القراءة ص ٤٥٢.

(٨) ابن معاوية النحوي، سلفت ترجمته ص ٣٠٨.

(٩) البيت من غير نسبة في الزاهر ١/ ٢٧٥، والمذكر والمؤنث ١/ ٢٢٨ لابن الأنباري.

﴿فَتَكُونَا﴾ عطفٌ على «تقربا»، فلذلك حُذفت النونُ، وزعم الجَرْميُّ أن الفاءَ هي الناصبةُ، وكلاهما جائز.

قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ فيه عشرُ مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾: قرأ الجماعةُ: «فَأَزَلّهما» بغير ألف، من الزَّلّة، وهي الخطيئةُ، أي: استزلَّهما، وأوقعَهما فيه، وقرأ حمزةُ: «فأزالَهما» بألف[1]، من التَّنحية، أي: نَحَّاهما، يقال: أزلْتُه فزال. قال ابن كَيْسان: فأزالَهما، من الزوال، أي: صَرَفَهما عمَّا كانا عليه من الطاعة إلى المعصية.

قلتُ: وعلى هذا تكون القراءتان بمعنًى، إلّا أنَّ قراءةَ الجماعة أمكنُ في المعنى. يقال منه: أزْلَلْته فَزَلَّ، ودلّ على هذا قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟﴾ [آل عمران: ١٥٥]، وقولُه: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ [الأعراف: ٢٠]. والوسوسةُ إنَّما هي إدخالُهما في الزَّلَلِ بالمعصية، وليس للشيطان قدرةٌ على زوال أحدٍ من مكان إلى مكان، إنما قدرتُه [على] إدخاله في الزَّلَل، فيكون ذلك سبباً إلى زواله من مكانٍ إلى مكان بذنبه.

وقد قيل: إن معنى «أزلّهما» مِن: زَلَّ عن المكان: إذا تَنَحَّى، فيكون في المعنى كقراءة حمزة، من الزوال. قال امرؤ القيس:

يُـزِلُّ الـغـلامَ الـخِـفَّ عـن صَـهَـواتِـه ويُـلْـوي بـأثـواب الـعَـنـيـفِ الـمُـثَـقَّـلِ[2]

وقال أيضاً:

كُـمَـيْـتٍ يَـزِلُّ الـلِّـبْـدُ عـن حـال مَـتْـنِـه كـمـا زَلَّـتِ الـصَّـفْـواءُ بـالـمُـتـنـزَّلِ[3]

---

(١) السبعة لابن مجاهد ص١٥٣. والتيسير للداني ص ٧٣.

(٢) ديوانه ص٢٠، والبيت من معلقته، ورواية الديوان: يُطِير الغلامَ، وبمثل رواية المصنف رواه ابن الأنباري في شرح القصائد ص٨٧.

(٣) ديوانه ص٢٠، والبيت من معلقته كذلك. قال الأعلم الشنتمري ١/ ٣٧ كُميت: أحمر اللون، وقيل: أملس المتن سَهْلُه، والحال: موضعُ اللِّبد من ظهره، والصفواء: الصخرة الملساء، والمتنزَّل: الموضع المنحدر.

الثانية: قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ إذا جُعِلَ «أزال» من: زال عن المكان، فقوله: «فأخرجهما» تأكيدٌ وبيانٌ للزوال، إذ قد يمكنُ أن يزولا عن مكانٍ كانا فيه إلى مكانٍ آخرَ من الجنة، وليس كذلك، وإنَّما كان[1] إخراجُهما من الجنة إلى الأرض، لأنهما خُلِقا منها، وليكون آدمُ خليفةً في الأرض.

ولم يَقصِدْ إبليسُ ـ لعنه الله ـ إخراجَه منها، وإنما قصَدَ إسقاطَه من مرتبته، وإبعادَه كما أُبعِدَ هو، فلم يبلُغْ مَقْصِدَه، ولا أدركَ مُرادَه، بل ازداد سُخْنَةَ عَين[2]، وغَيظَ نفسٍ، وخَيبةَ ظنٍّ. قال الله جلّ ثناؤه: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]، فصار عليه السلام خليفةَ الله في أرضه بعدَ أن كان جاراً له في داره، فكم بين الخليفةِ والجار ﷺ. ونُسب ذلك إلى إبليس، لأنه كان بسببه وإغوائه.

ولا خلافَ بين أهل التأويل وغيرهم أنَّ إبليسَ كان متولِّي إغواء آدم، واختُلفَ في الكيفية، فقال ابن مسعود وابن عباس وجمهور العلماء: أغواهما مشافهةً[3]، ودليلُ ذلك قولُه تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]، والمقاسمةُ ظاهرُها المشافهة. وقال بعضهم ـ وذكره عبد الرزاق[4] عن وَهْبِ بنِ مُنَبِّه ـ: دخل الجنةَ في فم الحيّة، وهي ذاتُ أربعٍ كالبُخْتِيَّة[5]، من أحسن دابةٍ خلقَها الله تعالى، بعد أن عرضَ نفسَه على كثيرٍ من الحيوان، فلم يُدْخِلْه إلا الحيّةُ، فلما دخلَتْ[6] به الجنةَ خرجَ من جَوْفها إبليسُ، فأخذَ من الشجرة التي نهى الله آدمَ وزوجَه عنها؛ فجاء بها إلى حوّاءَ، فقال: انظري إلى هذه الشجرة، ما أطيبَ ريحَها، وأطيبَ طعمَها، وأحسنَ لونَها! فلم يزل يُغْوِيها حتى أَخَذَتْها حوّاءُ، فأكلَتْها، ثم أغْوَى آدمَ، وقالت له حوّاء: كُلْ؛ فإني قد أكلتُ، فلم يضرَّني[7]، فأكلَ منها، فبدَتْ لهما سوآتُهما،

---

(١) في (ظ): فإنما جاز.

(٢) سُخْنَةُ العين ضدُّ قُرَّتِها.

(٣) أخرجه الطبري ١/٥٦٣.

(٤) في تفسيره ٢/٢٢٦، والخبر من الإسرائيليات.

(٥) في (د): كالنجيبة.

(٦) في (ظ): فلما أدخلته.

(٧) في (د): تضرني.

وحصلا في حكم الذنب، فدخل آدمُ في جوف الشجرة، فناداه ربُّه: أين أنت؟ فقال: أنا هذا يا ربّ، قال: ألا تخرجُ؟ قال: أستحيي[١] منك يا ربّ، قال: اهبِطْ إلى الأرض التي خُلقت منها. ولُعنت الحيّةُ، ورُدَّت قوائمُها في جوفها، وجُعلت العداوةُ بينها وبين بني آدم، ولذلك أُمِرنا بقتلها، على ما يأتي بيانُه. وقيل لحوّاء: كما أدْمَيْتِ الشجرةَ فكذلك يصيبُكِ الدّمُ كلَّ شهرٍ، وتحملين وتضعين كُرْهاً تُشرِفين به على الموت مراراً[٢]! زاد الطبريُّ[٣] والنقاش: وتكوني سَفِيهةً وقد كنتِ حَلِيمةً.

وقالت طائفة: إنَّ إبليسَ لم يدخل الجنةَ إلى آدم بعد ما أُخرج منها، وإنَّما أغوى بشيطانه وسلطانه ووسواسه[٤] التي أعطاه الله تعالى؛ كما قال ﷺ: «إنَّ الشيطانَ يجري من ابن آدم مَجْرَى الدَّم»[٥]. والله أعلم.

وسيأتي في الأعراف[٦] أنه لمَّا أكلَ بقيَ عُرْياناً، وطلبَ ما يَستَتِرُ به، فتباعَدَتْ عنه الأشجارُ وبَكَّتُوه بالمعصية، فرحمته شجرةُ[٧] التّين، فأخَذَ من ورقه[٨] فاستتر به، فبُليَ بالعُرْيِ دونَ الشجر[٩]! والله أعلم.

وقيل: إنَّ الحكمةَ في إخراج آدمَ من الجنة عِمارةُ الدنيا[١٠].

---

(١) في (م) أستحي (بياء واحدة) وكلاهما صحيح.

(٢) أخرجه الطبري ١/ ٥٦١-٥٦٢، والخبر من الإسرائيليات التالفة. قال الشيخ محمد أبو شهبة رحمه الله في الإسرائيليات في كتب التفسير ص١٨٠: وسوسة إبليس لآدم لا تتوقف على دخوله في بطن الحية، إذ الوسوسة لا تحتاج إلى قرب ولا مشافهة، وقد يوسوس إليه وهو على بعد أميال منه، والحية خلقها الله يوم خلقها على هذا، ولم تكن لها قوائم كالبختي، ولا شيء من هذا.

(٣) تفسير الطبري ١/ ٥٦٥-٥٦٦، ولكن هذه الزيادة في حديث ابن زيد، وليست في حديث ابن وهب، وينظر المحرر الوجيز ١/ ١٢٨.

(٤) في (د) و(ظ): ووساوسه.

(٥) سلف تخريجه ص ٤٤٩.

(٦) عند تفسير الآية (٢٢).

(٧) في (ز): فرحمه شجر.

(٨) في (ظ): ورقها.

(٩) الخبر من الإسرائيليات، ولا يلتفت إليه.

(١٠) في (د) و (ظ): الأرض.

الثالثة: يُذكر أنَّ الحيةَ كانت خادمَ آدمَ عليه السلام في الجنة، فخانته بأن مكَّنت عدوَّ الله من نفسها، وأظهرتِ العداوةَ له هناك، فلمَّا أُهبِطوا تأكَّدت العداوةُ، وجُعِل رزقُها الترابَ، وقيل لها: أنتِ عدوُّ بني آدم، وهم أعداؤك، وحيثُ لَقِيَك منهم أحدٌ شَدَخ رأسَك[١].

روى ابنُ عمر عن رسول الله ﷺ قال: «خمسٌ يقتلُهنَّ المُحْرِمُ»[٢] فذكَر الحيةَ فيهن[٣].

ورُوِيَ أنَّ إبليسَ قال لها: أدخِلِيني الجنةَ وأنتِ في ذِمَّتي. فكان ابنُ عباس يقول: أخْفِرُوا ذِمَّةَ إبليس[٤].

ورَوَتْ ساكنةُ بنتُ الجَعْد، عن سَرَّىٰ[٥] بنت نَبْهان الغَنَويَّة قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «اقتُلوا الحيَّاتِ؛ صَغِيرَها وكَبِيرَها، وأسودَها وأبيضَها، فإنَّ مَنْ قتلَها كانَتْ له فِداءً من النار، ومَنْ قَتَلَتْه كان شهيداً»[٦].

قال علماؤنا: وإنَّما كانت له فداءً من النار لمشاركتها إبليسَ وإعانته على ضررِ آدمَ وولدِه، فلذلك كان مَن قتلَ حيَّةً فكأنَّما قتلَ كافراً[٧]. وقد قال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعُ كافرٌ وقاتلهُ في النار أبداً». أخرجه مسلم[٨] وغيره.

---

(١) الخبر من الإسرائيليات، وذكره الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص٥٠.

(٢) في (د) و(ظ): خمس يقتلن في الحرم.

(٣) ذكره بهذا اللفظ الحكيم الترمذي في نوادره ص٥٠، وأخرجه أحمد (٤٥٤٣)، والبخاري (١٨٢٨)، ومسلم (١١٩٩)، بنحوه، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٥٦٧٨)، ومسلم (١١٩٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) ذكره الحكيم الترمذي ص٥٠، وأخرجه الطبري في التفسير ١/ ٥٦٦-٥٦٧، وفي إسناده ضعف.

(٥) في (م): سرّاء، قال الحافظ ابن حجر في التقريب: بفتح أولها وتشديد الراء، مع المد، وقيل القصر، صحابية لها حديث.

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير ٢٤/ (٧٧٩)، (وتحرف فيه ساكنة إلى شاكية) وفيه أحمد بن الحارث الغساني، قال أبو حاتم كما في الجرح والتعديل ٢/ ٤٧: متروك الحديث.

(٧) إشارة إلى حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «من قتل حية فكأنما قتلَ رجلاً مشركاً قد حلَّ دمه» روي مرفوعاً وموقوفاً، ووقفُه أصح كما في المسند (٣٧٤٦).

(٨) برقم (١٨٩١): (١٣٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أيضاً أحمد في المسند (٩١٦٣).

الرابعة: روى ابنُ جُريج، عن عَمرِو بنِ دِينار، عن أبي عُبيدة، عن[١] عبد الله بن مسعود قال: كنَّا مع النبيِّ ﷺ بمنًى، فمرَّت حيّة، فقال رسول الله ﷺ: «اقتلوها». فسبقتنا إلى جُحْر، فدخلَتْه، فقال رسول الله ﷺ: «هاتوا بسَعَفةٍ ونارٍ، فأضرِموها عليه ناراً»[٢].

قال علماؤنا: وهذا الحديثُ يخصُّ نهيَه عليه السلام عن المُثْلة[٣]، وعن أن يُعذِّبَ أحدٌ بعذابِ اللهِ تعالى، قالوا: فلم يُبقِ لهذا العدوّ حُرْمةً حيث فاتَه، حتى أوصلَ إليه الهلاكَ من حيث قَدِر.

فإن قيل: قد رُويَ عن إبراهيمَ النَّخَعيّ أنه كَرِهَ أن تُحرَّقَ[٤] العقربُ بالنار، وقال: هو مُثْلَة[٥]. قيل له: يحتملُ أن يكون لم يبلُغه هذا الأثرُ عن النبيِّ ﷺ، وعَمِلَ على الأثر الذي جاء أنْ: «لا تُعذِّبوا بعذابِ الله»[٦]، فكان على هذا سبيلُ العملِ عنده.

فإن قيل: فقد روى مسلمٌ[٧] عن عبد الله بن مسعود قال: كنا مع النبيِّ ﷺ في غار وقد أُنزلت عليه: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾، فنحن نأخُذُها مِنْ فِيهِ رَطْبةً، إذْ خرجَتْ علينا حيّة، فقال: «اقتُلُوها»، فابتدرناها لِنقتلَها، فسبَقَتْنا، فقال رسولُ الله ﷺ: «وقاها الله شَرَّكم كما وقاكم شَرَّها». فلم يُضرِمْ ناراً، ولا احتالَ في قتلها؟

قيل له: يحتملُ أن يكون لم يجد ناراً فتركَها، أو لم يكن الجُحْر بهيئةٍ يُنتفع بالنار هناك مع ضررِ الدخان، وعدم وصوله إلى الحيوان. والله أعلم.

وقوله: «وقاها الله شرّكم» أي: قَتْلَكم إيّاها، «كما وقاكم شَرَّها» أي: لَسْعَها.

---

(١) في النسخ: بن، وهو خطأ، فالحديث من رواية أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، كما في مصادر الحديث.

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٤٩)، والنسائي في المجتبى ٥/ ٢٠٩، وينظر نوادر الأصول ص٥٠ .

(٣) ينظر في مسند أحمد حديث ابن عمر (٤٦٢٢)، وحديث المغيرة بن شعبة (١٨١٥٢).

(٤) في (د) و(ظ): يحرق.

(٥) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٩٤١٦).

(٦) أخرجه البخاري (٣٠١٧) من حديث ابن عباس.

(٧) في صحيحه (٢٢٣٤)، وأخرجه البخاري كذلك (١٨٣٠)، وهو في المسند (٤٠٦٣).

الخامسة: الأمْرُ بقتل الحَيَّات من باب الإرشاد إلى دَفْعِ المَضَرَّة المَخُوفة من الحيَّات، فما كان منها متحقَّقُ الضَّرر، وجَبَتْ المبادرةُ إلى قتله، لقوله: «اقتلوا الحيَّات، واقتلوا ذا الطُّفْيَتَيْن والأبْتَر، فإنَّهما يَخْطِفانِ البصرَ، ويُسقِطانِ الحَبَلَ»[(١)]. فخصَّهما بالذِّكر مع أنَّهما دخلا في العموم، ونبَّه على [أن] ذلك بسببِ عِظَم[(٢)] ضررهما. وما لم يتحقَّق ضررُه؛ فما كان منها في غير البيوت قُتل أيضاً، لظاهر الأمر العام، ولأنَّ نوعَ الحيات غالبُه الضَّرر، فيُستصحَبُ ذلك فيه، ولأنه كلَّه مُرَوِّعٌ بصورته، وبما في النفوس من النُّفرة عنه، ولذلك قال ﷺ: «إنَّ الله يحبُّ الشجاعةَ ولو على قتل حيَّة»[(٣)]. فشَجَّعَ على قتلها. وقال فيما خرَّجه أبو داود[(٤)] من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً: «اقتلوا الحيَّاتِ [كلَّهن]، فمن خافَ ثأرهنَّ فليس منّي». والله أعلم[(٥)].

السادسة: ما كان من الحيّات في البيوت؛ فلا يُقتَلُ حتى يُؤذَنَ ثلاثةَ أيام، لقوله عليه السلام: «إنَّ بالمدينة جِنّاً قد أسلموا، فإذا رأيتُم منهم شيئاً؛ فآذِنُوه ثلاثةَ أيام»[(٦)]. وقد حملَ بعضُ العلماءِ هذا الحديثَ على المدينة وحدَها لإسلام الجنِّ بها؛ قالوا: ولا نعلمُ هل أسلم مِن جنِّ غيرِ المدينة أحدٌ أمْ[(٧)] لا. قاله ابنُ نافع. وقال مالك: يُنهى[(٨)]

(١) أخرجه البخاري (٣٢٩٧)، ومسلم (٢٢٣٣) (١٢٨) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وذو الطفيتين: ضرب من الحيات في ظهره خطان أبيضان، وعنهما عبر بالطفيتين، وأصل الطفية: خُوص المُقْل، فشبه الخط الذي على ظهر هذه الحية به. المفهم ٥/ ٥٣٢ ـ ٥٣٣.

(٢) في (د) و(ظ): عظيم.

(٣) أخرجه مطولاً ابن عدي في الكامل ٤/ ١٥٠٢، وذكره السيوطي في اللآلئ المصنوعة ٢/ ٧٧ نقلاً عن ابن عدي، ثم قال: لا يصح، عبد الله بن محمد يروي الموضوعات عن الأثبات. وذكر الفتني في تذكرة الموضوعات ص٦٤ أن الصغاني حكم عليه بالوضع.

(٤) في سننه (٥٢٤٩)، وما بين حاصرتين منه.

(٥) هذه الفقرة والتي تليها نقلهما المؤلف من شيخه أبي العباس القرطبي من المفهم ٥/ ٥٣٠ ـ ٥٣١. وما بين حاصرتين منه.

(٦) سيرد تخريجه في الصفحة ٤٧٠.

(٧) في (م): أو.

(٨) في (م): نهى.

عن قتل جِنَّان[١] البيوت في جميع البلاد. وهو الصحيحُ؛ لأنَّ الله عز وجل قال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] الآية. وفي «صحيح» مسلم[٢] عن عبد الله بن مسعود، عن النبيّ ﷺ قال: «أتاني داعي الجنّ، فذهبتُ معهم، وقرأتُ[٣] عليهم القرآنَ»، وفيه: وسألوه الزادَ، وكانوا من جِنّ الجزيرة. الحديث. وسيأتي بكماله في سورة الجن إن شاء الله تعالى.

وإذا ثبتَ هذا؛ فلا يُقتل شيءٌ منها حتى يُحرَّجَ عليه ويُنذَر، على ما يأتي بيانهُ إن شاء الله تعالى.

السابعة: روى الأئمةُ عن أبي السَّائب مَوْلى هشام بنِ زُهْرة، أنه دخلَ على أبي سعيد الخُدْريّ في بيته، قال: فوجدتُه يصلِّي، فجلستُ أنتظر[٤] حتى يقضيَ صلاتَه، فسمعتُ تحريكاً في عَراجِينَ ناحيةَ البيت، فالتفتُّ، فإذا حيَّةٌ، فوثبتُ لأقتلَها، فأشارَ إليَّ أنِ اجْلِسْ، فجلستُ، فلما انصرفَ أشارَ إلى بيتٍ في الدار، فقال: أترى هذا البيتَ؟ فقلتُ: نعم. فقال: كانَ فيه فَتًى منَّا حديثُ عهدٍ بِعُرْس. قال: فخرَجْنا مع رسول الله ﷺ إلى الخَنْدَق، فكان ذلك الفتى يستأذنُ رسولَ الله ﷺ بأنصاف النهار، فيرجعُ إلى أهله، فاستأذنَه يوماً، فقال [له] رسول الله ﷺ: «خُذْ عليكَ سلاحكَ، فإنِّي أخْشَى عليك قُرَيْظَة». فأخذَ الرجلُ سلاحَه ثم رَجَع، فإذا امرأتهُ بين البابين قائمةٌ، فأهْوَى إليها الرُّمح[٥] لِيطعُنَها به، وأصابته غَيرةٌ، فقالت له: اكفُفْ عليك رمحَك، وادخل البيتَ حتى تنظرَ ما الذي أخرجني. فدخل، فإذا بحيَّةٍ عظيمة منطوية على الفراش، فأهْوَى إليها بالرمح، فانتظَمَها به، ثم خرج، فرَكَزه[٦] في الدار، فاضطربت عليه، فما يُدْرَى[٧] أيُّهما كان أسرعَ موتاً، الحيّةُ أمِ الفتى! قال: فجئنا إلى

---

(١) في (د) و(ز): حيات، وفي (ظ): الحيات، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في المفهم ٥/ ٥٣١ والجِنَّان بتشديد النون، جمع الجان، حيّة بيضاء صغيرة دقيقة. المفهم ٥/ ٥٣٤.

(٢) (٤٥٠): (١٥٠).

(٣) في (م): فقرأت.

(٤) في (م): أنتظره.

(٥) في (م): بالرمح.

(٦) في (ظ): فأركزها.

(٧) في (د) و(ظ): ندري.

رسول الله ﷺ، فذكرنا ذلك له، وقلنا: ادعُ الله يُحييه [لنا]، فقال: «استغفروا لأخيكم». ثم قال: «إنَ بالمدينة جِنّاً قد أسلموا، فإذا رأيتُم منهم شيئاً، فآذِنوه ثلاثةَ أيام، فإنْ بدا لكم بعد ذلك فاقتلوه؛ فإنَّما هو شيطانٌ»[١].

وفي طريق أُخرى: فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ لهذه البيوت عَوامِرَ، فإذا رأيتُم شيئاً منها؛ فَحرِّجُوا عليها ثلاثاً، فإنْ ذهبَ؛ وإلا فاقتلوه، فإنه كافرٌ». وقال لهم: «اذهبوا فادفِنُوا صاحبَكم»[٢].

قال علماؤنا رحمة الله عليهم[٣]: لا يُفهمُ من هذا الحديث أنَّ هذا الجانَّ الذي قتلَه الفتى[٤] كان مسلماً، وأن الجنَّ قتلته به قِصاصاً؛ لأنه لو سُلِّم أنَّ القِصاصَ مشروعٌ بيننا وبين الجنِّ، لكان[٥] إنما يكون في العمد المحض، وهذا الفتى لم يَقْصِدْ ولم يَتَعمَّدْ قتلَ نفسٍ مسلمة، إذْ لم يكن عنده علمٌ من ذلك، وإنَّما قصدَ إلى قتل ما سُوِّغَ قتلُ نوعهِ شرعاً، فهذا قتلُ خطأ، ولا قِصاصَ فيه، فالأولى أن يقال: إن كفارَ الجنِّ ـ أو فَسَقَتَهم ـ قتلُوا الفتى بصاحبهم عَدْواً[٦] وانتقاماً.

وقد قتلتْ سعدَ بنَ عُبادة رضي الله عنه؛ وذلك أنه وُجِدَ ميتاً في مغتسله وقد اخضرَّ جسدُه، ولم يشعروا بموته حتى سمعوا قائلاً يقول ولا يرونَ[٧] أحداً:

قد[٨] قتلنا سيِّدَ الخَزْ ... رَجِ سَعْدَ بنَ عُبادَه

ورَمَيْناه بسهمَيـ ... ـن فلم نُخْطِ فؤادَه[٩]

وإنما قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ بالمدينةِ جِنّاً قد أسلمُوا» لِيُبيِّنَ طريقاً يحصُلُ به التحرُّزُ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٣٦): (١٣٩)، وما بين حاصرتين منه.

(٢) هو عند مسلم أيضاً (٢٢٣٦): (١٤٠).

(٣) قاله أبو العباس القرطبي، في المفهم ٥/٥٣٨.

(٤) في (م): قتله هذا الفتى.

(٥) في النسخ والمفهم: لكن، والمثبت من (م).

(٦) في (ظ): عدواناً.

(٧) في (د): ولم يَرَو.

(٨) في (ظ): نحن.

(٩) الطبقات الكبرى لابن سعد ٧/ ٣٩٠ـ٣٩١، والاستيعاب (بهامش الإصابة) ٤/ ١٥٩.

من قتلِ المسلم منهم، ويتسلَّط به على قتل الكافر منهم.

رُوِيَ من وجوهٍ أنَّ عائشةَ زوجَ النبيّ ﷺ قتلَتْ جانّاً[١]، فأُرِيتْ في المنام أن قائلاً يقول لها: لقد قتلتِ مسلماً، فقالت: لو كان مسلماً لم يدخُلْ على أزواج النبيِّ ﷺ. قال: ما دخلَ عليك إلا وعليكِ ثيابُك. فأصبحت فأمرَتْ باثني عشرَ ألفِ درهم؛ فَجُعِلت في سبيل الله. وفي رواية: ما دخلَ عليكِ إلا وأنت مستترةٌ. فتصدَّقَتْ[٢] وأعتقَتْ رِقاباً[٣].

وقال الربيع بنُ بدر[٤]: الجانُّ من الحيَّات التي نَهى رسول الله ﷺ عن قتلها هي التي تمشي ولا تلتوي. وعن علقمةَ نحوه[٥].

الثامنة: في صفة الإنذار؛ قال مالك: أحَبُّ إليَّ أنْ يُنْذَرُوا ثلاثةَ أيام. وقال[٦] عيسى بنُ دينار: وإن ظهرَ في اليوم مراراً، ولا يُقتَصَر على إنذاره ثلاثَ مِرارٍ في يوم واحد حتى يكونَ في ثلاثة أيام.

وقيل: يكفي ثلاثُ مِرارٍ، لقوله عليه السلام: «فَلْيُؤْذِنْهُ ثلاثاً»، وقوله: «حَرِّجُوا عليه ثلاثاً»، ولأنَّ ثلاثاً للعدد المؤنث، فظهرَ أن المرادَ ثلاثُ مرَّات.

وقولُ مالكٍ أولى؛ لقولهِ عليه السلام: «ثلاثةَ أيام». وهو نَصٌّ صحيحٌ مقيِّد لتلك المُطْلَقات، ويُحمل «ثلاثاً» على إرادة ليالي الأيام الثلاث، فغلَّبَ الليلةَ على عادة العرب في باب التاريخ، فإنها تُغلِّبُ فيها التأنيثَ.

قال مالك: ويكفي في الإنذار أن يقول: أُحَرِّجُ عليكَ بالله واليوم الآخر ألا تَبْدُوا لنا، ولا تُؤْذُونا[٧].

---

(١) في (ز): جناناً، وفي (ظ): جناً.

(٢) في النسخ: فصدقت، والمثبت من (م).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ١١/ ٧٧، والحارث في مسنده (٤١٩) (زوائد)، وأبو نعيم في الحلية ٢/ ٤٩، وابن عبد البر في التمهيد ١١/ ١١٨.

(٤) لعله ابن عمرو، أبو العلاء البصري، الملقب عُليلة، مات سنة (١٧٨هـ)، من رجال التهذيب، ضعيف.

(٥) ذكر القولين الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ص٥١.

(٦) في (ز) و(م): وقاله، والمثبت من (د) و(ظ) والمفهم.

(٧) المفهم ٥/ ٥٣٨.

وذكر ثابتٌ البُنانيُّ عن عبد الرحمن بنِ أبي ليلى أنه ذُكِرَ عنده حياتُ البيوت، فقال: إذا رأيتُم منها شيئاً في مساكنكم فقولوا: أَنشُدكم بالعهد الذي أخذَ عليكم نوحٌ عليه السلام، وأَنشُدكم بالعهد الذي أخذَ عليكم سليمانُ عليه السلام، فإذا رأيتُم منهنَّ شيئاً بعدُ، فاقتُلُوه[١].

قلتُ: وهذا يدلُّ بظاهره أنه يكفي في الإذْن مرَّةٌ واحدةٌ، والحديثُ يردُّه. والله أعلم.

وقد حكى ابنُ حبيب عن النبيِّ ﷺ أنَّه يقول: «أَنْشُدُكنَّ بالعهد الذي أخذَ عليكنَّ سليمانُ عليه السلام ألاَّ تُؤذِينَنا، وألاَّ تَظْهَرْنَ علينا»[٢].

التاسعة: روى جُبيرُ بن[٣] نُفير، عن أبي ثعلبةَ الخُشَنيِ ـ واسمه جُرْثُوم ـ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «الجِنُّ على ثلاثة أثلاث: فثلُثٌ لهم أجنحةٌ يطيرونَ في الهواء، وثُلُثٌ حياتٌ وكلابٌ، وثلثٌ يَحُلُّون[٤] ويَظعَنون»[٥].

وروى أبو الدَّرداء ـ واسمه عُوَيْمر ـ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «خُلِقَ الجنُّ ثلاثةَ أثلاث: فثُلُثٌ كلابٌ وحيَّاتٌ وخَشاشُ الأرض، وثُلُثٌ رِيحٌ هَفَّافةٌ، وثُلُثٌ كبني آدمَ، لهم الثوابُ وعليهم العقابُ، وخَلَقَ اللهُ الإنسَ ثلاثةَ أثلاثٍ: فثُلُثٌ لهم قلوبٌ لا يفقهون بها، وأعينٌ لا يُبْصِرُون بها، وآذانٌ لا يسمعونَ بها، إنْ هم إلا كالأنعام، بل هم أضلّ سبيلاً، وثلثٌ أجسادُهم كأجسادِ بني آدمَ، وقلوبُهم قلوبُ[٦] الشياطين، وثلثٌ في ظلِّ الله يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّه»[٧].

العاشرة: ما كانَ من الحيوان أصلُه الإذايةُ، فإنه يُقتلُ ابتداءً؛ لأجل إذايته من غير

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٦/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

(٢) المفهم ٥/ ٥٣٨ ـ ٥٣٩.

(٣) في (م): عن، وهو خطأ.

(٤) في (د): يرتحلون.

(٥) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٦/ ٢٦٥، والاستذكار ٢٧/ ٢٦٠ ـ ٢٦١، وقال عقبه: وهذا إسناد جيد، رواته أئمة ثقات.

(٦) في (ز) و(ظ): كقلوب.

(٧) أخرجه ابن عبد البر في التمهيد ١٦/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧، وذكر ابن عبد البر أن حديث أبي ثعلبة (السالف قبله) خير منه إسناداً.

خِلاف، كالحيّة، والعقرب، والفأر[١]، والوَزَغ، وشِبْهِه. وقد قال رسولُ الله ﷺ: «خمسٌ فواسقُ يُقتلن في الحِلِّ والحَرَم»[٢]. وذكر الحديث.

فالحيّةُ أبدَتْ جوهرَها الخبيثَ حيث خانت آدمَ بأن أدخلت إبليسَ[٣] الجنةَ بين فَكَّيها، ولو كانت تُبرِزُه ما تركها[٤] رضوانُ تدخلُ به، وقال لها إبليسُ: أنتِ في ذِمَّتي[٥]، فأمرَ رسول الله ﷺ بقتلها، وقال: «اقتُلُوها ولو كنتمُ في الصلاة»[٦] يعني: الحيةَ والعقربَ.

والوَزَغةُ نفخت على نارِ إبراهيم عليه السلام من بين سائر الدوابِّ فلُعِنت، وهذا من نوع ما يُرْوى[٧] في الحية[٨]. ورُوِيَ عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قتلَ وَزَغةً فكأنَّما قتل كافراً»[٩]. وفي «صحيح» مسلم[١٠]، عن أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ: «مَن قتل وَزَغةً في أوّل ضربةٍ، كُتبت له مئةُ حسنة، وفي الثانية دون ذلك، وفي الثالثة دون ذلك» وفي راويةٍ أنه قال: «في أوَّل ضربةٍ سبعين[١١] حسنةً».

والفأرةُ أبدَتْ جوهرَها بأن عمَدت إلى حبالِ سفينة نوحٍ عليه السلام، فقطعتها[١٢]. وروى عبد الرحمن بنُ أبي نُعْم[١٣]، عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال:

---

(١) في (ظ): والفأرة.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣١٤)، ومسلم (١١٩٨) (٦٧) من حديث عائشة.

(٣) في (د): دخلت بإبليس.

(٤) في النسخ: تركه، والمثبت من (م).

(٥) تفسير الطبري ١/ ٥٦٦، والخبر من الإسرائيليات، ولا يلتفت إليه.

(٦) أخرجه الحاكم ٤/ ٢٧٠، والبيهقي ٧/ ٢٧٢ من حديث ابن عباس.

(٧) في (د) و(ز): روي.

(٨) أخرج البخاري (٣٣٥٩)، ومسلم (٢٢٣٧) من حديث أم شريك أن النبي ﷺ أمرَ بقتل الأوزاغ. وقال: «كان ينفخ على إبراهيم عليه السلام».

(٩) سلف ص ٤٦٦ بلفظ: من قتل حية، وأن وقفه أصح.

(١٠) (٢٢٤٠): (١٤٧).

(١١) في (م): «سبعون».

(١٢) تاريخ الطبري ١/ ١٨١، ونوادر الأصول ص١٣١، والخبر من الإسرائيليات.

(١٣) في النسخ: نعيم، وهو خطأ.

«يَقتل المُحْرِمُ الحيّةَ، والعقربَ، والحِدأةَ والسَّبُعَ العادِيَ، والكلبَ العقورَ، والفُوَيْسِقَة». واستيقظَ رسولُ الله ﷺ وقد أخَذَتْ فَتِيلةً لِتَحْرِقَ البيتَ، فأمرَ رسولُ الله ﷺ بقتلها[١].

والغرابُ أبدى جَوْهرَه حيثُ بَعَثَه نبيُّ الله نوحٌ عليه السلام في السفينة ليأتيَه بخبر الأرض، فتركَ أمرَه، وأقبلَ على جِيفةٍ[٢].

هذا كلُّه في معنى الحيّة، فلذلك ذكرناه. وسيأتي لهذا الباب مزيدُ بيانٍ في التعليل في المائدة وغيرِها إن شاء الله تعالى[٣].

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ فيه سبعُ[٤] مسائل:

الأولى: قولُه تعالى: ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟﴾ حُذفت الألفُ من «اهبِطُوا» في اللفظ؛ لأنها ألفُ وصل، وحُذفت الألفُ من «قلنا» في اللفظ لسكونها وسكون الهاء بعدَها.

وروى محمد بنُ مصَفًّى[٥] عن أبي حَيْوَةَ ضمَّ الباء في «اهبطوا»[٦]، وهي لغةٌ يُقَوِّيها[٧] أنه غيرُ متعدٍّ، والأكثرُ في غير المتعدِّي أن يأتيَ على يَفْعُل.

والخطابُ لآدمَ وحواءَ والحيةِ والشيطان في قول ابن عباس[٨]، وقال الحسن: آدمُ وحواءُ والوسوسة[٩]، وقال مجاهدٌ والحسنُ أيضاً: بنو آدمَ وبنو إبليس[١٠].

---

(١) أخرجه أحمد (١١٧٥٥)، وأبو داود (١٨٤٨)، والترمذي (٨٣٨)، وابن ماجه (٣٠٨٩)، وفي الباب عن ابن عمر أخرجه أحمد (٤٤٦١)، والبخاري (١٨٢٧)، ومسلم (١١٩٩)، وعن جابر أخرجه البخاري (٣٣١٦)، وعن عائشة رضي الله عنها أخرجه أحمد (٢٤٠٥٢)، والبخاري (١٨٢٩)، ومسلم (١١٩٨).

(٢) تاريخ الطبري ١/ ١٨١، ونوادر الأصول ص١٣٢، والخبر من الإسرائيليات.

(٣) في تفسير الآية (٩٥) من سورة المائدة.

(٤) في (ظ): تسع.

(٥) أبو عبد الله القرشي، الحافظ، عالم أهل حمص، العبد الصالح، مات سنة (٢٤٦هـ). السير ١٢/ ٩٤.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ١٢٩. وذكر القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٦ لقوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا﴾، الآية (٦١)، وليس لهذه الآية، وزاد نسبتها للحسن.

(٧) في (د): يقرأ بها.

(٨) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٥٧٣، ونقله ابن عطية في المحرر الوجيز ١/ ١٢٩ عن السدي.

(٩) المحرر الوجيز ١/ ١٢٩.

(١٠) قول مجاهد أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٥٧٣، وقول الحسن ذكره الماوردي في النكت والعيون ١/ ١٠٨.

والهبوطُ: النزول من فوق إلى أسفل، فأُهبِطَ آدمُ بسَرَنْدِيبَ في الهند بجبل يقال له: «نَوْذ»[١]، ومعه ريحُ الجنة، فعَلِقَ بشجرها وأوديتها، فامتلأ ما هنالك طِيباً، فمن ثَمَّ يُؤتى بالطِّيب من ريح آدمَ عليه السلام. وكان السحابُ يمسحُ رأسَه فأصلع، فأورث ولدَه الصَّلَع[٢]!

وفي البخاريِّ، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قال: «خلَقَ اللهُ آدمَ وطولُه ستُّون ذراعاً» الحديث. وأخرجه مسلم وسيأتي[٣]. وأُهبطت حواء بجُدَّة، وإبليسُ بالأُبُلّة، والحيّة بِبَيْسان، وقيل: بِسَجِستان، وسجستان أكثرُ بلاد الله حياتٍ، ولولا العِرْبَدُّ الذي يأكلُها ويُفني كثيراً منها، لأُخليت سجستانُ من أجل الحيات. ذكره أبو الحسن المسعوديُّ[٤].

الثانية: قولُه تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ «بعضكم» مبتدأ، «عدوّ» خبرُه، والجملةُ في موضع نصبٍ على الحال، والتقديرُ: وهذه حالُكم. وحُذفت الواو من: وبعضُكم؛ لأنَّ في الكلام عائداً، كما يقال: رأيتُك السماءُ تمطر عليك.

والعدوّ: خلافُ الصَّدِيق، وهو مِنْ: «عدا»: إذا ظَلَم، وذئب عَدَوان: يَعْدُو على الناس، والعُدْوان: الظُّلم الصُّراح. وقيل: هو مأخوذٌ من المجاوزَة؛ من قولك: لا يَعْدُوك هذا الأمرُ؛ أي: لا يتجاوزك، وعدَاه: إذا جاوزه، فسُمِّي عدوّاً لمجاوزة الحدِّ في مكروهِ صاحبِه؛ ومنه العَدْوُ بالقَدَم لمجاوزة المَشْي[٥]، والمعنيان متقاربان، فإنَّ من ظلَم فقد تجاوز[٦].

---

(١) في النسخ الخطية: بود، وفي (م): بوذ. وهي بفتح النون وسكون الواو وبالذال المعجمة. كما قيدها ياقوت في معجم البلدان ٥/ ٣١٠.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ٣٥ مطولاً. وفي إسناده الكلبي، وهو متهم بالكذب.

(٣) صحيح البخاري (٣٣٢٦)، وصحيح مسلم (٢٨٤١). وهو في مسند أحمد (٨١٧١)، وسيرد في تفسير الآية (٨٦) من سورة النساء، والآية (٧) من سورة الفجر.

(٤) مروج الذهب ١/ ٦٠. والعِرْبَدُّ: نوع من الحيات. الحيوان للجاحظ ٦/ ٢١، ٣٣، ٤٧٣. وأبو الحسن المسعودي: هو علي بن الحسين، البغدادي، كان معتزلياً، توفي سنة (٣٤٥هـ). السير ١٥/ ٥٦٩.

(٥) في (م) و(د) و(ز): «الشيء»، والمثبت من (ظ).

(٦) مجمل اللغة: (عدا).

قلت: وقد حملَ بعضُ العلماء قولَه تعالى: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ على الإنسان نفسِه، وفيه بُعْدٌ، وإن كان صحيحاً معنًى، يدلُّ عليه قولُه عليه السلام: «إنَّ العبدَ إذا أصبَحَ تقول جوارحُهُ للسانه: اتَّقِ اللهَ فينا، فإنك إن[1] استقمتَ استقمنا، وإنِ اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنا»[2].

فإن قيل: كيف قال: «عدوّ»، ولم يقل: أعداء؟ ففيه جوابان:

أحدهما: أن «بَعْضاً» و«كُلاًّ» يُخبَر عنهما بالواحد على اللفظ وعلى المعنى، وذلك في القرآن، قال اللهُ تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥] على اللفظ، وقال تعالى: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧] على المعنى.

والجواب الآخر: أنّ عدوّاً يُفرَد في موضع الجمع، قال الله عز وجل: ﴿مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠] بمعنى أعداء، وقال تعالى ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ﴾ [المنافقون: ٤]. وقال ابنُ فارس[3]: العدوّ اسمٌ جامعٌ للواحد والاثنين والثلاثة والتأنيث، وقد يُجمَع.

الثالثة: لم يكن إخراجُ اللهِ تعالى آدمَ من الجنة وإهباطُه منها عقوبةً له؛ لأنه أهبطَه بعدَ أن تابَ عليه وقَبِلَ توبتَه، وإنما أهبطَه إما تأديباً، وإما تغليظاً للمِحْنة، والصحيحُ في إهباطه وسُكْناه في الأرض ما قد ظهرَ منَ الحكمة الأزليّة في ذلك، وهي نشرُ نَسله فيها لِيُكلِّفَهم ويَمتحِنَهم، ويرتِّبَ على ذلك ثوابَهم وعقابَهم الأُخْرَوِيَّ، إذ الجنةُ والنار ليستا[4] بدار تكليف، فكانت تلك الأكلةُ سببَ إهباطه من الجنة، ولله أن يفعلَ ما يشاء، وقد قال: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. وهذه مَنْقَبةٌ عظيمةٌ، وفضيلةٌ كريمة شريفة، وقد تقدَّمت الإشارةُ إليها مع أنه خُلِقَ من الأرض[5]. وإنَّما قلنا: إنَّما أهبطَه بعد أن تابَ عليه لقوله ثانيةً: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟﴾ وسيأتي.

---

(١) في (م): إذا.

(٢) أخرجه أحمد (١١٩٠٨)، والترمذي (٢٤٠٧) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) مجمل اللغة: (عدو).

(٤) في النسخ: ليست، والمثبت من (م).

(٥) ص ٤١٧.

الرابعة: قولُه تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ ابتداءٌ وخبر، أي: موضع استقرار. قاله أبو العالية وابنُ زيد. وقال السُّدِّيّ: «مُسْتَقَرٌّ» يعني القبور[١].

قلت: وقولُ الله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [المؤمن: ٦٤] يحتملُ المعنيين. والله أعلم.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَمَتَٰعٌ﴾ المتاع: ما يُستمتع به من أكلٍ ولُبْسٍ، وحياة وحديث، وأُنْس، وغير ذلك، ومنه سُمِّيت مُتعة النكاح، لأنها يُتَمَتَّع[٢] بها. وأنشد سليمان بنُ عبد الملك[٣] حين وقف على قبر ابنه أيوب إثْرَ دفنهِ:

وقفتُ على قبرٍ غريبٍ بقفرةٍ متاعٌ قليلٌ من حبيبٍ مفارقِ[٤]

السادسة: قولُه تعالى: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ إختلف المتأوّلون في الحين على أقوال: فقالت فرقةٌ: إلى الموت. وهذا قولُ من يقول: المستقَرُّ هو المقام في الدنيا. وقيل: إلى قيام الساعة. وهذا قولُ من يقول: المستقَرُّ هو القبر[٥]. وقال الربيع: «إلى حين»: إلى أجل[٦].

والحين: الوقت البعيد، فحينئذ: تبعيدٌ من قولك: الآن. قال خُوَيلد[٧]:

كابي الرَّمادِ عظيمُ القِدْرِ جَفْنَتُهُ حِينَ الشتاءِ كحوض المُنْهِلِ اللَّقِفِ[٨]

---

(١) أخرج هذه الأقوال الطبري في تفسيره ١/ ٥٧٥-٥٧٦.

(٢) في (د): تمتع، وفي (ز): تنتفع، وفي (ظ): تتنفع، والمثبت من (م).

(٣) ابن مروان بن الحكم، أبو أيوب، الخليفة الأموي، بُويع بعد أخيه الوليد سنة (٩٦هـ)، كان ديّناً فصيحاً عادلاً، واستَخْلَفَ بعده عمر بن عبد العزيز، مات سنة (٩٩هـ). السير ٥/ ١١١.

(٤) البيان والتبيين ٤/ ٥٩، والكامل للمبرد ٣/ ١٤١٨. وفي البيان والتبيين: «وقوف» بدل: «وقفت»، وفيهما: «مقيم» بدل: «غريب».

(٥) في (م): القبور.

(٦) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٥٧٨.

(٧) هو خويلد بن مرة، أبو خراش الهذلي.

(٨) البيت في الصحاح (لقف) و(حين)، وفي ديوان الهذليين ٢/ ١٥٦، والاشتقاق لابن دريد ص٢٠٤، والرواية فيهما: «عند الشتاء».

لَقِفَ الحوضُ لَقَفاً، أي: تهوَّرَ من أسفله واتَّسعَ، يقال: فلان كابي الرَّماد، أي: عظيم الرماد ينهال[١].

وربَّما أدخلوا عليه التاء. قال أبو وَجْزَة:

العاطفون تَحِينَ ما مِن عاطفٍ والمُطْعِمونَ زمانَ أيْنَ المُطْعِمُ[٢]

والحِينُ أيضاً: المدّة، ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ [الدهر: ١]. والحِينُ: الساعة، قال الله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ﴾ [الزمر: ٥٨]. قال ابن عَرَفة[٣]: الحِينُ: القطعةُ من الدهر، كالساعةِ فما فوقَها. وقولِه: ﴿فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤]، أي: حتى تَفْنَى آجالُهم. وقوله تعالى: ﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ [إبراهيم: ٢٥]. أي: كلَّ سنة، وقيل: بل كلَّ ستةِ أشهر، وقيل: بل غُدْوةً وعَشِيّاً.

قال الأزهريّ[٤]: الحينُ: اسمٌ كالوقت، يصلُحُ لجميع الأزمان كلِّها، طالَتْ أو[٥] قَصُرَتْ. والمعنى أنه يُنتفَعُ بها كلَّ[٦] وقتٍ، ولا ينقطعُ نفعُها البَتَّةَ. قال: والحِينُ يومُ القيامة.

والحينُ: الغُدْوة والعَشِيّة، قال الله تعالى: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم: ١٧]. ويقال: عاملتُه مُحايَنةً، من الحِين. وأحينتُ بالمكان: إذا

---

(١) قوله: يقال: فلان كابي الرماد. . . من (ز)، وهو في الصحاح (كبى). وقوله: المُنْهِل، يعني الذي قد أنهلَ إبلَه، أي سقاها أول سقية. قاله ابن دريد.

(٢) البيت في الصحاح: (حين)، والإنصاف ١/ ١٠٨، والشطر الأول منه في مجالس ثعلب ١/ ٣٧٤. وهو من قصيدة مدح بها أبو وجزة السعدي آل الزبير بن العوام، لكنه مركب من مصراعي بيتين. الخزانة ٤/ ١٧٥ ـ ١٧٩. وأبو وجزة: هو يزيد بن عبيد، السعدي، المدني، الشاعر، ثقة، مات سنة (١٣٠هـ). تقريب التهذيب.

(٣) هو إبراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان، أبو عبد الله، الحافظ النحْوي، الأخباري، المشهور بنفطويه، توفي سنة (٣٢٣هـ). السير ١٥/ ٧٥.

(٤) تهذيب اللغة ٥/ ٢٥٥. والأزهري إنما ينقل عن الزجاج، وهو في معاني القرآن له ٣/ ١٦١، وتفسير الحين بيوم القيامة نقله الأزهري عن الليث.

(٥) في (د) و(ظ): أم.

(٦) في (م): في كل.

أقمتَ به حِيناً. وحان حينُ كذا، أي: قرُب. قالت بُثَيْنة[١]:

وإنَّ سُلُوِّي عن جميلٍ لَساعةٌ من الدهر ما حانَتْ ولا حانَ حِينُها

السابعة: لمَّا اختلفَ أهلُ اللسان في الحِين اختلف فيه أيضاً علماؤنا وغيرُهم: فقال الفَرَّاء: الحينُ حِينان: حِينٌ لا يُوقَفُ على حدِّه، والحِينُ الذي ذكَره[٢] الله جل ثناؤه: ﴿تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ ستةُ أشهر.

قال ابن العربي[٣]: الحِينُ المجهول لا يتعلَّق به حُكم، والحين المعلومُ هو الذي تتعلّق به الأحكام، ويرتبط به التكليف، وأكثرُ المعلوم سنةٌ، ومالك يرى في الأحكام والأيمان أعمَّ الأسماء والأزمنة، والشافعيُّ يرى الأقلَّ، وأبو حنيفة توسَّطَ، فقال: ستةُ أشهر. ولا معنى لقوله؛ لأنَّ المُقَدَّرات عنده لا تثبتُ قياساً[٤]، وليس فيه نصٌّ عن صاحب الشريعة[٥]، وإنما المعوَّل على المعنى بعد معرفة مقتضى اللفظ لغةً، فمن نَذَر أن يُصَلِّيَ حِيناً، فيُحمَلُ على ركعة عند الشافعيِّ؛ لأنه أقلُّ النافلة، قياساً على ركعة الوتر، وقال مالك وأصحابه: أقلُّ النافلة ركعتان، فيتقدَّر الزمانُ بتقدير[٦] الفعل.

وذكر ابن خُوَيْزمَنْداد في «أحكامه»: أنَّ مَنْ حلفَ ألّا يُكلِّمَ فلاناً حِيناً، أو لا يفعلَ كذا حيناً، أنَّ الحينَ سَنَةٌ. قال: واتَّفقوا في الأحكام أنَّ مَنْ حلفَ ألّا يفعلَ كذا حيناً، أو لا يُكلِّمَ فلاناً حيناً، أنَّ الزيادةَ على سَنَةٍ لم تدخلْ في يمينه.

قلت: هذا الاتفاقُ إنَّما هو في المذهب. قال مالك رحمه الله: مَنْ حَلَفَ ألا يفعلَ شيئاً إلى حينٍ أو زمانٍ أو دَهْر، فذلك كلُّه سَنَةٌ. وقال عنه ابنُ وهب: إنه شكَّ في الدهر أن يكون سَنَةً. وحكى ابنُ المنذر عن يعقوبَ وابن الحسن[٧]: أنَّ الدهر

---

(١) هي بثينة بنت حبأ بن ثعلبة، صاحبة جميل، وقصتهما معروفة، الأغاني ٨/ ٩٢. والبيت قالته ترثي جميلاً، وهو في الأضداد ص٢٤٤، والصحاح: (حين)، والأغاني ٨/ ١٥٤.

(٢) في (د) و(م): ذكر.

(٣) أحكام القرآن ٣/ ١١٠٨.

(٤) في (ظ): فيه قياساً.

(٥) في (د): الشرع.

(٦) في (م): بقدر.

(٧) يعني أبا يوسف ومحمد بن الحسن صاحبي أبي حنيفة رحمهم الله.

ستة أشهر[١]. وعن ابن عباس وأصحابِ الرأي وعكرمةَ وسعيدِ بن جُبير وعامرٍ الشَّعْبيِّ وعَبِيدةَ في قوله تعالى: ﴿تُؤْتِيَ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ أنه ستةُ أشهر[٢]. وقال الأوزاعيُّ وأبو عُبَيد: الحينُ ستةُ أشهر. وليس عند الشافعيِّ في الحين وقتٌ معلوم، ولا للحينِ غايةٌ، قد يكون الحينُ عنده مدّةَ الدنيا. وقال: لا نُحَنِّثُهُ أبداً، والوَرَع أن يقضيَه قبل انقضاء يوم. وقال أبو ثَور وغيره: الحين والزمان على ما تحتمله اللغةُ، يقال: قد جئتُ من حين، ولعلَّه لم يجئ من نصفِ يوم[٣].

قال الكِيَا الطبريُّ الشافعيُّ[٤]: وبالجملة، الحينُ له مصارف، ولم ير الشافعيُّ تعيينَ محمَلٍ من هذه المحامل، لأنه مجملٌ[٥] لم يوضع في اللغة لمعنًى معيَّن.

وقال بعضُ العلماء[٦]: في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ فائدةُ بِشارةٍ لآدَمَ عليه السلام[٧]، ليعلم أنه غيرُ باقٍ فيها، ومنتقلٌ إلى الجنة التي وُعِدَ بالرجوع إليها، وهي لغير آدم دالةٌ على المعاد فحسب، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ فيه ثمان مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾ تَلَقّى؛ قيل: معناه: فَهِمَ وفَطِنَ. وقيل: قَبِلَ وأخَذَ، وكان عليه السلام يتلقَّى الوَحْيَ، أي: يستقبلُه ويأخذُه ويتلقَّفُه[٨]. تقول: خرجنا نتلقَّى الحجيجَ، أي: نستقبلُهم.

(١) مختصر اختلاف العلماء للجصاص ٣/ ٢٦٣.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٦٤٦-٦٤٨، والمحلى ٨/ ٥٨. وعَبيدة: هو ابن عمرو السلماني.

(٣) مختصر اختلاف العلماء للجصاص ٣/ ٢٦٣، والمحلى ٨/ ٥٨-٥٩، والمغني لابن قدامة ١٣/ ٥٧٢.

(٤) علي بن محمد بن علي، أبو الحسن الهراسي، شيخ الشافعية، مدرس النظامية إلى أن مات سنة (٥٠٤هـ). السير ١٩/ ٣٥٠. وكلامه في أحكام القرآن ٢/ ٢٣٨.

(٥) في (د): محل، وفي (ز) و(ظ): محمل.

(٦) المحرر الوجيز ١/ ١٣٠.

(٧) في (د) و(م): إلى آدم، ولفظة «بشارة» ليست في (ز).

(٨) في (د) و(ظ): ويتلقنه.

وقيل: معنى تلقَّى: تلقَّن. وهذا في المعنى صحيحٌ، ولكن لا يجوز أن يكون التلقِّي مِن التلقُّن في الأصل؛ لأنَّ أحدَ الحرفين إنما يُقلب ياءً إذا تجانسا، مثل: تظنَّى مِن تظنَّن، وتقصَّى من تقصَّص، ومثله: تسرَّيتُ من: تسرَّرتُ، وأمليتُ من: أمللت، وشِبْهُ ذلك، ولهذا لا يقال: تَقَبَّى مِن تقبَّل، ولا تلقَّى مِن تلقَّن، فاعلم.

وحَكَى مكيٌّ أنه أُلهِمَها فانتفعَ بها[١]. وقال الحسن: قبولُها: تعلُّمه لها، وعملُه بها.

الثانية: واختلفَ أهلُ التأويل في الكلمات: فقال ابنُ عباس والحسنُ وسعيد بنُ جُبَير والضَّحَّاك ومجاهد: هي قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣][٢].

وعن مجاهد أيضاً: سبحانكَ اللَّهُمَّ، لا إلهَ إلاّ أنت ربّي، ظلمتُ نفسي فاغفر لي، إنك أنتَ الغفور الرحيم[٣].

وقالت طائفةٌ: رأى مكتوباً على ساق العرش: محمد رسول الله، فتشفَّع بذلك[٤]، فهي الكلمات. وقالت طائفة: المرادُ بالكلمات: البكاءُ والحياء والدعاء. وقيل: الندمُ والاستغفار والحزن.

قال ابن عطية[٥]: وهذا يقتضي أنَّ آدم عليه السلام لم يقل شيئاً إلا الاستغفار المعهود. وسُئل بعضُ السلف عما ينبغي أن يقولَه المذنب، فقال: يقول ما قاله أبواه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ الآية. وقال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦]. وقال يونس: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ١٣٠.

(٢) قول ابن عباس أخرجه الثعلبي وابن المنذر فيما ذكر السيوطي في الدر المنثور ١/ ٥٩، وقول سعيد بن جبير أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ١/ ١٣٦، وقول مجاهد أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٥٨٤-٥٨٦، وابن أبي حاتم ١/ ١٣٦، وقول الضحاك أخرجه عبد بن حميد فيما ذكر السيوطي في الدر المنثور ١/ ٥٩.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ١/ ٥٨٥، وابن أبي حاتم ١/ ١٣٧.

(٤) أخرجه الحاكم ٢/ ٦١٥ من حديث عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ، وصححه، وتعقَّبه الذهبي بقوله: بل موضوع.

(٥) المحرر الوجيز ١/ ١٣١.

وعن ابن عباس ووَهْبِ بنِ مُنَبِّه أن الكلمات: سبحانك اللَّهُمَّ وبحمدك، لا إلهَ إلا أنتَ، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي، فاغفر لي، إنك[1] خَيْرُ الغافرين، سبحانك اللّهُمّ وبحمدك، لا إلهَ إلا أنتَ، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي، فتُبْ عليَّ، إنك أنت التوَّاب الرحيم[2].

وقال محمد بنُ كعب[3]: هي قوله: لا إلهَ إلا أنت، سبحانك وبحمدك، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي، فتُبْ عليَّ، إنك أنت التوَّاب الرحيم، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي، فارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، لا إلهَ إلا أنت، سبحانك وبحمدك، عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي، فارحمني إنك أنت أرحمُ[4] الراحمين[5].

وقيل: الكلماتُ: قولُه حين عَطَسَ: الحمدُ لله.

والكلمات: جمعُ كلمةٍ، والكلمةُ تقع على القليل والكثير. وقد تقدَّم[6].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ أي: قَبِلَ توبتَه، أو: وفَّقه للتوبة، وكان ذلك في يوم عاشوراء في يوم جمعة، على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى.

وتاب العبدُ: رجع إلى طاعة ربِّه، وعبدٌ توَّاب: كثيرُ[7] الرجوع إلى الطاعة، وأصلُ التوبة: الرجوع، يقال: تابَ وثابَ، وآبَ وأنابَ: رجع.

الرابعة: إن قيل: لِمَ قال: «عليه»، ولم يقل: عليهما، وحوّاءُ مشاركةٌ له في الذنب بإجماع، وقد قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ و﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]؟

فالجواب: أن آدمَ عليه السلام لمَّا خُوطبَ في أوّل القصة بقوله: «اسْكُنْ» خصَّه

---

(١) في (ظ): يا خير.

(٢) قول ابن عباس أخرجه ابن عساكر بنحوه فيما ذكر السيوطي في الدر المنثور ١/ ٦٠.

(٣) أبو حمزة، وقيل: أبو عبد الله القُرظي، كان كثير الحديث، عالماً بالقرآن، مات سنة (١٠٨هـ)، وقيل غير ذلك. السير ٥/ ٦٦.

(٤) في (د) و(م): إنك أرحم.

(٥) ذكره مختصراً البغوي في تفسيره ١/ ٦٥.

(٦) ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٧) في (ظ): كثير التوبة كثير الرجوع.

بالذِّكْر في التلقِّي، فلذلك كَمُلت القصةُ بذِكْره وحدَه، وأيضاً؛ فلأنَّ المرأة حُرْمةٌ ومستورةٌ، فأراد الله السَّتْر لها، ولذلك لم يذكرها في المعصية في قوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[1] [طه: ١٢٢]، وأيضاً لمَّا كانت المرأةُ تابعةً للرجل في غالب الأمر لم تُذكر[2]، كما لم يُذكر فَتَى موسى مع موسى في قوله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ﴾ [الكهف: ٧٥].

وقيل: إنه دلَّ بذِكْر التوبة عليه أنه تاب عليها[3]، إذ أمرُهما سواءٌ. قاله الحسنُ.

وقيل: إنه مثلُ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الجمعة: ١١] أي: التجارة؛ لأنها كانت مقصودَ القوم، فأعاد الضميرَ عليها، ولم يقل: إليهما، والمعنى متقاربٌ. وقال الشاعر:

رمَاني بأمرٍ كنتُ منه ووالدي بَرِيئاً ومِن فَوْقِ الطَّوِيِّ رَماني[4]

وفي التنزيل: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٤]، فحُذِف إيجازاً واختصاراً.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وصفَ نفسَه سبحانه وتعالى بأنه التوّاب، وتكرَّر في القرآن معرَّفاً ومنكَّراً، واسماً وفعلاً، وقد يُطلق على العبد أيضاً توَّابٌ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

قال ابن العربي: ولعلمائنا في وصف الربِّ سبحانه بأنه توّابٌ ثلاثةُ أقوال:

أحدُها: أنه يجوزُ في حقِّ الربِّ سبحانه وتعالى، فيُدْعَى به، كما في الكتاب والسُّنّة، ولا يُتأوَّل.

وقال آخرون: هو وصفٌ حقيقيٌّ لله سبحانه وتعالى، وتوبةُ الله على العبد رجوعُه من حال المعصية إلى حال الطاعة.

---

(١) المحرر الوجيز ١/ ١٣١.

(٢) الكشاف للزمخشري ١/ ٢٧٤.

(٣) في (د) و(ظ): عليهما.

(٤) البيت لعمرو بن أحمر الباهلي، وهو من شواهد سيبويه ١/ ٧٥، وهو في شرح الحماسة للمرزوقي ٢/ ٩٣٦، والرواية فيهما: ومن أجل الطويِّ، وذكره ابن منظور في اللسان (جول) وفيه: ومن جُولِ الطَّوِيِّ. والجُول ـ بالضم ـ جدار البئر. وانظر شرح شواهد الكتاب للشنتمري ص٩٨. قوله: الطوي: هي البئر المطوية بالحجارة.

وقال آخرون: توبةُ الله على العبدِ قَبُولُه[١] توبتَه، وذلك يحتملُ أن يرجِعَ إلى قوله سبحانه وتعالى: قبلتُ توبتَك، وأن يرجعَ إلى خلقه الإنابةَ والرجوعَ في قلب المسيء وإجراءَ الطاعات على جوارحِه الظاهرة.

السادسة: لا يجوزُ أن يُقال في حقِّ الله تعالى: تائبٌ، اسمُ فاعل من تاب يتوب؛ لأنه ليس لنا أن نُطلق عليه من الأسماء والصفات إلا ما أطلَقَه هو على نفسه، أو نبيُّه عليه السلام، أو جماعةُ المسلمين، وإن كان في اللغة محتمِلاً جائزاً. هذا هو الصحيحُ في هذا الباب، على ما بيَّناه في «الكتاب الأسنى في شرح أسماء الله الحُسنى». قال الله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧]. وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥]. وإنما قيل لله عز وجل: تَوَّابٌ، لمبالغة الفعل، وكثرةِ قَبولِهِ توبةَ عبادِه، لكثرة من يتوبُ إليه.

السابعة: إعلم أنه ليس لأحدٍ قُدرةٌ على خلق التّوبة؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى هو المنفردُ بخلق الأعمال، خلافاً للمعتزلة ومَن قال بقولهم، وكذلك[٢] ليس لأحدٍ أن يقبَلَ توبةَ مَنْ أسرف على نفسه، ولا أن يعفوَ عنه.

قال علماؤنا: وقد كفرت اليهودُ والنصارى بهذا الأصل العظيم في الدِّين، اتَّخذوا أحبارَهم ورُهبانَهم أرباباً من دون الله جلَّ وعزَّ، وجعلوا لمن أذنبَ أن يأتيَ الحَبْرَ أو الراهبَ، فيُعطيَه شيئاً، ويحطَّ عنه ذنوبَه، افتراءً على الله، قد ضَلُّوا وما كانوا مهتدين.

الثامنة: قرأ ابنُ كثير: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمَ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٌ﴾، والباقون برفع «آدم» ونصب «كلمات»[٣]، والقراءتان ترجعان[٤] إلى معنًى، لأنَّ آدم إذا تلقَّى الكلماتِ، فقد تلقَّتْه.

---

(١) في (د): قبول.

(٢) في (ظ): وكذا.

(٣) السبعة في القراءات لابن مجاهد ص١٥٣، والحجة في القراءات للفارسي ٢/ ٢٣ وما بعدها.

(٤) في (د) و(ز): ترجع، وفي (ظ): يرجع، والمثبت من (م).

وقيل: لمَّا كانت الكلماتُ هي المُنقِذةَ لآدم بتوفيق الله تعالى له لقَبوله إياها ودعائه بها، كانت الكلماتُ فاعلةً، وكأنَّ الأصلَ على هذه القراءة: «فتلقَّتْ آدمَ مِنْ ربِّه كلماتٌ»، لكن لمَّا بَعُدَ ما بين المؤنث وفعلِه، حَسُن حذفُ علامة التأنيث، وهذا أصلٌ يجري في كلِّ القرآن والكلام؛ إذا جاء فعلُ المؤنَّث بغير علامة، ومنه قولُهم: حضر القاضيَ اليومَ امرأةٌ. وقيل: إنَّ الكلمات لمَّا لم يكن تأنيثُه[١] حقيقيّاً، حُمِل على معنى الكَلِم، فذُكِّر.

وقرأ الأعمش: «آدمْ مِّن ربِّه» مدغَماً[٢].

وقرأ أبو نَوْفل بنُ أبي عَقْرَب: «أنَّه» بفتح الهمزة[٣]، على معنى: لأنَّه، وكسر الباقون على الاستئناف.

وأدغم الهاءَ في الهاء أبو عَمرو وعيسى وطلحةُ؛ فيما حكى أبو حاتم عنهم[٤]. وقيل: لا يجوز؛ لأنَّ بينهما واواً في اللفظ، لا في الخطِّ. قال النحاس[٥]: أجاز سيبويه[٦] أن تُحذَفَ هذه الواو، وأنشد:

لـه زَجَـلٌ كـأنَّـهُ صَـوْتُ حـادٍ إذا طَـلَـبَ الـوَسِـيـقـةَ أو زَمِـيـرُ[٧]

فعلى هذا يجوزُ الإدغامُ.

---

(١) في (د): لما لم تكن تأنيثاً، وفي (ظ): تأنيثه قوياً حقيقياً.

(٢) وهو مذهب أبي عمرو بن العلاء من السبعة في رواية السوسي. التذكرة لابن غلبون ١/ ١٢٣، والنشر لابن الجزري ١/ ٢٨٢ و٢/ ٢١١.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ١٣١. ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٤ إلى العباس بن الفضل.

(٤) نقله عنه أبو جعفر النحاس في إعراب القرآن ١/ ٢١٥.

(٥) إعراب القرآن ١/ ٢١٥، وهي رواية السوسي.

(٦) الكتاب ١/ ٢٩ـ٣٠.

(٧) البيت للشَّمَّاخ بن ضرار الذُّبياني، وهو في ديوانه ص١٥٥، والرواية فيه: له زجلٌ تقولُ أَصَوْتُ حادٍ. وحينئذٍ فلا شاهد فيه.

والزَّجَل: صوتٌ فيه حنينٌ وترنّم، والوسيقة: أنثى الحمار؛ يصف حمار وحش هائجاً، فيقول: إذا طلب أنثاه صوَّتَ بها، فكأن صوتَه لما فيه من الحنين وحسن التطريب صوتُ حادٍ بإبل يتغنَّى فيُطرِبُها، أو صوتُ مزمار. شرح الشواهد للشنتمري ص٦٤.

و«هو» رفعٌ بالابتداء، «التوّاب» خبرُه، والجملةُ خبر «إنَّ»، ويجوز أن يكون «هو» توكيداً للهاء، ويجوز أن تكون فاصلةً، على ما تقدّم[١].

وقال سعيد بن جُبير: لما أُهبِطَ آدمُ إلى الأرض لم يكن فيها شيءٌ غير النَّسْرِ في البرِّ، والحوتِ في البحر، فكان النَّسْرُ يأوي إلى الحوت، فيبيتُ عنده، فلمَّا رأى النَّسْرُ آدمَ قال: يا حوتُ، لقد أُهبِطَ اليومَ إلى الأرض شيءٌ يمشي على رجليه، ويبطِشُ بيديه! فقال الحوتُ: لئن كنتَ صادقاً، مالي منه في البحر مَنْجى، ولا لك في البرِّ منه مَخْلَص[٢]!.

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟﴾: كرَّرَ الأمرَ على جهة التغليظ وتأكيده، كما تقول لرجل: قُمْ قُمْ، وقيل: كرَّر الأمرَ لمَّا علَّق بكلِّ أمرٍ منهما حُكماً غيرَ حُكم الآخر، فعلَّق بالأوّل العداوةَ، وبالثاني إتيانَ الهُدى.

وقيل: الهبوطُ الأوّلُ من الجنة إلى السماء، والثاني من السماء إلى الأرض[٣]. وعلى هذا يكون فيه دليلٌ على أنَّ الجنةَ في السماء السابعة، كما دلَّ عليه حديث الإسراء[٤]، على ما يأتي.

﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال.

---

(١) ص ٣١٠.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٤/ ٢٧٨. والخبر ـ على أنه مقطوع ـ من رواية محمد بن حميد الرازي، وهو ضعيف، عن يعقوب بن عبد الله القمي، عن جعفر بن أبي المغيرة القمي، عن سعيد بن جبير. وجعفر هذا ليس بالقوي في سعيد بن جبير. تهذيب التهذيب.

(٣) المحرر الوجيز ١/ ١٣١.

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤) (٢٦٤) من حديث مالك بن صعصعة، وهو في المسند (١٧٨٣٣)، وسيورده المصنف من حديث أنس في تفسير الآية الأولى من سورة الإسراء.
وأخرج أبو نعيم في الحلية ٧/ ١٠٣ عن عبد الله بن مسعود قال: الجنة في السماء السابعة العليا، ثم قرأ: ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾.

وقال وَهْبُ بنُ مُنَبِّه: لمَّا هبَطَ[١] آدمُ عليه السلام إلى الأرض قال إبليسُ للسِّباع: إنَّ هذا عدوٌّ لكم فأهْلِكوه. فاجتمَعوا وولَّوْا أمرَهم إلى الكلب، وقالوا: أنتَ أشجعُنا، وجعلوه رئيساً؛ فلمَّا رأى ذلك آدمُ عليه السلام تحيَّر في ذلك، فجاءه جبريلُ عليه السلام، وقال له: إمسحْ يدَك على رأس الكلب، ففعل، فلمَّا رأت السِّباعُ أنَّ الكلبَ أَلِفَ آدمَ تفرَّقوا، واستأمَنَه الكلبُ فأمِنَه آدمُ، فبقيَ معه ومع أولاده[٢].

وقال الترمذيُّ الحكيمُ نحوَ هذا[٣]، وأنَّ آدم عليه السلام لمَّا أُهبط إلى الأرض جاء إبليسُ إلى السِّباع، فأشلاهم على آدم[٤] ليؤذوه، وكان أشدَّهم عليه الكلبُ، فأُمِيتَ فؤادُه، فرُوِيَ في الخبر أنَّ جبريل عليه السلام أمرَه أن يضع يدَه على رأسه، فوضعَها، فاطمأنَّ إليه وأَلِفَه، فصار ممَّن يحرسُه ويحرسُ ولدَه ويألفُهم، وبموت فؤادِه يفزَعُ من الآدميِّين، فلو رُمِيَ بمَدَرٍ[٥] لَوَلَّى[٦] هارباً، ثم يعودُ آلِفاً لهم، ففيه شعبةٌ من إبليس، وفيه شعبةٌ من مَسحة آدم عليه السلام، فهو بشعبة إبليس ينبحُ ويَهِرُّ ويعدو على الآدميِّ، وبمَسحة آدم ماتَ فؤادُه، حتى ذلَّ وانقادَ وأَلِفَ به وبولده يحرسُهم، ولَهَتُه على كلِّ أحواله من موت فؤاده، ولذلك شَبَّه الله سبحانه وتعالى العلماءَ السوءَ بالكلب ـ على ما يأتي بيانه في الأعراف[٧] إن شاء الله تعالى ـ ونزلت عليه تلك العصا التي جعلَها الله آيةً لموسى[٨]، فكان يطرُدُ بها السِّباعَ عن نفسه.

---

(١) في (د) و(ظ): أهبط.

(٢) ذكر نحو هذا الخبر سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان ١/ ٢٠٥، وهو والخبر الذي بعده من الإسرائيليات التالفة.

(٣) لم نقف عليه في نوادر الأصول.

(٤) قوله: أشلاهم على آدم، أي: أغراهم به. قال ابن منظور: أجاز الكسائي: أشليت الكلب على الصيد بمعنى أغريتُه. اللسان: (شلا).

(٥) المَدَر: الطين اللزج المتماسك، القطعة منه: مَدَرَة. المعجم الوسيط.

(٦) في (م): ولَّى.

(٧) في تفسير الآية (١٧٦) منها.

(٨) ليس في ذلك خبر صحيح.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى﴾ اختلف في معنى قوله: «هُدًى» : فقيل: كتاب الله. قاله السُّدِّيُّ[١]. وقيل: التوفيق للهداية. وقالت فرقة: الهُدَى: الرسل، وهي إلى آدمَ من الملائكة، وإلى بنيه من البشر، كما جاء في حديث أبي ذَرّ، وخرَّجه الآجُرِّيُّ[٢] .وفي قوله: «مِنِّي» إشارةٌ إلى أنَّ أفعال العباد خَلْقٌ لله تعالى، خلافاً للقَدَرية وغيرهم، كما تقدَّم.

وقرأ الجَحْدَريُّ: «هُدَيَّ»[٣]، وهي[٤] لغةُ هُذَيْل، يقولون: هُدَيَّ وعَصَيَّ ومَحْيَيَّ[٥]. وأنشد النحويون لأبي ذُؤَيْب يرثي بنيه:

سَبَقُوا هَوَيَّ وأعنَقُوا لِهَواهُمُ فتُخُرِّمُوا ولكلِّ جَنْبٍ مَصْرَعُ[٦]

قال النحاس[٧]: وعلَّةُ هذه اللغة عند الخليل وسيبويه[٨] أنَّ سبيلَ ياء الإضافة أن يُكسرَ ما قبلَها، فلما لم يَجُز أن تتحرَّك الألف، أُبدلت ياءً وأُدغمت.

و«ما» في قوله: «إمّا» زائدةٌ على «إنْ» التي للشرط، وجوابُ الشرط الفاء مع الشرط الثاني في قوله: «فَمَنْ تَبِعَ»، و«مَنْ» في موضع رفعٍ بالابتداء، و«تَبِعَ» في موضع جزم بالشرط، «فَلاَ خَوْفٌ» جوابُه. قال سيبويه: الشرطُ الثاني وجوابُه هما جوابُ الأوّل. وقال الكسائي: «فلا خَوْفٌ عليهِم» جوابُ الشرطين جميعاً.

قوله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الخوف: هو الذُّعْر، ولا يكون إلا في المستقبل. وخاوَفَني فلان فَخِفْتُه، أي: كنتُ أشدَّ خوفاً منه. والتخوُّف:

(١) زاد المسير ١/ ٧١.

(٢) لم نقف عليه عنده، ولعل المصنف يريد الحديث السالف ص ٣٩٥.

(٣) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص ٥ لابن أبي إسحاق. وأوردها ابن جني في المحتسب ١/ ٧٦، وزاد نسبتها لأبي الطفيل، وعبد الله بن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر الثقفي.

(٤) في (د): على، وفي (م): وهو.

(٥) يعني في : هُداي وعَصاي ومَحياي.

(٦) البيت في المفضليات ص٤٢١، وديوان الهذليين ص٢، والمحتسب لابن جني ١/ ٧٦، وأمالي ابن الشجري ١/ ٤٢٩، وشرح المفصل ٣/ ٣٣.

(٧) إعراب القرآن ١/ ٢١٦.

(٨) الكتاب ٣/ ٤١٤.

التنقُّص، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٧]. وقرأ الزُّهْرِيُّ والحسن وعيسى بنُ عمر[١] وابنُ أبي إسحاق ويعقوب: «فلا خوفَ» بفتح الفاء على التبرئة[٢]، والاختيارُ عند النحويين الرفعُ والتنوينُ على الابتداء؛ لأنَّ الثاني معرفةٌ، لا يكون فيه إلا الرفع، لأنَّ «لا» لا تعمل في معرفة، فاختاروا في الأوّل الرفعَ أيضاً ليكونَ الكلامُ من وجهٍ واحد. ويجوزُ أن تكون «لا» في قولك: فلا خوفٌ، بمعنى «ليس».

والحُزْن والحَزَن: ضدُّ السُّرور، ولا يكونُ إلا على ماضٍ، وحَزِنَ الرجلُ - بالكسر - فهو حَزِنٌ وحَزِينٌ، وأحْزَنَه غيرُه وحَزَنَه أيضاً، مثل: أسلَكَه وسلَكَه، ومحزونٌ بُنِيَ عليه. قال اليزيديُّ[٣]: حَزَنَه لغةُ قريش، وأحْزَنَه لغةُ تميم، وقد قُرِئَ بهما. واحْتَزَنَ وتحزَّنَ بمعنًى[٤].

والمعنى في الآية: فلا خَوْفٌ عليهم فيما بين أيديهم من الآخرة، ولا هم يحزنون على ما فاتَهم من الدنيا. وقيل: ليس فيه دليلٌ على نفي أهوالِ يومِ القيامة وخوفها على[٥] المطيعين؛ لما وصفَه الله تعالى ورسولُه من شدائد القيامة، إلا أنه يُخَفِّفُه عن[٦] المطيعين، وإذا صاروا إلى رحمته فكأنهم لم يخافوا. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: أشركوا، لقوله: ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾

(١) أبو عمر الثقفي، البصري، إمام النحو، كان صديقاً لأبي عمرو بن العلاء، وأخذ القراءة عرْضاً عن عبد الله بن أبي إسحاق وابن كثير المكي. السير ٧/ ٢٠٠.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١/ ٢١٦، والمحرر الوجيز ١/ ١٣٢. و«لا» التبرئة، يعني النافية للجنس. وقراءة يعقوب من العشرة. النشر ٢/ ٢١١.

(٣) في (ظ): الترمذي، وهو خطأ.

(٤) الصحاح (حزن).

(٥) في (ظ): عن.

(٦) في (د) و(ظ): على.

الصُّحبة: الاقترانُ بالشيء في حالةٍ ما، في زمانٍ ما، فإن كانت الملازمةُ والخُلْطة؛ فهي كمالُ الصُّحْبَة، وهكذا هي صحبةُ أهل النار لها[1]. وبهذا القول ينفكُّ الخلافُ في تسمية الصحابة رضي الله عنهم؛ إذْ مَرَاتِبُهم متباينةٌ، على ما نُبَيِّنُه في «براءة» إن شاء الله تعالى[2]، وباقي ألفاظ الآية تقدَّم معناها، والحمد لله.

تمَّ الجزء الأول من تفسير القرطبي ويليه الجزء الثاني، وأوَّلُه تفسيرُ قوله تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾﴾

(١) المحرر الوجيز ١/ ١٣٢.

(٢) في تفسير الآية (٤٠) منها.